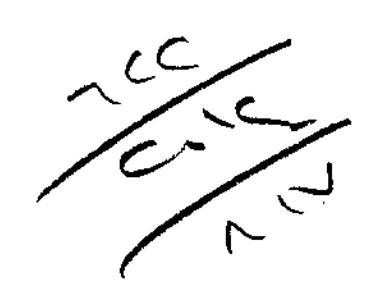
الجامعة الاردنية
كليـــة الآداب
قسم اللغة العربية وآدابهـا



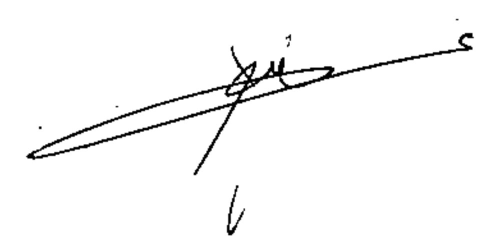
أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري

اعداد

فايز عبد النبي فلاح القيسي

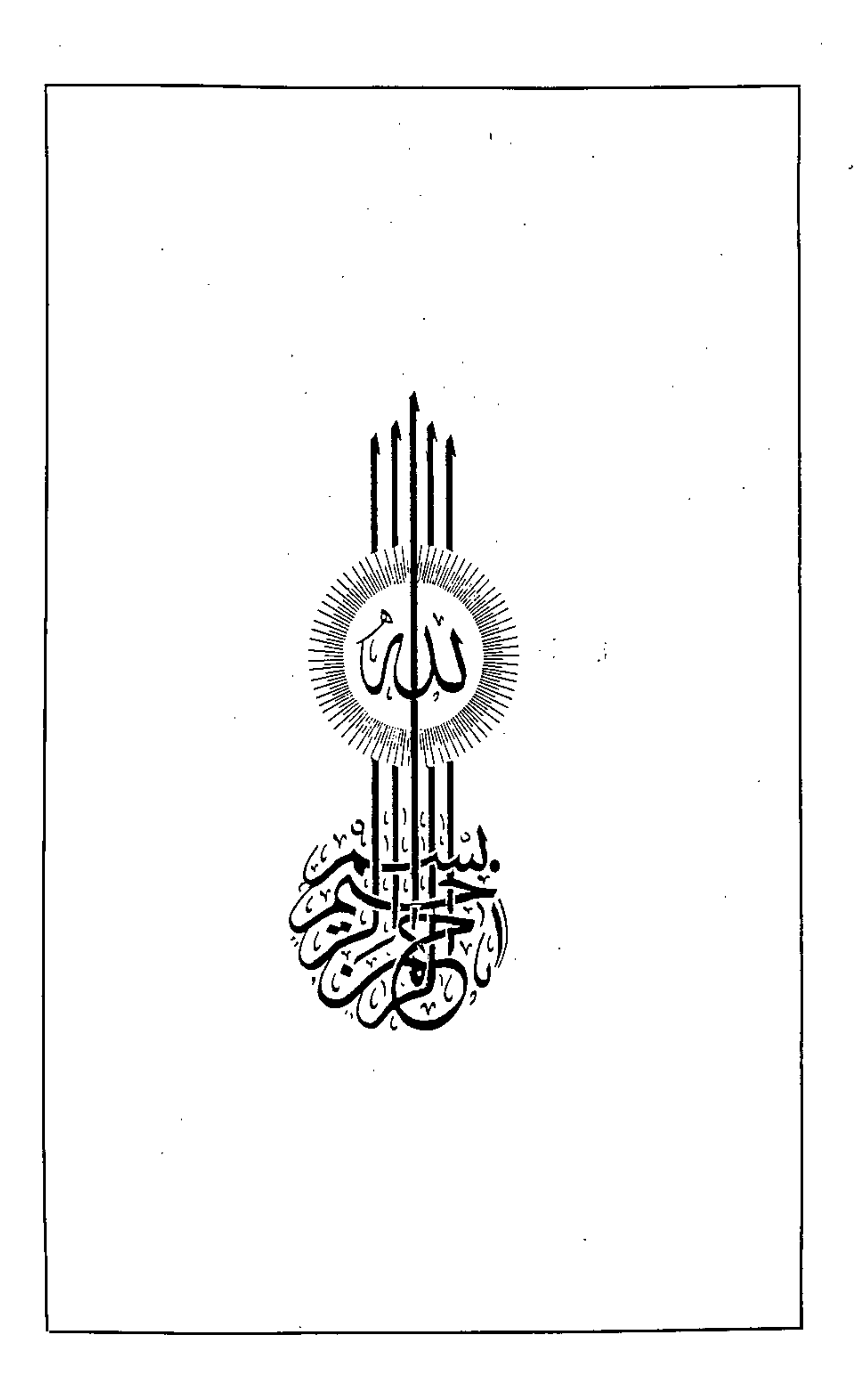
اشراف

الاستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة



قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الاداب في الجامعة الاردنية

١٩٨٦


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(... ربِّ أوزعني أنْ أشكُرَ نِعْمَتَكَ الّتي أنْعَمْتَ عَليَّ وَعَلى والديَّ وأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأدخِلني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

صدق الله العظيم

(سورة النمل - الاية ١٩)

شكــــــر وتقديـــــــر

في كل مرحلة من مراحل هذه الدراسة يجد الباحث نفسه مدينـــا بالفضل وواجب الشكر للاستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة الذي رعى هـــذه الدراسة منذ أن كانت فكرة حتى خرجت الى حيز الفعل ، ولبست ثـــوب الواقع ، ومنح صاحبها من وقته وعلمه وعطفه وحلمه ما عقل لســـان الباحث وقبض بنانه .

ولا ريب أن العرفان بالجميل يقتضي من الباحث أن يتوجـــــه بعظيم تقديره وجزيل شكره الى الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيـــت الذي لم يدخر ذرة من جهده ، وبذل كل ما في وسعه في سبيل انجـــاز هذا العمــــل .

كما يحب الباحث أن يسجل شكره العميق للسيد صالح احمد البوريني الذي بذل غاية جهده في طباعة هذه الدراسة واخراجها اخراجـــــا حسنــــا .

ولا يفوتـــه أن يسجل شكــره للاخوان خليل الحمادين ، ونوفـــان الحمـود ، وعلي القيسـي ، وزياد أبو الخيـل وعبدالحميد العبادي ومحمـــد يونس العبادي وغسان فطافطة الذين تحملوا معـهجزءا كبيرا من مشقـــة هـــذا العمــــل .

فلولا هؤلاء جميعـا لما استطاع جهده أن يخرج الى حيــــز الفعل ، أو أن يلبس ثوب الواقـــع .

المقدمـــــــــة

تعددت فنون النثر العربي وطرائقه في الأندلس ، حتى أصبح يضم كل فنون النثر التقليدية وطرائقها التي عرفها المشارقة ، من خطب ، ورسائل ، ومقامات ، ومناظرات ، الى جانب ما زاده الاندلسيون عليها مما أملته ظروف حياتهم وبيئتهم الخاصة . وهم في هذا وذاك قد أضفوا على نثرهم طابعا مميزا ، كان وليد أمزجتهم وثقافتهم وأوضاع مجتمعهم وطبيعة بلادهم .

وقد لاحظ الباحث أن الدارسين لم يولوا النثر الاندلسي العناية اللازمة ، وخاصة أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري ، اذ أنهم شغلوا أنفسهم بدراسة الشعر دون النثر .

ويعتقد الباحث أن هذه الرسائل تعتبر في الوقت ذاته مصدرا مهما لدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في الاندلس في القرن الخامس الهجري .

وقد حظي أدب الرسائل في الاندلس في هذا القرن بكتّاب معظمهم فرسان من فرسان السياسة والأدب ، أمثال ابن شهيد ، وابن برد الأصغر ، وابن حزم ، وابن طاهر وغيرهم .

ان ايمان الباحث بأن التراث الاندلسي تراث اسلامي مشترك يجب احياؤه وبعثه من جديد ، ليبنير لنا بعض الجوانب من تاريخنا الأدبي والفكري التي ما زالت بحاجة الى الدراسة والبحث ، قد دفعه لاختيار موضوع " أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري " . وان هناك لونا آخر من الرسائل شاع في هذا القرن ، وهو " الرسائل الشعرية ، وقد استبعدها الباحث من مجال بحثه ، لأنها ربما تكون أقرب الى الفنون الشعرية منها الى الرسالة الأدبية .

وقد ظهرت بعض الدراسات في العصر الحديث تناولت النثر الاندلسي بصورة عامة . وأهم هذه الدراسات : دراسة الدكتور حازم عبدالله خضر " النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين " ، فقد اهتم بدراسة عدد من ألوان الرسائل الدينية والاجتماعية والاخوانية والديوانية ، ولم يقم بدراسة منفصلة ومستقلة تعنى بأدب الرسائل واعلامه في القرن الخامس الهجري . ومنها دراسة الدكتور احسان عباس في كتابه

" تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين" ، فقد اهتم بدراسة ألوان من الرسائل الادبية ، ولم يتطرق الى الألوان والأنواع الاخرى من الرسائل ، ووقف الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه " الأدب الاندلسي : موضوعاته وفنونه " عند بعض الرسائل المشهورة في هذا القرن ، ولم يلتفت لغيرها . ومن هذه الدراسات أيضا دراسة الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه " الأدب العربي في الأندلس " التي ركز فيها على نماذج مشهورة من رسائل هذا القرن ، وبين تأثر أصحابها بأساليب المشارقة .

ولقد اهتم هؤلاء الدارسون بالكتاب المشهورين ، ولم يلتفتوا الى أولئك المقلين أو المغمورين ، وجاءت بعض دراساتهم تكرارا لبعضها الآخر .

وتتكون هذه الدراسة من تمهيد ، وأربعة فصول ، وخاتمة ، درس الباحث في التمهيد الاطار السياسي والاجتماعي والفكري في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، وبين أنه على الرغم مما شهده الاندلس في القرن الخامس الهجري من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل ، فقد ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس في هذا القرن ازدهارا عظيما ، ونهضت العلوم والآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الاندلس الاسلامي .
وفي ظل هذا الازدهار وجد الكتاب اهتماما كبيرا من قبل ملوك الطوائف ، وأمراء المرابطين وولاتهم في الاندلس .

وفي الفصل الاول حدد الباحث مفهوم أدب الرسائل ، فوقف عند مفهوم رسالة في الأدب ، الى جانب دراسة مرادفاته التي شاع استعمالها ، ووضح علاقتها بمفهوم لفظ رسالة . وخرج الباحث الى القول بأن أدب الرسائل لون من ألوان النثر الفني الجميل وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالا ، ولا يكاد يختلف مفهوم أدب الرسائل عند الاندلسيين عن مفهومه عند المشارقة ، فالأدب في عرفهم جميعا ينقسم الى أصلين أساسيين : منظوم ومنثور ، والمنثور فيه الخطب والرسائل ، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر .
وتحدث الباحث في الفصل الاول عن نشأة أدب الرسائل واصوله في الاندلس ، وبين أن أدب الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني الى الظهور في الاندلس ، فأهل الجزيرة كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم الى تلك البلاد .

وختم الباحث هذا الفصل بالحديث عن تطور أدب الرسائل في الاندلس من الناحيتين الموضوعية والفنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وبين ما كان لذلك من أثر مباشر في أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري وتطوره وتشعب موضوعاته .

أما الفصل الثاني فقد تحدث الباحث فيه عن مكانة أدب الرسائل وعوامل تطوره وازدهاره ، وبين أن أدب الرسائل قد تطور تطورا كبيرا وتشعبت موضوعاته وأغراضه تبعا لتشعب أمور الحياة في المجتمع الاندلسي في هذا القرن ، واقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه.

وقد صنف الباحث في هذا الفصل موضوعات الرسائل وأغراضها في مجموعات متجانسة بحسب مضامينها ، وتقارب أغراضها ، وجعل الباحث أولى هذه المجموعات التي درس نصوصها رسائل الاتجاه السياسي ، ثم تلتها دراسة رسائل الاتجاه الاجتماعي ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، والرسائل الدينية ، ورسائل المفاضلات والمفاخرات ، ثم رسائل النقد الادبي ، ورسائل الفكاهة ، والرسائل الديوانية ، وأخيرا الرسائل الاخوانية .

على أن هذه المجموعات لا تعني الحرفية في الدلالة على مضامين الرسائل ، اذ ان وشائج القربى بين هذه المضامين قوية جدا .

أما الفصل الثالث فقد تناول الباحث فيه الخصائص الفنية واللغوية لأدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، ووقف عند تأثر الكتاب الأندلسيين بالمشارقة ومحاكاتهم ، وبين المظاهر الفنية التي تميزت بها رسائلهم عن الرسائل المشرقية من حيث البناء الفني والالفاظ وزخرفتها ، والمعاني والتعبير عنها .

أما الفصل الرابع فقد عقده الباحث على دراسة ثلاثة من أشهر الكتاب المترسلين في الاندلس في القرن الخامس الهجري دراسة تحليلية ، وهم ابن الدباغ وابن عبد البر وابن طاهر ، فتحدث عن حياتهم ، وتتبع موضوعات رسائلهم وأغراضها ، وبين خصائصها وسماتها الفنية .

وقد لاحظ في اختيار هؤلاء الكتاب تمثيلهم لاتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته ، هذا الى جانب أنه لم يلتفت اليهم أحد من الدارسين .

أما الخاتمة فقد ضمنها الباحث النتائج التي توصل اليها من هذه الدراسة .

وسيرفق بالدراسة فهارس عامة للاعلام والقبائل والطوائف والجماعات والأماكن والبلدان ، والمصادر والمراجع والموضوعات .

وقد تنوعت مصادر هذا البحث ، ومن أقدمها كتاب البديع في وصف الربيع " لأبي الوليد الحميري " المتوفى بحدود سنة ٤٤٠ هـ ، ويتضمن هذا الكتاب عددا من الرسائل الوصفية التي تعود الى بداية القرن الخامس الهجري .

ومن هذه المصادر " رسائل ابن حزم الاندلسي " ، ومن أشهرها " رسالة فضائل الأندلس وأهلها " و " رسالة طوق الحمامة " و " الرد على ابن النغريلة " . وهذه الرسائل مهمة للباحث في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري ، وقد عالج فيها ابن حزم شتى أنواع المعرفة الانسانية ، فمنها ما يبحث في الآداب والفقه والاخلاق، ومنها ما يبحث في أحداث التاريخ والامامة والسياسة ، ومنها ما يبحث في العشق والهيام ، ومما يزيد من أهميتها أن صاحبها أحد فرسان الأدب والسياسة في الاندلس في القرن الخامس الهجري .

ومنها أيضا كتابا " قلائد العقيان " و " مطمح الأنفس " للفتح ابن خاقان (ت ٥٢٩) ، ويتضمن هذان الكتابان تراجم لعدد كبير من الكتاب في القرن الخامس الهجري ، وعددا كبيرا من نصوص رسائلهم .

ومنها أيضا كتاب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " لابن بسام (ت ٥٤٢هـ) . وهذا الكتاب من أهم مصادر الدراسة اذ انه يشتمل على مجموعة كبيرة من رسائل هذا القرن لا توجد في غيره من المصادر ، ومما يزيد من أهميته تعدد موضوعات الرسائل التي تضمنها وتنوع موضوعاتها .

ومنها أيضا كتابا " اعتاب الكتاب " و " الحلة السيراء " لابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) .

ومن مصادر هذا البحث أيضا كتاب " نفح الطيب " للمقري (ت ١٠٤١هـ)، فهو موسوعة شاملة في تاريخ الاندلس الأدبي وحضارته ، وهو مهم للباحث في القرن الخامس الهجري ، اذ ان صاحبه احتفظ بمجموعة كبيرة من المعلومات ، نقل بعضها عن مصادر لم تصلنا .

وقد واجه الباحث في هذه الدراسة صعوبات عدة ، منها ندرة المصادر، ومنها تداخل أبواب وفصول البحث بعضها مع بعض ، وتشابك مضامين الرسائل وتمازجها ، مما يجعل التفصيل والتقسيم وتبسيط المادة أمرا عسيرا ولا ريب .

ويتوجه الباحث بعظيم تقديره ، وجزيل شكره الى الاستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة الذي تفضل برعاية هذه الدراسة منذ أن كانت فكرة

وأحاطها بكل رعايته وعنايته ، ومنح صاحبها من وقته وعلمه وعطفه وجهده وحلمه ما عقل لسان الباحث وقبض بنانه ، فان أثنى فمقصر عن الثناء ، وان دعا فالى الله يرفع الدعاء ، فلله دره على ما أبداه من فضل ، وأسره من احترام ، وجزاه الله خير الجزاء .

وأخيرا فان الباحث لا يزعم أن هذا العمل بريء من العيوب والمآخذ، ولكنه لم يأل جهدا في تنقيحه وتهذيبه .

والله ولي التوفيق .

فايز عبدالنبي القيسي

عمان الخير في ١ /محرم/١٤٠٧هـ
الموافق ٤ /أيلول/١٩٨٦م

التمهيـــــــــــــــد

الاطار السياســـي والاجتماعـــي والفكـــــري في الأندلس في القــرن الخامـــس الهجـــــري

الإطـــــار السياســـــي

انتهت ثورة قرطبة التي تزعمها أول الأمر محمد بن هشام بن عبدالجبـــار سنة ٣٩٩ هـ بسقوط الدولة العامرية ، وخلع الخليفة هشام المؤيـد(١) .

وكانت هذه الثورة بداية فتنة كبيرة اجتاحت قرطبة وانتشر تأثيرهــا في سائر الأندلس ، وجاءت على الوحدة والنظام والهدوء والرخاء الذي عم البــلاد ، وانتهت بسقوط الخلافة نهائيا(٢) حين أصدر أهل قرطبة منشورا أعلنوا فيـــه زوال رسوم الخلافة سنة ٤٢٢ هـ(٣) ، وأسندوا أمرهم إلى شيخ الجماعة الوزيـــر أبي الحزم بن جهـور(٤) .

ونتج عن ذلك أن دبت الفوضى في مختلف نواحي الأندلس وتناهب زعمـــاء العرب والبربر والصقالبة البلاد ، فاستولى بنو عباد على اشبيلية ، وبنو الأفطس على بطليوس ، وبنو صمادح على المرية ، وبنو ذي النون على طليطلة ، وبنـــو هود على سرقسطة ، وبنو زيري على غرناطة ، وبنو عامر على بلنسية وغيرها(٥) .

ودخلت الأندلس بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف أو عصر الفـرق(٦) كما يسميه ابن الكردبـوس(٧)، وعلى الرغم من أن هذا العصر لم يطــل أكثـــر من ثمانين عاما فانه يعد من أكثر عصور التاريخ الاندلسي تشعبا واضطرابـــا ، فقد كانت الشارة الغالبـة عليه الانهيار السياسي (٨) ، وكثرة المشاحنـــات والخصومات بين ملوك الطوائف الذين طمع كل منهم في توسيع أملاكه وامتـــداد سلطانه على حساب جيرانه ، فشبت بينهم الحروب واشتعلت الفتن التي كانت سببـا في اضعاف قوة البلاد (٩) .

---

(١) انظر احداث الثورة في : الحلة السيراء : ج٢ ،ص ٥ ،البيان المغرب : ج٣ ،ص ٥٢-٧٧ ،أعمال الأعلام : ج٢ ،ص ١٠٩ - ١١١ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٤ ،ص ٣٢٣ - ٣٢٥ ، دولة الاسلام في الأندلس : ق١م٢ ،ص ٥٨٠ - ٥٨٥ .

(٢) انظر عوامل سقوط الخلافة الاموية في الأندلس في : ابن حزم ورسالة المفاضلـة بين الصحابة : ص ١٢ - ١٨ ، اشبيلية في القرن الخامس الهجري : ص ٢١ - ٢٥ ،مجاهد العامري : ص ٣١ .

(٣) انظر : الذخيرة : ق ١ م٢ ،ص ٦٠٢ ،البيان المغرب : ج٣ ،ص ١٥ - ١٥٢ ،أعمـال الاعلام: ج٢ ،ص ١٤٧ .

(٤) هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي ،كان من موالي بني أمية ومـن وزراء الدولة العامرية ، تغلّب على قرطبة أيام الفتنة ، وكان موصوفا بالدّهـاء والسياسة ، توفي سنة ٤٣٥ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٨٨ ، المطمـح : ص ٣٢ - ٣٩ ، المغرب : ج١ ،ص٥٦) .

(٥) انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٦٧ ،صبح الأعشى : ج٥ ،ص ٢٤٨-٢٥٦ .

(٦) انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٧٨ .

(٧) هو أبو مروان عبدالملك بن الكردبوس التوزري ، مؤرخ تونسي ،عاش في أواخـر القرن السادس الهجري (انظر أخباره في : مقدمة كتاب تاريخ الاندلس لابن الكردبوس) .

(٨) انظر : الشعر الأندلسي : ص ٢٦ .

(٩) انظر دول الطوائف ص ٩٩ ، مجاهد العامري : ص ٢٩ ، ٤١ .

وكانت اسبانيا النصرانية في هذا الوقت تشهد ميلاد حركة جديدة بقيادة فرذلند ملك قشتالة وليون ، تهدف الى اعادة الأندلس الى حظيرة النصرانية بمساعدة فرنسا البابوية وبتشجيع من الكنيسة الكلونية [١] ، التي آخذت تثير روحا صليبية لدى مواطنيها وتشجع القوى المسيحية على شن حرب مقدسة في مشرق العالم الاسلامي ومغربه [٢] .

ولم يزل ثغر الأندلس يضعف ، والعدو يقوى ، والفتنة بين أمراء الأندلس تستعر الى أن تغلب العدو على جميعهم [٣] ، فأرغم ملوك إشبيلية [٤] وبطليوس [٥] وطليطلة [٦] على الخضوع ودفع الجزية صاغرين [٧] .

ولم يتورع بعض ملوك الطوائف عن الاستعانة بفرذلند لضرب اخوانهم والاستيلاء على ممالكهم [٨] ، وقد كان فرذلند يسارع الى تقديم المساعدات محاولا القضاء عليهم جميعا ، ففي الوقت الذي كان يساعد فيه المنصور بن أبي عامر الصغير [٩] ضد مجاهد العامري [١٠] ، كانت قواته الاخرى تساعد

---

(١) نسبة الى مدينة كلوني في فرنسا ، وقد أنشئ عندها دير كلوني للآباء البندكتيين ، ومنه انبثقت نهضة دينية وثقافية في القرن الحادي عشر الميلادي لم تلبث أن عمت غرب أوروبا ، وأخذت تحرض القوى المسيحية على شن حرب صليبية ضد المسلمين (انظر : في تاريخ المغرب والاندلس : ص ٢٨٣) .

(٢) انظر : اوروبا العصور الوسطى : ص ٥٦٠ ، دول الطوائف : ص ٣٨٢ ، في تاريخ المغرب والاندلس : ص ٢٨١ .

(٣) انظر البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٣٩ .

(٤) اشبيلية : مدينة كبيرة بالاندلس غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا ، وهي مدينة قديمة ، ويقال ان الذي بناها يوليس القيصر (انظر : معجم البلدان : ج١ ،ص ١٩٥ ،مراصد الاطلاع : ج١ ،ص ٨٠، الروض المعطار : ص ٥٨) .

(٥) بطليوس : مدينة جليلة بالأندلس من أعمال ماردة ،تقع على نهر آنة غربي قرطبة ، وهي مدينة محدثة بناها عبدالرحمن بن مروان المعروف بالجليقي باذن من الامير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الاوسط (انظر : معجم البلدان : ج١ ،ص٤٤٧، مراصد الاطلاع : ج١ ،ص٢٠٤ ،الروض المعطار : ص ٩٣) .

(٦) طليطلة : ناحية بالأندلس ،من أعمال استجة ،قريبة من قرطبة ، وهي مدينة قديمة ،وكانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد ، وقد سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٨ هـ (انظر : معجم البلدان : ج٤ ،ص ٣٩ ،الروض المعطار : ص ٣٩٣) .

(٧) انظر البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٢٨ ، ٢٧٩ ، أعمال الأعلام : ج٢ ص ١٨٤ .

(٨) انظر التاريخ الاندلسي : ص ٣١٦ .

(٩) هو المنصور عبدالعزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر المعروف بالمنصور الصغير أمير بلنسية وكان من أوصل الناس لرحمه ، وأحفظهم لقرابته ، توفي سنة ٤٥٢ هـ (انظر : ترجمته في المغرب : ج٢ ،ص ٣٠٠ ،أعمال الأعلام : ج٢ ،ص ١٩٤) .

(١٠) هو أبو الجيش مجاهد بن عبدالله ، أمير دانية والجزائر الشرقية ، كان مولى للمنصور بن أبي عامر ، توفي سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م١، ص ٢٣ ،المغرب : ج٢ ،ص ٤٠١) .

ابن هود[1] لمحاربة ابن ذي النون[2] ، وهو في نفس الوقت يعد حملات ضد مملكتي اشبيلية وبطليوس[3] .

وتغيرت موازين القوى في الجزيرة ، فقد أخذت القوى الاسلامية تفقد قوتها وتتراجع حدودها ، في حين أخذت القوى النصرانية تنمو وتقوى[4] ، وكانت نتيجة ذلك أن سقطت بعض المدن والقواعد الأندلسية بيد دول اسبانيا النصرانية ومن هذه المدن قُلُمْرِيَّة[5] وبَرْبَشْتَر[6] التي سقطت سنة ٤٥٦ هـ[7].

وبعد وفاة فرذلند سنة ٤٥٨ هـ ، وتقسيمه أملاكه بين أبنائه الثلاثة الأذفونش وشانجة وغرسية ، نشبت حرب أهلية في المملكة الاسبانية ، وتعرضت البلاد لهزة عنيفة ومرحلة جديدة من الفوضى والاضطرابات[8] .

ولم يحاول ملوك الطوائف استغلال هذه الفرصة في جمع الكلمة وتوحيد الصف لردع عدوهم المشترك ، كما أن سياستهم الداخلية لم تدع مجالا لتحسين الاوضاع السياسية خاصة والاجتماعية والاقتصادية عامة لمواجهة الخطر الصليبي ، فقد نهج بعضهم سياسة البطش والقوة مع رعاياهم ، فكثر النفي والطرد والجلاء والتشرد والقتل وامتلأت السجون[9] . وقد روي أن المعتضد بن عباد كان يحتفظ بجماجم أعدائه في خزانة في جوف قصره[10] ، وكان يضرب المثل بباديس بن حبوس في شدة القسوة وسفك الدماء[11] . وقد أدى ذلك الى تردي الاوضاع السياسية والاقتصادية والإجتماعية في الاندلس .

---

(1) هو سليمان بن أحمد بن هود الجذامي ، أمير سرقسطة ، اشتهر ذكره في الاندلس ، وبعد صيته الى أن توفي سنة ٤٣٨ هـ (انظر ترجمته في : المغرب: ج٢ ،ص٤٣٦ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ١٧٠) .

(2) هو المأمون يحيى بن اسماعيل بن ذي النون ، أمير طليطلة ، عظم سلطانه بين ملوك الطوائف ، وكانت بينه وبين فرذلند مواقف مشهورة ، وغلب على بلنسية وأخذها من يد بني عامر ، وغلب على قرطبة وأخذها من يد المعتمد بن عباد ، وقتل ابنه أبا عمرو ، وتوفي سنة ٤٦٧ هـ (انظر ترجمته في : المغرب: ج٢ ،ص ١٢ ،أعمال الأعلام : ج٢ ،ص ١٧٨ ،النفح : ج١ ،ص ٤٤٠) .

(3) انظر البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص١٧٨ ، ١٩٥ .

(4) انظر : التاريخ الاندلسي : ص ٣٢٦ ،دول الطوائف : ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

(5) انظر حوادث سقوط قلمرية في : البيان المغرب : ج٣ ،ص٢٣٨–٢٣٩ ، ٢٥٣ ،أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ١٨٤ ، وقلمرية من مدن الثغر الادنى في الاندلس ، فتحها المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٥ هـ ، وفي سنة ٤٥٦ هـ استطاع فرذلند احتلالها ، وأخذها من يد المظفر بن الأفطس أمير بطليوس (انظر : معجم البلدان : ج٤ ،ص ٣٩١ ، مراصد الاطلاع : ج٣ ،ص ١١١٨، الروض المعطار : ص ٤٧١).

(6) بَرْبَشْتَر : من أمهات الثغور الأندلسية الحصينة ، تقع شمال سرقسطة ، وقد تعرضت لمحنة شديدة عندما استولى عليها الصليبيون سنة ٤٥٦هـ ، وقتلوا أهلها ونهبوا خيراتها ، وفي سنة ٤٥٧ هـ استطاع احمد بن هود أمير سرقسطة أن يستردها ، ومنذ ذلك الوقت تسمّى بالمقتدر (انظر : معجم البلدان : ج١،ص٣٧٠، الروض المعطار : ص ٩٠ – ٩١) .

(7) انظر حوادث سقوط بَرْبَشْتَر واستردادها في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٧٩ ،وما بعدها ، البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٢٥ .

(8) انظر تاريخ الاندلس لابن الكردبوس : ص ٧٦ ،التاريخ الاندلسي : ص ٣٣٠،تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين: ج١ ،ص ٢٣–٢٥ ،دول الطوائف :ص ٣٨٩–٣٩٢.

(9) انظر الذخيرة : ق٤م١،ص ١٦٤. (10) انظر : الحلة السيراء : ج٢ ،ص٥٠.

(11) انظر : المغرب : ج٢ ،ص ١٠٧ .

وكانت سياسة بعض ملوك الطوائف تقوم على اصطناع اليهود والنصارى والاستعانة بهم في ادارة شؤون المسلمين ، فعظم شأنهم في بعض المدن الأندلسية وخاصة في غرناطة التي عرفت بغرناطة اليهود لكثرة من كان يسكنها منهم [١] ، حتى كادوا للاسلام ، وعملوا على تدبير الدسائس وبث الفتن والاضطرابات داخل امارات الطوائف والاتصال بملوك الصليبيين ، والضغط على أمراء الطوائف لمحالفتهم ودفع الأتاوة لهم [٢] .

وقد تولَّى ابن النغريلَّة [٣] اليهودي الوزارة بغرناطة لباديس بن حبوس ، وحكَم اليهود في الشؤون العامة ، فكتب الشاعر الزاهد ابو اسحق الالبيري قصيدة بعث بها الى باديس يعبر فيها عن سخط الناس على الوزير ويفضح جناياته وتقديمه قومه وايقاعه الاذى بالمسلمين وفيها يقول [٤] :

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور النَّديّ وأسد العرين
لقد زلَّ سيدكم زلَّةً	تقرُّ بها أعين الشامتين
تخيَّر كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المسلمين
فعزَّ اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين

وكانت ردة الفعل لهذه القصيدة ثورة عارمة ضد اليهود اهتزت لها جنبات غرناطة سنة ٤٥٩ هـ ، وأراحت الناس من الوزير [٥] . كما تولى أبو الفضل بن حسداي [٦] الوزارة للمقتدر بن هود .

واشتهر من النصارى أبو عامر بن غرسية [٧] الذي عاش في بلاط مجاهد العامري بدانية [٨] ، وكان شعوبيا يكره العرب ويتعصب للاسبان ، فقد كتب رسالة ذم فيها العرب ، وافتخر بقومه العجم ، لكن بعض كتاب عصره ردوا عليه وألجموه حتى أسكتوه [٩] . واشتهر ايضا ابن المرعزي الاشبيلي الذي ظهر أيام المعتمد ابن عباد وكان من المقربين اليه [١٠] .

---

(١) انظر الروض المعطار : ص ٤٥ .
(٢) انظر : دول الطوائف : ص ٤١٣ ، تاريخ الفكر الأندلسي : ص ١٠٨ .
(٣) هو يوسف بن اسماعيل بن النغريلة : انظر أخباره في الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٧٦٦-٧٦٩ ، المغرب : ج٢ ،ص ١٣٣ ،البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ،الاحاطة : ج١ ، ص ٤٣٩ . (٤) ديوان أبي اسحق الالبيري : ص ٨٩ .
(٥) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٧٦٩ ،المغرب : ج٢ ،ص١٣٣ ،البيان المغرب : ج٣ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ،اعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٣٠ - ٢٣٦ ،النفح : ج٤ ،ص ٣٢٢ .
(٦) هو أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الاسرائيلي (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ١١٥ ،الذخيرة : ق ٣م١ ،ص ٤٥٧ ،المطرب : ص ١٩٦ ، عيون الانباء : ص ٤٩٩، المغرب : ج٢ ،ص ٤٤١ .
(٧) هو أبو عامر أحمد بن غَرْسية ، من أبناء البشكنس ، سبي صغيرا وعاش في كنف مجاهد العامري ، وكان من كبار ادباء عصره ، وقد خاطب في رسالته المشهورة الاديب ابا جعفر ابن الخراز معاتبا له لتركه مدح ملك بلاده مجاهد العامري ، واقتصاره على مدح امير المرية المعتصم بن صمادح (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٧٠٤ ،المغرب : ج٢، ص ٤٠٦) .
(٨) دانية - مدينة بشرق الاندلس ، وهي من أعمال بلنسية وعلى ضفة نهرها الشرقي (انظر : معجم البلدان : ج٢ ،ص ٤٣٤ ، مراصد الاطلاع : ج٢ ،ص ٥١٠ ،الروض المعطار : ص ٢٣١) . (٩) انظر رسالة ابن غرسية والردود عليها في : الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٥-٧٥٥ ،نوادر المخطوطات : ج٣ ،ص ٢٤٦ - ٣٥٤ .
(١٠) انظر المغرب : ج١ ،ص ٢٦٩ ،النفح : ج٣ ،ص ٥٢١.

وكـــان لليهـود والنصارى دور كبير في معاونة الصليبيين في محاصـرة المدن والقواعد الاسلامية في الاندلس والاستيلاء عليها ، كما عملوا بكل جهدهـم على تحطيم امارات الطوائف التي تقوم بحمايتهم ورعايتهم ، والتمهيد للقضـاء عليها وسقوطها بيد الصليبيين ، فأدوا بذلك خدمات جليلة للحركة الصليبيـة التي تستهدف استعادة الأندلس للحظيرة النصرانية (١) .

ولم تلبث البلاد الاسبانية ان نهضت من عثرتها ، اذ بعد حرب قصيرة بيـن أبناء فرذلند نجح الأذفونش بمساعدة أخته أورّكا في توحيد مملكتي قشتالـة وليون وبسط نفوذه على الممالك الاسبانية الاخرى (٢).

وتعد هذه الفترة التي جاء فيها الأذفونش للحكم من أخطر مراحل الصراع بين المسيحية والاسلام في الأندلس في القرن الخامس الهجري(٣) ، فقد صادف أيام ملكه نفاقا كبيرا بين المسلمين واختلافا عظيما (٤) ، وكانت سياسته ترمي الى تهديد الوجود الاسلامي في الأندلس بضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض وبالاغارة على أراضيهم ومطالبتهم بالأموال لاضعافهم عسكريا واقتصاديا ليتسنى له استخلاص الأندلـس لنفسه ، وتحقيق أحلام اجداده في استعادة الاندلس الـى حظيرة النصرانية (٥).

وكان ملوك الطوائف يسايرون الأُمور ويدافعون الأَيام بدفع الأُتاوة الـى الأذفونش اذ لم تكن بهم قدرة على مواجهته " وبزعمهم أنه من هنا الى آن تتـم الأموال ، وتهلك الرعايا يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين "(٦) .

ولما أيقن أذفونش من ضعفهم وعدم قدرتهم على مواجهته استدعـى المسيحيين من مختلف أنحاء البلاد (٧) ، وبدأ في سنة ٤٧٤ هـ حملة صليبية ضـد المدن الأندلسية ، وتحرّك بجيوش كبيرة من البُشْكُنس(٨) والجَلاَلِقة(٩) ، فشق بـلاد

---

(١) انظر دول الطوائف : ص ٤١١ - ٤١٤ ، في تاريخ المغرب والأندلس : ص ٢٨٣ .

(٢) انظر : دول الطوائف : ص ٣٩١-٣٩٤ ، في تاريخ المغرب والأندلس : ص ٢٨١ .

(٣) انظر : اوروبا العصور الوسطى : ص ٥٦١ .

(٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٧٧ .

(٥) انظر : مذكرات الأمير عبدالله : ص ٦٣ ، في تاريخ المغرب والأندلس : ص ٢٨٢ .

(٦) مذكرات الأمير عبدالله : ص ٧٣ .

(٧) انظر : دول الطوائف : ص ٣١٩ ، المرابطون : ص ١٠٨ .

(٨) البشكنس : هم النصارى الاسبان الذين سكنوا في الجزء الغربي من جبال البرانس وكان مركزهم مدينة بانبلونا التي أصبحت فيما بعد عاصمة نافار . وقـد خضعت منطقتهم للحكم الاسلامي منذ دخول موسى بن نصير الاندلس ، الا أنهـم شقوا عصا الطاعة وانضموا لألفونسو الأول سنة ١٨٢ هـ (انظر : الروض المعطار ص ٥٠ ، و Encyclopaedia of Islam, Vo.1, P. 1079)

(٩) الجلالقة نسبة الى جِلِّيقيَّة ، وهي منطقة تقع شمال غرب الأندلس ، وقد خضعت للحكم الاسلامي فترة قصيرة في العهد الاموي ، وكان الجلالقة أصحاب كد وأجسام قوية (انظر : الروض المعطار : ص ٥٠ ، و Encycolopaedia of Islam, Vol. 2, P. 541)

الأندلس شق ، وكان يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرّبُ ويقتل ويسبي ثم يرتحل الى غيرها ، وبعث الى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشا لحصارها والتضييق عليها [(١)] ، فلم يعد يقنع بجزية ولا هدية ، وانما أصبح يروم أخذ القواعد [(٢)]، وقد توج مشاريعه الصليبية باحتلاله طليطلة قاعدة الثغر الأدنى وعاصمة القوط القديمة وذلك سنة ٤٧٨ هـ ، بعد حصار دام سبع سنين ، خرّب خلالها أحوازها وانتسف زروعها وعاث فيها سفكا وتخريبا [(٣)] .

وكان سقوط طليطلة كارثة كبرى للاسلام في الأندلس أيقن على أثرها الشعب الأندلسي وعلى رأسه الفقهاء أن ما أصابهم هو عقاب من الله لانصراف ملوك الطوائف عن أمور دينهم وشؤون رعيتهم وانهماكهم في ملذات الدنيا [(٤)].

ولعل المعتمد بن عباد أعظم ملوك الطوائف قد أدرك مدى مسؤوليته عما حدث لطليطلة [(٥)] ، وفداحة الأخطار التي تردى فيها بمصانعته الأذفونش ومحالفته واستعدائه على اخوانه ملوك الطوائف ، ولاحت له بوادر المصير المروع الذي سوف ينحدر اليه اذا لم تتداركه يد القدر بعون أو غيره [(٦)]، عندما أيقظه رسل أذفونش حاملين اليه طلب سيدهم بتسليمه بعض الحصون زيادة على الضريبة المعتادة، والسماح لزوجته بأن تلد في مسجد قرطبة الجامع [(٧)].

وقد أساء السفير القَشْتَالي ابن شالب اليهودي التصرف مما أغاظ المعتمد فقتله واعتقل بقية الوفد [(٨)] ، ولما بلغ ذلك أذفونش أقسم بأيمان مغلظة أن لا يرفع يده عنه وأن يحشد من الروم عدد شعر رأسه لمحاربته ، فكان له ذلك ، وسار بجيوشه نحو اشبيلية [(٩)] ، فتعاظم الخطر ، وبلغت الحالة في الأندلس أقصى درجات الضعف والفساد . وقد وصف الكتاب هذه الحالة في رسائل مختلفة سنعرض لها في فصل قادم .

وفي ظل هذه الظروف العصيبة نضجت فكرة كانت تراود الأندلسيين منذ فترة بعيدة ، وهي الاستعانة بالمرابطين في العدوة المغربية [(١٠)]، حيث أقاموا فيها دولة مجاهدة بزعامة يوسف بن تاشفين تستهدف اعادة القوة للإسلام والحفاظ على مبادىء الدين الحنيف [(١١)] ، فعقد الفقهاء الأندلسيون اجتماعا في قرطبة [(١٢)]، اجتمع رأيهم فيه على الاستعانة بالمرابطين ، وتوجه زعيمهم القاضي

---

(١) انظر : الأنيس المطرب : ص ١٤٣-١٤٤ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٣٩ ، الاستقصاء : ج٢ ، ص ٣٢ . (٢) انظر : مذكرات الامير عبدالله : ص ١٠١ ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٨٩ . (٣) انظر حوادث سقوط طليطلة في : الذخيرة : ق٤م١ ، ص ١٦٤-١٦٩ ، أعمال الأعلام : ج٢ ، ص ١٨١ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٥٢ ، ٤٤٧-٤٤٨ .
(٤) انظر : الرد على ابن النغريلة : ص ١٧٣-١٧٧ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٢٥٥ ، النفح : ج٤ ، ص ٤٥٢ . (٥) انظر عن دور المعتمد بن عباد في احتلال طليطلة في : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ج١ ، ص ٦٠ ، تاريخ العرب العام : ص ٣٢٤ .
(٦) انظر : دول الطوائف : ص ٧٤ . (٧) انظر وفيات الاعيان : ج٥ ، ص ٢٨ ، الروض المعطار : ص ٨٨ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٥٧ . (٨) انظر أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٥٩ ، الحلل الموشية : ص ٤٢ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٥٨ . (٩) انظر الحلل الموشية : ص ٤٢ .
(١٠) انظر الانيس المطرب ص ١٤٤ ، الروض المعطار : ص ٨٦ ، أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٤٣ ، الحلل الموشية : ص ٣٣ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٦٠ . (١١) انظر أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٤٣ .
(١٢) انظر الكامل : ج ١٠ ، ص ١٥١ - ١٥٢ ، وفيات الاعيان : ج ٥ ، ص ٢٨ .

عبيد الله بن أدهم[1] الى المعتمد بن عباد الذي عقد مؤتمرا اتخذ فيه قرارا بإرسال وفد من كبار القضاة يمثل مختلف الممالك الأندلسية للاستنجاد بالمرابطين[2] على الرغم من معارضة ابنه الرشيد[3] وتحذير ملوك الطوائف لعاقبة هذا القرار[4] ، فردّ عليهم بأنه يفضل رعي الجمال على رعي الخنازير ، وارضاء الله بالاستنجاد بالمرابطين على اسخاطه في اللجوء الى النصارى[5] .

فلما عبر الوفد الى العدوة المغربية استجاب زعيم المرابطين لدعوة أمراء الطوائف بعد مشاورات مع كبار الفقهاء[6] ، واعتبر صريخ ملوك الطوائف دعوة الى المشاركة في الجهاد والذود عن الدين المشترك . وجهز ابن تاشفين جيشا كبيرا عبر به الى الأندلس ، وانضم الى الجيوش الأندلسية[7] ، فلما علم أذفونش بعبور المرابطين فك حصاره عن سرقسطة[8] ، وبدأ يستعدّ للقاء ، واستدعى الجيوش من مختلف أنحاء اسبانيا النصرانية ، فتدفقت عليه سيول الفرسان المتطوعين من جنوب فرنسا وايطاليا ، وسار أذفونش بجيشه مزهوا بتفوقه في العدد والعدة والامكانات الفنية لقواته[9] .

وجرت بين الطرفين مراسلات عرض فيها ابن تاشفين على أذفونش الاسلام أو الجزية أو الحرب[10] ، فاستشاط غضبا ورد على ابن تاشفين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد[11] ، فاكتفى ابن تاشفين بأن رد اليه كتابه ممهورا بتلك العبارة المشهورة " الذي يكون ستراه "[12] ، فلما كان صباح الجمعة الحادي عشر من رجب على الأرجح سنة ٤٧٩ هـ[13] ، كانت معركة الزلاقة[14] ، وأحرزت فيها القوات الأندلسية والمرابطية نصرا مؤزرا حتى كان يوما مشهودا من أيام الاسلام أوقف تيار الغزو الصليبي ، ومدّ في عمر الاسلام في الأندلس أربعة قرون أُخرى[15] .

---

(١)هو ابو بكر عبيدالله بن محمد بن أدهم ،كان قاضي الجماعة بقرطبة ، استقضاه المعتمد بن عباد سنة ٤٦٨ هـ ، وكان قد نظر قبل ذلك في أحكام المظالم ، وشوور في الأحكام ، توفي سنة ٤٨٦هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ،ص ٣٠٤) .
(٢)انظر الكامل: ج١٠،ص ١٥١ ،الروض المعطار : ص ٨٦ ، النفح :ج٤،ص ٣٥٩ .
(٣)انظر : الاحاطة : ج٢ ،ص ١٠٩ ،الحلل الموشية : ص ٤٤ – ٤٥ . (٤)انظر النفح: ج٤ ،ص ٣٥٩ . (٥) انظر : وفيات الاعيان : ج٧ ،ص ١١٥ ،الاحاطة : ج٢ ،ص ١٠٩، النفح : ج٤ ،ص ٣٥٩ . (٦)انظر : تاريخ الاندلس لابن الكردبوس : ص ٩٠ ،أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٤٥ . (٧) انظر المعجم : ص ١٩١ ،الانيس المطرب : ص ١٤٥ .
(٨)سرقسطة : قاعدة من قواعد شرقي الاندلس ، وتعرف بالمدينة البيضاء لأن اسوارها القديمة من حجر الرخام الابيض (انظر: معجم البلدان : ج٣،ص ٢١٢ – ٢١٤ ،مراصد الاطلاع : ج٢ ،ص ٧٠٨ ،الروض المعطار : ص٣١٧) . (٩)انظر: التاريخ الأندلسي:ص ٤٠٥، دولة الطوائف : ص ٣٢٢ . (١٠)انظر وفيات الأعيان : ج٧ ،ص ١١٦ ،الانيس المطرب: ص ١٤٦ ،النفح : ج٤ ،ص ٣٦١ . (١١)انظر الرسالة في : الحلل الموشية : ص ٤٢–٤٣ .
(١٢)النفح : ج٤ ،ص ٣٦١ . (١٣)انظر: الانيس المطرب : ص ١٥٠ . (١٤)الزلاقة : بطحاء من اقليم بطليوس في غرب الاندلس ، وفيها حدثت المعركة (انظر: معجم البلدان: ج٣ ،ص ١٤٦ ،مراصد الاطلاع : ج٢ ،ص ٦٦٩ ،الروض المعطار : ص ٢٨٧) . (١٥)انظر نتائج معركة الزلاقة في : مذكرات الأمير عبدالله : ص ١٠٤ ،الذخيرة : ق٢م١،ص ٢٤١–٢٤٣ ،تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٩٣– ٩٥ ،الروض المعطار : ص ٢٩١، أعمال الاعلام : ج٣ ،ص ٢٤٤ ،الحلل الموشية : ص٦٦ .

وعاد ابن تاشفين الى المغرب عقب معركة الزلاقة وترك الامير سير بن أبي بكر[١] للمرابطة في الثغور الاندلسية ، وبعد عامين من معركة الزلاقة أخذت قوات أذفونش تغير من جديد على المدن الأندلسية من حصن لييط[٢] ، فاستنجد المعتمد بن عباد بابن تاشفين الذي جاز الى الأندلس مرة ثانية ، فكتب الى ملوك الطوائف يستدعيهم للجهاد ، ولكن لم ينضم اليه غير المعتمد بن عباد وابن رشيق[٣] الذي انسحب فيما بعد نتيجة اختلافه مع المعتمد[٤] ، ولم يستطع المرابطون اقتحام الحصن ، وعاد ابن تاشفين الى المغرب وقد تغير على ملوك الطوائف لما رآه من تباغضهم وفرقتهم وتقاعسهم عن الجهاد[٥] .

وساءت الاحوال في الأندلس مرة ثانية ، فقد عاد ملوك الطوائف الى الاختلاف من جديد والتحالف مع أذفونش ضد المرابطين ، عند ذلك أدرك ابن تاشفين أن بقاء ملوك الطوائف في اماراتهم قد يذهب بآثار كل جهد بذله في سبيل استعادة البلاد ، ويمهد الطريق لاستيلاء الصليبيين على جميع أنحاء الأندلس[٦] ، فاستفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في أمر ملوك الطوائف ، فأفتوا بخلعهم جميعا[٧] ، فجاز ابن تاشفين الى الأندلس للمرة الثالثة في أوائل سنة ٤٨٣ هـ[٨] ، واحتل غرناطة وخلع أميرها[٩] عبدالله بن بلقين[١٠] الذي اقتيد آسيرا الى أغمات[١١] .

---

(١)هو أحد كبار قواد يوسف بن تاشفين ، اشترك في معركة الزلاقة ، وأظهر فيها شجاعة فائقة ، وقد تولى في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ولاية اشبيلية الى أن توفي بها سنة ٥٠٧هـ (انظر اخباره في : الأنيس المطرب : ص ١٤٧ ، ١٥٣ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٧٠) . (٢) انظر الأنيس المطرب : ص ١٥٢ ، ولييط : حصن من أعمال لورقة بينه وبينها اثنا عشر ميلا (انظر : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٨٦ ، ١٧٥) .
(٣)هو عبدالرحمن بن رشيق ، قائد جيوش المعتمد بن عباد الذي سيطر على مرسية واستقل بها ، وقد حدث بينه وبين المعتمد نزاع أثناء حصار المرابطين لحصن لييط ، فشكاه المعتمد الى يوسف بن تاشفين ، فألقى سير بن أبي بكر القبض عليه وأسلمه للمعتمد فسجنه باشبيلية ، وبقي معتقلا الى أن خلع المعتمد (انظر أخباره في : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، الأنيس المطرب : ص ١٥٣ ، أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٥٧) . (٤)انظر الأنيس المطرب : ص ١٥٢- ١٥٣ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٤٩ . (٥)انظر : الأنيس المطرب : ص ١٥٣ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥٠ ، الحلل الموشية : ص ٧١ . (٦)انظر التاريخ الاندلسي : ص ٤٢٢ .
(٧)انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ١٠٦ ، تاريخ ابن خلدون : ج٦ ، ص ٣٨٤ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥ .
(٨)انظر الانيس المطرب : ص ١٥٣ ، الإحاطة : ج٤ ، ص ٣٥٣ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥٠ ، الاستقصا : ج٢ ، ص ٥٣ .
(٩)انظر : مذكرات الأمير عبدالله : ص ١٧٠ ، الأنيس المطرب : ص ١٥٤ ، الاحاطة : ج٣ ، ص ٣٨٠ . (١٠)هو الأمير عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس الصنهاجي ، آخر ملوك غرناطة من بني زيري ، توفي بأغمات سنة ٤٨٣ هـ ، وقد كتب مذكراته أثناء اقامته في منفاه بمدينة أغمات تحت عنوان " التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة " ، وقد نشرها بروفنسال بعنوان " مذكرات الأمير عبدالله الصنهاجي" (انظر ترجمته في : المغرب : ج٢ ، ص ١٠٨ ، الاحاطة : ج٣ ، ص ٣٧٩ ، أعمال الأعلام : ج٢ ، ص ٢٣٣ ، النفح : ج٣ ، ص ٥٦٨) .
(١١)أغمات - ناحية في المغرب ، قريبة من مراكش ، وهي مدينتان متقابلتان احداهما تسمى أغمات وريكة والاخرى أغمات هيلانة وبينهما نحو ثمانية أميال (انظر : معجم البلدان : ج١ ، ص ٢٢٥ ، مراصد الاطلاع : ج١ ، ص ٩٨ ، الروض المعطار : ص ٤٦) .

وغادر ابن تاشفين غرناطة ، وجاز الى العدوة المغربية في شهر رمضان من سنة ٤٨٣ هـ(١) تاركا قائده سَيْر بن أبي بكر يتمّ عزل بقية أمراء الطوائف والاستيلاء على ما بيدهم من البلاد(٢) ، ولم يلبث سَيْر بن أبي بكر أن استولى على اشبيلية سنة ٤٨٤ هـ وخلع أميرها المعتمد بن عباد الذي اقتيد أسيرا الى أغمات(٣). ثم استولى على جميع إمارات الطوائف ما عدا دولة بني هود التي أبقاها المرابطون حداً فاصلاً بينهم وبين قوى الشمال النصرانية(٤).

وفي سنة ٤٩٠ هـ (٥) عبر ابن تاشفين الى الاندلس عبوره الرابع ، وفي رواية أنّه لم يعد إلى الأندلس الا بعد ذلك بعدة أعوام(٦) .

ومهما يكن الأمر فقد جهز جيشاً عظيماً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج(٧) ووجهه صوب طليطلة التي أصبحت عاصمة قشتالة ، والتقى بالقشتاليين بقيادة أذفونش قرب كنشرة (٨) فانهزم القشتاليون متكبدين خسائر كبيرة (٩) .

وفي سنة ٤٩٥ هـ استعاد المرابطون بلنسية من أيدي النصارى بعد احتلال دام عشرة أعوام(١٠) ، وبذلك دانت الأندلس كلها لسلطان المرابطين وأصبحت ولاية مغربية .

وفي سنة ٤٩٦ هـ توجه ابن تاشفين الى قرطبة لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي(١١) ، وقد اشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشىء بالاندلس جيشا مرابطيا ثابتا موزعا على سائر القواعد الأندلسية(١٢) ، وأوصى عليا بأمور تتعلق بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلسيين(١٣) .

وفي سنة ٥٠٠ هـ توفي يوسف بن تاشفين في مراكش(١٤) بعد جهاد طويل أحرز فيه أعظم انتصار أوقف الغزو الصليبي للأندلس ، وأفضى الملك لعلي بن يوسف بن تاشفين الذي سار على نهج والده في انفاذ الجيوش والدفاع عن الأندلس وصدّ غارات الصليبيين(١٥) .

---

(١) انظر الأنيس المطرب : ص ١٥٤ . (٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ١٥٤، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، الاستقصا : ج٣ ، ص ٥٣ . (٣) انظر : مذكرات الأمير عبدالله : ص ٧٠ ، الأنيس المطرب : ص ١٥٥ ؛ (٤) انظر : مذكرات الامير عبدالله : ص ١٦٤ – ١٧٤ ، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ١٠٥ – ١٠٧، الأنيس المطرب : ص ١٥٤ – ١٥٦ ، الحلل الموشية : ص ٧٢–٧٧ .
(٥) انظر تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ١٠٧ . (٦) انظر الأنيس المطرب : ص ١٥٦، الحلل الموشية : ص ٧٧ . (٧) هو أبو عبدالله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت المعروف بابن الحاج ، وهو ابن عم يوسف بن تاشفين ، وقد لعب دورا كبيرا في المعارك التي دارت بين المرابطين والصليبيين في الأندلس ، واستشهد في معركة البورت سنة ٥٠٨ هـ (انظر أخباره في : المعجم : ص ١٣٨ ، الأنيس المطرب : ص ١٦٠–١٦١ ، تاريخ ابن خلدون : ج٦ ، ص ٣٨٣) . (٨) لم يذكر اسم هذا الموضع غير ابن الكردبوس ، ويرجح محقق كتابه تاريخ الأندلس أن المقصود به بلدة كنسويجرا من أعمال طليطلة وفي جنوبها الشرقي كما تشير المصادر التاريخية المسيحية (انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ١٠٨) . (٩) انظر المصدر السابق نفسه : ص ١٠٧–١٠٨ .
(١٠) انظر : البيان المغرب : ج٤ ، ص ٤١ – ٤٢ ، الروض المعطار ص ٩٧ . (١١) انظر : الأنيس المطرب : ص ١٥٦ ، الإحاطة : ج٢ ، ص ٥٢١ ، الحلل الموشية : ص ٧٧ .
(١٢) انظر : الحلل الموشية : ص ٨٠ . (١٣) انظر المصدر السابق نفسه : ص ٨٢ .
(١٤) انظر : وفيات الأعيان : ج٧ ، ص ١٢٥ ، الأنيس المطرب : ص ١٥٦ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥٢ ، الحلل الموشية : ص ٨٣ . (١٥) انظر : المعجب : ص ٢٣٥ ، أعمال الأعلام : ج٣ ، ص ٢٥٣ .

الاطــــــــار الاجتماعـــــــي

بعد أن سقطت الخلافة الأموية في الأندلس ، وتجزأت البلاد الى دويـــــلات مستقلة أخذ ملوكها يتطلعون الى حياة الترف والبذخ التي عرف بها خلفاء بنـــي العباس ، فتحولت عواصم ملكهم الى بغدادات صغيرة كثيرة [١] تعج باللهـــو والترف والبذخ والمجون ، وصاروا يتنافسون في اجتذاب العلماء والأدباء والراقصين والراقصات والمغنين الى قصورهم ، ويتباهون في انتحال الألقاب السلطانية [٢] ، فانتشرت ألقاب التفخيم والتشريف كالمعتصم والمعتضد والمعتمد والناصر والمنصـور والقادر والمقتدر وغيرها [٣] ، وسخر كثير من الشعراء من هذه الألقاب المزعومـة ، فهذا ابن رشيق يقول [٤] :

مما يزهدني في أرض أندلـــس ... سماع مقتدر فيها ومعتضـــد
ألقاب مملكة في غير موضعهـــا ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأســد

لقد انصرف هؤلاء الملوك عن مصلحة الأمة الى المظاهر الكاذبة ، والانشغال بشرب الخمور ، واقتناء القيان ، وارتكاب المعاصي ، وسماع العيدان ، وبنـــاء القصور ، والتنافس في التقرب الى الأذفونش بدفع الأتاوة اليه وتقديم الهدايـــا ، حتى ذلت الأمـة ، وافتقرت الرعايا [٥] ، وفسدت الأحوال الاجتماعية نتيجـــة الضرائب الباهظة التي يفرضها ملوك الطوائف على رعاياهم لسد النفقات الطائلـــة التي تتطلبها حياتهم الخاصة ، والمبالغ الكبيرة التي يفرضها الأذفونش [٦] .

وقد انتشرت آيات الترف والبذخ والغنى في سائر جوانب المجتمـــع الأندلسي وتعددت مظاهرها وأشكالها ، وقد ساعد على ذلك ما في جزيـــرة الأندلس من أسباب الغنى ، فالأندلس " بقعة كريمة طيبة التربـة كثيـــرة الهواء ، وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزئبـــق واللازورد والشب والتوتيـا والزاج والطفـل " [٧] .

وكانت طبقة الفلاحين التي تمثل الأكثرية الساحقة من أبناء المجتمـع الأندلسي أكثر الطبقات الاجتماعية تأثرا بهذا الاضطراب الاجتماعي الـــى جانب معاناتها من آثار القحط والمجاعات وما كان ينتج عن الحروب الداخلية او الخارجية من حرق للمزارع وخراب للبساتين [٨] ، فقد أشار صاحب كتـــاب الذيل والتكملة [٩] الى حدوث مجاعة عام ثمانية وأربعين وأربعمائة فـــي اشبيلية ، وبين أنها كانت مريعة لدرجة خطيرة اضطر الناس فيها الى دفن كل ثلاثة أو اربعة اشخاص في قبر واحد ، وخلت المساجد من الناس [١٠] .

---

(١) انظر : الشعر الأندلسي : ص ٤٤ . (٢) انظر : النفح : ج١ ، ص ٢١٣ .
(٣) انظر : أعمال الأعلام ج٢ ، ص ١٤٤ . (٤) ديوان ابن رشيق : ص ٥٩ — ٦٠ .
(٥) انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس : ص ٧٧ — ٧٨ ، المعجب : ص ٢٢٦ .
(٦) انظر : الرد على ابن النغريلة : ص ١٧٦ ، مذكرات الأمير عبدالله : ص ٧٦—٧٧ ، الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٥٢ ، ق٣ م١ ، ص ١٥ . (٧) الروض المعطار ص ٣٢ .
(٨) انظر : اشبيلية في القرن الخامس الهجري : ص ٤٨ . (٩) هو عبدالملـــك المراكشي أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الانصاري . (١٠) انظر : الذيـــل والتكملـــة : ق٥ م ١ ، ص ٣٣ .

ومن مظاهر الترف الذي ساد الأندلس في القرن الخامس الهجري أن ملوك الطوائف كانوا في غاية الاحتفال ببناء القصور الخاصة بهم ، ففي طليطلة " كانت المباني الذنّونية الجليلة ، فيها قبة النعيم التي صنعت للمأمون بن ذي النون تنسدل فيها خيمة من ماء ، يشرب في جوفها مع من أحب من خواصه في أيام الصيف ، فلا تصل اليه ذبابة ، وهي في بستان الناعورة ، وفيها القصر المكرم الذي بناه ، واحتفل فيه ، وأطنب البلغاء والشعراء في وصفه "(١) .

وفي ضواحي المريّة(٢) كان قصر الصُّمادحية الذي اشتهر بمجلس الحافة الذي شيده المعتصم بن صمادح(٣) .

وفي غرناطة(٤) كان قصر باديس بن حَبُّوس(٥) ، " وليس ببلاد الاسلام والكفر مثله "(٦) ، ومن قصور العباديين التي شيّدوها باشبيلية : المبارك والثريا والزاهي(٧) ، وكان بسرقسطة قصر دار السرور ومجلس الذهب(٨) للمقتدر بن هود(٩) .

ومن مظاهر الترف والبذخ اهتمام الأندلسيين بانشاء المتفرَّجات والمتنزَّهات والجنائن ، وفيهامن ضروب الأزهار والرياحين والأشجار ما يسر الناظرين ويبهج النفوس ، وكانوا يقصدونها للنزهة والراحة ولاقامة مجالس الأدب ومجالس الأنس والطرب .

ومن المدن التي اشتهرت بمتفرَّجاتها المريّة ، ومن متفرَّجاتها مُنى عبدوس ، ومُنى غسان ، والنَّجاد ، وبركة الصُّفر ، وعين النطية ، وبرجة ودلاية(١٠) .

---

(١) المغرب : ج٢ ، ص ٩ .

(٢) المرية : مدينة محدثة بالاندلس ، أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبدالرحمن بن محمد سنة أربع وأربعمائة للهجرة ، وهي من أشهر مراسي الأندلس (انظر : معجم البلدان : ج٥ ، ص ١١٩ ، مراصد الاطلاع : ج٣ ، ص ١٢٦٤ ، الروض المعطار : ص ٥٣٧) .

(٣) هو أبو يحيى المعتصم محمد بن معن بن صمادح التجيبي ، من بني صمادح ملوك المرية ، تولى الحكم بعد والده سنة ٤٤٤هـ وهو ابن أربع عشرة سنة ، وتوفي وهو محاصر بجيش المرابطين سنة ٤٨٤هـ (انظر ترجمته في : القلائد : ص ٤٧ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٧٢٩ ، المطرب : ص ٣٤ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٧٨ ، وفيات الأعيان : ج٥ ، ص ٣٩-٤٠) .

(٤) غرناطة : من أقدم مدن البيرة من أعمال الأندلس (انظر : مراصد الاطلاع : ج٢ ، ص ٩٩٠ ، الروض المعطار : ص ٤٥ ، وذكر ياقوت الحموي أنه يقال أن الصحيح أغرناطة بالألف في أوله أسقطها العامة (انظر : معجم البلدان : ج٤ ، ص١٩٥) .

(٥) هو باديس بن حبوس بن ماكس بن زيري الصنهاجي ، أمير غرناطة ، وكان من أبطال الحروب وشجعانها ، ويضرب به المثل في شدة القسوة وسفك الدماء ، ومع ذلك فقد كان حسن السياسة عادلا ، توفي سنة ٤٦٧ هـ (انظر ترجمته في : المغرب : ج٢ ، ص ١٠٧ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص٢٦٢ ، أعمال الأعلام : ج٢ ، ص٢٣٠) .

(٦) النفح : ج١ ، ص ١٦٩ . (٧) انظر : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٦٩ ، المغرب : ج١ ، ص ٣٨١ .

(٨) انظر النفح : ج١ ، ص ٥٣٤ . (٩) هو المقتدر أحمد بن سليمان بن هود ، أمير سرقسطة ، كان بينه وبين النصارى حروب عظيمة استرد فيها بربشتر سنة ٤٥٧هـ ، واستولى على دانية من يد اقبال الدولة علي بن مجاهد العامري ، توفي سنة ٤٧٥هـ (انظر ترجمته في : المغرب : ج٢ ، ص ٤٣٦ ، أعمال الأعلام : ج٢ ، ص ١٧١ ، النفح : ج١ ، ص ٤٤١) . (١٠) انظر : المغرب : ج٢ ، ص١٩٤ ، النفح : ج١ ، ص١٦٧ .

وفي رياض بَرّجة يقول الشاعر أبو الفضل بن شرف القيرواني [١] :

رياض تعشّقها سندس توشّت معاطفها بالزَّهَر
مدامعُها فوق خدَّيْ ربىً لها نَظْرَةٌ فَتَنَتْ مَنْ نَظَر
وكل مكان بها جَنَّةٌ وكلُّ طريق اليها سَقَر

ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق ، وهو " مقصود للنزهة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس "[٢] ، ومن متنزهاتها أيضا الشُّدُّ والمنبر[٣] ، وكان ببلنسية[٤] منازه ومسارح ، أشهرها الرُّصافة ومُنيّة ابن أبي عامر ومتنزّه باب الحنش[٥] ، ذكر ابن طاهر[٦] أنه خرج مرة الى باب الحنش فوجد الشاعر أبا طالب عبدالجبار الجزيري[٧] واقفا أمام ظبي وهو ينشد شعرا في الغزل[٨] :

مَعْشَرَ الناس بباب الحنش بدرُ تِمٍّ طالع في غَبَش
علق القُرْطَ على مِسْمَعِه مَنْ عليه آفة العين خشي

ولقد أبدع الكتاب الأندلسيون في وصف هذه المتنزهات وما اتصل بها ، فظهرت الرسائل التي يتناظر فيها الكتّاب بألسنة الأزهار والرياحين ، وسنعرض لذلك في فصل قادم .

---

(١) النفح : ج١ ،ص ١٥١ ،وأبو الفضل هو جعفر بن أبي عبدالله بن شرف القيرواني ، كان شاعر وقته غير مدافع ، اتصل بالمعتصم بن صمادح أمير المرية ومدحه ونال لديه مكانة رفيعة حسده عليها بعض أدباء عصره ، وتوفي سنة ٥٣٤ هـ (انظر ترجمته في : القلائد : ص ٢٥٢ ،الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٨٦٧ ،الخريدة : ج٢ ،ص ١٧١ ، المغرب : ج٢ ،ص٢٣ ،النفح : ج٣ ، ص ٣٩٥) .

(٢) النفح : ج١ ،ص ٤٧٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق نفسه : ج١ ،ص ٤٧٥ ، ٤٧٨ .

(٤) بلنسية : مدينة مشهورة بالأندلس ، تقع في مستوى من الأرض شرقي قرطبة ، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار ، وتعرف بمدينة التراب (انظر : معجم البلدان : ج١ ،ص ٤٩٠ - ٤٩١ ،الروض المعطار : ص ٤٧).

(٥) انظر : النفح : ج١ ،ص ٤٧٥ ، ٤٧٨ .

(٦) هو أبو عبدالرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر ، أمير وكاتب مشهور ، خلعه المعتمد بن عباد عن مرسية ، فانتقل الى بلنسية وعاش فيها ، وله رسائل تشهد بفضله ، وتدل على نبله وبلاغته ، وقد وضع ابن بسام فيه كتابا سماه " سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر " ، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في : القلائد : ص ٥٦ ، الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٤ - ٩٢ ، الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١١٦ - ١٢٧ ، المغرب : ج٢ ،ص ٢٤٧ ،النفح : ج١ ،ص ٦٧٠) .

(٧) يعرف بالمتنبي ، وهو من أهل جزيرة شقر ، ومن أبرع أهل وقته أدبا وعلما ، وله أرجوزة في التاريخ ، وقد عاش الى ما بعد الخمسمائة (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٩١٦ - ٩٤٤ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢١٠ ، المغرب : ج٢ ،ص ٣٧١ ، المسالك : ج١١ ، ص ٤١٥).

(٨) النفح : ج١ ، ص ٦٧٠ .

ومن مظاهر الترف أيضا الاسراف والتبذير في اقامة الاحتفالات ، فقد ذكر ابن بسام أن المأمون بن ذي النون أقام حفلا بمناسبة ختان حفيده يحيى، "فحشد أمراء البلاد ، وجملة الوزراء والقواد ، فأقبلوا اليه كالقطا القارب ارسالا ..."(١) ، وقد بلغ من روعته وفخامته حدا جعله مضرب الأمثال عند أهل المغرب (٢) . وأقام بنو عباد الأفراح العظيمة لمدة سبعة أيام(٣) بمناسبة زواج المعتضد بن عباد(٤) من بنت مجاهد العامري .

ومن هذه المظاهر تنافس ملوك الطوائف في اقتناء القيان والجواري المغنيات الشاعرات ، فنشطت لذلك تجارة الرقيق ، وحرص النخّاسون على أن يعلموا الجواري الغناء والموسيقى الى جانب علوم اللغة ودراسة الطب وعلم التشريح وعلم الطبيعة ليكسبوا في بيعهن مالاً وفيراً(٥) .

وكان ملوك الطوائف وأثرياء الأندلس يدفعون المبالغ الباهظة في اقتناء القيان والجواري ، ويطلبونهن بكل جهة ، فقد دفع ابن رزين(٦) في شراء جارية أبي عبدالله بن الكتاني ثلاثة آلاف دينار ، وكانت واحدة القيان في عصرها من حيث الجمال وطيب الغناء وجودة الكتابة والمعرفة بعلوم اللغة والنحو والطب(٧) .

وكان للمعتضد بن عباد أكثر من سبعين جارية(٨) ، أشهرهن العبادية (٩) التي أهداها مجاهد العامري للمعتضد ، وكانت شاعرة كاتبة حافظة لكثير من اللغة(١٠).

---

(١) الذخيرة : ق ٤ م١ ،ص ١٢٨ .

(٢) انظر : النفح : ج١ ،ص ٤٤٠.

(٣) انظر : مجاهد العامري : ص ٥٠ .

(٤) هو المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد ، وهو والد المعتمد بن عباد ، حكم اشبيلية من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة الى سنة أربع وستين وأربعمائة (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م١ ،ص٢٣-٤١ ،المعجب : ص ١٥١ ، الحلة السيراء : ج٢ ،ص ٣٩ ، أعمال الأعلام : ج٢ ،ص ١٥٥ ،النفح : ج٤ ،ص ٢٢٧).

(٥) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص٣٢ ،مجلة أبحاث : س ١٦ ع ١ ،أخبار الغناء والمغنين في الأندلس : ص ١٢ .

(٦) هو أبو محمد هُذيل بن خلف بن لب البربري ، صاحب السهلة ، كان بارع الجمال، حسن الخلق ، طيب اللسان ، وكان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات ، وهو أول من بالغ الثمن في الأندلس في شراء القيان المشهورات ، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص١٠٩ - ١١٢ ، المغرب : ج٢ ،ص ٤٢٧ ،البيان المغرب : ج٣ ،ص ١٨٣ - ١٨٤) .

(٧) انظر الذخيرة : ق٣ م١ ،ص١١٢ .

(٨) انظر : الحلة السيراء : ج٢ ،ص ٤٣ .

(٩) انظر ترجمتها في : النفح : ج٤ ،ص ٢٨٣ ،الدر المنثور : ص ٣٢٧ .

(١٠) انظر : الدر المنثور : ص ٣٢٧ .

ومن الجواري اللواتي اشتهرن في القرن الخامس الهجري الغسانية البجّانية [١] الأديبة الشاعرة التي مدحت الملوك ، وعارضت ابن دراج القسطلي [٢] في قولها [٣] :

أتجزع أن قالوا سترحل أظعانُ
وكيف تطيق الصبر ويحك إذ بانوا

فما بُعْدُ إلا الموت عند رحيلهم
وإلا فصبرٌ مثل صبر وأحزانُ

ومنهن غاية المنى [٤] جارية المعتصم بن صمادح ومحظيته ، اشتراها بمائة ألف درهم ، وقد تخرّجت في فنون الغناء ، وكانت لها معرفة جيدة بالأصوات [٥] .

واشتهرت اشراق العروضية [٦] مولاة عبدالرحمن بن غلبون التي أخذت عنه النحو واللغة وفاقته فيهما وبرعت في العروض [٧] .

وكانت الجواري تقوم بالتدريس [٨] أو الغناء والرقص وتوزيع كؤوس الخمر بين أيدي أسيادهن لتسليتهم وجلب الراحة والهدوء والسرور الى نفوسهم [٩] ، ومن هؤلاء سعدى التي كانت تغني في قصر المعتمد بن عباد [١٠] ، وكان بعض الجواري وخاصة كبيرات السن منهن يقمن بخدمة سيدات القصور [١١] .

وقد تشارك الجواري الرجال أحيانا في تقديم الالعاب والحركات المطربة في قصور الأمراء ، فقد ذكر ابن بسام أن المعتصم بن صمادح خرج يوما مع ندمائه ، وأظهر صبية متصرفة في أنواع من اللعب المطرب ، وحضر لاعب مصري هنالك [١٢] .

ومن مظاهر الترف والبذخ أيضا ولع ملوك الطوائف بتقليد خلفاء بني العباس ، فقد كان بنو حَمُّود [١٣] في مَالَقَة [١٤] إذا حضرهم شاعر أو زائر أو صاحب

---

(١) انظر ترجمتها في : الجذوة : ص ٤١٣ ، بغية الملتمس : ص ٥٤٥ ، المغرب : ج٢ ، ص ١٩٢ ، النفح : ج٤ ، ص ١٧٠ .
(٢) هو أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي ، من فحول شعراء الأندلس ، وهو عندهم كالمتنبي بالمشرق ، توفي سنة ٤٢١ هـ (انظر مصادر ترجمته في : مقدمة ديوانه ، وانظر ترجمته في : الجذوة : ص ١١٠ ، الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٩ ، وفيات الاعيان : ج١ ، ص ١٣٥ - ١٣٩) .
(٣) المغرب : ج٢ ، ص ١٩٢ .
(٤) انظر ترجمتها في : النفح : ج٤ ، ص ٢٨٦ ، الدر المنثور : ص ٣٥٥ .
(٥) انظر : الدر المنثور : ص ٣٥٥ .
(٦) انظر ترجمتها في : بغية الوعاة : ج٢ ، ص ٤٥٨ ، النفح : ج٤ ، ص ١٧١ .
(٧) انظر : بغية الوعاة : ج٢ ، ص ٤٥٨ .
(٨) انظر النفح : ج٤ ، ص ١٧١ .
(٩) انظر : الحلة السيراء : ج ٢ ، ص ٥٥ .
(١٠) انظر : المسالك : ج١١ ، ص ٣٩٧ .
(١١) انظر : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٥٥ .
(١٢) انظر الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٧٢١ - ٧٢٢ .
(١٣) بنو حمّود : فرع من الأدارسة الحسنيين في المغرب ، ويعتبر علي بن حَمّود بن ميمون أول أمرائهم بالاندلس (انظر : أعمال الأعلام : ج٢ ، ص ١٢٨) .
(١٤) مالقة : مدينة بالأندلس من أعمال ريّة ، وهي على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وكانت عامرة أهلة كثيرة الديار ، وقد أحاط بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب اليها ، وكان يحمل الى مصر والشام وغيرها (انظر : معجم البلدان : ج٥ ، ص ٤٣ ، الروض المعطار : ص ٥١٧ - ٥١٨) .

حاجة يتكلم من وراء حجاب أو ستر ، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة [١] . ومن ذلك ما رواه المقري أنه لما حضر الشاعر ابن مقانا الأشبوني [٢] أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي [٣] ، وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله [٤] :

وكأنَّ الشَّمْسَ لمّا أشْرقَتْ فانثنت عنها عيون الناظرين
وَجْهُ إدريس بن يحيى بن علي بن حَمُّود أمير المؤمنين

الى أن قال :

انظرونا نقتبس من نوركم إنَّه من نور رَبِّ العالمين

وعندئذ رفع الخليفة الستر بنفسه ، وقال : انظر كيف شئت ، وأمر له بجائزة عظيمة [٥] .

لقد تسربت بعض مظاهر الترف والبذخ من قصور الحكام والأمراء الى مجالس الأغنياء وعامة الشعب ، فكانت الدار تكلف بعض الأغنياء مائة ألف دينار وفوقها ، وتزدان بعجائب من غالي الأثاث مالم ير مثله في قصور الأمويين أيام عزهم [٦] .

وقد انتشر الفساد ، وغشي حب الشهوات والترف والبذخ جميع طبقات المجتمع الأندلسي ، وقلت الموارد والمصادر ، وارتفعت الأسعار ، وطمع الفقير في الغني ، واجترأ الضعيف على القوي .

واحتلت المرأة الأندلسية في القرن الخامس الهجري منزلة عظيمة فظهرت في ميدان الحياة العامة ، وكانت تخالط الرجال وتجالسهم ، ونالت حظا وافرا من التعليم ، فنبغ عدد كبير منهن في العلوم والآداب والفنون [٧] ، وكان يعهد اليهن بتربية وتأديب أبناء الأمراء والأغنياء ، فهذا ابن حزم قد تلقى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه [٨] .

وظهر في هذا القرن عدد كبير من النساء المشهورات ، منهن الشاعرة أم الكرام [٩] بنت المعتصم بن صمادح التي اشتهرت بحبها للفتى المشهور بالسمار ، وقالت فيه الموشحات [١٠] ، ومن شعرها فيه [١١] :

---

(١) انظر : النفح : ج١ ، ص ٢١٤ .
(٢) هو أبو زيد عبدالرحمن بن مقانا الأشبوني ، شاعر مشهور ، وله شعر يعرب عن أدب غزير ، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين ، وكان حيا أيام المعتمد بن عباد (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٢٧٩ ، الذخيرة : ق٢ م٢ ، ص ٧٨٦ – ٧٩٦ ، المغرب : ج١ ، ص ٤١٣) .
(٣) يلقب بالعالي ، وهو أمير مالقة ، توفي سنة ست وأربعين وأربعمائة أو سبع وأربعين وأربعمائة (انظر اخباره في : الجذوة : ص٣٣-٣٦ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٢٩١ ، النفح : ج١ ، ص ٤٣٢) .
(٤) النفح : ج١ ، ص ٢١٤ . (٥) انظر المصدر السابق نفسه : ج١ ، ص ٢١٤ .
(٦) انظر : الذخيرة : ق٣ م١ ، ص ١٧ – ١٨ . (٧) انظر البيئة الأندلسية : ص ٥٨ ، ابن حزم الاندلسي : ص ٩٢ . (٨) انظر : طوق الحمامة : ص ٥٠ . (٩) انظر ترجمتها في : المغرب : ج٢ ، ص ٢٠٢ ، نزهة الجلساء : ص ١٨ ، النفح : ٤٠ ، ص ١٧٠ .
(١٠) انظر : نزهة الجلساء : ص ١٨ . (١١) النفح : ج٤ ، ص ١٧٠ .

يا معشر الناس ألا فاعجبوا مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى من أفقه العلوي للترب
حسبي بمن أهواه لو أنه فارقني تابعه قلبي

ومن النساء المشهورات في هذا القرن مريم بنت أبي يعقوب[١] ، الشاعرة التي كانت تعلّم الأدب للنساء ، وتحتشم لدينها وفضلها[٢] ، ومنهن مهجة بنت التيّاني[٣] ، وذكر ابن سعيد أن لها شعرا تقدمت به فحول الذكران[٤] ، ومنهن نزهون بنت القلاعي[٥] وكانت ذات جمال فائق ، تحفظ الشعر والأمثال ، ولها مساجلات ومراسلات مع بشار الأندلس[٦] ، ومنهن أم العلاء الحجارية[٧] وكانت أديبة شاعرة ، ومما تفخر به بلدها وقبيلها[٨] ، ومنهن اعتماد[٩] الرميكية التي تملكت زمام المعتمد بن عباد ، وكانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة في علماء اشبيلية ، وأفرط المعتمد في الميل اليها ، وغلبت عليه واختار لنفسه لقبا يشبه اسمها[١٠]، وهي التي أغرته بقتل ابن عمار[١١]، وأشهرهن ولادة بنت المستكفي[١٢] التي اشتهرت بقصتها مع ابن زيدون[١٣] ، وكانت في غاية الأدب والظرف ، وكان مجلسها في

---

(١) انظر ترجمتها في : الجذوة : ص ٤١٢ - ٤١٣ ، الصلة : ج٢ ، ص٦٩٤ - ٦٩٥ ، نزهة الجلساء : ص ٦٩ ، النفح : ج ٤ ، ص ٢٩١ .
(٢) انظر : الجذوة : ص ٤١٢ .
(٣) انظر ترجمتها في : المغرب : ج١ ، ص ١٤٣ ، النفح : ج٤ ، ص ٢٩٣ .
(٤) انظر : المغرب : ج١ ، ص ١٤٣ .
(٥) انظر ترجمتها في : المغرب : ج٢ ، ص ١٢١ ، نزهة الجلساء : ص ١٧٤ ، النفح : ج٤، ص ٢٩٥ .
(٦) هو أبو بكر محمد المخزومي ، شاعر هجاء مقذع ، استوطن غرناطة ، وكان أعمى شديد الشر ، سريع الجواب ، سابقا في ميدان الهجاء ، فاذا مدح ضعف شعره ، وكان حيا بعد الاربعين وخمسمائة (انظر ترجمته في : المغرب : ج١ ، ص٢٢٨ - ٢٣١ ، الاحاطة : ج١ ، ص ٤٣٢ - ٤٣٥ ، النفح : ج١ ، ص ١٩٠ - ١٩٢) .
(٧) انظر ترجمتها في : المغرب : ج٢ ، ص ٣٨ ، نزهة الجلساء : ص ٢٠ ، النفح : ج٤، ص ١٦٩ .
(٨) انظر : المغرب : ج٢ ، ص ٣٨ .
(٩) انظر الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٦٢ ، الاحاطة : ج٢ ، ص ١١٠ ، أعمال الأعلام ج٢ ، ص ١٥٩ ، النفح : ج٤ ، ص ٢١١ ، ٢٧٢ .
(١٠) انظر الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٦٢ .
(١١) انظر : النفح : ج٣ ، ص ٢١٢ ، وابن عمّار هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد ابن عمار ، كان أديبا شاعرا وعصاميا سياسيا وصديقا للمعتمد بن عباد ، استبد بمرسية مخالفة للمعتمد ، وتقلبت الأيام فوقع في يد المعتمد فقتله بيده سنة ٤٧٧ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٣٦٨ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٧١ ، بغية الملتمس : ص ١١٣ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١٣١ ، وفيات الأعيان : ج٤ ، ص ٤٢٥ ، المغرب : ج١ ، ص٣٨٩ ، النفح : ج١ ، ص ٦٥٢) .
(١٢) انظر ترجمتها في : الذخيرة : ق١ م١ ، ص ٤٢٩ ، نزهة الجلساء : ص ١١٠ ، النفح : ج ٤ ، ص ٢٠٥) .
(١٣) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي القرطبي ، شاعر وكاتب مشهور ، اختص بمدح ابن جهور ، وتغير عليه فسجنه ، ثم انتقل الى اشبيلية ، ووزر للمعتضد ابن عباد ، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٣٠ ، القلائد : ص ٧٠ - ٨٣ ، الذخيرة : ق١م١ ، ص٣٣٦ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٤٨ ، المطرب : ص ٦٤ ، اعتاب الكتاب : ص ٢٠٧ ، وفيات الأعيان : ج١ ، ص ١٣٩ ، المغرب : ج١ ، ص ٦٣) .

قرطبة منتدى لفرسان النظم والنثر[١] .

واحتل القضاة والفقهاء في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، مكانة رفيعة عند الخاصة والعامة ، فعندما عزم ملوك الطوائف على الاستنجاد بالمرابطين اجتمعوا بكبار القضاة واستشاروهم في ذلك[٢] ، ومن أمثلة احترام الخاصة للفقهاء ما روي عن المعتمد بن عباد أنه نزل عن دابته عندما لقي الفقيه ابن الطّلاع[٣] ، احتراما له ولعلمه[٤] .

واحتل الكتاب أيضا منزلة رفيعة لا تقل حظا في الرفعة والسمو عن مكانة القضاة والفقهاء في نظر الخاصة والعامة ، وتعود شهرة الكتّاب في الأندلس الى ارتباط خطة الكتابة بالرئاسة والسلطان[٥] ، فقد كانت حاجة السلطان الى كاتب يعينه في تصريف امور الدولة أكثر من حاجته الى شاعر يتغنى بمحاسنه ، لهذا كان الكاتب في الغالب رجل دولة ومن فرسان السياسة ، وكان الكتّاب في الأندلس على ضربين كما يذكر المقري " أعلاهما كاتب الرسائل وكان حظه في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب ، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ... والكاتب الآخر كاتب الزمام"[٦] .

ومما زاد من أهمية الكتابة وأعلامها أنها كانت الأداة التي تمنح صاحبها حق الوصول الى المناصب العليا في الدولة ، وقد استطاع عدد من الكتّاب من أمثال : ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون[٧] وغيرهم أن يبلغوا مرتبة الوزارة وذلك لما كانوا يبدونه من براعة في الكتابة وتصريف أمور الدولة ، وكان شعرهم ميزة أعانتهم على ذلك ، لكنهم لو انفردوا بالشعر دون الكتابة لما استطاعوا أن يبلغوا تلك المراتب[٨] ، وقد عرف من أحسن النظم والنثر من الوزراء بذي الوزارتين ، أما من أتقن النثر وحده منهم فقد عرف بالوزير الكاتب ، وكان معظم كتّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري يجمعون بين النثر والشعر ،ويجيدون فيهما على حد سواء .

---

(١) انظر : الذخيرة : ق١م١،ص ٤٢٩ .
(٢) انظر: الكامل ج١٠،ص ١٥١، الروض المعطار ،ص ٨٦، النفح: ج٤ ،ص ٣٥٩ .
(٣) هو أبو عبدالله محمد بن الفرج، كان من كبار العلماء بالحديث ومذهب مالك ، وله تواليف كثيرة منها كتاب "نوازل الأحكام النبوية" ، توفي بواسط سنة ٤٩٧ هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج٢ ،ص٥٦٤ - ٥٦٥ ، بغية الملتمس ، ص ١٢٣، المغرب : ج١ ،ص ١٦٥) . (٤) انظر : المغرب : ج١ ،ص ١٦٥. (٥) انظر مقدمات التراجم في : القلائد ، الذخيرة ، وكيفية اضفاء الألقاب : ذو الوزارتين، الوزير الكاتب ، الوزير الفقيه .
(٦) النفح : ج١ ،ص ٢١٧ .
(٧) هو أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون الفهري ، أديب وشاعر ومترسل مشهور ،من أهل مدينة يابُرة بالأندلس ، استوزره بنو الأفطس الى انتهاء دولتهم ، ثم انتقل الى خدمة المرابطين بعد خلع ملوك الطوائف ، واشتهر بقصيدته البسّامة التي قالها في رثاء بني الأفطس ، توفي سنة ٥٢٧ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢ م٢ ،ص ٦٦٨ - ٧٢٧ ، الخريدة : ج٢ ،ص١٠٣ ،بغية الملتمس: ص ٥٣٩ ،المطرب : ص ١٨٠ - ١٨٣ ،المعجب : ص ١٢٨ ،٢٢٨ ، التكملة : ج١ ،ص ٤٠٧، ،المغرب : ج١ ، ص ٣٧٤ ، صلة الصلة : ص ٤٢ ،فوات الوفيات : ج٢ ، ص ٣٨٨) .
(٨) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص ٨٢ .

وفي هذا القرن ازدهر فن الغناء ازدهارا عظيما ، وأقبل الأندلسيون عليه اقبالا كبيرا ، فانتشرت مجالسه في مختلف نواحي الأندلس ، وكان لكل أمير ووزير مجلس خاص به لا يكاد يمر يوم دون أن يقام فيه الغناء[1] ، وقد وصف ابن حزم هذه المجالس ، وذكر ما كان يردد فيها من شعر[2] .

ولم تقتصر اقامة مجالس الغناء والأنس على الأمراء والوزراء وحسب بل شملت جميع طبقات المجتمع الأندلسي ، ومما يدل على ذلك ما يروى عن أبي الطاهر التجيبي[3] أنه قال : " كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، واعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف وكنت اذا جنّني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم "[4] .

وكثرت الدعوات الى مجالس الغناء والطرب ، وانطلق الكتّاب يصفون تلك المجالس وما فيها من شراب ولهو وطرب . وقد اشتهر في القرن الخامس الهجري عدد كبير من المغنين في قصور الأمراء منهم : محمد بن الحمامي الذي نبغ في بلاط بني حمّود[5] وقد غنى يوما في مجلس ادريس بن يحيى بشعر لعبد الله ابن المعتز[6] :

هل يُزيلُ البينَ محتالُ أن غَدَتْ للبين أجْمَالُ

ومنهم الحكيم النديم أبو بكر الاشبيلي الذي كان مغنيا بقصر الرشيد بن المعتمد ، نقل عنه ابن بسام أنه قال : حضرت مجلس أنس مع أبي بكر بن عمار بقصر الرشيد بن المعتمد ، فلما دارت الكأس ، وتمكّن الأنس ، وغنيته أصواتاً وذهب به الطرب كل مذهب ، قال ابن عمار ارتجالا[7] :

ما ضرَّ أن قيل اسحاق وموصله
ها أنت أنت وذي حمصٌ وإسحاقُ

ونتج عن ازدهار فن الغناء تقدم علم الموسيقى والألحان ، وظهر في القرن الخامس الهجري عدد من الملحّنين وعلماء الموسيقى منهم : ابن الحداد القيسي[8] الذي وضع تأليفا في العروض سماه " الامتعاض للخليل " مزج فيه بين الأنحاء

---

(١) انظر الذخيرة : ق ١ م٢ ، ص ٨٦٣ ، ق٢م١ ، ص ٣٨٥ ، النفح : ج٣ ، ص ٦١٤ - ٦١٥ ، ج ٤ : ص ٩٤ - ٩٦ .
(٢) انظر : طوق الحمامة : ص ٢١ ، ١١٠ .
(٣) هو أبو طاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي ، من أهل القيروان ، سكن المهدية ، ثم صار الى مصر ، وكان شاعرا عالما بالآداب مستبحرا فيها ، وهو من أهل التأليف مع دقة الضبط (انظر : التكملة : ج١ ، ص ١٨٩) .
(٤) المختار من شعر بشار : ص ١٤ .
(٥) انظر الذخيرة : ق ١م٢ ، ص ٨٦٣ .
(٦) الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٨٦٣ ، وانظر أيضا : النفح : ج٣ ، ص ٦١٤ - ٦١٥ .
(٧) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٣٨٥ ، وحمص هنا هي اشبيلية .
(٨) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن الحداد القيسي ، أصله من وادي آش سكن المرية ، وكان شاعرا فيلسوفا موسيقيا ، وهو من أعظم شعراء المعتصم بن صمادح وقد استفرغ معظم شعره فيه ، وحظي عنده بمكانة رفيعة ، توفي سنة ٤٨٠ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٩١ ، أخبار وتراجم أندلسية : ص ١٧ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٧١ ، المحمدون من الشعراء : ص ٩٩ ، التكملة : ج١ ، ص ٢٩٨ ، وفيات الأعيان : ج ٥ ، ص ٤١) .

الموسيقية والآراء الخليلية [١] ، ومنهم أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الاشبيلي [٢] الذي لحّن الأغاني الافريقية [٣] ، وقد عرف الأندلسيون عددا من الآلات الموسيقية منها : العود والأرغن والرباب والقانون والبوق وغيرها [٤] .

وازدهر فن الرقص مثلما ازدهر فن الغناء والموسيقى ، وكان يقوم به الجواري والقيان والغلمان وموزعو الخمر ، وافتنّ الشعراء الأندلسيون في وصف الراقصين والراقصات ، وقد وصف ابن حمديس [٥] راقصة وبين حركاتها وما تشير اليه بأنملها وهي ترقص الى كل عضو وما يحل به من تعذيب الهوى بقوله [٦] :

وراقصة بالسحر في حركاتها   تقيم به وزن الغناء على حسد
وتحسبها عما تشير بأنمل   الى ما يلاقي كلُّ عضو من الوجد
بنا لا بها ما تشتكي من جوى الهوى   وأدمع أشواق مُخدّدة الخد

وانتشر الغزل بالغلمان في الأندلس في هذا القرن حتى أصبح ظاهرة اجتماعية ، وقد أسرف الشعراء الأندلسيون في تصويرها ، ومن أشهرهم ابن عمار وابن الأبار [٧] وأبو الأصبغ بن عبد العزيز [٨] ، وأورد ابن بسام كثيرا من المساجلات الشعرية التي دارت بين بعض الشعراء حول وصف الغلمان [٩] .

وانتشر الخمر والشراب لدى سائر الناس وخاصة في مجالس الأنس والطرب ، وكان الملوك والوزراء يستهدونه ويهدونه وينعمون بشربه ، فقد ذكر المقري أن ذا الوزارتين أبا عامر بن الفرج [١٠] وزير المأمون بن ذي النون كتب الى أحد غلمانه يستهديه خمراً [١١] :

ابعث بها مثل ودّكْ   أرق من ماء خدّكْ
شقيقة النفس فانفح   بها جوى ابني وعَبْدك

---

(١) انظر الذخيرة : ق١م٢ ، ص٦٩٢ .   (٢) هو أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت الاشبيلي ، ولد بدانية سنة ٤٢٠ هـ ثم رحل الى مصر وسجن فيها مدة ، ثم عاد الى المغرب وسكن المهدية الى أن توفي فيها سنة ٥٢٩هـ ، وكان طبيبا شاعرا فيلسوفا ، ومن مؤلفاته " الرسالة المصرية " نشرها عبدالسلام هارون (انظر ترجمته في عيون الأنباء : ص ٥٠٥ ، وفيات الأعيان : ج١ ، ص ٢٤٣ ، المغرب : ج١ ، ص ٢٦١ ، النفح : ج٢ ، ص ١٠٥ ، نوادر المخطوطات : ج٢ ، ص ٦) .
(٣) انظر النفح : ج٢ ، ص ١٠٦ .   (٤) المصدر السابق نفسه : ج٣ ، ص ٢١٢ .
(٥) هو عبدالجبار بن محمد بن حمديس الصقلي ، ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧هـ ، هاجر الى الأندلس ، ووفد على المعتمد بن عباد وأصبح من كبار مداحه الى أن خلع عن ملكه سنة ٤٨٤ هـ فغادر الأندلس الى المغرب وبقي متنقلا بين ملوكها الى أن توفي سنة ٥٢٧ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٢٠ ، الخريدة : ج٢ ، ص ١٩٤ ، المطرب : ص ٥٤ ، وفيات الأعيان : ج٣ ، ص ٢١٢) .   (٦) ديوان ابن حمديس : ص ١٣٣ .
(٧) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن الأبار الخولاني ، من شعراء اشبيلية زمن المعتضد بن عباد ، ذكر ابن بسام أنه ممن صنف وأبدع ، توفي سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١١٥ ، الذخيرة : ق٢م١ ، ص١٣٩ ، المغرب : ج١ ، ص ٢٥٨ ، وفيات الأعيان : ج١ ، ص ١٥١) .   (٨) هو أبو الأصبغ بن عبد العزيز ، أديب شاعر ، عاش زمن المعتضد بن عباد (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٣٩١ ، الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٨) .   (٩) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .   (١٠) هو أبو عامر ابن الفرج ، من أعيان بلنسية ، وقد أخرجه منها أميرها أبو بكر بن عبدالعزيز ، فسار الى المأمون بن ذي النون أمير طليطلة وأصبح وزيرا له ثم لابن ابنه القادر (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٣م١ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١٧١ ، المغرب : ج٢ ، ص ٣٠٣ ، النفح : ج٣ ، ص ٥٣٤) .
(١١) النفح : ج٣ ، ص ٤٠٨ .

وشاع الزهد بين مختلف الطبقات الاجتماعية كرد فعل لهذه الحياة اللاهية الماجنة التي عرفها المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، وظهر عدد من الأدباء اشتهروا بالزّهد وبالمناداة بالابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها ، وجعلوا أدبهم وسيلة لنقد المجتمع وللمطالبة بالاصلاح السياسي والاجتماعي، ومن هؤلاء : أبو اسحق الإلبيري[١] والعسّال [٢] وبكّار المرواني[٣] .

وكان الشعب الأندلسي في القرن الخامس الهجري يتألف من عناصر سكانية مختلفة من العرب والبربر والموالي والمولدين والصقالبة[٤] ، وقد كان الطابع العربي الاسلامي هو الطابع السائد .

وقد شاركت هذه العناصر المختلفة العرب في الحياة الفكرية والثقافية فكان منهم الأدباء والعلماء والفقهاء والقضاة وكتاب الملوك[٥]، وأخذ كل عنصر منها حظه من الملك والسلطان ، واستقل بناحية من نواحي الأندلس بعد انهيار الخلافة فكان البربر يحكمون جنوب الأندلس ، والمولدون والصقالبة يحكمون شرق الأندلس، والعرب يحكمون أنحاء مختلفة من البلاد[٦] ، وقد شبت الخلافات السياسية واشتعلت الحروب بين هذه العناصر .

وقد عاش الى جانب المسلمين أبناء الديانات السماوية الأخرى في ألفة وانسجام، فقد تمتع اليهود والنصارى بقسط كبير من الحرية الفكرية والتسامح الديني[٧]، ومارسوا حياتهم العامة في الأرياف والمدن[٨]، كذلك فقد أسهموا في الحياة العلمية وألّفوا في علومهم المختلفة[٩] .

---

(١) هو أبو اسحاق ابراهيم بن مسعود التجيبي ، من أهل غرناطة ، وقد نفي الى البيرة ، واشتهر حتى نسب اليها ، وكان فقيها زاهدا وشاعرا مجوّدا ، وتوفي سنة ٤٦٠ هـ ، وله ديوان شعر نشره محمد رضوان الداية (انظر ترجمته في : بغية الملتمس : ص ٢١٠ ،التكملة : ج١ ،ص ١٣٦–١٣٧، المغرب : ج٢ ،ص ١٣٢ – ١٣٣ ،النفح : ج٣ ، ص ٤٩١ ،ج٤ ،ص ٣٢٢).

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن العسّال الطليطلي ، من أهل طليطلة ، وهو مشهور بالكرامات واجابة الدعوات ، وقد رحل عن طليطلة عندما سقطت بيد الصليبيين سنة ٤٧٨ هـ ، وبكاها بكاء مرا ، وكان حافظا للحديث وعارفا بالتفسير ، وشاعرا مفلقا ، وتوفي سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ،ص ٢٨٥ – ٢٨٦ ، المغرب : ج٢ ،ص ٢١) .

(٣) هو بكار بن داود المرواني : ولد سنة أربعين وأربعمائة في مدينة شنترة ، وانتقل الى قرطبة ، ثم استوطن اشبونة ، وكان غاية في الزهد ، وقد استشهد في جهاد العدو (انظر ترجمته في : المغرب : ج١ ، ص ٤١٥ – ٤١٦ ،النفح : ج٣ ،ص ٣٣٤ – ٤٤٠) .

(٤) انظر : جمهرة أنساب العرب : ص ٥٠ ، ١٣٢ ، ١٩٦ ، ٣٩٠، ٤٩٨–٥٠٢ .

(٥) انظر المصدر السابق نفسه : ص ٥٠٢ .

(٦) انظر المعجب : ص ١٢٧ ،صبح الأعشى : ج٥ ، ص ٢٤٨ – ٢٥٦ .

(٧) انظر : قصة الحضارة : ج٣م٤ ،ص ٥٢ .

(٨) انظر : أوروبا العصور الوسطى : ص ٥٥٥.

(٩) انظر طبقات الامم : ص ١١٤ .

وتولى كثير من اليهود والنصارى في ظل التسامح الديني مناصب مهمة في المجتمع الأندلسي ، فكان منهم الوزراء والكتّاب والشعراء والعلماء والأطباء ، وقد أشار الباحث الى من اشتهر منهم في الحديث عن الاوضاع السياسية .

وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فقد انتشرت الزراعة في مختلف أنحاء البلاد حتى كان بعض الأماكن لا تشمس لالتفاف أشجاره واشتباك غصونه (١) ، وأصبحت الزارعة المصدر الرئيسي للاقتصاد الأندلسي (٢) ، وأصبح الأندلسيون من أنبغ الشعوب في زراعة الأرض وتربية الماشية ، فبرعوا في طرق الري واقامة السدود والقناطر وما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات (٣) ، وقد ساعد على انتشار الزراعة وازدهارها سعة الأراضي الزراعية وخصوبتها وكثرة المياه والأنهار ، وقد جادت الأرض الأندلسية بأنواع مختلفة من الثمار والأشجار والنباتات (٤) .

وعرفت الأندلس كثيرا من الصناعات التي تعتمد على المنتوجات الزراعية والمستخرجات المعدنية (٥) ، ومن هذه الصناعات : استخراج الزيت والنحت وآلات الحرب والذخائر والصياغة والسفن والفسيفساء وغيرها (٦) ، وذكر ياقوت أنه كان يعمل بالمريّة " الوشي والديباج فيجاد عمله ، وكانت أولا تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المريّة ، فلم يثقف في الأندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل المرية (٧) .

وذكر الحجاري أنه كان يصنع بطليطلة من آلات الحرب العجائب (٨) ، واشتهرت اشبيلية بنسيجها النفيس وكانت سلعة مطلوبة في أنحاء العالم (٩) ، وكان فيها دار لصناعة السفن والأسلحة وأدوات البناء (١٠) .

---

(١) انظر الروض المعطار : ص ٥٩ .

(٢) انظر : اشبيلية في القرن الخامس الهجري : ص ٣٧ .

(٣) انظر : دول الطوائف : ص ٤٤١ . (٤) انظر : صفة المغرب :ص ١٨٦، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، الروض المعطار : ص ٤٦ ، ٥٩، ١٨٣ ، النفح: ج١ ،ص ٢٠٠.

(٥) انظر :الروض المعطار : ص ٣٢ ، النفح : ج١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٦) انظر:النفح : ج١ ،ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٧) معجم البلدان : ج ٥ ،ص ١١٩ . (٨) انظر المغرب : ج٢ ،ص ٩ .

(٩) انظر:تاريخ العرب العام : ص ٤٨٥ .

(١٠) انظر : رحلة الأندلس : ص ٧١ .

أما الحركة التجارية فقد نشطت بين الأندلس ودول أوروبا وبين الأندلس والمغرب وبين الأندلس ودول المشرق العربي مثل مصر والشام والعراق ، كما نشطت التجارة الداخلية بين الممالك الأندلسية [(١)]، ومما ساعد على ذلك وفرة الانتاج الزراعي والصناعي ، وكانت مراسي الأندلس نشطة بحركة السفن التجارية التي تقصدها من مختلف أنحاء العالم محملة بالبضائع من كل نوع ثم تعود محملة بالبضائع الأندلسية [(٢)] ، ومن ذلك ميناء المرية الذي كان " لمراكب التجار من مسلم وكافر "[(٣)] ، وكانت تصدر من مُرْسية [(٤)] " آلات الصُّفر والحديد والسكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي وما يبهر العقل"[(٥)] .

ومن أشهر الصادرات الأندلسية المواد الغذائية وخاصة الزيت الذي كان يعد من أطيب أنواع الزيوت ، ذكر الحميري عن اشبيلية أن " أهلها مياسر وجل تجارتهم بالزيت ، يتجهزون به منها الى أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا "[(٦)] . وقد جنى الأندلسيون من تجارتهم أرباحا طائلة .

وقد استمرت البلاد على هذه الحالة حتى جاء المرابطون ، فخلعوا ملوك الطوائف وأراحوا الناس من ظلمهم ووحدوا البلاد واتجهوا للجهاد ضد الصليبيين ، فساد الأمن وانتشر الهدوء والى ذلك يشير صاحب الأنيس المطرب بقوله : " وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ... ولم يكن في عمل بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم "[(٧)] .

---

(١) انظر: صفة المغرب : ص ١٩٧ ، ٢٠٠ ، تاريخ العرب العام : ص ٤٨٥ .
(٢) انظر : دول الطوائف : ص ٤٤٢ .
(٣) النفح : ج٣ ، ص ٥٧ .
(٤) مُرْسية : مدينة بالأندلس وهي قاعدة تدمير ، بناها الأمير عبدالرحمن بن الحكم (انظر : مراصد الاطلاع : ج٣ ، ص ١٢٥٨ ، الروض المعطار : ص ٥٣٩ - ٥٤٠) .
(٥) النفح : ج١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
(٦) الروض المعطار : ص ٥٩ .
(٧) الأنيس المطرب : ص ١٦٧ .

الاطـــــــار الفكـــــــري

ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس في القرن الخامس الهجري ازدهارا عظيما ، ونهضت العلوم والآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الاسلامي[١] على الرغم مما شهده الأندلس في هذا القرن من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل .

لقد أتت النهضة الفكرية التي شهدها الأندلس في القرن الرابع الهجري أكلها في هذا القرن[٢] فنضجت وازدهرت حتى غدت بلاد الأندلس مركز اشعاع حضاري وثقافي وفكري ، والى ذلك يشير صاحب المعجب بقوله : " ان عامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون اليها معدودون منها ، فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب مدارها "[٣] ، ومما ساعد على ذلك تعدد مراكز الحضارة الاسلامية في الأندلس بعد انقسام الدولة الكبيرة الى دويلات صغيرة يتنافس أصحابها في اجتذاب العلماء ورعاية العلم تنافسا حاميا[٤] ، الى جانب روح التسامح النسبي الذي أباحوه وخاصة فيما يتعلق بالدراسات القديمة[٥] ، فقد أبيحت تلك العلوم بعد أن اضطهد المنصور بن أبي عامر الفلسفة وأصحابها تحببا الى عوام الاندلس[٦] .

وكان معظم ملوك الاندلس في القرن الخامس الهجري من كبار العلماء والادباء والمؤلفين ، محبين للعلم ، فقربوا أهله ورفعوا مراتبهم وشجّعوهم ، وأغدقوا الصلات عليهم ، الى جانب رعايتهم لدولة الادب والشعر ، حتى غدت قصورهم بمثابة مجامع للعلوم والآداب والفنون يحج اليها كل طالب للعلم وراغب في الأدب[٧] .

فقد كان المعتصم بن صمادح أمير المريّة معنيّاً بشؤون الدين ، واقامة أحكام الشريعة ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوما في كل اسبوع للفقهاء والخواص ، يتناظرون بين يديه في كتب الحديث والتفسير[٨] . وكان للقاضي محمد بن عباد[٩] "في العلم والأدب باع ، ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع "[١٠] . أما المعتمد بن عباد فكان ملكا جليلا ، وعالما ذكيا ، مقتصرا من العلوم على علم الأدب ، وما يتعلق به وينضم اليه[١١] ،

---

(١) انظر : ابن زيدون : ص ١٣، تاريخ الفكر الأندلسي : ص ١٣، في الأدب الأندلسي : ص ١٦٢ . (٢) انظر : البيئة الأندلسية : ص ٤٢-٤٣، تاريخ الفكر الأندلسي : ص ١٣ . (٣) المعجب : ص ١٢٧ . (٤) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي : ص ١٣ . (٥) انظر : الأدب الأندلسي : ص ٥٦ ، الحركة اللغوية في الأندلس : ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . (٦) انظر : طبقات الأمم : ص ٨٦ .
(٧) انظر : دول الطوائف : ص ٤٢٣ ، مجاهد العامري : ص ٤٤ . (٨) انظر : الحلة السيراء : ج٢، ص ٨٢ . (٩) هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، أول ملوك بني عباد باشبيلية ، توفي سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٨٠ ، الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ١٣ ، أعمال الأعلام : ج٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٥) .
(١٠) الذخيرة : ق٢م١، ص ١٣ . (١١) انظر : المعجب : ص ٧١ .

وكان يراسل العلامة اللغوي الأعلم الشنتمري[١] ويناقشه مناقشة لغوية[٢].

وكان المقتدر بن هود أمير سرقسطة من أكبر المعنيين بالعلوم والمشاركين فيها ، وكان ابنه المؤتمن رجلاً عالماً قد طالع الكتب[٣] وعني بالفلسفة والرياضيات حتى بلغ شأواً كبيراً فيهما ، وألف رسالة سماها " الاستكمال "[٤] ، وغدت سرقسطة في عهدهما مركزا للعلوم والرياضيات والفلسفة[٥] . وكان أبو الجيش مجاهد العامري أمير دانية من أكبر العلماء في عصره ولاسيما في علم العربية ، " فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب ، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم ، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير "[٦] .

ولقد ازدهرت الدراسات العلمية المختلفة في هذا القرن ، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء الأفذاذ ، ففي مجال العلوم الدينية بلغ علماء الأندلس الغاية ، ونبغ كثيرون منهم : ابن الصَّيرفي[٧] الذي كان من كبار المقرئين في عصره ، وابن حزم الأندلسي الذي كان فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً في العلم والأدب والعقائد وأصول المذاهب والنحل وغيرها[٨] ، ومنهم أبو عمر بن عبدالبر[٩] وكان امام عصره وواحد دهره في الفقه[١٠] ، ومنهم أبو الوليد الباجي[١١] ، قال عنه ابن حزم : " لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد "[١٢] ، ومنهم ابن الطَّلَّاع الذي كان مفتي الأندلس في عصره ومحدثها[١٣] .

---

(١) هو ابو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى ، من أهل شنتمرية الغرب ، وبها ولد سنة ٤١٠ هـ ، ورحل الى قرطبة ثم الى اشبيلية وأقام بها مدة درس فيها ، وتوفي سنة ٤٧٦هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة " أشعار الستة الجاهليين " و " شرح ديوان زهير " (انظر ترجمته في : الصلة : ج٢، ص ٦٨١، معجم الادباء ج٢، ص ٦٠ ، وفيات الاعيان : ج٧، ص ٨١-٨٢، مرآة الجنان : ج٣، ص١٥٩، بغية الوعاة : ج٢، ص ٣٥٦ ، النفح : ج٤ ، ص ٧٥) . (٢) انظر النفح : ج٤، ص ٧٥ . (٣) انظر : مذكرات الامير عبدالله : ص ٧٨ . (٤) انظر : النفح : ج١، ص ٤٤١ . (٥) انظر : دول الطوائف : ص ٢٩٤ . (٦) البيان المغرب : ج٣، ص ١٥٦ . (٧) هو أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ، من أهل دانية ، وولد بها سنة ٣٧١ هـ ، رحل الى المشرق فحج وزار مصر ، ثم رجع الى الأندلس وسكن دانية ، وتوفي سنة ٤٤٠ هـ ، وله مؤلفات حسان وأرجوزة مشهورة في القراءات (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٣٠٥ ، الصلة : ج١ ، ص ٣٩٨ ، بغية الملتمس : ص ٣٩٩ ، النفح : ج٢، ص ١٣٥ . (٨) انظر : الجذوة : ص ٣٠٨ — ٣١١ . (٩) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي ، مالكي ومن كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ أديب بحاثة ، ولد بقرطبة ، ورحل الى المشرق ، ثم عاد الى الاندلس وولي قضاء عدد من المدن منها لشبونة وشنترين ، وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة " الاستيعاب في معرفة الاصحاب " و " الانباه على قبائل الرواة " (انظر ترجمته في : ترتيب المدارك : ج٤ ، ص ٨٠٩ ، الصلة : ج١ ، ص ٦٧٧ ، المغرب : ج٢ ، ص ٤٠٧ ، تذكرة الحفاظ : ج٣ ، ص ١٢٨ ، شذرات الذهب : ج٣ ، ص ٣١٤) . (١٠) انظر الصلة : ج٢ ، ص ٦٧٧ . (١١) هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي القرطبي ، من كبار أئمة المسلمين بالأندلس ، ولد في باجة سنة ٤٠٣هـ ، ورحل الى المشرق ثم عاد الى الاندلس وتولى القضاء في بعض أنحائها ، وتوفي بالمرية سنة ٤٧٤ هـ ، (انظر ترجمته في الذخيرة : ق٢م١، ص ٤٩٤ ، ترتيب المدارك : ج٤ ، ص ٨٠٢ ، وفيات الاعيان : ج١ ، ص ٤٠٨ ، النفح : ج٢ ، ص ٧٥ — ٧٧) . (١٢) ترتيب المدارك: ج٤، ص ٨٠٢، وعبدالوهاب هو أبومحمد عبدالوهاب بن علي بن نصر، من كبار علماء المالكية رحل من بغداد واستقر بمصر وحمل لواء المالكية فيها (انظر ترجمته في: الذخيرة : ق٤م٢، ص ٥١٥، ترتيب المدارك: ج٤، ص ٦٩١، وفيات الأعيان: ج٣، ص ٢١٩، فوات الوفيات: ج٢، ص ٤١٩) . (١٣) انظر الصلة : ج٢ ، ص ٥٦٤ .

وحظيت العلوم اللغوية في هذا القرن بمكانة رفيعة ، وظهر عدد من كبار علماء اللغة والنحو في الأندلس منهم : ابن التيَّاني[١] ، وابن سيده[٢] ، والأعلم الشنتمري الذي كان امام النحاة في زمانه[٣] ، ومنهم ابن سراج النحوي[٤] امام اللغة بالأندلس ومحيي علم اللسان بها[٥] .

ومنهم ايضا ابن السِّيد البطليوسي[٦] الذي كان عالما باللغات والآداب متبحرا فيها[٧] . ومنهم ابن الطراوة[٨] نحوي المرية الذي لم يكن في علم العربية مثله[٩] .

وازدهر في هذا القرن علم التاريخ ، واحتفل به لأنه كان يعتبر من أنبل العلوم عندهم[١٠] ، وبرزوا فيه وكأنهم أرادوا بذلك اظهار ما لهذا الصقع النائي من فضيلة يتميز بها بين بلاد العالم الاسلامي[١١]. وظهر عدد كبير من العلماء في شتى فروع علم التاريخ ، فقد نبغ في تاريخ الأندلس العام: أبو عامر بن مسلمة[١٢] الذي ألف كتابا سماه

---

(١) هو أبو غالب تمام بن غالب بن عمر المُرْسي ، من أعلام اللغة المشهورين بالأندلس ، سكن مرسية ، وعرف بالديانة والورع والعفة ، توفي بالمرية سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في : فهرسة ابن خير : ص ٣٥٩ ، معجم الادباء : ج١٧ ، ص ٣٥ ، انباه الرواة : ج١ ،ص ٢٥٩ ،المغرب : ج١ ،ص ١٦٦ ،بغية الوعاة : ج١ ،ص ٤٧٨ – ٤٧٩) .

(٢) هو أبو الحسن علي بن اسماعيل ابن سيده ، العلامة اللغوي الأعمى المشهور ، وصاحب كتاب " المخصص " ، ولد بمرسية سنة ٣٩٨هـ ، ثم انتقل الى دانية ، وانقطع للامير مجاهد العامري، توفي سنة ٤٥٨ هـ (انظر ترجمته في : طبقات الأمم : ص ١٠٠ ، وفيات الاعيان : ج٣ ،ص ٣٠٣ ،بغية الوعاة : ج٢ ،ص ١٤٣) .

(٣) انظر بغية الوعاة : ج٢ ،ص ٣٥٦ .

(٤) هو أبو مروان عبدالملك بن سراج ، وزير من بيت علم ووقار ، ولد بقرطبة سنة ٤٠٠ هـ ، وكانت الرحلة في وقته اليه، وقد أحيى كتبا كثيرة كان يفسدها الرواة منها كتاب " البارع في اللغة " للقالي و " النبات " لأبي حنيفة ، واستدرك أوهام مؤلفيها أنفسهم ،توفي سنة ٤٨٩ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ١ م٢ ،ص ٨٠٨ ،الصلة : ج٢ ،ص ٣٦٣ ،بغية الملتمس : ص ٣٨٠ ،المغرب : ج١ ،ص ١١٥ ،بغية الوعاة : ج٢ ،ص ١١٠) .

(٥) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٠٨ ،المغرب : ج١ ،ص ١١٥ .

(٦) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد ، أصله من بطليوس وولد بها سنة ٤٤٤هـ ، سكن بلنسية ولم يخرج من الاندلس ، وقد رحل اليه كثيرون للاخذ عنه ، وقد توفي سنة ٥٢١ هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة : " الاقتضاب في شرح أدب الكتاب " ، و " الانتصار ممن عدل عن الاستبصار " . (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ،ص ٢٩٢ ،بغية الوعاة : ج٢ ،ص ٥٥ – ٥٦ ،أزهار الرياض : ج٣ ،ص ١٠١) .

(٧) انظر : بغية الوعاة : ج١ ،ص ٥٥ .

(٨) هو أبو الحسين سليمان بن محمد السبائي المالقي ، نحوي وأديب ،تجول كثيرا في الاندلس ، وأخذ عنه عدد من أئمة العربية بالاندلس ، وله كتاب " المقدمات على سيبوية " ، وقد توفي سنة ٥٢٨ هـ (انظر ترجمته في: المغرب : ج٢ ،ص ٢٠٨ ،الوافي بالوفيات : ج٢ ،ص ٧٩ –٨٠ ،بغية الوعاة: ج١ ،ص ٦٠٢) .

(٩) انظر المغرب : ج٢ ،ص ٢٠٨ .

(١٠) انظر : الشعر في ظل بني عباد :ص ٦٤ .

(١١) انظر : الاسلام في اسبانيا : ص ٦٦ .

(١٢) هو محمد بن عبدالله بن مسلمة ،أحد جهابذة الكلام ،وجماهير النثار والنظام، اختص بمدح المعتضد بن عباد ، واشتهر بمراسلاته مع ادباء عصره مثل ابن الأبار ،وادريس بن اليمان وغيرهما (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٦٥ ،الذخيرة : ق٢م١،ص ١٠٥ – ١٢٤ ،المغرب : ج١، ص ٩٦ – ٩٧) .

" حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح " وأهداه للمعتضد بن عباد[1]، واشتهر أيضا ابن حيان[2] الذي يعد عميد مؤرخي الأندلس[3] .

واشتهر في تاريخ العلوم صاعد الأندلسي[4] ، ونبغ في تاريخ الدول الأمير عبدالله بن بلقين الذي سجل في مذكراته تاريخ دولة بني زيري في غرناطة[5] ، وممن اشتهر في تاريخ المدن ابن علقمة[6] الذي وضع كتابا سماه " البيان الواضح في العلم الفادح "[7] وهو في أمر بلنسية وحصارها في فترة الاحتلال القشتالي لها في نهاية القرن الخامس الهجري[8] ، واشتهر في تاريخ السير والتراجم الحميدي[9] صاحب كتاب " جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس " .

ونبغ في الجغرافيا عدد من العلماء منهم ابن فياض[10] الذي وضع كتابا عن الطرق والانهار في الأندلس[11] ، ومنهم ابن الدَّلائي[12] الذي

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٣م١، ص ١٠٦ .

(٢) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان ، من أهل قرطبة ، ولد سنة ٣٧٧هـ ، وتوفي سنة ٤٦٩ هـ ، وهو صاحب كتاب المقتبس في أخبار الاندلس (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٨٨ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٥٧٣ - ٦١٤ ، الصلة : ج١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ، كشف الظنون : ج١ ، ص ٤٥٦) .

(٣) انظر : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس : ص ١٠١ .

(٤) هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي ، ولد بالمرية سنة ٤٢٠ هـ ، وكان فقيها مشهورا وعالما كبيرا ، وقد تولى القضاء في طليطلة لبني ذي النون الى أن توفي سنة ٤٦٢ هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة " طبقات الامم " وهو في تاريخ العلوم عند الأمم المختلفة (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ، ص ٢٣٦ ، بغية الملتمس : ص ٣٢٣) .

(٥) انظر مقدمة مذكرات الامير عبدالله .

(٦) هو أبو عبدالله محمد بن خلف الصدفي ، من أهل بلنسية ، وممن عاصر الاحتلال القشتالي لها ، توفي ببلنسية سنة ٥٠٩ هـ (انظر ترجمته في : التكملة : ج١ ، ص ٤١١ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٣٠٦ ، الوافي بالوافيات : ج٣ ، ص ٤٥) .

(٧) ضاع هذا الكتاب ولم يصل الينا ، واحتفظ عدد من المصادر بنقول منه انظر : التكملة : ج١ ، ص ٢٣ ، ٢٤٠ ، ٤٨٦ ، النفح : ج٤ ، ص ٣٥٤ .

(٨) انظر التكملة : ج١ ، ص ٤١٢ .

(٩) هو أبو عبدالله محمد بن أبي نصر بن فتوح الحميدي ، من أهل جزيرة ميورقة بالاندلس ، رحل الى المشرق سنة ٤٤٨هـ فحج وسمع بمكة ودمشق وغيرها ، واستوطن بغداد ، وكان فقيها محدثا متبحرا في الآداب والعربية ، توفي سنة ٤٨٨ هـ (انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ : ج١ ، ص ١٢١٨ ، العبر : ج٣ ، ص ٣٢٣ ، الوافي بالوفيات : ج٢ ، ص ٥٢ ، النفح : ج٢ ، ص ١١٢) .

(١٠) هو أحمد بن سعيد بن محمد ، أصله من استجة ، سكن المرية ، وله تأليف في الخبر والتاريخ ، توفي سنة ٤٥٩ هـ (انظر ترجمته في : المعجب : ص ٤٣١ ، ٤٥٦ ، الصلة : ج١ ، ص ٦٠ ، النفح : ج٣ ، ص ١٨٢) .

(١١) انظر المعجب : ص ٤٣١ ، وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل الينا .

(١٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي ، من أهل دلاية من أعمال المرية ، ولد ببستة سنة ٣٩٣ هـ ، وهو محدث وحافظ وجغرافي مشهور ، توفي سنة ٤٧٨ هـ (انظر ترجمته في : بغية الملتمس : ص ١٩٥ - ١٩٧ ، شذرات الذهب : ج٣ ، ص ٣٥٧) .

ألف كتابا في الجغرافيا سماه " نظام المرجان في المسالك والممالك"[١]، ومنهم أيضا أبو عبيد البكري [٢] الذي وضع أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب سماه " معجم ما استعجم "[٣] .

ونبغ من الفلاسفة في القرن الخامس الهجري سعيد بن فتحون السرقسطي[٤]، وابن البغونش[٥] ، واسحق بن قسطار[٦] ، وابن خلدون[٧]، وابن جيروال[٨].

وعرفت الأندلس تقدما ملموسا في حقل العلوم التطبيقية ونشاطا ملحوظا في ميادينه المختلفة ، فنبغ في الطب عدد من الاطباء منهم: ابن الذهبي[٩] والكرماني[١٠]، وابن جناح[١١] ،

---

(١) حقق نصوصا منه عبدالعزيز الأهواني ، انظر فهرس المصادر في آخر البحث.
(٢) هو أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، علم لغوي ومؤرخ جغرافي وشاعر سياسي ، ولد في شلطيش غربي اشبيلية ثم انتقل الى دانية ثم سار الى المرية فاصطفاه أميرها المعتصم بن صمادح الى أن سقطت دول الطوائف فغادر المرية الى قرطبة ، وتوفي سنة ٤٨٧هـ ، من كتبه المطبوعة : " مسمط اللآلئ " و " فصل المقال " (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٢ م ١ ،ص ٢٣٢ ،الصلة : ج١ ،ص ٢٨٧ ،عيون الأنباء : ص ٥٠٥، فوات الوفيات : ج١ ، ص ٢١٢) .

(٣) انظر : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس : ص ١٢٤ ،والمعجم مطبوع ومنشور . (٤) هو أبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار،كان اماما متحققا في علم النحو واللغة والفلسفة والمنطق وله تأليف في الموسيقى ورسالة في المدخل الى علم الفلسفة ،توفي بصقلية سنة ٤٣٦هـ (انظر ترجمته في: طبقات الامم: ص ٨٩، الجذوة : ص ٢٢٣، بغية الملتمس :ص٣١١، الذيل والتكملة : ج٤،ص ٣٠ ، النفح : ج٣،ص ١٧٥).
(٥) هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش ،من أهل طليطلة ، ولد سنة ٣٦٩هـ ،ورحل الى قرطبة وطلب العلم بها ، ثم عاد الى طليطلة واتصل بأميرها اسماعيل بن ذي النون ، وحظي عنده بمكانة رفيعة ،وقد ترك آخر حياته قراءة العلوم ومال الى الزهد ، توفي سنة ٤٤٤هـ (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ١٠٧ ،عيون الانباء : ص ٤٩٥-٤٩٦).
(٦) هو اسحق بن قسطار اليهودي ، كان خادما لمجاهد العامري ولابنه اقبال الدولة علي ، وكان بصيرا بأصول الطب وله معرفة كبيرة بالمنطق وآراء الفلاسفة ، توفي بطليطلة سنة ٤٤٨ هـ (انظر ترجمته في : طبقات الامم ص ١١٤ ،عيون الأنباء : ص ٤٩٩) .
(٧) هو أبو مسلم عمر بن أحمد الحضرمي المعروف بابن خلدون ،من أشراف أهل اشبيلية ، كان متصرفا في علوم الفلسفة والنجوم والهندسة والطب ، توفي سنة ٤٤٩هـ (انظر ترجمته في طبقات الامم : ص ٩٣ ،عيون الانباء : ص ٤٨٥ ،النفح : ج٣،ص ٣٧٦) .
(٨) هو سليمان بن يحيى بن جيروال ، من أهل سرقسطة ، ومن كبار علماء اليهود بها ، كان مولعا بصناعة المنطق ومن أهل الاعتناء بالفلسفة ،توفي سنة ٤٥٠ هـ (انظر : طبقات الامم : ص ١١٤) .
(٩) هو أبو محمد بن عبدالله بن محمد ،من كبار المتقنين لصناعة الطب في الاندلس ،توفي سنة ٤٥٦هـ (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ١٠٩، عيون الانباء : ص ٤٩٧). (١٠) هو أبو الحكم عمر بن عبدالرحمن بن احمد ، من الراسخين في علم الهندسة والطب ، رحل الى المشرق واستقر بحران ،ثم عاد الى الاندلس واستوطن سرقسطة ،وقد جلب معه رسائل اخوان الصفاء،وتوفي سنة ٤٥٨هـ (انظر ترجمته في: طبقات الامم :ص ٩٢، اخبار الحكماء : ص١٦٢، النفح : ج٣،ص ٣٧٦). (١١) هو أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي ،طبيب وعالم يهودي ،كانت له عناية كبيرة بصناعة الطب والادوية (انظر ترجمته في: طبقات الامم : ص ١١٤،عيون الانباء : ص ٤٩٨ - ٥٠٠) .

وابن وافد اللخمي[1] ، وأبو العلاء بن زهر[2] .

ونبغ في علم النبات عدد من العلماء منهم : ابن بصّال[3] الذي ألف كتابا في الفلاحة ، واعتمد فيه على تجاربه الشخصية[4] ، ومنهم أبو عبدالله محمد بن مالك[5] .

وظهر في الفلك والرياضيات والهندسة عدد من العلماء منهم: ابن السمح[6] ، وابن الحنّاط[7] ، وابن سيد الكلبي[8] ، وأبو الوليد الوقّشي[9] ، وولد الزرقيال[10] الذي يعتبر من أعظم علماء الفلك عند العرب[11] .

---

(١)هو أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالكبير ، ولد بطليطلة سنة ٣٩٨ هـ ووقف على كتب جالينوس وأرسطو وغيرهما ، وله تأليف في علم الادوية المفردة ما زال مخطوطا في مكتبة الاسكوريال (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ١٠٧ - ١٠٨ ، التكملة : ج٢ ،ص ٥٥١ ، فهرس مخطوطات الاسكوريال : مخطوط رقم ٨٢٨) .

(٢)هو أبو العلاء زهر بن عبدالملك بن زهر الايادي ، شاعر طبيب نشأ باشبيلية ومال الى علم الطب منذ الصغر ، وله رحلات كثيرة ، وكان من أطباء المعتمد بن عباد ثم أصبح طبيبا ليوسف بن تاشفين بعد نكبة المعتمد ، وتوفي باشبيلية سنة ٥٢٥ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢ م١،ص ٢١٨ - ٢٣١ ، عيون الانباء : ص ٥١٧ - ٥١٩ ، وفيات الاعيان:ج٤ ، ص ٤٣٦ ،النفح : ج٣ ،ص ٢٤٦ ، ٤٣٢).

(٣)هو أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن بصال ،من أهل طليطلة ،كان يشرف على حدائق بني ذي النون في طليطلة ، ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى غادرها الى اشبيلية وأشرف هنالك على حدائق بني عباد (انظر أخباره في: مقدمة كتاب الفلاحة : ص ١٢ ، المغرب : ج٢ ،ص ٩ ،النفح : ج٣ ،ص ١٥١).
(٤)انظر مقدمة كتاب الفلاحة :ص١٤.
(٥)هو ابو عبدالله محمد بن مالك الطغنري ،من أهل غرناطة ،كان أديبا شاعرا ،ومن أهل الفضل والخير والعلم،وله عدة مؤلفات منها كتاب في الفلاحة سماه " زهرة البستان ونزهة الأذهان " ،كان حيا سنة أربعمائة وثمانين للهجرة (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م٢،ص ٨٠٥ ،الاحاطة : ج٢ ،ص ٣٧٩ - ٣٨٢).

(٦)هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح ، مهندس فلكي ، ولد بغرناطة سنة ٣٧٠هـ ،له عدة مؤلفات منها كتاب " ثمار العدد " ، توفي سنة ٤٢٦هـ (انظر ترجمته في : طبقات الأمم : ص ٩٠ - ٩١ ،النفح :ج٣ ،ص ٣٧٥).

(٧)هو أبو بكر يحيى بن أحمد بن الحناط ، برع في علوم النجوم والهندسة ، توفي بطليطلة سنة ٤٤٧هـ (انظر ترجمته في : عيون الانباء : ص ٤٩٧).

(٨)هو أبو زيد عبدالرحمن بن عبدالله بن سيد الكلبي ،من أهل بلنسية، ويقال أنه لم يعدله أحد في زمانه في الهندسة والحساب،توفي سنة ٤٥٦هـ (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ٩٨ ،التكملة :ج٢ ،ص ٥٥٠).
(٩)هو أبو الوليد هشام بن خالد الوقشي ، من أهل طليطلة ،كان عالما فلكيا مشهورا وقد أحاط بكثير من العلوم الدينية واللغوية ، وأجاد الشعر توفي بدانية سنة ٤٨٦هـ (انظر ترجمته في : طبقات الأمم : ص ٩٦،الصلة : ج٢ ،ص ٥٩٢ - ٥٩٣،النفح : ج٣ ،ص ٣٧٦).
(١٠)هو أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش ،ولد سنة ٤٢٠ هـ ،واشتهر بابتكاراته الفلكية، ومنها صحيفة في الرصد تعرف بالزرقيالة (انظر ترجمته في : طبقات الامم : ص ٩٨ ،تاريخ الحكماء : ص ٥٧).
(١١) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي : ص ٤٥١ .

وقد تعددت مظاهر نشاط الحركة الفكرية في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، ومن هذه المظاهر وفرة الانتاج الفكري وتنوعه ، وقد تميز هذا الانتاج الفكري بالتجويد والاحكام في التأليف ، ووفرة الانتاج المنسوب الى كل علم من الاعلام[١] .

ومن أشهر مؤلفات هذا القرن : " البديع في وصف الربيع " لحبيب[٢] ، و " جمهرة أنساب العرب " و " الفصل في الملل والأهواء والنحل " لابن حزم و " المخصص " لابن سيده و " الاستيعاب في معرفة الاصحاب " و " بهجة المجالس وآنس المجالس " لابن عبد البر ، و " تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل " للحميدي[٣] .

ومن هذه المظاهر أيضا انتشار المجالس العلمية ، وهي نوعان: مجالس تعقد حلقاتها في المساجد للتدريس ، ومجالس تعقد للمناظرة والمناقشة ، أما الاولى فقد غصت بها المساجد الاندلسية ، وكانت تدرس فيها أكثر علوم العصر ، واستأثرت علوم اللغة والشريعة معظم نشاطها[٤] ، ومن أشهر العلماء الذين تصدروا هذه المجالس : الهدهد بن الصناع[٥] الذي أقرأ آخر دهره بجامع بلنسية ، وأخذ عنه به جماعة كبيرة[٦] ، وأبو علي الصدفي[٧] الذي جلس في مرسية يحدث الناس بجامعها ، ورحل الناس اليه من مختلف البلدان[٨] .

أما الثانية فكانت تعقد للمناقشات والمناظرات في المسائل العلمية والفكرية ، وخاصة في الفقه والمذاهب ، ومنها تلك المجالس التي شهدتها

---

(١) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس : ص ١٦٥ .

(٢) هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر الملقب بحبيب ، من أهل اشبيلية ، كان آية في الذكاء والفهم والبلاغة والشعر ، توفي سنة ٤٤٠ هـ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٦٢ ، الذخيرة : ق ٢ م١ ،ص ١٢٤ ،التكملة : ج١ ،ص ١٨٠ ،النفح ج٣ ،ص ٤٢٧) .

(٣) جميع هذه الكتب مطبوعة ومنشورة عدا كتاب " تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل " فهو ما زال مخطوطا ،ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٢٣٥٠ أدب) .

(٤) انظر : الحركة العلمية في بلنسية : ص ٢١٧ .

(٥) هو أبو بكر محمد بن ابراهيم الصّناع ،الملقب بهدهد ،كان من كبار المقرئين في عصره ومن المشاركين في الأدب واللغة والحفظ للاشعار والاخبار ، توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في : التكملة : ج ١ ،ص ٤١١) .

(٦) انظر التكملة : ج١ ص ٤١١ . (٧) هو أبو علي حسين بن محمد ويعرف بابن سُكَّرة الصدفي ،وهو من أهل سرقسطة ،سكن مرسية ،رحل الى المشرق ثم عاد واستوطن مرسية ،كان فاضلا دينا عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ،وكان حسن الخط جيد الضبط ،وقد شهد وقعة كتنبذة سنة ٥١٤هـ واستشهد فيها . (انظر ترجمته في الصلة :ج١ ،ص ١١٤ ، مقدمة كتاب المعجم في أصحاب القاضي ابي علي الصدفي ،النفح ج٢ ،ص ٩٠) .

(٨) انظر : النفح : ج٢ ،ص ٩١ .

بلنسية في عهد مظفر العامري[١] وكانت تدور فيها المناظرات حول مذهب الامام مالك[٢] ، ومنها أيضا تلك المجالس التي شهدت مناظرات ابن حزم مع فقهاء المالكية بالأندلس ، وخاصة مع أبي الوليد الباجي[٣] .

ومن هذه المظاهر أيضا الرحلة في طلب العلم ، فقد نمت وازدهرت وتهيأت لها كل الأسباب رغم الانقسامات السياسية الظاهرة في الأندلس والمشرق ، فلم تعرف الحدود المصطنعة التي تحد بشكل أو بآخر من حرية انتقال العلماء وطلاب العلم في ديار الإسلام ، وذلك أن الأمة تمتعت بوحدة ثقافية نادرة ، وغدت الرحلة في طلب العلم عرفا علميا اسلاميا[٤]، وكانت على نوعين : داخلية وخارجية ، كانت الداخلية إلى العواصم الأندلسية[٥] التي غدت حواضر للعلم يؤمها العلماء وطلاب العلم من كل حدب وصوب ، أما الخارجية فكانت تتجه إلى المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق[٦] ، كذلك فقد كثر الوافدون إلى الأندلس من المشرق[٧] ، فزادوا الحضارة الاسلامية في الأندلس نموا وازدهارا ، وكان يتردد على المدن الأندلسية عدد من علماء أوروبا وطلابها لدراسة العلوم العربية وتراث اليونان الذي نقل للعربية[٨] .

ومن هذه المظاهر انتشار المكتبات ، فقد شغف الأندلسيون في اقتناء الكتب حتى أصبح اقتناء الكتاب والسعي للحصول عليه مفخرة[٩] ، فبعد انهيار الخلافة الاموية ، واجتياح قرطبة ،وزعت خزائن كتبها على حواضر الأندلس

---

(١) من فتيان بني عامر ، وقد اشترك مع مبارك العامري في حكم بلنسية ، بعد أن ترقيا من وكالة الساقية ببلنسية الى ملك الحضرة ، واقامة رسوم السلطان بها ، وقد توفي مظفر بعد مقتل مبارك ببلنسية سنة ٤٠٨هـ (انظر أخباره في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٣ ، المغرب : ج٢ ، ص ٢٩٩ ،البيان المغرب : ج٣ ، ص١٥٨ ، أعمال الأعلام :ج٢ ،ص ٢٢٢).

(٢) انظر : سير النبلاء – جزء خاص بترجمة ابن حزم الأندلسي : ٢٩ .

(٣) انظر : الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٩٦ .

(٤) انظر : الحركة العلمية في بلنسية : ص ٤٩٧ – ٤٩٨ .

(٥) انظر : طبقات الأمم : ص ١٠٧ ،عيون الأنباء : ص ٤٩٥ .

(٦) انظر : طبقات الامم : ص ٩٢ ،الصلة : ج١ ،ص ٢٢٨ ،ج ٢ ،ص ٢٣٦ ، النفح : ج٢ ،ص ٧٥–٧٧ ، ١٣٥ .

(٧) انظر : الجذوة : ص ٣٥٦ ، الذخيرة : ق٤ م١ ،ص ١٦٩ ، ٢٤٥ ،الصلة : ج٢،ص ٦٠٣ .

(٨) انظر : تراث الاسلام : ج١ ،ص ٥٦ .

(٩) انظر : النفح : ج ١ ، ص ٤٦٢ .

واندفع كثير من المثقفين والعلماء والملوك والوزراء والكتاب الى اقتناء الكتب ، فانتشرت المكتبات الخاصة والعامة[1] ، وممن اشتهر بجمع الكتب : أبو جعفر بن عباس[2] الذي جمع من الدواوين العلمية ما لم يكن عند ملك[3] ، ومجاهد العامري ، الذي جمع من دفاتر العلوم خزائن جمة[4] ، وكان المظفر بن الأفطس[5] صاحب بطليوس جمّاعة للكتب ذا خزائن عظيمة[6] ، وكان لأبي محمد الأرْوَشي[7] همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها ، وجمع من ذلك شيئا عظيما[8] ، وقد ساهمت هذه المكتبات في ازدهار الحركة الفكرية وخلق وعي علمي شامل في الأُندلس.

ولعناية الأندلسيين بالكتابة ازدهرت عندهم صناعة الوراقة التي تعنى بنسخ الكتب وتجليدها وتصحيحها بالضبط والرواية والتنميق ، وقد ساعد ذلك على اثراء المكتبات بالكتب الأندلسية والمشرقية ، وانتشرت مصانع الورق في بعض المدن الأندلسية مثل : بلنسية وشاطبة[9] وطليطلة

---

(١) انظر: الحركة اللغوية في الاندلس : ص ٢٦٤ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عباس ، وزير زهير الصقلبي ملك المرية في مطلع القرن الخامس الهجري ، كان حسن الكتابة ، جميل الخط ، غزير الادب ، مشاركا في الفقه ، وقد بذ الناس في وقته في أربعة أشياء : المال ، البخل ، العجب والكتابة ، وقد قتله باديس بن حبوس ملك غرناطة سنة ٤٢٧ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٢ م ١ ، ص ٦٤٢ ، المغرب : ج٢ ، ص ٢٠٥ ، الاحاطة : ج ١ ، ص ٢٥٩ ، النفح : ج ٣ ، ص ٥٣٥) .

(٣) انظر: الاحاطة : ج١ ، ص ٢٥٩ .

(٤) انظر : البيان المغرب : ج ٣ ، ص ١٥٦ .

(٥) هو أبو بكر المظفر محمد بن عبدالله بن مسلمة بن الأفطس ، تولى حكم بطليوس بعد والده سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، وكان من أعلم ملوك الأندلس بالنسب وأيام العرب ، وأجمعهم لغرائب الأخبار ومحاسن الاشعار وله تأليف بديع سماه " المظفري " ، ويقع في خمسين مجلدا ، وقد توفي سنة ستين وأربعمائة للهجرة (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٤٠ ، المطرب : ص ٢٢ ، المغرب : ج١ ، ص٣٦٤ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٢٣٦ ، أعمال الاعلام : ج٢ ، ص١٨٤ ، النفح : ج٣ ، ص ٣٨٠) .

(٦) انظر : النفح : ج٣ ، ص ٣٨٠ .

(٧) هو أبو محمد عبدالله بن حيان الأرْوَشي ، فقيه محدث ، ولد سنة ٤٠٩ هـ ، سكن بلنسية ، وقد تعرضت مكتبته لنكبة ، ولا يعرف سبب ذلك ، وذكر المؤرخون أن المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة أخذ كتب الارْوَشي من داره وسيقت الى قصره في مائة وثلاثة وأربعين عدلا من أعدال الحمالين ، وتوفي سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ، ص ٢٨٨ ، بغية الملتمس : ص ٣٤٣) .

(٨) انظر: الصلة : ج١ ، ص ٢٨٨ .

(٩) شاطبة : مدينة جليلة بالاندلس ، تقع في شرق قرطبة ، وكانت حاضرة آهلة بالسكان (انظر : مراصد الاطلاع : ج٢ ، ص ٧٧٤ ، الروض المعطار : ص٣٣٧) .

وغرناطة[١] ، واشتهرت بعض المدن الاندلسية بأسواق الكتب التي كان يتردد عليها رجال الادب بحثا عن النسخ النادرة من المؤلفات المختلفة[٢] .

ولمع في هذا القرن عدد من الورّاقين منهم : الأخفش بن عمر[٣] الذي كان وراقا محسنا ضابطا يتنافس في ما يكتب ويغالي به[٤] ، وابن سارة الشنتريني[٥] الذي كان مليح الكتابة ، وقد نسخ الكثير بالاجرة[٦] .

ومن المظاهر العلمية التي تلفت النظر في هذا القرن ولع الاندلسيين بأصول الثقافة المشرقية : دراسة وشرحا ومعارضة وردا واختصارا ومشاكلة وحفظا ، فقد كانت اشراق العروضية تحفظ " الكامل " للمبرد ، و " النوادر " للقالي[٧] ، وكان ابن عبدون يحفظ "كتاب الاغاني"[٨] وشرح ابن الافليلي[٩] على " ديوان المتنبي "[١٠] ، وشرح الأعلم الشنتمري " الاشعار الستة الجاهلية "[١١] ، وعارض ابن بسام في الذخيرة كتاب اليتيمة للثعالبي .

---

(١) انظر : الحركة العلمية في بلنسية : ص ٢٧١ .

(٢) انظر : مجلة معهد المخطوطات العربية : م٥ ج١ ،المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية : ص ٧٨ .

(٣) هو أبو القاسم الأخفش خلف بن عمر ، من أهل جزيرة شقر ، سكن بلنسية وكان يعلّم العربية والاداب ، وقد توفي سنة ٤٦٠ هـ (انظر ترجمته في التكملة : ج١ ،ص ٢٩٧) .

(٤) انظر : التكملة : ج١ ،ص ٢٩٧ .

(٥) هو أبو محمد عبدالله بن سارة ، ويقال ابن صارة الشنتريني ،ناثر شاعر مغلق ، سكن اشبيلية ، وتعيش فيها بالوراقة ، وتجول في بلاد الاندلس مادحا ، وتوفي سنة ٥١٧ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٨٣٤ ، المغرب : ج١ ،ص ٤١٩ ،المسالك : ج١١ ،ص ٣٨٣ ،بغية الوعاة : ج٢ ،ص ٥٧) .

(٦) انظر : بغية الوعاة : ج٢ ،ص ٥٧ .

(٧) انظر : المصدر السابق : ج ١ ،ص ٤٥٨ .

(٨) انظر : المعجب : ص ١٤٣ .

(٩) هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا المعروف بابن الافليلي،ولد سنة ٣٥٢ هـ ، وكان عالما بالنحو واللغة ، وبذ أهل زمانه في اللسان العربي والضبط لغريب اللغة ، وألفاظ الشعر ، توفي سنة ٤٤١هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٥١ ،الذخيرة : ق١م١ ،ص ٢٨١ ،بغية الوعاة : ج١ ،ص ٤٢٦) .

(١٠) ما زال شرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي مخطوطا ، وقد ذكر بروكلمان في تاريخه ان لهذا الشرح خمس مخطوطات موزعة في مكتبات العالم (انظر: Brock: S.I.142, G.I.88) .

(١١) هذا الشرح مطبوع ومنشور ، انظر فهرس المصادر في نهاية البحث .

كذلك فقد نشطت الحركة الأدبية ، ولقيت تشجيعا من ملوك الطوائف ، فقد اصطنعوا الأدباء والشعراء وتنافسوا في اجتذابهم الى عواصم ملكهم للمباهاة بمدائحهم لهم ، وليضفوا على شخصياتهم الشهرة [(١)] ، وأخذ الشعراء والكتاب يقطعون الأندلس طولا وعرضا ينتجعون قصور الملوك للظفر بصلاتهم والفوز باعطياتهم [(٢)] ، والى ذلك يشير الشقندي بقوله : " فنفّقوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني " [(٣)] .

وازدهر الشعر في هذا القرن ازدهارا عظيما ، حتى عرفت فيه الأندلس أكبر إشراق شعري في تاريخها الادبي [(٤)] ، وظهر عدد كبير من الشعراء الذين صاغوا أحاسيسهم ومشاعرهم في قصائد رائعة ترددها الاجيال جيلا بعد جيل . وأصبحت المدائح تجارة رائجة ، حتى أن أحدهم وهو إدريس ابن اليمان [(٥)] لا يمدح أحدا بقصيدة الا بمائة دينار [(٦)] ، وقد سأله المعتمد بن عباد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود فقال له : " اشارتي مفهومة ، وبنات صدري كريمة ، فمن أراد أن ينكح بكرها ، فقد عرف مهرها " [(٧)] .

لقد كان الشعر أمرا مشتركا بين ملوك الطوائف جميعا [(٨)] ، فازدهر في الممالك الأندلسية بصفة عامة ، ولكن امتازت ثلاثة من بين بلاطات ملوك الطوائف بصفة خاصة بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية ، وهي : بلاط بني عباد باشبيلية ، وبلاط بني الأفطس ببطليوس ، وبلاط بني صمادح بالمريّة . فقد كان بنو عباد أعظم ملوك الطوائف " هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر " [(٩)] ، وصارت اشبيلية في عهد المعتمد رائدة الحركة الفكرية والثقافية التي سادت ذلك القرن " فلم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعر وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه " [(١٠)] ، وغدت الدولة العبادية في ازدهارها العلمي والأدبي " أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل " [(١١)] ، ووصف الشقندي أيامهم بأنها " لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب " [(١٢)] .

---

(١) انظر : الشعر الاندلسي : ص ٤٥ ، عصر الطوائف والمرابطين : ص ٧-٧٧ ، في الادب الاندلسي : ص ١٦٢ . (٢) انظر : الشعر الأندلسي : ص ٤٦ . (٣) النفح : ج٣ ، ص ١٩٠ .
(٤) انظر : سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس : ص ١٤ . (٥) هو أبو علي إدريس بن اليمان العبدري ، من أهل جزيرة يابسة ، مدح ملوك الطوائف ، ولم يكن بعد ابن دراج القسطلي من يجري عندهم مجراه غير ابن اليمان (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٧٠ ، الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٣٦ ، المغرب : ج١ ، ص ٤٠) . (٦) انظر : الذخيرة ق ٣م١ ، ص ٣٣٦ . (٧) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٣٣٦-٣٣٧ ، وانظر النفح : ج٤ ، ص ٧٥ . (٨) انظر : الشعر الأندلسي : ص ٤٥ .
(٩) النفح : ج٣ ، ص ١٩١ . (١٠) وفيات الأعيان : ج٥ ، ص ٢٤ .
(١١) النفح : ج٤ ، ص ٢٥٥ . (١٢) المصدر السابق نفسه : ج٣ ، ص ١٩١ .

وكان من شعراء بني عباد : ابن زيدون ، وابن عمار ، وابن وهبون[١] ، وابن اللبّانة[٢] ، وابن حمديس ، ومن كتابهم : ابن عبد البر[٣] ، وابن القصيرة[٤] .

وكان بنو الأفطس ملوك بطليوس " ملجأ لأهل الآداب ، خلّدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم ، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم"[٥] ، وكان عميدهم المظفر أديب ملوك عصره ، شغوفا بالشعر والآداب ، ناقدا لها ، ومما يدل على بصره بالشعر أنه كان ينكر الشعر على قائله في زمانه ، ويقبل رأي من ارتسم في ديوانه ، ويقول : " من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي والمعري، فليسكت ولا يرضى بدون ذلك "[٦] ، وكان ابنه المتوكل[٧] من أهل الرأي والحزم والمهارة في النظم والنثر ، وكان في بطليوس كالمعتمد في اشبيلية ، فشدت الرحال اليه ، وأصبحت المدينة في عصره

---

(١) هو أبو محمد عبدالجليل بن وهبون المُرْسي ، شاعر مشهور ، كان حسن الشعر ، لطيف المأخذ ، حسن التوصل الى دقيق المعاني ، وقد جمع ابن بسام شعره في كتاب سماه " الاكليل المشتمل على شعر عبد الجليل " (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٤٧٣ ،الخريدة : ج٢ ،ص ٩٥ ،المعجب : ص ١٥٩ ،النفح : ج١ ،ص ٦٥٧) .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن اللبّانة الدّاني ، من جلّة الأدباء وفحول الشعراء في الأندلس ، وقد عرف بالوفاء لبني عباد بعد ذهاب دولتهم ، وزار المعتمد في منفاه بأغمات ، وله عدة مؤلفات منها " سقط الدر في لقيط الزهر " و " نظم السلوك في وعظ الملوك " توفي سنة ٥٠٧ هـ ، (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٦٦٦ ، الخريدة : ج٢ ،ص ١٠٧ ،التكملة : ج١ ، ص ٤١٠ ،المغرب : ج٢ ،ص ٤٠٩، فوات الوفيات : ج٤ ،ص ٢٧١) .

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن عبدالبر ، من أعلام الكتابة في عصره، وقد كتب للمعتضد بن عباد الرسالة البديعية في مقتل ابنه اسماعيل، وقد كتبها دون روية ثم تخوف منه ، ورحل عنه ، وكتب عن أكثر ملوك الطوائف ، وتوفي سنة ٤٧٤ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٥ ،اعتاب الكتاب ص ٢٢٠-٢٢٢ ،المغرب : ج٢ ،ص٤٠٢) .

(٤) هو ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة كان من أهل التفنن في العلوم كاتبا بارع الخط ، وكان سفير المعتمد ابن عباد الى ملوك الطوائف ، واستدعاه يوسف بن تاشفين بعد خلع ملوك الطوائف وولاه ديوان الكتابة ، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م١ ،ص٢٣٩ ،المحمدون من الشعراء : ص ٣٥٨ أعتاب الكتاب : ص ٢٢٢ ،المغرب : ج٢ ،ص٣٥ ،النفح : ج٤،ص ٣٦١-٣٦٥) .

(٥) المعجب : ص ١٢٨ .

(٦) الذخيرة : ق٢م٢ ،ص٦٤١ .

(٧) هو المتوكل عمر بن المظفر ، حاصره المرابطون في بطليوس ، وقتل هو وأبناؤه سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في : القلائد : ص ٥٦، الذخيرة :ق٢م٢،ص ٦٤٦ ،الحلة السيراء : ص ٩٢ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٦٤) .

دار أدب وشعر ونحو وعلم(١) ، وكان من شعرائهم : ابن البين(٢) وابـــن عبدون ، ومن كتابهم ابن قزمـان(٣) ، وابن القبطرنـة(٤) .

وكان بلاط المعتصم بن صمادح بالمرية منتدى للشعراء وأهـــل الأدب ، فقد كان المعتصم بن صمادح من أهل الأدب والمعارف ، وكان لأهل الشعر عنـده سوق نافقة(٥) ، وكانت دولته " مشرعا للكرم ومطلعا للهمم ... فنفقـت في بلاطه أقلام الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام "(٦) ، ولزم بلاط المعتصـم عدد من الشعراء والكتاب منهم الأسعد بن بليـطة(٧) ، وأبو حفـص بـن الشهيـد(٨) ، وابن الحداد ، وابن عبادة القزاز(٩) ، وأبو الفضل بـن شرف القيروانـي .

وقد استمر نشاط الحركة الادبية في الاندلس في اندفاعه بعد خلع ملوك الطوائف ، ووجد الكتاب اهتماما كبيرا من قبل ملوك المرابطين وأمرائهـم في الأندلس ، فقد ذكر صاحب المعجب في حديثه عن أمير المسلمين يوسف بـن تاشفين وابنه علي بن يوسف أنه " اجتمـع له ولابنه من أعيان الكتـاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ، فممن كتـب لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين : كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحائز قصـب السبق في البلاغة ... ثم كتـب

---

(١) انظر : المغرب : ج٢،ص ٣٦٤ ،أعمال الأعلام : ج٣ ،ص ١٨٥ .

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن البين ، أحد الشعراء المجيدين ، كان بحضـرة بطليوس مستظرف الألفاظ والمعاني ، وكان يميل الى طريقة محمد بـن هانيء (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٢م٢ ،ص ٧٩٩ ،المغرب : ج١، ص ٣٧٠ ،المسالك : ج١١ ، ص ٤٤٠ ، النفح : ج٣ ،ص ٤٥٣) .

(٣) هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن قزمان ، من أهل البلاغة والبيـان، كان كاتبا للمتوكل بن الأفطس ، توفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمتـه في : الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٧٧٤ ، الصلة : ج٢ ،ص ٥٤٠ ،المغرب ج١ ،ص ٩٩).

(٤) هو أبو بكر عبدالعزيز بن سعيد البطليوسي ، أحد فرسان العلـوم والكلام ، وحملة السيوف والأقلام ، كان كاتبا مترسلا ، كتب للمتوكـل ابن الأفطس ثم ليوسف بن تاشفين من بعده ، توفي سنة ٥٢٠ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٧٥٣ ،المطرب : ص ١٨٦ ،المغرب : ج١، ص ٣٦٧ ،الاحاطة : ج١ ، ص ٥٢٨) .

(٥) انظر البيان المغرب : ج٣ ،ص ٣٦٨ .

(٦) القلائـد : ص ٤٧ .

(٧) هو الأسعد بن ابراهيم بن بليطة ، من أهل قرطبة ،شاعر ناثـر تردد على ملوك الطوائف وخاصة على المعتصم بن صمادح ،كان حيا سنة ٤٤٠هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق١م٢،ص ٧٩٠ ،الخريدة :ج٢،ص ٧٩، المطرب : ص ١٢٦ ،المغرب : ج٢ ،ص ١٧).

(٨) هو الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد ، من أئمة أدباء المريـة ، وفرسان الشعر والنثر فيها ، اشتهر بمدح المعتصم بقصائد رائعـة ، ولقيه الحميدي سنة ٤٤٠ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٣٠٢ ، الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٦٧٠ ،بغية الملتمس : ص ٤٠٧) .

(٩) هو أبو عبدالله محمد بن عبادة القزاز ، من مشاهير أدباء المريـة ، وشعرائها في القرن الخامس الهجري ، برع في نظم الموشحات ، وتوفي في حدود سنة ٥٠٠ هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٠١ ،أخبار وتراجم أندلسية : ص ٧٦ ،المغرب : ج٢ ،ص١٣٤ ،الوافي بالوفيات: ج٣ ، ص ١٨٩ ،أزهار الرياض : ج٢ ،ص ٢٥٢ ،النفح : ج٣ ،ص ٤١١ ، ٤٩٢ .

له أو لابنه بعد أبي بكر هذا ـ الوزير الأجل أبو محمد بن عبد المجيد ابن عبدون "(١) .

وقد تعددت مظاهر نشاط الحركة الأدبية في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، ومن هذه المظاهر : انتشار المجالس الأدبية في طول البلاد وعرضها ، وكان أكثر المجالس الأدبية يعقد في بلاطات الملوك والوزراء(٢) ، وقد يعقدها نبهاء الأدباء والشعراء وسط الرياض والمتنزهات(٣) ، وكانت هذه المجالس ميادين للمطارحات الأدبية والنظرات النقدية ، يجتمع فيها الأدباء والشعراء للمذاكرة في الأخبار الأدبية ومدارسة الشعر ، فيتعاطون المنظوم والمنثور ، وكان الشعر يقرض في هذه المجالس ارتجالا وعلى البديهة ، لذلك جاء معظمه على شكل مقطوعات شعرية قصيرة في الوصف والغزل والخمر وأحيانا في المدح ، ومع ذلك فقد أجادوا فيه ، وقد أبدع الشعراء والكتاب في وصف المجالس الأدبية والدعوة اليها ، ومن هذه المجالس الأدبية تلك التي كان يعقدها المعتضد بن عباد يوم الاثنين من كل اسبوع(٤) .

ومن هذه المظاهر أيضا انتشار الشعر على ألسنة كثير من أهل الأندلس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية ، حتى يشمل الفلاحين والتجار والصناع والنساء والجواري وغيرهم ، ومما يدل على ذلك ما رواه القزويني عن أهل شلب (٥) بقوله : " قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يعاني أدبا ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه ، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأي معنى طلبت منه "(٦) .

ومن مظاهر نشاط الحركة الأدبية ايضا نبوغ أسر كاملة في الأدب والشعر ، فقد شاع الشعر والنثر بين عدد من أفراد الأسرة الواحدة كأسرة بني عباد(٧) ، وأسرة بني صمادح(٨) التي كانت " بيت العلوم الفائقة والآداب الرائقة "(٩) .

---

(١) المعجب : ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٢) انظر : القلائد : ص ٤٤ ، ٤٩ ، المطرب : ص ٣٦ ، النفح : ج٣ ، ص ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ج٤ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .
(٣) انظر القلائد : ص ١٥٠ ، النفح : ج١ ، ص ٦٣٨ ، ٦٥٧ ـ ٦٥٩ ، ٦٦٧ ـ ٦٦٩ .
(٤) انظر النفح : ج٤ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .
(٥) شلب : قاعدة ولاية اشكونية بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام ، وهي غربي قرطبة (انظر : مراصد الاطلاع : ج٢ ، ص ٨٠٨ ، معجم البلدان : ج٣ ، ص ٣٥٧ ، الروض المعطار : ص ٣٤٢ .
(٦) معجم البلدان : ج٣ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .
(٧) انظر ذكر عدد من أفراد هذه الأسرة ممن اشتهر بالأدب في القلائد : ص ٤ ـ ٣٥ ، الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ١٣ ، ٣٢ ، ٤١ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٣٤ ـ ٧٦ .
(٨) انظر ذكر عدد من أفراد هذه الأسرة ممن اشتهر بالأدب في : القلائد : ص ٤٧ ، الذخيرة : ق١ م٢ ، ص ٧٢٩ ـ ٧٣٧ ، المطرب : ص ٣٣ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٧٨ ـ ٩٦ ، المغرب : ج٢ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٣ ، النفح : ج٤ ، ص ١٧ .
(٩) المطرب : ص ٣٤ .

وكان بنو الطبني بين أدب وشعر[1] ، وكان بنو القبطرنة[2] عيونا من عيون الأدب الأندلسي[3] .

ومن هذه المظاهر أيضا نبوغ الأندلسيين في فن التوشيح ، فبعد أن ظهرت الموشحات في أواخر القرن الثالث الهجري ، وشهدت اقبال الشعراء عليها والتفاتهم اليها في القرن الرابع الهجري[4] ، نبغ الأندلسيون فيها في هذا القرن وذلك على يد ابن عبادة القزاز[5] شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية الذي يعد أول من برع في هذا الفن ، وزعموا أنه لم يسبقه وشاح من معاصرية الذين كانوا زمن ملوك الطوائف[6] .

وممن اشتهر من الوشاحين في هذا القرن : الأبيض[7] ، وابن رافع رأسه[8] ، والجزار السرقسطي[9] ، والكميت البطليوسي[10] ، وابن اللبّانة[11] .

---

(١) انظر ذكر عدد من أدباء هذه الأسرة في : الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٥٣٥-٥٤٨، المغرب : ج١ ،ص ٩٢-٩٣ . (٢) بنو القبطرنة : ثلاثة أخوة يعرفون ببني القبطرنة ، وهم أبو بكر عبدالعزيز بن سعيد البطليوسي ، وقد مرت ترجمته في صفحة سابقة ، وأبو محمد طلحة بن سعيد البطليوسي ، الذي كان أحد الادباء الأذكياء في القرن الخامس الهجري،توفي قبل سنة ٥٢٠ هـ ،وأبو الحسن محمد بن سعيد البطليوسي الذي كان كاتبا للمتوكل بن الافطس (انظر تراجم الثلاثة في : القلائد : ص ١٤٨ ،الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٧٣٥ - ٧٧٣ ،المطرب ص ١٨٦ - ١٨٧ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٦٤ ،الاحاطة : ج١ ،ص٥٢٨) .

(٣) انظر الإحاطة : ج١ ،ص ٥٢٨ . (٤) انظر الذخيرة : ق١م١ ،ص٤٦٨-٤٧٠ ، ق١م٢ ،ص٨٠١-٨٠٢ ، تاريخ ابن خلدون : ج١ ،ص١١٣٧ - ١١٣٨ .

(٥) انظر موشحاته في : دار الطراز : ص ٧٠ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٧ .

(٦) انظر تاريخ ابن خلدون : ،ص ١١٣٨ . (٧) هو أبو بكر محمد بن احمد الانصاري المعروف بالابيض ،من فحول شعراء الاندلس ، أصله من همذان، وتأدب باشبيلية وقرطبة ، وكان وشاحا مشهورا ، وتوفي بعد سنة ٥٢٥ هـ، (انظر ترجمته وموشحاته في : زاد المسافر : ص ١٠٨ ،المطرب : ص ٨١ ، المغرب : ج٢ ،ص ١٢٧ ،جيش التوشيح : ص ٤٨ - ٥٨ ، تاريخ ابن خلدون ص : ١١٤٠ - ١١٤٢) . (٨) هو أبو عبدالله محمد بن رافع رأسه ، ويقال ابن أرفع رأسه ، من أهل طليطلة ، اتصل بأميرها المأمون بن ذي النون ومدحه، وكانت له موشحات مشهورة يغنى بها في بلاد المغرب (انظر ترجمته وموشحاته في : المغرب : ج٢ ،ص١٨ ،جيش التوشيح : ص ٧٣ - ٨٥ .

(٩) هو أبو بكر يحيى الجزار السرقسطي ،كان في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه ، وله أشعار مدح بها ملوك بني هود ووزراءهم ثم ترك الادب والشعر واعتكف على القصابة ، فأمر المقتدر بن هود وزيره ابن حسداي أن يوبخه على ذلك (انظر ترجمته وموشحاته في : الذخيرة : ق٣م٢ ،ص٩٠٩ ، المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٤-٤٤٥ ،جيش التوشيح : ص ١٤٧ ،النفح : ج٣ ،ص ٦٠٩) . (١٠) هو أبو بكر محمد بن الحسن المشهور بالكميت البطليوسي شاعر أديب كان من شعراء عماد الدولة أبي جعفر بن المستعين بن هود بسرقسطة (انظر ترجمته وموشحاته في الجذوة : ص ٣٢٤ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٧٠ ،جيش التوشيح : ص ٨٦) .

(١١) انظر موشحاته في : دار الطراز : ص ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، جيش التوشيح : ص ٥٩ - ٧٢ .

ومن خصائص الأدب الأندلسي في هذا القرن أنه كان انعكاسا للبيئة الأندلسية بكل أبعادها الطبيعية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، فقد برع الأندلسيون في فنون الوصف والغزل والحب والطبيعة إلى جانب ازدهار فنون أخرى كان لقيام دول الطوائف والتنافس فيما بينها أكبر الأثر في ازدهارها ، ومن هذه الفنون المديح والاعتذار والفخر وأحيانا الهجاء، وما تبع ذلكمن رثاء دول الطوائف والتفجع عليها بعدما انهارت وذهب ملوكها ، كذلك فقد انعكست على صفحات الأدب الأحداث التي شهدها الأندلس في القرن الخامس الهجري من انقسام الامة ، واختلاف كلمتها وسقوط المدن الاندلسية الواحدة تلو الاخرى بيد النصارى ، فظهر أدب النكبات(١) ـ شعرا ونثرا ـ يبكي الامة ومدنها المتساقطة ويدعو الى استثارة الهمم للالتئام والوحدة ، وينبه على مواطن الخطر المحدقة بالامة .

وممن اشتهر في أدب النكبات الأديب الفقيه أبو حفص الهوزني(٢) الذي كتب رسالة إلى المعتضد بن عباد بعد نكبة بَرْبُشْتَر يحثه فيها على الجهاد(٣) ، ومنهم الشاعر الزاهد ابن العسال الذي بكى بربشتر بكاء مرا عندما سقطت بيد النصارى سنة ٤٥٦ هـ(٤) .

ومن خصائص الأدب الأندلسي في هذا القرن تأثر الأدباء الأندلسيين بشعراء المشرق وكتّابه في أساليبهم ومعانيهم ، وقد أضافوا اليها مما أملته عليهم ظروف بيئتهم ، فجدّدوا في معاني وأساليب الغزل والرثاء والزهد والحديث عن الطبيعة وغيرها(٥) .

ومن هذه الخصائص ظاهرة الانتقاء من التراث ، فقد كانوا يضمنون قصائدهم ورسائلهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وأخبارهم وما صادف هوى في نفوسهم .

ومن هذه الخصائص أيضا الميل الى التأنق والتحسين واستعمال الألوان البديعية المختلفة من تورية وجناس وطباق وغيرها ، فقد كتب ابن اللبانة قصيدة طويلة جعلها من أولها الى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح(٦) ، ومال الكتّاب إلى السجع والتنميق والتحبير حتى كانت أكثر رسائلهم بالمنظوم أشبه منها بالمنثور .

---

(١) انظر أدب النكبات في الاندلس في: عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٧٨ ـ ١٨٨ .

(٢) هو أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، عالم فقيه أديب ، أخذ العلم عن عدد من علماء الأندلس ، ثم رحل الى المشرق سنة ٤٤٨هـ ، وأخذ عن علماء المشرق ، ثم عاد إلى الأندلس ، واستوطن مرسية سنة ٤٥٨هـ ثم رحل عنها الى اشبيلية بطلب من المعتضد بن عباد الذي قتله بيده سنة ٤٦٠ هـ . (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق ٢ م١ ، ص ٨١ ـ ٩٤ ، الصلة : ج١ ، ص ٣٨١ ، المغرب ج٢ ، ص ٢٣٩ ، النفح : ج٢ ، ص٩٣) .

(٣) انظر الرسالة في : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٨٣ ـ ٨٩ .

(٤) انظر قصيدة ابن العسّال في رثاء بربشتر في : الروض المعطار : ص ٩١ـ ٩٢ .

(٥) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص ١٠٧ ـ ٢١٥ .

(٦) انظر : المعجب : ص ٢١٢ .

الفصل الاول

أدب الرسائل في الاندلس
حتى نهاية القرن الرابع الهجري

- مفهوم أدب الرسائل
- نشأته وأصوله
- موضوعاته وأغراضه

مفهوم أدب الرسائل

لم يتناول أحد من النقاد العرب القدامى مفهوم أدب الرسائل بالتفصيل، وجلّ ما نجده عن أدب الرسائل آراءً متناثرة في عدد من مصادر النقد الادبي القديمة . إن تحديد مفهوم أدب الرسائل يستدعي من الباحث أن يقف عند مفهوم لفظ رسالة في الأدب ، إلى جانب دراسة مرادفاته التي شاع إستعمالها ، وتوضيح علاقتها بمفهوم لفظ رسالة .

لقد اشتق لفظ رسالة من المادة اللغوية " رَسَلَ " التي تدل على معان حسية كثيرة أفاضت أمهات المعاجم العربية القديمة الحديث عنها وهي : " القطيع من كلّ شيء " ، أو " القطيع من الإبل والغنم "، أو" الإبل ... قطيع بعد قطيع "(١) .

وقد تطوّر مفهوم لفظ رسالة من الاستعمال الحسي الى الاستعمال المعنوي ، فقد ذكر ابن منظور ان الارسال يعني التوجيه ، والاسم الرسالة والرسالة(٢) ، ثم تطور هذا المفهوم للفظ رسالة وانطلق من المجال اللغوي ليدل على كل كلام يراسل به من بعيد(٣) .

وقد إصطنع الادباء الاندلسيون لفظ رسالة في كتاباتهم على اختلافها منذ عهد مبكر كما يشير الى ذلك كثير من النصوص الادبية والتاريخية الاندلسية(٤) ، وما ذكرته المصادر عن نشأة ديوان الرسائل وما يصدر عنه من مكاتبات في الاندلس(٥) ، فكان لفظ كتابة اذا اطلق لا يراد به غير كتابة الرسائل(٦) .

وكان الادباء الاندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الاغراض ، ويوجهه الى شخص آخر ، ويشمل ذلك الجواب والخطاب ، ومن ذلك ما ورد في الرسالة الجوابية التي بعث بها أبو جعفر أحمد بن عباس لأبي المغيرة بن حزم(٧) ، اذ كتب اليه يقول : " ورأيت ما نحلْتَه الرسالة المُعْربة عن فنون البراعة ، وأعرتها من بدائع الصناعة ، التي لو رام نبذا منها بديع الزمان ، أو عمرو بن عثمان ، لترددا يخبطان عشواء ، وأصبحا في خجلة يطلبان النجاء ..."(٨) .

---

(١) انظر الصحاح ، القاموس المحيط ، اللسان : (مادة : رسل) .
(٢) انظر: اللسان : مادة رسل .
(٣) انظر: البرهان في وجوه البيان : ص ١٩٣ .
(٤) انظر : اعتاب الكتاب : ص ٧١ ، ١٩٦ ، الحلة السيراء : ج٢، ص ٣٧٣ .
(٥) انظر : الحلة السيراء : ج١، ص ١٣٩ ، ج٢ ، ص ٣٧٤ ، مقدمة ابن خلدون: ص٤٢٤ .
(٦) انظر الذخيرة : ق١م١، ص ٤٨٦ ، ٤٩١ ، النفح : ج١، ص ٢١٧ .
(٧) هو الوزير الكاتب الشاعر ابو المغيرة عبدالوهاب بن أحمد بن حزم، احد أبناء عم الفقيه محمد بن حزم ، كان من المقدمين في الادب والشعر والبلاغة، وقد شجر الامر بين أبي المغيرة وابن عمه محمد بن حزم ، وجرت بينهما هنات ظهر فيها ابو المغيرة، وبكته حتى أسكته، وتوفي سنة ٤٣٨هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص٢٩، الذخيرة : ق١م١، ص ١٣٢، المغرب: ج١، ص ٣٥٧، النفح: ج١ ، ص ٦١٦) . (٨) الذخيرة : ق١م٢، ص ٦٥٤ .

فظاهر سياق الكلام يدل على أن أبا جعفر بن عباس قد أطلق على ما كتبه اليه أبو المغيرة بن حزم نثرا لفظ رسالة . ومن ذلك أيضا ما جاء في كتاب " البديع في وصف الربيع " من أن " للوزير أبي حفص بن بُرد ... قطعة نثر مقطعة من السّحر في رسالة كتب بها عند صدره من دانية الى الوزير الكاتب أبي اسحق بن حُمام ..."(١) .

وجاء على لسان أبي الوليد بن عامر الحميري في معرض حديثه عن رسالة بعث بها الى أبيه ما نصه : " وخاطبت أبي - وقاه الله بيّ - برسالة فيها بعض أصناف هذه الاوصاف ، أسأله اباحة الخروج لي ، فبلغني أملي ، والرسالة بعد صدرها ..."(٢) وهي نثر(٣) .

ان ظاهر سياق الكلام فيما تقدم يبين بأن مدلول لفظ رسالة انما يعني ما يدبّجه الكاتب ويبعث به الى غيره .

وكان الادباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة احيانا على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه الى صديق أو غيره في أي موضوع ، ويبدو ذلك واضحا في عدد من الاخبار والنصوص الادبية التي انتهت الينا ، ومن ذلك ما جاء في الذخيرة من أن أبا مروان الحجاري(٤) كتب الى المأمون بن ذي النون " رسالة السجن والمسجون والحزن والمحزون" وأودعها قصائد مطولات ومقطوعات أبيات(٥) .

وقد تضمنت بعض النصوص الشعرية في ثناياها اشارات صريحة الى اطلاق لفظ رسالة احيانا على القصائد التي يبعث بها الشعراء الى غيرهم ، ومن ذلك ما جاء في احدى قصائد ابن زيدون التي وجهها من السجن الى أبي الحزم بن جهور ، وفيها يشير الى كثرة رسائله الشعرية اليه قائلاً(٦) :

أفي العدل ان وافتك تترى رسائلي
فلم تترَّك وضْعا لها في يَديْ عَدْل

ولعل تعلق الكتاب الاندلسيين ولاسيما ان معظمهم كانوا من الكتبة الشعراء ومن صيارفة النثار والنظام - بالكتابة أو بعملهم الديواني ، وحماستهم لكتابة الرسائل من أهم حوافز نظم هذا اللون من الرسائل ، والرأي عند الباحث أن هذه الرسائل أقرب الى الفنون الشعرية منها الى الرسائل النثرية ، حيث أن لفظ رسالة غالبا ما كان يختص بالنثر دون الشعر ، حتى لا يكاد ينصرف الا اليه ، ومما يؤكد ذلك ما جاء في

---

(١) البديع : ص ٢٢، وابو اسحق بن حُمام وزير وكاتب قرطبي مشهور بالادب ذو قدم في النظم والنثر ، وقد كان حيا بعد الأربعمائة (انظر الجذوة ص ٣٩١) .
(٢) البديع : ص ٢٨ . (٣) انظر الرسالة في : المصدر السابق نفسه : ص ٢٨-٢٩ .
(٤) هو أبو مروان عبدالملك بن غصن الحجاري، كان فقيها اديبا شاعرا، امتحنه المأمون بن ذي النون أمير طليطلة ، فسجنه مدة ثم اطلقه من معتقله فسار الى بلنسية ، وتوفي بقرطبة سنة ٤٥٤هـ (انظر ترجمته في: الجذوة : ص ٣٧٨، الذخيرة : ق٣م١، ص ٣٣١ ، اعتاب الكتاب : ص٢١٨، المغرب : ج٢، ص ٣٣) .
(٥) انظر: الذخيرة :ق٣م١، ص ٢٣٢ . (٦) ديوان ابن زيدون: ص ١٥ .

مقطوعة شعرية بعث بها الناقد الشاعر ابن شهيد[١] الى الوزير أبي مروان الجزيري[٢] ويقول فيها [٣] :

يا سيِّدا أرِجَتْ طيباً شمائلُهُ وشاكلت شِعرَهُ حسناً رسائلُهُ

فواضح أن ابن شهيد قد ميز بين الشعر والرسالة ، وأطلق لفظ رسالة على ما كتبه اليه ممدوحه نثرا لا شعرا .

ومن الالفاظ المرادفة لمصطلح رسالة في الادب الاندلسي لفظ كتاب، فقد دل هذا اللفظ منذ البداية الاولى لأدب الرسائل في الاندلس على ما كان يدل عليه لفظ رسالة ، وهو الاشارة الى النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب الى غيره في أي موضوع ، ومن ذلك ما جاء في الرسالة الجوابية التي بعث بها الوليد بن عبدالرحمن[٤] الى الوزير الاسير هاشم بن عبدالعزيز[٥]، اذ كتب اليه يقول : " ورد كتابك يا سيِّدي ، فسكَّن من حرقي بك ، وأطفأ من علتي فيك ، وهدَّأ من عويلي عليك..."[٦] .

وقد شاع استعمال لفظ كتاب وكثر اتخاذ الكتاب المترسلين له في مكاتباتهم المختلفة الرسمية والخاصة ،حتى صار مرادفا للفظ رسالة وموازيا له في المعنى والدلالة ، ومما يؤكد ذلك ما ورد في احدى رسائل الوزير أبي محمد بن عبدالبر التي يقول فيها : " وما زلت أفضُّ كتبك عن بدائع دونها السِّحر ، ولآلىءٍ يُزهى بها النحر ، وغرائب يَعْذُبُ بها لو مازجته البحر ، فأعترفُ بالتقصير ... حين قابلتني بما لو قوبل به النجوم لانحطتْ اليه من سمائها ، أو الغيوم لترقرقتْ عليه من أرجائها... وذلك ما أبْدَيْتَهُ ، مما أدَّيتَهُ ، بل أهْدَيْتَهُ ، من تلك الرسالة المستبينة الإعجاز..."[٧] . فقد أطلق أبو محمد بن عبدالبر لفظ كتاب على ما كتبه اليه صديقه نثرا، ثم أردف ذلك بلفظ رسالة ... وهذا يؤكد أن هذين

---

(١)هو أبو عامر أحمد بن عبدالملك بن شهيد الاندلسي ،كاتب وشاعر وناقد مشهور ، وقال عنه ابن بسام: هو شيخ الحضرة العظمى وفتاها ...ونادرة الفلك واعجوبة الليل والنهار،وأطنب في الثناء على نظمه ونثره وأدبه،وقد توفي بقرطبة سنة ٤٢٦هـ (انظر ترجمته في: الجذوة : ص١٣٣، الذخيرة : ق١م١،ص١٩١، بغية الملتمس : ص١٩١ ،اعتاب الكتاب : ص٢٠٣،وفيات الاعيان : ج١،ص١١٦).

(٢)هو أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيري،كان من وزراء الدولة العامرية وكتابها ، وكان معدودا في أكابر البلغاء في المنثور والمنظوم في وقته، وقد اعتقله المنصور بن أبي عامر مدة ، ثم رضي عنه وأطلقه، وتوفي سنة ٣٩٤هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص٢٧، الذخيرة : ق٤م١،ص٤٦، اعتاب الكتاب : ص ١٩٣ ،المغرب ج١ ،ص ٣٢١).

(٣)ديوان ابن شهيد : ص١٤٦.

(٤)هو الوليد بن عبدالرحمن بن غانم ،كان من كبار وزراء الامير محمد بن عبدالرحمن وأقدرهم وأعظمهم مروءة، وكان كاتبا مترسلا بليغا،وقد اختص بصداقة هاشم بن عبدالعزيز فخاطبه برسالته المذكورة وهو في موضع أسره، وقد توفي سنة ٢٧٢ هـ (انظر ترجمته في : المقتبس : ج٢ ،ص٢١٢، الحلة السيراء : ج٢،ص ٣٧٤).

(٥)هو أبو خالد هاشم بن عبدالعزيز، من كبار رجال الموالي المروانيين بالاندلس، كان من وزراء الامير محمد بن عبدالرحمن، ومن أهل السماحة والبلاغة ، وقد وقع أسيرا في غزوة خرج اليها تحت قيادة المنذر بن محمد ولي العهد للقضاء على ابن مروان الجليقي ، واستطاع صديقه الوليد بن عبدالرحمن ان يخلصه من الاسر في غزوة لاحقة ، وقد غضب عليه الامير منذر فقتله سنة ٢٧٣هـ (انظر ترجمته في : المقتبس : ج٢،ص ٣٧٨، الحلة السيراء : ج١،ص ١٣٧).

(٦)المقتبس : ج٢،ص ٣٨٩. (٧) الذخيرة : ق٣م١،ص ١٩٧ — ١٩٨ .

اللفظين قد استعملا بمعنى واحد ، وأنهما من باب الالفاظ المترادفة .

ونظير هذا ايضاً ما ورد في رسالة طوق الحمامة لابن حزم التي تعد من الرسائل الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة ، يقول ابن حزم في صدر تلك الرسالة : "... وكلفتني – أعزك الله – أن أصنّف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ... فبدرت الى مرغوبك ، ولولا الايجاب لك لما تكلفته ، وسأورد في رسالتي هذه اشعاراً قلتها فيما شاهدته ، فلاتنكر أنت ومن رآها – علي أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه ... والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك ..."(١) .

ومن الالفاظ المرادفة ايضاً لمفهوم لفظ كتاب لفظ صحيفة ، اذ كان يراد به أحياناً ما يراد به لفظ كتاب كما يظهر واضحا فيما ورد في بعض رسائل الاندلسيين ومكاتباتهم المختلفة ، ومن ذلك ما جاء في رسالة ابن برد الاكبر(٢) التي كتبها عن المستعين الى جماعة العبيد ، وفيها يقول : " زعم كاتبُ صحيفتكم أنّه ما دامتْ خلافةُ سلفنا إلاّ بطبقتكم ولا عزت الا بدعوتكم ..."(٣) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابو الوليد اسماعيل بن عامر الحميري في معرض حديثه عن احدى رسائله التي كتبها على لسان الازهار ، يقول : " فأوّلُ من رأى ذلك الكتاب وعاين الخطاب نواويرُ فصل الربيع التي هي خيرَةُ الورد في الوطن وصحابتُهُ في الزمن ، فلما قرأتْه أكبرت ما فيه وَبَنَتْ(٤) على هَدْم مبانيه وبعض معانيه ... فكتبت إلى الأُقحُوان والخيري(٥) – كتابا – منه " وأما من عقد تلك البيعة وكتب تلك الصحيفة فلم يُر له قط صورة ..."(٦) . ويتضح للباحث من سياق الكلام في الرسالتين السابقتين أن الكاتبين قد أطلقا لفظ صحيفة على الكتاب ، واستعملاهما بمعنى واحد.

ولابد أن يشير الباحث هنا الى أنه لم يشع استعمال لفظ صحيفة كثيرا في الاندلس ، فقد توارى خلف لفظي رسالة وكتاب .

ويخرج الباحث من هذا وذاك الى القول بأنّ لفظ رسالة في الادب الاندلسي إنّما كان يقصد به الرسالة النثرية الفنية اي القطعة النثرية التي يدبجها الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الاغراض ، ويبعث بها الى شخص آخر ، والى ذلك يشير ابن بسام بقوله : " فان ثمرة هذا الادب العالي الرُّتب ، رسالة تُنْثَر وتُرسَل ،وأبيات تنظم وتُفصل ، تنثال تلك

---

(١) رسائل ابن حزم : ج١ ،ص ٨٦ – ٨٧ .
(٢) هو أبو حفص بن بُرد الاكبر ، كان من أعلام النثر والنظم في وقته ، وقد تقلد ديوان الانشاء في الدولة العامرية بعد الجزيري ، ثم كتب عن الخليفة سليمان المستعين وغيره ، وتوفي سنة ٤١٨هـ(انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١١١ ،الذخيرة : ق١م١ ،ص ١٠٣ ،بغية الملتمس : ص ٣٨٧) .
(٣) الذخيرة : ق١م١،ص ١١٢ . (٤) لعلها (عَزَمَتْ) .
(٥) البديع : ص ٥٨ – ٥٩ . (٦) المصدر السابق نفسه : ص ٥٩ .

انثيال القطار على صفحات الأزهار ، وتتصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد "(١) .

فالرسالة هي لون من ألوان النثر الفني الجميل ، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً ، ولا يكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عند الاندلسيين عن مفهومها عند المشارقة ، فالادب في عرفهم جميعا ينقسم الى أصلين أساسيين : منظوم ومنثور ، والمنثور منه الخطب والرسائل ، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر (٢) .

وقد أشار ابن حزم الى ذلك في معرض حديثه عن الطريقة الفنية التي ابتكرها ابن دراج في الكتابة عند الاندلسيين بقوله : " وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعا من البلاغة ما بين الخطب والرسائل "(٣) .

كما أن بعض النقاد المشارقة قد ربطوا في تعريفهم للرسالة بين الرسالة والخطبة ، أو بين الرسالة والقصيدة .

فابن طباطبا (٤) العلوي كان قد وجد أن هناك علاقة قوية بين القصيدة والنثر الذي يقوم عنده مقام الرسالة ، ويقول " فمن الاشعار أشعار محكمة أنيقة الألفاظ ، عجيبة التأليف ، اذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها "(٥) .

فالرسالة عنده قصيدة محلولة متحررة من الوزن ، والقصيدة رسالة معقودة ولا سيما أن الشاعر عنده يسلك كمنهاج كاتب الرسائل ، فهو يقول: " ويسلك – الشاعر – منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم ، فان للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج الى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل الى المديح ... بأفضل تخلص ، وأحسن مكانة ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا به ، وممتزجاً معه "(٦) .

---

(١) الذخيرة : ق١م١، ص ١١ .
(٢) انظر : البرهان في وجوه البيان : ص ١٩١ ، كتاب الصناعتين : ص ١٣٦، ١٦١ ، الذخيرة : ق١م١، ص ١١ ، ص١٤ .
(٣) التقريب لحد المنطق : ص ٢٠٥ .
(٤) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن طباطبا العلوي ، شاعر مفلق ، وعالم محقق ، ولد باصبهان وبها توفي سنة ٣٢٢هـ (انظر ترجمته في معجم الشعراء : ص ٤٢٧ ، وفيات الاعيان : ج١، ص ١٢٩، المحمدون من الشعراء : ص ٢٦ ، الوافي بالوفيات : ج٢ ، ص ٧٩) .
(٥) عيار الشعر : ص ٧ .
(٦) المصدر السابق نفسه : ص ٦ – ٧ .

وربط أبو هلال العسكري[1] في تعريفه للرسالة بين الرسالة والخطبة، فهو يرى أن الرسالة تقابل الخطبة ، اذ لا فرق بينهما الا بالتسمية فقط، وذلك على أساس تشاكل الالفاظ والفواصل ، وما الى ذلك من سهولة وعذوبة وتحرر من الاوزان والقوافي ، الا أن الخطبة تلقى مشافهة على الجمع من الناس ، والرسالة تحبر ثم يبعث بها ، ومن السهل أن تجعل الرسالة خطبة والخطبة رسالة[2] .

ومهما يكن الامر، فانّ الرسالة باب من أبواب النثر الفني الجميل الذي يعدّ نداً للشعر وكفوّاً له ، كما يؤكد ذلك ابن قتيبة[3] في معرض حديثه عن الاوقات التي ينهال فيها النثر الفني الجميل على القرائح، ويرد فيها الشعر على الخواطر حيث يقول : " وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذر على الكاتب الاديب ، والبليغ الخطيب"[4].

وللرسالة الفنية بناء خاص ، وشكل فني معروف ، وسمات معينة هي بمثابة الاركان الاساسية التي تبنى عليها الرسالة ، والتي لابد من توافرها وايداعها في كل قطعة نثرية تنتمي إلى أدب الرسائل الفنية ، فالرسالة الفنية قطعة نثرية واحدة تتجزأ في ثلاثة أقسام وعناصر مختلفة ، هي: البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الختام ، ولكل عنصر من هذه العناصر طابعه الخاص ، ففي البداية غالبا ما يخاطب الكاتب فيه من أرسلت اليه الرسالة ، وفي المتن يتناول الكاتب الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة ، وفي النهاية يدعو الكاتب بالسلام لمن كتب اليه الرسالة . وهناك اتصال وثيق بين هذه العناصر التي تكون الشكل الفني المميز للرسالة بين أشكال النثر الفني الاخرى .

والرسالة تقصر وتطول دون أن يؤثر ذلكعلى بنائها الفني ، وهي تقع في ثلاثة أقسام : رسائل طوال تجري مجرى الكتب المصنفة ، وهي تتيح لمنشئها أن يظهر مهارته الفنية وثروته الفكرية والثقافية ، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها : ومن ذلك رسالة طوق الحمامة، ورسالة التوابع والزوابع ، والثاني رسائل دون ذلك الطول كرسالة ابن غرسية في الشعوبية[5] ، ورسالتي ابن زيدون الجدية والهزلية ، والثالث رسائل قصار كنحو ما تجري به العادة في المراسلة والمكاتبة[6].

---

(١) هو الحسن بن عبدالله ابو هلال العسكري ، كان موصوفا بالعلم والفقه والغالب عليه الادب والشعر ، له تصانيف كثيرة منها : كتاب الصناعتين، ولحن الخاصة ، وجمهرة الامثال ، وقد توفي سنة ٣٩٥هـ (انظر ترجمته في معجم الادباء : ج٨ ،ص ٢٥٩ - ٢٦٧ ، بغية الوعاة : ج١ ،ص ٥٠٦) .

(٢) انظر كتاب الصناعتين : ص ١٣٦.

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، من أئمة الادب ومن المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد ونشأ بها ، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب اليها ، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ ، ومن مؤلفاته المطبوعة : المعارف، وأدب الكاتب (انظر ترجمته في طبقات النحويين : ص ١٨٣ ، وانباه الرواة : ج٢ ،ص ٤٦٣ ، وفيات الاعيان : ج٣ ، ص ٤٢).

(٤) الشعر والشعراء : ج١ ،ص ٢٥.

(٥) انظر الرسالة في الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٥ - ٧١٤ .

(٦) على هذا النحو قسم القدماء رسائل أبي العلاء المعري ،انظر: انباه الرواة : ج١ ،ص ٦٥ ،معجم الأدباء : ج٣ ،ص ١٦١ .

وكتابة الرسائل الفنية تتطلب من منشئها أن يستخدم طاقات فنية مختلفة تتعلق بالدقة في اختيار الالفاظ ، وحسن تنميقها ، وحلاوة تركيب الجمل ، وصياغة العبارات في تأليف المعاني ، والموازنة ، بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها الى جانب توفير الامتاع الفني لنفس القارئ[١] .

ولابدّ أن يشير الباحث هنا الى أن هناك الواناً من الرسائل تخرج من دائرة الرسائل الفنية ، وهي تلك الرسائل التي تتسم بالطابع الفكري ، ولا نجد فيها أثرا للطابع الفني ، أو لا يلتفت منشؤوها كثيرا الى استخدام الطاقات الفنية المختلفة التي سبق الحديث عنها ، " كرسالة الانتصار " لابن السيد البطليوسي ، و " الرسالة المصرية " لابي الصلت امية بن عبدالعزيز ، ورسائل ابن حزم الفلسفية والجدلية[٢] .

وتتميز الرسالة الفنية من بين ألوان النثر الفني الاخرى بالمرونة الفنية والاسلوبية التي تتيح لمنشئها مجالا واسعا لاظهار مقدرته على التفنن في اسلوبها والارتقاء به الى درجة تجعلها شعرا منثورا . ذلك أن تلك المرونة تسوّغ للرسالة الفنية قبول خصائص الشعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفي ، وعناية بالزخارف المعنوية واللفظية ، عدا الوزن والقافية . ومما يؤكد ذلك ما جاء في " الذخيرة " من أنه عندما تولى ابن زيدون الكتابة في حضرة المعتضد بن عباد ، كان أهل مشرق الاندلس يقولون : " تأتي من اشبيلية كتب هي بالمنظوم اشبه منها بالمنثور "[٣] .

وللرسائل الفنية أغراض متعددة لا تنجع فيها غيرها من ألوان النثر الفني الاخرى ، اذ ان لكل لون ميدانه الخاص به ، فأغراض الرسائل في عرف النقاد القدامى تدور حول السلطانيات من : " الاحماد ، والاذمام ، والثناء ، والتقريظ ، والذم والاستصغار ، والعدل وما الى ذلك ... "[٤] الى جانب ما يكتبه العمّال والولاة الى أمرائهم[٥] ، وتدور أيضا حول الاخوانيات من : استعطاف ، ووعيد ، واعتذار ، وعتاب ، وشكر ، وشوق وغيره[٦] ، وتدور أيضا حول موضوعات اخرى تتعلق بالمجتمع وجوانبه المختلفة ، وبالنفس الانسانية وخصالها ، أي أن الرسائل تعالج موضوعات مختلفة : سياسية واجتماعية وخلقية وذاتيه وأدبية وغيرها .

وأخيرا فان الباحث يخلص الى القول بأن أدب الرسائل بالمفهوم الذي سيدرسه في هذا البحث هو ذلك اللون الادبي الذي يشمل جميع موضوعات الرسائل النثرية الفنية المتبادلة بين الناس على اختلافها في الطول .

---

(١) انظر النثر الفني: ص ١٠ . (٢) جميع هذه الرسائل منشورة انظر فهرس المصادر في نهاية البحث . (٣) الذخيرة : ق ١ م ١ ، ص ٢٣٧ . (٤) كتاب الصناعتين : ص ١٥٦ . (٤) انظر: البرهان في وجوه البيان: ص ١٩١ ، كتاب الصناعتين: ص ١٥٧ .
(٥) انظر : حسن التوسل : ص ٣٨٢ ، صبح الاعشى: ج٩ ، ص ٥ - ٢٢٩ .

نشأتـــه وأصولـــــه

لقد كان فن الرسالة من أسبق ألوان النثر الفني الى الظهور في الاندلس[١] ، حيث اهتم الاندلسيون منذ الفتح الاسلامي لتلك البلاد بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالرسائل الديوانية ، ولا سيما أنهم كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم الى تلك البلاد ،كما يؤكد ذلك ابن بسام بقوله : " ان أهل هذه الجزيرة — مذ كانوا — رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة "[٢] .

وقد كان نشوء الدولة الاسلامية في الاندلس واختلاف مهامها ، وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والادارية ، دافعاً قوياً لنشوء فن الرسالة ليؤدي هذه المهام ، وتلك الوظائف ، ولعل العهد[٣] الذي كتبه عبدالعزيز ابن موسى بن نصير لـ " تدمير " ملك القوط ، أبرز ما يوضح ذلك .

وعندما أخذت هذه الدولة الجديدة من التمدن والتحضر بكل سبب ، زادت حاجتها الى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهامها الجديدة ، وتساهم في تثبيت دعائمها ، وتسيير شؤونها ، وتنظيم مجتمعها ، والى ذلك يشير ابن خلدون بقوله : " وانما أكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية ، شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد ، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية "[٤] .

وقد اتخذ ولاة الاندلس وامراؤه منذ بداية القرن الثاني الهجري كتّابا[٥] يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وعهود وفيما يكاتبون به عمّالهم وولاتهم ، ويهدّدون به الخارجين على حكمهم[٦] .

---

(١) انظر : الامامة والسياسة : ج٢، ص ٧٤، تاريخ افتتاح الاندلس : ص ١٤٠ ، وفيهما اشارة الى رسالة من طارق بن زياد الى موسى بن نصير ، يطلب فيها المدد والعون . (٢) الذخيرة : ق١م١، ص ١٤ . (٣) انظر: بغية الملتمس : ص ٢٧٤ . (٤) مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣٦ . (٥) من أشهر الكتاب الذين نبغوا في الاندلس في القرن الثاني الهجري خالد بن زيد الذي كتب ليوسف الفهري آخر ولاة الاندلس ، ثم كتب لعبدالرحمن الداخل من بعده (انظر ترجمته في أعتاب الكتاب : ص ٧١) ، ومنهم أمية بن يزيد الذي كان من كبار كتاب عبدالرحمن الداخل ، وقد توارث عقبة شرف الكتابة للمروانيين بالاندلس (انظر ترجمته في : اعتاب الكتاب : ص ٧٢ ، الحلة السيراء : ج٢، ص ٣٧٣ ، النفح : ج٣ ، ص ٤٦) .
ومنهم أبو سليمان فطيس بن سليمان ، الذي دخل الاندلس أيام عبدالرحمن الداخل ، وكتب للحكمين هشام ، وولي الوزارة له ، وتوفي سنة ١٩٨ هـ ، (انظر ترجمته في : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٣٦٥ ، المغرب : ج١، ص ٤٤) .

(٦) انظر : قضاة قرطبة : ص ٩ — ١١ ، البيان المغرب : ج٢، ص ٤٤ ، ٤٥، ٥٣ ، ٥٨ .

وهناك أمر كبير الاثر في هذا التطور الفني الذي أصاب أدب الرسائل ، ذلك هو تأثر كتّاب الرسائل بأساليب النثر المشرقي ومذاهبه الفنية التي عرفت آنذاك ، كأسلوب عبدالحميد الكاتب الذي يعدُّ مبتكر أدب الرسالة الفنية في المشرق في أواخر العصر الاموي[١] ، وأول من أطال الرسائل وأكثر التحميدات في فصول الرسائل[٢] .

كذلك فقد تأثروا بطريقة الجاحظ ومدرسته الفنية ، ولا سيما أن الجاحظ قد عرف في الاندلس منذ أوائل هذا القرن عن طريق كتبه ورسائله التي دخلت الاندلس ككتاب " البيان والتبيين " ورسالة " التربيع والتدوير " وغيرها[٣] ممّا حمله الوافدون الى الاندلس من المشرق، كذلك فقد قصده بعض الاندلسيين الذين رحلوا الى المشرق طلبا للعلم ثم عادوا الى الاندلس بألوان مختلفة من الثقافة العربية المشرقية ، ومن هؤلاء أبو خلف سلام بن يزيد[٤] الذي رحل الى المشرق وتتلمذ على الجاحظ لمدة عشرين عاما ثم عاد الى الاندلس بعد وفاته .

وقد أدى تطور أدب الرسائل وازدياد أهميته في الاندلس في هذا القرن إلى نقلة جديدة في ديوان الرسائل لم تكن موجودة من قبل ، تلك هي افراد الأندلسيين للترسيل والاشراف على شؤون ديوان الرسائل وزيرا خاصا ، بعد أن قسّموا خطة الوزارة ، وأفردوا لكل خطة وزيرا[٥]، ومما يشهد بذلك ابن عذارى الذي أورد في ترجمة كلّ أمير عدد كتابه وذكر أسماءهم أيضا[٦] .

وقد تفرعت خطة الكتابة في هذا القرن الى صنفين ، أولهما: الكتابة العليا[٧] ومهمتها الاشراف على جميع مكاتبات الدولة الرسمية ، وثانيهما الكتابة الخاصة[٨] وتعنى بمكاتبات الامير ومخاطباته الخاصة .

وكانوا يختارون كتّاب الرسائل من أهل الادب والثقافة ، وممن ملكوا تقاليد البلاغة والفصاحة ، واتصفوا بالملكة البيانية وغيرها من أدوات الكتابة ، فقد جاء في " تاريخ افتتاح الاندلس "ان الامير محمد بن

---

(١) انظر : تاريخ الادب العربي : ج٢،ص ١١٦ .
(٢) انظر : مروج الذهب : ج٦ ،ص ٨١ .
(٣) انظر : معجم الادباء : ج١٦ ،ص ١٠٥-١١٠ .
(٤) هو أبو خلف سلام بن يزيد ، رحل الى المشرق طلبا للعلم وملاقاة الجاحظ والاخذ عنه ، حيث كان طلب العلم بالمشرق يشرف عند ملوك الاندلس بلقاء الجاحظ (انظر اخباره : معجم الادباء : ج١٦ ،ص ١٠٤-١١٠).
(٥) انظر : مقدمة ابن خلدون : ص ٤٢٤ .
(٦) انظر: البيان المغرب : ج٢ ،ص ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٣ .
(٧) انظر: الحلة السيراء : ج٢ ،ص ٣٧٤ .
(٨) انظر: المصدر السابق نفسه : ج١ ،ص ١٣٩ .

عبد الرحمن الاوسط قال لكاتبه حامد الزّجالي[1] : " ترددني لك كتب تعجبني فهل تهممت بشيء من أمور الكتابة "[2] .

وقد نبغ في هذا القرن عدد كبير من الكتّاب البلغاء ، ووضعت فيهم بعض المصنفات التي قسّمتهم الى طبقات بحسب مقدرتهم الكتابية ، واجادتهم الفنية في تحبير الرسائل ، ومن هذه المصنفات كتاب " طبقات الكتاب بالاندلس "[3] للأفشتين .

وممن نبغ من الكتّاب في هذا القرن محمد بن سعيد الزّجالي[4] الذي كان من كتاب الامير عبدالرحمن بن الحكم ، ومنهم الوليد بن عبدالرحمن بن غانم الذي كان أديبا مترسلا بليغا[5] ، ومنهم أبو عثمان عبد الله بن الغمر[6] ، ومنهم عبيديس الكاتب الشاعر[7] ، ومنهم أيضا عبد الله بن محمد الزجالي[8] .

ومن مظاهر ازدهار الكتابة وتطورها في هذا القرن نبوغ أسر كاملة في الكتابة ، فقد شاعت الكتابة بين عدد من أفراد الأسرة الواحدة كأسرة بني امية بن يزيد التي كانت بيت الكتابة لبني مروان بالأندلس[9] . وكان بنو الزجالي كاتبين حاذقين كلهم كتبوا للامراء[10] .

ثم جاء القرن الرابع الهجري فكان مجيئه بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور أدب الرسائل ، اذ انه قد تطور تطورا كبيرا فاق ما مر به من تطور في القرن السابق ، مما يدفع الباحث إلى القول بأنه قد وضعت في هذا القرن بذور نهضة أدب الرسائل في الاندلس التي بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري ، ومردّ ذلك عوامل متعددة ، يتعلق بعضها بالازدهار السياسي الذي بلغته الدولة الاموية في هذا القرن الذي يرتبط بقيام الخلافة الاموية بالأندلس[11] ، واتساع رقعة الدولة ، وامتداد سلطانها ، وتعدد جوانب اختصاصها واتصالاتها ولاسيما الخارجية منها ، وما يتطلبه ذلك من مراسلات متنوعة . ويتصل بعضها بالنهضة الاجتماعية والفكرية والادبية التي شهدها الاندلس في هذا القرن[12] .

---

(١) هو حامد بن محمد بن سعيد الزّجالي ، تولى الكتابة للامير محمد بن عبدالرحمن لبلاغته وحسن معرفته ، وقد لزمها وشهر بها الى أن توفي سنة ٢٦٨ هـ (انظر ترجمته في : المقتبس : ج٢ ،ص ٣٢ ،المغرب :ج١،ص ٣٣١).

(٢) تاريخ افتتاح الاندلس : ص ١٠٤ . (٣) انظر الجذوة : ص ٨٨ .

(٤) هو محمد بن سعيد الزّجالي ، يلقب بالاصمعي لعنايته بالادب ، وحفظه للغة ، استكتبه الامير عبدالرحمن الى أن توفي سنة ٢٣٢ هـ (انظر ترجمته في : المقتبس : ج٢ ،ص ٣١ – ٣٦ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٣٠).

(٥) انظر الحلة السيراء : ج٢،ص ٣٧٤ . (٦) هو ابو عثمان عبدالله بن محمد ابن الغمر ،ولي الكتابة الخاصة ، والوزارة للامير عبدالله بن المنذر،وكان مع افتنانه بالادب واتصافه بالبلاغة ذا بأس وشجاعة ، وكان له فتوح جمة (انظر : الحلة السيراء : ج١ ص ١٤٦) .

(٧) انظر المقتبس : ج٣ ،ص ١٤٤ ،الجذوة : ص ٢٨٨، المغرب : ج٢،ص ٦٩.

(٨) هو عبدالله بن محمد بن سعيد الزّجالي ، كان كاتبا للامير عبدالله ابن المنذر ، وقد امتد به العمر الى صدر دولة عبدالرحمن الناصر فكتب له الى أن توفي سنة ٣٠٢ هـ (انظر ترجمته في : المقتبس : ج٢،ص ٣٢) .

(٩) انظر : المقتبس : ج٢،ص ٣١. (١٠) انظر: المصدر السابق نفسه :ج٢،ص٣٢.

(١١) انظر: البيان المغرب : ج٢،ص ١٩٨. (١٢) انظر: دولة الاسلام في الاندلس: ج١ ق٢،ص ٣٩٥ .

لقد كانت لهذه التطورات الجديدة في الاندلس دورها الكبير في شيوع أدب الرسائل وتطوره ، حيث أدرك المجتمع الاندلسي وعلى رأسه الخلفاء وكبار الكتاب البلغاء أهمية أدب الرسائل ، وضرورة الاهتمام بالقيم الجمالية والفنية فيه ، باعتباره مرآة واقع الدولة ومستواها الحضاري(١) .

ولما كان الكاتب لسان الخليفة، فان سمعة الخلافة والدولة ترتبط بما تتصف به الرسائل التي يدبجها الكاتب من فن أدبي وقيم جمالية ، وأن اية عثرة قلم أو سهو بال من خطأ أو اعجام أو تصحيف ينقص من قدر الخلافة(٢)، لذلك فقد أصبح الاهتمام بالرسائل والخطوط جزءاً من سياسة الدولة الادبية وخاصة في ختام القرن الرابع الهجري ، ومما يشهد بذلك، تلك الرسالة التي دبّجها ابن برد الاكبر عن المظفر بن أبي عامر الى ولاة الاقاليم وكتاب الدولة موضحاً فيها ما يجب على الكاتب أن يراعيه في الرسائل من احكام الخط ، واقامة الحروف ، حيث يقول : " وأن تكون صدور كتب الاعتراضات وعُنْواناتُها وتواريخُها والأعدادُ في رؤوس رسومها ، بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتبا فبيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب له معروف ، وأن تكون تَسْمِيَةُ طبقات الاجناد فيها قائمةَ الخطوط بَيِّنَةَ الحروف ..."(٣) ، ويبدو للباحث أن هذه الرسالة بمثابة دستور للكتاب المترسلين في الاندلس .

وازدادت مكانة الكتاب في هذا القرن رفعة وسموا ، وشغل الكتاب بشروط الكتابة وأدواتها المختلفة التي يجب توافرها فيمن أراد أن يشغل منصب الكتابة ، وهي كتلك الشروط التي شغل بها كتاب القرن السابق ، الا أنهم استحسنوا من الكاتب في هذا القرن أن يكون مقبول الصورة ، سليم الجوارح(٤) ، ذلك أنه كان يجالس الخليفة ويلازمه ، لهذا لم يصل ابن شهيد الى منزلة الكتابة عند المظفر بن أبي عامر على شدة تشوفه الى بلوغ هذا الشرف العظيم ، اذ قعد به ثقل سمعه ، كما قعد بالجاحظ افراط جحوظ عينيه ، وبأبي القاسم الافليلي ورم أنفه(٥)، ويقول ابن شهيد : " ولابدّ للملك من كاتب مقبول الصورة ، تقع عليها عينه ، وأُذُنٍ ذكيّة تسمع منه حسه ، وأنف نقي لا تذم أنفاسه عند مفارقته له ..."(٦) .

ونبغ في هذا القرن عدد كبير من الكتاب منهم : ابن الجزر عمر ابن عثمان الذي ألف رسالة في مناقضة رسالة اليتيمة لابن المقفع(٧)، ومنهم الرازي أحمد بن موسى الذي كان كاتبا بليغا(٨) ، ويوسف بن

---

(١) انظر : الذخيرة : ق١م١،ص ١٠٦ - ١٠٧ . (٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ١٠٦ - ١٠٧ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ١٠٦ - ١٠٧ . (٤) انظر : الذخيرة : ق١م١،ص ٢٤٣. (٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ٢٤٣. (٦) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص٢٤٣.
(٧) انظر : طبقات النحويين : ص ٣٠١. (٨) انظر: المصدر السابق نفسه ص ٣٠٢ .

سليمان الذي كان كاتباً بليغاً عالماً بحدود الكتابة بصيرا بأعمالها[(١)]، ومنهم أيضا محمد بن عبدالرؤوف الذي كان كاتبا بليغا مترسلاً[(٢)]، وممن نبغ في أواخر هذا القرن الجزيري، وابن برد الاكبر، وابن دراج .

ونبغ في مطلع هذا القرن عدد من النساء الكاتبات منهن مُزنة[(٣)] كاتبة عبدالرحمن الناصر، ولبنى[(٤)] كاتبة الحكم بن عبد الرحمن الناصر.

وقد تطور أدب الرسائل في هذا القرن تطورا كبيرا من الناحيتين : الموضوعية والفنية . فمن الناحية الموضوعية زادت الرسائل الديوانية، وتدفقت سيولها وتنوعت أغراضها، فطفق الكتاب ينتشئون الرسائل الادارية، والسياسية والحربية، ويصفون المعارك، ويكتبون العهود والمواثيق وما اليها من الموضوعات[(٥)] .

كذلك فقد أخذت الرسالة الاخوانية تعالج بعض موضوعات الشعر[(٦)]. ولابد أن يشير الباحث هنا إلى نشوء لون جديد من الرسائل لم تعرفه الأندلس من قبل، ذلك هو فن الرسالة الوصفية التي تتخذ شكل المناظرة والمفاخرة على ألسنة الازهار والورود[(٧)]، وقد كانت هذه الرسائل هي البذرة الاولى لتطور رسائل المفاخرات والمفاضلات في الاندلس في القرن الخامس الهجري .

أما من الناحية الفنية، فقد استكملت الرسالة في هذا القرن قواعدها الفنية المعروفة، اذ صار الكتاب يهتمون بعناصر البناء الفني للرسالة من حيث البداية والموضوع والختام، فظهرت الرسالة في بناء فني متكامل، وقد ارتقوا كذلك بأساليبهم البيانية، وعنوا باستعمال المحسنات البديعية المختلفة من سجع وجناس ومقابلة وازدواج، ومالوا الى الاطالة والاطناب، والى تدعيم الرسائل بالشعر، وكثرت الالقاب والجمل الدعائية في مختلف الرسائل[(٨)] .

ويجد الباحث في هذه المظاهر الفنية صدى واسعا للاساليب الفنية المشرقية، كأسلوب الجاحظ الذي عرفه الاندلسيون منذ بداية القرن الثالث الهجري، وازداد تأثرهم به في هذا القرن، وأسلوب ابن المقفع[(٩)]، واسلوب ابن العميد وأتباعه[(١٠)] .

ومن المظاهر الفنية المميزة لادب الرسائل في هذا القرن، التنوع في أساليب الانشاء عند الكتاب، حتى أن الباحث يستطيع أن يفرد عددا منهم من أمثال الجزيري وابن دراج وابن برد الاكبر وغيرهم بأساليب انشائية

---

(١) انظر طبقات النحويين: ص ٢٩٨ . (٢) انظر المصدر السابق نفسه : ص ٣٠٩ .
(٣) انظر : الصلة: ج٢، ص ٦٩٢ . (٤) انظر المصدر السابق نفسه : ٦٩٢ . (٥) انظر رسائل مختلفة في طبقات النحويين : ص ٢٧١، الجذوة : ص ١١٢، المقتبس ص ٧٧، ١١١، ١٣٥، المقتبس : ج ٥، ص ٢٦، ٢٢٦، ٤٣٨، الذخيرة : ق١م١، ص ١٠٤، أعمال الاعلام: ج٢، ص ٧٢ . (٦) انظر : أخبار مجموعة : ص ١٥٧، الذخيرة : ق١م١، ص ٦٣، أزهار الرياض : ج٢، ص ٢٦٢، ٢٨٣ . (٧) انظر البديع : ص ٧٨ . (٨) انظر رسائل مختلفة في البديع : ص ٧٨-٧٩، الذخيرة : ق١م١، ص ٦٣، ١٠٨-١٠٩، أزهار الرياض: ج٢، ص ٢٨٣، النفح : ج١، ص ٣٧٦-٣٧٧ . (٩) انظر طبقات النحويين ص ٣٠١، وفيه اشارة الى رسالة لابن الجرز ألفها في معارضة رسالة اليتيمة لابن المقفع. (١٠) انظر رسائل أندلسية يظهر فيها أثر ابن العميد في : البديع ص ٧٨-٧٩، الذخيرة : ق١م١، ص ٦٣ .

خاصة ، فقد كان ابن دراج كاتبا مروّياً لا ينشئ إلاّ بعد الجهد والتنقيح والتجويد ، أما الجزيري فقد كان على عكس ذلك . ومما يؤكد هذا ما ذكره الحميدي من أن المنصور بن أبي عامر عندما فتح شانت ياقوب (١) ، استدعى ابن دراج والجزيري ، وأمرهما بانشاء كتب الفتح الى قرطبة ، " فأما الجزيري فقال : سمعاً وطاعة . وأما ابن دراج فقال : لا يتمّ لي ذلك في أقلّ من يومين أو ثلاثة ، وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة" (٢) .

(١) : قلعة حصينة في شمال الاندلس ، وهي تنسب الى كنيسة عظيمة تقع بالقرب منها ، وقد غزاها عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٧ هـ وأوسع أهلها قتلا وأسرا ، وقراها وأسوارها هدما واحراقا (انظر : معجم البلدان : ج٣ ، ص ٣٦٨ ، الروض المعطار : ص ٣٤٨) .

(٢) الجذوة : ص ١١٢ .

موضوعاتـــه وأغراضـــه

يظهر للباحث من خلال كثير من النصوص الادبية والتاريخية الاندلسية ، أن أدب الرسائل في الاندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، قد تناول موضوعات ادارية وسياسية وحربية ووصفية مختلفة .

وعلى الرغم من طول الفترة التي يدرس الباحث رسائلها وتعدد الموضوعات وتنوع الاغراض التي تناولتها ، فانه لا يجد قدْرا وافرا من النصوص الادبية التي تعطي صورة واضحة عن الرسائل عامة ، والرسائل الاخوانية والرسائل المستقلة خاصة ، مع أن المصادر الادبية والتاريخية الاندلسية تشير بجلاء الى ظهور عدد كبير من الكتاب البلغاء في هذه الفترة ، وقد وضعت فيهم بعض المصنفات التي تتناول أخبارهم الأدبية ونتاجهم الفني ، ومن هذه المصنفات كتاب " طبقات الكتاب بالاندلس " للافشتين[1] ، وكتاب " اللفظ المخْتَلَس من بلاغة كتّاب الأندلس " لعبيديس [2] ، وقد وصلتنا أسماء عدد كبير من هؤلاء الكتّاب البلغاء دون أن يصل الينا شيء من رسائلهم أو أخبارهم الأدبية ، ولعل ذلك يدل دلالة واضحة على وفرة الرسائل وتنوّع موضوعاتها وتعدد أغراضها في هذه الفترة .

ولكن القضية التي نطرحها هنا هي كيف نفسّر عدم وصول جلّ الرسائل التي انشئت خلال القرون الثلاثة الاولى للفتح الاسلامي للاندلس . ومهما يكن من أمر، فان لدى الباحث العديد من الادلة على ضياع جل تلك الرسائل .

ومن هذه الأدلة، ضياع تلك الكتب التي ألّفت في الكتابة والكتّاب في تلك الفترة ، كما تشير إلى ذلك كثير من المصنفات الأدبية والتاريخية . ومن هذه الأدلة أيضا ما ذكره الحميدي عن الرسائل التي أنشأها الجزيري على لسان المنصور بن أبي عامر بشأن فتح مدينة " شانتياقوب " سنة ٣٨٧هـ، حيث يقول : " وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر "[3] ، فهو يشير إشارة واضحة إلى ضياع رسائل كثيرة في زمن قريب من وقت إنشائها ، على الرغم من أنها تعد وثائق تاريخية وأدبية على جانب كبير من القيمة ، ذلك أنه لم يتح لها رواة ينقلونها أو كتّاب يدونونها . وهذا يسوق الباحث إلى افتراض أن ذلك قد حدث لعدد آخر من الرسائل في تلك الفترة ، مما حال دون وصولها إلينا .

ومما يعزّز ذلك أيضا ما ذكره ابن بسام في معرض حديثه عن شغف الأندلسيين بتراث المشارقة شغفاً شديداً ، من أن ذلك قد أدّى الى ضعف عنايتهم بأدبهم وتدوينه ، حيث يقول : " إلاّ أن أهل هذا الأفق ، أبَوْا إلاّ متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى

---

(١) انظر: الجذوة : ص ٨٨

(٢) انظر: المقتبس : ج٣ ،ص ١٤٤ .

(٣) الجذوة : ص ١١٢ .

قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذُباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مَرْمَى القصيّة ، ومناخ الرذيّة ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرّف فيها لسانٌ ولا يدٌ..."(١) .

على أن ابن بسام أيضا يشير في معرض حديثه عن تأليفه " كتاب الذخيرة " أنه قد وجد هناك عددا كبيرا ممن عني بجمع أخبار الأدب الأندلسي وتدوينها ، إلا أن عملهم هذا جاء ناقصا قاصرا عن الحقيقة ، لأنهم لم يكونوا مهيئين للبحث ، مستكملين لأدواته ، حيث يقول : " فإنما جمعتُه بين صعبٍ قد ذَلّ ، وعَزْبٍ قد فلّ ، ونشاط قد قلّ ، وشبابٍ ودّعَ فاستقلّ ، من تفاريقَ كالقرون الخالية ، وتعاليقَ كالأطلال البالية ، بخط جُهّال كخطوط الرّاح ، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح ، ضَبْطُهم تصحيف ، ووضعهم تبديلٌ وتحريف ، أيأسُ الناس منها طالبُها ، وأشدّهم استرابةً بها كاتبُها.."(٢).

ويبدو للباحث أن هذه المظاهر التي ظهر فيها عدم عناية الاندلسيين بتدوين أدبهم العناية اللازمة ، كانت وراء فقدان كثير من الرسائل . ومهما يكن من أمر ، فقد وصلنا عدد من النصوص النثرية التي تشير إلى الموضوعات التي تناولها أدب الرسائل في الاندلس في القرون الثلاثة الاولى للفتح الاسلامي لها ، وهذه الموضوعات هي :

الرسائل الإخوانيـــة

وهي تلك الرسائل التي تصور عواطف الكتّاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة ، وقد إصطلحت كتب الأدب على تسميتها بالرسائل الاخوانية (٣).

وموضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة ، جعلها مؤلف صبح الأعشى في سبعة عشر نوعا ، منها : التهاني والتعازي ، والعتاب والشكوى والإعتذار والإستمناح والشكر وما إلى ذلك من الموضوعات(٤) ، وهي على تعددها تندرج في مجموعتين ، أولاهما : الرسائل الإخوانية شبه الرسمية ، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب ، أي أنها تلك الرسائل التي يتبادلها الخليفة أو الأمير أو الوزير مع من دونه في المنزلة الاجتماعية في أمور خاصة . وثانيتهما : الرسائل الإخوانية الذاتية ، وهي التي تتناول ما يدور بين الاصدقاء من عتاب وشوق وعزاء وما إلى ذلك من العواطف .

---

(١) الذخيرة : ق١م١ : ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ١٥ .

(٣) انظر : الذخيرة : ق٣م١،ص ٥١ ، ١٩١ ،حسن التوسل : ص ٣٨٢ ،صبح الاعشى ج ٩ ،ص ٠٩

(٤) انظر : صبح الاعشى : ج ٩ ، ص ٩ — ٢٢٥ .

وتشغل الرسائل الإخوانية شبه الرسمية جزءاً كبيرا مما انتهى إلينا من الرسائل الإخوانية في الاندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، وقد عالجت موضوعات مختلفة هي :

العتاب :

وهو يتمثل في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب للمخاطب في أمر ساءَه منه ، فأوجب عتابه له ، وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة ، وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي إستثاره فدبّج رسالته فيه .

وكانت رسائل العتاب تبدأ بالحديث عن العلاقة التي تربط الكاتب بالمخاطب ، وما فيها من معاني الصداقة والمودة والالفة ، ومن ذلك ما جاء في صدر رسالة بعث بها الحكم بن عبدالرحمن الناصر بأمر والده إلى الفقيه أبي إبراهيم[1] يعاتبه فيها على تخلفه عن حضور حفل رسمي دعي اليه ، وقد استهلها باطراء الفقيه تمهيدا لغرضه وتوطئة للعتاب : " لمّا امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه الله - الاولياء الذين يستعدُّ بهم وجدك متقدماً في الولاية ، متأخراً عن الصلة ، على أنه قد أنذرك - ابقاه الله - خصوصا للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدمه الله توالي المسرة ، ثم أُنذرتَ من قبل إبلاغاً في التكرمة "[2] .

ثم يتدرج الكاتب للحديث عن أسباب العتاب والملامة كما جاء في الرسالة السابقة حيث يقول : " فكان منك على ذلك كلّه من التخلّف ما ضاعت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك عنك الحجة "[3] .

وقد يستفسر عن عذره والاسباب التي أوجبت اساءته ، كما جاء في الرسالة السابقة أيضا : " فعرِّفني - أكرمك الله - ما العذر الذي أوجب توقفك عن اجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذي سُرَّ به ورغب المشاركة فيه ، لنعرفه - أبقاه الله - بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة اليه[4].

ومن رسائل العتاب أيضا تلك الرسالة التي بعث بها بدر مولى عبدالرحمن الداخل الى سيِّده ، عندما لمس تغييرا في معاملته له ، حيث هجره وجفاه ، مما أهانه في عيون أكفائه ، وشمّت به أعداءه ،وأضعفه عند من يلوذ به من خدمه ، على الرغم مما قدّمه في خدمة دولته ،

---

(١)هو أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم بن مسّرة التجيبي ، من أهل طليطلة ،سكن قرطبة للعلم ، ثم استوطنها ، كان فاضلا ديّنا مجتهدا من أهل العلم والبعد عن السلطان ، وكان معظّما عند الناصر وابنه الحكم، وقد توفي سنة ٣٥٢هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٦٨،بغية الملتمس : ص ٢٣٥ ، شجرة النور : ج١ ،ص ٩) . (٢)ازهار الرياض : ج٢،ص ٢٨٣.
(٣)المصدر السابق نفسه : ج٨ ،ص ٢٨٣. (٤)المصدر السابق نفسه : ج٢،ص ٢٨٣.

ومما جاء في تلك الرسالة " أما كان جزائي في قطع البحر ، وجوب القفر والإقدام على تشتيت نظام مملكة ، واقامة اخرى غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي ، وأشمت بي أعدائي ، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي ..."(١) .

وبقدر ما في هذه الرسالة من حسرة وأسى ولوعة لهذا الجفاء والهجر ، فان فيها شدة وعنفا حيث يقول : " أظنُّ أعداءَنا بني العباس لو حصلتُ بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا "(٢).

وقد يصل العتاب في بعض الرسائل الى حد الهجاء والتقريع واللوم الشديد ، كما في الرسالة الجوابية التي بعث بها عبدالرحمن الداخل الى مولاه بدر حيث كتب اليه يقول : " وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك،والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمنُّ به ، مما قد أضجر الأسماع تكرارُهُ ، وقدحت في النفوس إعادتُهُ"(٣) .

<u>الإعتـــــذار :</u>

يعدُّ الإعتذار آية من آيات الوفاء والصداقة والمودة بين المتراسلين، وفي هذا اللون من الرسائل يعتذر الكاتب للمخاطب عن تقصير حدث منه ويحاول التقرب منه واستدرار عطفه ومحبته وعفوه .

ومن رسائل الاعتذار تلك الرسالة التي كتبها الفقيه أبو ابراهيم ردّاً على رسالة العتاب التي بعثها اليه الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وفيها يقول : " قرأت أبقى الله الامير - سيدي - هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفي لنفسي ، انما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه "(٤) .

ثم هو يعبّر عن اعتذاره ، ويلتمس من سيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأجداده من قبل ، وموقفهم من الفقهاء والعلماء مبرراً لتخلفه عن حضور الحفل الذي دعي اليه حيث يقول : " لعلمي بمذهبه ، وسكوني الى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، فإنّهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يغضُّ منها، ويطرق الى تنقيصها ، يستعدّون بها لدينهم ، ويتزيّنون بها عند رعاياهم ومَنْ يفد عليهم من قُصّادهم ، فلهذا تخلّفت ، ولعلمي بمذهبه توقفت"(٥) .

---

(١) النفح : ج١ ،ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ج١ ،ص ٤٠.
(٣) المصدر السابق نفسه : ج١ ،ص ٤٠ .
(٤) ازهار الرياض : ج٢،ص ٢٨٣.
(٥) المصدر السابق نفسه : ج٢،ص ٢٨٣.

الشكوى والاستعطاف :

لقد كان بعض الوزراء والكتّاب والفقهاء وغيرهم يرفع الى الخلفاء والامراء رسائل مختلفة ، يشكون فيها المصائب والمحن التي حلّت بهم ، أو يعرضون فيها ما يلاقونه من ذلّ وهوان ، أو ما يتعرضون اليه من حسد أو ابتلاء في الأهل والنعمة والمنصب .

وقد اتّسمت تلك الرسائل بالايجاز ، ومن ذلك رسالة بدر مولى عبدالرحمن الداخل التي بعثها الى سيده يشكو فيها ما حلّ به من ابتلاء في النعمة والمال ، وما يلاقيه من ذلّ وهوان عندما أتى عيد وقد هجره سيّده وسلبه نعمته وماله ، حيث يقول : " وقد أتى هذا العيد وأنا سليب من النعمة ، مُطّرح في حضيض الهوان ، آيأس ممّا يكون ، وأقرع السن على ما كان "(١) .

ومن رسائل الشكوى والاستعطاف ايضا ما كتبه بَقي بن مَخْلَد(٢) الى الأمير محمد بن عبدالرحمن يشكو اليه خصومه ويستعطفه ويسأله التثبت في أمره والجمع بينه وبين خصومه الذين وشوا به اليه(٣) .

ومن هذا الضرب من الرسائل أيضا ما كتبه الوزير محمد بن سعيد الزّجالي الى الامير عبدالرحمن الناصر يشكو فيه تنكيد الحساد ، وتكدير الوشاة لصفو حياته ، وسعيهم لهدم منزلته ، وعلى رأسهم نصر الخصيّ(٤)، ويصف حاله قائلا : " قد علم ما خصّني به سيدي دون نظرائي من المنزلة الرفيعة التي أصبحت علما من أجلها محسودا، مرميًا بالحَدَق تَسْلُقني الالسن، وتجول فيّ الافكار ، وعندما استوى بناؤها ، وقام عمودها ، واسترخت أطنابها سعى في هدمها من لا أزال أوَثّل شرف ذِكره ، وأجلّ رفيع قدره "(٥).

ومن رسائل الشكوى أيضا رسالة كتبها الوزير جعفر بن عثمان المصحفي الى الحكم المستنصر يشكو فيها حاله وشدة بأسه ، وارتفاع رجائه ،ويسأله أن يخلفه في بيته وأهله الخلافة العالية ، وقد أصابته علة جديدة يئس فيها من الحياة(٦) .

وفي " النفح " إشارة الى رسالة كتبها ابن رُماحس(٧) الى الحكم المستنصر يشكو فيها موقف ابن رفاعة(٨) من وفادة أبي علي القالي .

---

(١)النفح : ج٣،ص ٤١٠ (٢)هو أبو عبدالرحمن بقي بن مَخْلَد الاندلسي القرطبي ، كان اماما مجتهدا وحافظا محققا ، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة ورجع الى الاندلس فملأها علما جمّاً ، وتوفي سنة٢٧٦هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٧٧ ،الصلة : ج١ ،ص ١١٦ ،بغية الملتمس: ص ٢٢٩، النفح : ج٢،ص ١٨) ٠ (٣)انظر البيان المغرب :ج١ ،ص ١١٠ ،وفيه اشارة الى هذه الرسالة ٠ (٤)هو نصر الصقلبي ، مولى بني امية ، وكان قد تقدم عندهم وخافه المنصور بن أبي عامر على نفسه ، فدبر له وقتله (انظر: المقتبس : ج٢،ص ٨) ٠ (٥)المغرب : ج١ ،ص ٢٣١٠ (٦)انظر : المقتبس : ص ٦٩-٧٠ ، وفيه اشارة الى هذه الرسالة ٠ (٧) هو ابن رماحس قائد البحر أيام عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم (انظر : المقتبس : ص ٢٤)٠
(٨)هو ابن رفاعة الإلبيري ، كان من أهل الادب والمعرفة ، وفي خلقه حرج وزعارة ، وهو من رجال عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم (انظر: النفح:ج٣،ص٧١)٠

الاستمناح والطلب :

يعدّ الاستمناح والطلب من الاغراض المهمة التي تناولتها الرسائل الإخوانية شبه الرسمية في هذه الفترة ، وفي هذا الضرب من الرسائل كان الكاتب يسلك مسلك الشاعر في طلب الرفد والعطاء ، حين يصف خصال الممدوح الحميدة ، لذا فانه يغلب على هذه الرسائل طابع المديح ، وتتسم بالبراعة في الصياغة .

ومما وصلنا من هذا اللون من الرسائل ما كتبه الوليد بن عبد الرحمن للامير محمد بن عبد الرحمن يطلب منه تقليده منصباً رفيعاً ، ويرجو أن يدنيه من رحابه ويزيد من عنايته به ، ذاكرا أفضاله وأياديه عليه ، آملا استمرارها ودوامها ، حيث يقول : " عظمت نعمة الخليفة سيدي - ايده الله - عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر فمتى رمت ذكر أدنى شكره ، وحمد أيسر ما اشتمل عليّ من فضله تكاءدني[1] الشكر ، وأعجزني الحمد ، ولست بمؤمّل مع ذلك من الاستفراغ في القول والاجتهاد في العمل اذ لم أرهما يدوران الا على نعمة ازلفت ، ويقتصران الا على زيادة انتظرت ، وأنا بينهما مخيم ، وعليهما معول "[2]

ثم هو يتدرج إلى الطلب ولكن بمجرد التلميح لا بكامل التصريح ، ويشير إلى قصده من طرف خفي ، وبصورة مستورة : " والله الناقل لعباده بطاعتهم له ، وشكرهم اياه ، من دار الشقاء الى دار السعادة ، ومن نصب العاجل الى راحة الآجل "[3] .

ومن هذه الرسائل[4] أيضا ما كتبه ابن دراج القسطلي لسليمان بن الحكم يطلب فيه العطاء والرفد ، ويحاول فيه استدرار عطف الخليفة من خلال تصوير حالة الفقر التي تعيشها أسرته وأطفاله ، حيث يقول : "حاشا لله أن أستَشفَّ الحِسّيَ قبل جُموحه ، وأستكرِهَ الدَّرّ قبل حُفُوله ، أو أتعامى عن سِراج المَعْذِرة ، وأرْغَبَ عن أدب الله في نظرة الى ميْسَرة ، ولكن :

ماذا تقولُ لأفراخ بذي مَرَخٍ ... حُمْرِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ما أوْضحَ العُذْرَ لي لو أنهم عذرُوا ... وأجْمَلَ الصَّبْرَ بي لو أنَّهُمْ صبروا
لكنَّهُمْ صَغُرُوا عن أزمةٍ كَبُرَتْ ... فما اعتذاري عمَّنْ عذرُهُ الصِّغَرُ

وقد قلّبتُ لهم ظَهْرَ الامور ، وميّزْتُ بين المعسور والميسور ، فما وجدت أحسنَ بَدْءاً ، ولا أحْمَدَ عوداً ، مما أذنَ الله فيه لعباده الذين أعْمَرهم أرْضَهُ ، وسخّر لهم بَرَّهُ وبَحْرَهَ ، أن يَمْشُوا في مناكِبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث نتقلّبُ ففي كَرَمِك ، وأين نأمَنُ ففي حرمك ، وحيث لا تُوحِشُنا دعوتُك ، ولا تفوتُنا نعمتُك ، من مُلْكِكَ الى مُلْكِكَ ، ومن يمينك الى شمالك "[5] .

---

(١) تكاءدني الامر : شق علي (اللسان : مادة كأد) . (٢) اخبار مجموعة :ص١٤٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه :ص ١٤٨ . (٤) انظر : المصدر السابق نفسه :ص ١٤٥، وفيه اشارة الى رسالة بعث بها أحد الموالي الى الامير محمد بشأن استخدامه بلطائف في الرغبة وترفقت في المسألة . (٥) ديوان ابن دراج القسطلي :ص٤٦٥-٤٦٦ .

انها رسالة فنية جميلة مال فيها ابن درّاج الى البديع وخاصة السجع والجناس والازدواج والمقابلة ، وعمد أيضا الى تدعيم النثر بالشعر.

المودة والصداقة :

وهي من أبواب الرسائل الاخوانية التي تعبّر عن صدق العواطف ، وتصوّر الوفاء والودّ الذي يربط الخلفاء والامراء بوزرائهم أو ولاتهم أو افراد رعيتهم ، ولاسيما أن علاقة خلفاء الاندلس وامرائه بوزرائهم وولاتهم وغيرهم قد امتازت في معظم الاحيان بالود الخالص.

ومن هذا الضرب من الرسائل ما كتبه الوزير أحمد بن عبدالملك بن شهيد(١) إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وبعثه مع هديته المشهورة(٢)، وفيه يعترف للناصر بالنعمة والشكر عليها ، ويعبّر عن وده الخالص له ، وأنه يتصيّد إرضاءه ومسرّته ، وقد فسّر هديته تلك وأثبت محتوياتها في رسالته ، ومما جاء في تلك الرسالة : " ولما علمت تطلع مولاي - أيده الله تعالى - الى قرية كذا بالقذبانية(٣) المنقطعة الغرس في شرقها ، وتردداه - أيده الله تعالى - لذكرها ، لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها ، وأكتبت وكيلة بن بقيّة الوثيقة فيها باسمه ، وضمّها الى ضياعه ، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظرجيّان ، عندما اتصل بي من وصفه لها ، وتطلّعه اليها ، فما زلت أتصدى لمسرته بها ، حتى ابتعتها الان بأحوازها ، وجميع منازلها وربوعها ..."(٤).

ومن هذه الرسائل أيضا تلك الرسالة التي كتبها الخليفة الحكم المستنصر إلى وزيره جعفر بن عثمان المصحفي جوابا على رسالته التي بعثها إليه يشكو فيها حاله ، وقد أجابه الخليفة برسالة رائعة تدلّ على نبله وكرمه وفضله ، وتعبّر عن صدق عواطفه نحو وزيره ، فقد أبدى فيها ألمه وحزنه لما حل بوزيره من يأس ، وانقطاع رجاء ، اذ كتب اليه يقول :" قرأنا كتابك بما ذكرت من إشتداد حالك ، ووقوع يأسك ، وارتفاع رجائك ، فعظم علينا ذلك ، وكثر غمّنا به ، وأشفقنا منه ، ونرجو أن يأتي الله بخير، ويعقب بعافية "(٥) .

ثم يذكر له أنّ كلّ ما سأله ورغب فيه لنفسه وأهله على أفضل ما يريده لقاء خدمته للخليفة واخلاصه للخلافة : " فكل ما سألت ورغبت في نفسك وأهلك ومن تتخلّف ، فعلى أفضل الذي رغبته وأردته وأمّلته ورجوته ، فما أعلم رزيّة أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك ، ومجهود حرمتك ، ومحمود صحبتك ، وأنا لم يرد علينا من قِبَلِك وناحيتك قط ما أغمّنا ، ولا ما أنكرنا ، ولا سوء ثناء قط بشيء ، ظاهرا ولا باطنا "(٦).

---

(١) هو أبو عمر احمد بن عبدالملك بن شهيد ، من كبار وزراء الدولة الاموية في عهد عبدالرحمن الناصر، وهو أول من سمي بذي الوزارتين، وكان من أهل الادب البارع (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٣١، الحلة سيراء : ج١، ص ٢٣٧).
(٢) انظر ازهار الرياض : ج٢، ص ٢٦١-٢٦٣. (٣) القذبانية (أو الكذبانية) ناحية بالاندلس قرب قرطبة (انظر : معجم البلدان :ج٤، ص ٤٨١). (٤) أزهار الرياض : ج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٤. (٥) المقتبس : ص ٧٠ . (٦) المصدر السابق نفسه : ص ٧٠.

الهجاء :

يعدُّ الهجاء من الموضوعات القليلة التي تناولتها الرسائل الاخوانية شبه الرسمية ، ومما انتهى إلينا من هذا اللون من الرسائل ما كتبه الخليفة ، عبدالرحمن الناصر إلى القائد أحمد بن اسحق[(١)] الذي بعث إلى الخليفة رسالة يطلب فيها أن يجعله وليا لعهده بدلا من الحكم أو عبد الله ابني عبدالرحمن الناصر ، وقد اغتاظ الناصر منه كل الغيظ ، وسخط عليه ، فكتب اليه هذه الرسالة يحط فيها من شأنه ، وينقص من قدره ، فهو يصفه بأنه قد طبع على قلة الفهم والادراك : " أمَّا بعد فإنَّا كنَّا نرى الاستحماد اليك استصلاحا لك ، فأبى الطبع الغريزي الا ما استحكم منه فيك، الى أن استحوذ عليه ، فالفقر يصلحك ، والغنى يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته "[(٢)].

ثم يمضي عبدالرحمن الناصر في هجائه وقسوته ، متناولا بعض الصفات المعنوية التي تخلُّ بكرامة قائده وتشكِّل المطاعن والنقائض في شخصيته ، فهو يذكِّره بماضي أسرته ونسبه ، ويطعن فيهما ، ويذكِّره أيضا بأنه كان صنيعة الامويين ، حيث يقول : " أوليس كان أبوك من فرسان ابن حجَّاج أخسُّهم حالا عنده ، وأنت يومئذ نخَّاس الحمير بإشبيلية فأقبلتم الينا فآويناكم ونصرناكم وشرَّفناكم ومولناكم ، واستوزرنا أباك ، وقلدناك أعنَّة الخيل أجمع ، وفوضنا اليك أمر ثغرنا الاعظم ، فتهاونت بالتنفيذ لنا ، وقلَّة المبالاة بنا ، ثم مع هذا الترشُّح للخلافة ، فبأيِّ حسب أو أي نسب ... أليست كانت أمُّك حمدونة الساحرة ، وأبوك المجذوم ، وجدك بواب حوشرة بن عباس يفتل الحبال في اسطوانة ، ويخيط الحلفا على باب داره ، فلعنك الله ، ولعن من انشبنا في الاستخدام بك ، فيا مأبون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبة اقبل صاغرا "[(٣)] .

ويظهر للباحث أن الرسائل الاخوانية الذاتية كانت قليلة جداً ، ولعل ذلك يعود إلى أن الشعر كان هو الفن الاول عند العرب في الاندلس للتعبير عن الموضوعات الخاصة الذاتية في هذه الفترة ، ولم يكن بعد قد فسح المجال واسعا لأدب الرسائل للتعبير عن كثير من الموضوعات الذاتية الخاصة التي يشترك واياه في التعبير عنها ، لذلك فقد كانت الرسائل الذاتية الخاصة قليلة جدا ، وقد ضاع جل هذه الرسائل ولم ينته إلينا إلا عدد قليل منه .

ومن ذلك رسالة هاشم بن عبد العزيز لمَّا وقع في الأسر إلى صديقه الوليد بن عبد الرحمن ، ورسالة الوليد الجوابية اليه . وتلك الرسالة فريدة في نوعها ، حيث أنها تتناول موضوعات مختلفة هي الشكوى والشكر والشوق ، ويكتنف هذه الموضوعات جميعا الحزن والحسرة التي تفتت الكبد وتحرق الاحشاء .

---

(١) هو أحمد بن اسحق بن محمد القرشي ، من أصل اموي ، اصبح من كبار القواد في عهد عبدالرحمن الناصر ، وقد كان هذا القائد شديد الطموح ، حتى انه كان يفكر بالخلافة (انظر: اخبار مجموعة : ص ١٥٦-١٥٧) . (٢) اخبار مجموعة : ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ص ١٥٧ - ١٥٨ .

وقد بدأ هاشم بن عبد العزيز رسالته بالشكوى حيث عرض حاله ، وما آل عليه في دار الكفر ، وعبّر عن أسفه لمقامه هناك ، وحسْرته على فراق دار الاسلام ، يقول : " وما آسي ــ أكرمك الله ــ الا على مفارقتي تجاوبَ الأذان ، وتبدلي من ذلك بصليل النواقيس والصلبان ، وأن تعاجلني منيتي فاصير موسوماً ببلدة كفر ، آخشى المصير منها إلى الحشر ، فيا لها حسرة فتتت الكبد الحرّى ، وأحرقت جمرتها الاحشاء "(١) .

ثم انتقل الى شكر مخاطبه على اعتنائه بأسرته ، وفي ذلك نلمس تعبيرا عن أواصر الصداقة والمودة بينهما ، وفي ذلك يقول : " وقد كفيتني ــ أبقاك الله ــ ما كنت أرغبه من الرغبة اليك في الحنو على من تخلفتهم ، والحفظ لمن فارقتهم ، والتسلية لمن فجعتهم بما قد أتيت من ذلك ، وأربيت على المنى منه ، فالله ولي مجازاتك ، ومحتمل مكافأتك "(٢) .

وقد ختم رسالته هذه بالتعبير عن شوقه الى صديقه ، وتوسله اليه بأن يمنّ عليه برسالة تشرح حاله ، حيث يقول : " ان حضر خروج رسول الى ما قبلنا فلا تخلني بفضلك من عظم المنة علي بكتابك ، والصلة لي بعلم حالك ، فان لي من الشوق اليه والتطلع له ضعف ما بفؤادي من لوعة الحزن التي أملتني الحياة ، وحببت الى الوفاة "(٣) .

وقد أجابه الوليد بن عبدالرحمن برسالة مماثلة ، رد فيها على كل فصل من فصولها ، وقد استهل رسالته هذه بالتعبير عن شوقه العظيم له ، وحسرته الشديدة على فراقه ، وحزنه العظيم لما حل به ، حيث يقول : " ورد كتابك يا سيدي ، فسكن من حرقي بك ، وأطفأ من غلتي فيك ، وهدأ من عويلي عليك ، فيا لهفاه على فراق غرتك ، وفقدان رؤيتك ، لهفا على ما أن ينقطع لا ينصرم ..."(٤) .

ثم هو يحاول أن يخفف من أثر الاسر في نفسه ، ويرفع من معنويته ، ويهدىء من روعه ، ويذكر له بأنه على ثقة من فكاك أسره في وقت قريب : " والله بعد كفيل من وراء استنقاذك محيط ، وعلى فكاكك قدير ، لا شريك له ، وهو الصانع في الامور ، المسهل للعسير ، فلا تيأس يا سيدي من روح الله ، ... وثق بالله تعالى بالفرج العاجل ، فكأني بك ان شاء الله ــ عز وجل ــ عن قريب قد خلصت من أسرك خلوص القمر من سراره "(٥) .

وختم رسالته بطمأنة صديقه على حال ولده وأهله وذكر له أنهم في غاية الشوق والحنين اليه : " وكل من تخلفهم من الاهل والولد معافون في الابدان دون القلوب وجدا بك وحنينا اليك . وقد خلفك فيهم من حوط الله تعالى ثم من حوط سيدنا الامير ــ أبقاه الله ــ ورحم بره ولين كنفه ، وحض تفقده ، ما ينبغي لك أن تسقط معه جثوم الغم عنك ، ولزوم الاسف لك ان شاء الله "(٦) .

لقد كانت هذه الرسالة جميلة ، وقد عبرت عن معاني الود والصداقة الخالصة .

---

(١) المقتبس : ج٢، ص ٣٩٠ . (٢) المصدر السابق نفسه : ص ٣٩٠ . (٣) المقتبس : ج٢، ص ٣٩٠ . (٤) المصدر السابق نفسه : ج٢، ص ٣٨٩ . (٥) المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص ٣٨٩ . (٦) المصدر السابق نفسه : ج٢، ص ٣٩٠ .

الرسائـــــل الديوانيـــــة

وهي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة ، وشؤون الرعيَّة ، ولاسيما " أنَّ الرعيَّة من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح ، صلاحهما وفسادهما متَّصلان ونماؤهما ونقصانهما مُنتظمان ، اذ كانت الرعيَّة عنصر المال ، ومادَّة الجباية ، بها قوام المُلك ، وعزّ السُّلطان ، ورزق الأجناد ، التي بها يُقاتَلُ العدو ويُنصرُ الدين ، وتُحمى الحُرَمُ "(١) .

والرسائل الديوانية متعددة كثيرة الاغراض ، ومن أهم ألوانها في هذه الفترة : رسائل التولية والتعيين ، ورسائل التوجيهات والوصايا والأوامر الإدارية المختلفة ، إلى جانب التبصير بشؤون التنظيم الداخلي .

ومن بواكير رسائل التولية والتعيين ، ما كتبه عقبة بن الحجَّاج السَّلولي(٢) إلى مهدي بن مسلم(٣) يوليه القضاء في قرطبة ، وذلك في عهد الولاة في الأندلس ، إذ كتب اليه يقول : " هذا ما عهد به عقبة ابن الحجّاج إلى مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء ، عهد اليه بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، وإتّباع مرضاته في سره وعلانيته "(٤) .

ثم بيَّن له الأحكام والقواعد العامة التي يجب أن يستقي منها أصول التشريع ، ويسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم : " وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد صلَّى الله عليه وسلَّم إماما يهتدي بنورهما يعشو(٥) اليهما ، وسراجا يستضيء بهما ، فإن فيهما هدى من كلّ ضلاله "(٦) .

ثم ذكر له أنَّه لم يختره لمنصب القضاء " إلا لفضل القضاء عند الله جلَّ جلاله ، لما فيه من حياة الدين ، وإقامة حقوق المسلمين ، واجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه ، وإعطاء الحقوق من وجبت له "(٧) .

ثم أسدى اليه عددا من النصائح ، وأوضح له كثيرا من الامور التي يجب أن يلتزم بها القاضي في مجلس القضاء وما يجب عليه أن يتحلى به من شمائل وصفات تكفل تحقيق العدل ، لذا فقد اتسمت هذه الرسالة كغيرها من رسائل التولية والتعيين بشيوع الاوامر والوصايا المختلفة ، حيث يقول :

---

(١) الذخيرة :ق١م١،ص ١٢٠ – ١٢١ . (٢) هو عقبة بن الحجاج السلولي ، ولي الاندلس سنة سبع عشرة ومئة للهجرة ، وكان محمود السيرة ، مثابرا على الجهاد ، مفتتحا للبلاد ، وقد خلع عن الولاية سنة ثلاث وعشرين ومئة للهجرة (انظر اخباره في : قضاة قرطبة : ص ٩، البيان المغرب : ج٢،ص ٢٩، النفح :ج٣، ص ١٩–٢٠) . (٣) هو مهدي بن مسلم ، من كبار القضاء في الاندلس كان من أهل الدين والعلم والورع (انظر : قضاة قرطبة : ص ٩–١٢) . (٤) قضاة قرطبة : ص ٩ . (٥) يقال عشا الى كذا وكذا ، يعشو اليه : اذا قصد اليه مهتديا بضوء ناره (اللسان : مادة عشا) . (٦) قضاة قرطبة :ص ٩ . (٧) المصدر السابق : ص ١٠ .

" وآمره أن يواسي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه واستماعه، وأن يفهم من كلٍّ أحد حجّته وما يدلي به ، ويستأني بكل عيّ اللسان ناقص البيان ...، وآمره أن يكون وزراؤه وأهل مشورته والمعينون له على أمر دنياه وآخرته أهل العلم والفقه والدين والامانة ممن قبله.."(١).

ويبدو للباحث أن كثيرا من رسائل التولية والتعيين تعنى برسم السياسة العامة التي يجب على الوالي أن يسلكها في إدارة شؤون ولايته ، ومن ذلك ما ورد في رسالة الحكم المستنصر الى أصبغ بن محمد بن فطيس(٢) يوليه نصف كورة ريّة(٣)، حيث يقول : " فاستعن بالله ، وخذ بالرفق في أمرك ، وقلة الرغبة في شأنك ، واجتنب التحامل على رعيتك ، فانهما من حَفيّ عناية أمير المؤمنين بموضع لا يترك معه البحث عن أحوالهما والكشف عن سيرتك فيها إن شاء الله "(٤) .

ومن رسائل التولية والتعيين المهمة التي استوعبت جوانب خطيرة في إدارة شؤون الرعية وتنظيم مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والدينية المختلفة ، ما كتبه الحكم المستنصر إلى أبي العيش بن أيوب(٥) زعيم كتامة(٦) بالرئاسة على قومه ، فقد تضمنت هذه الرسالة اضافة الى ما سبق تفاصيل دقيقة للسياسة الإدارية القويمة التي يجب على الوالي أن يسلكها ، وواجباته نحو رعيته وحدود عمله .

وقد بدأها الكاتب بالاشارة إلى أمر التكليف ، حيث يقول: " كتاب من عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب، أنه ولاّه النظر في قبيلة أُطانة مهران من كتامة مؤثرا له ، ومظهرا لحسن رأيه فيه وثقته به فيما فوّضه إليه للذي أحبه من إستصلاحه واستصلاح احواله وأحوالهم وصلة أسبابهم وتمهيد أمورهم"(٧).

ثم حدّد له واجباته نحو الرعيّة وحدود عمله التي يجب أن يقف عندها، ورسم له الخطوط العامة للحكم والادارة ، " وآمره بتقوى الله العظيم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه ، مستشعرا لها ، مخلصا فيها ، محافظا عليها ، معتقدا للقيام بوظائفها وشروطها ..."(٨) .

وختم كتاب التعيين بدعوة قبيلة أطانة الى طاعة أبي العيش بن أيوب ما بقي منفذا ما جاء فيه ، حيث يقول : " فمن قرأ عهد أمير المؤمنين

---

(١) قضاة قرطبة :ص١٠ . (٢) هو أصبغ بن محمد بن فطيس، من كبار عمال الامويين وولاتهم في عهد الحكم المستنصر (انظر: المقتبس: ص ٧٨) . (٣) كورة رية :من كور الاندلس في قبلي قرطبة، نزلها جند الاردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات (انظر: الروض المعطار : ص ٢٧٩-٢٨٠) . (٤) المقتبس: ص٧٨ . (٥) هو أبو العيش بن أيوب بن بلال، أحد كبار زعماء البربر في المغرب، وقد عهد اليه الحكم المستنصر برئاسة قبيلة كتامة البربرية سنة ٣٦٢هـ (انظر: المقتبس : ص١١) . (٦) كتامة :قبيلة بربرية بالمغرب، وذكر بعض النسابين أن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وانما هما من الشعوب اليمانية تركهما افريقش بن صيفي بافريقيا مع من نزل بها من الحامية (انظر: تاريخ ابن خلدون: ج٦ ، ص ١٧٧) . (٧) المقتبس ص١١١ . (٨) المصدر السابق نفسه : ص ١١١.

هذا من أهل قبيلة أطانة أو قرئ عليه فليسمع لأبي العيش ابن أيوب وليطع ، فإنه حجة له ولسامعيه اذا عملوا بما فيه وحجّة له عليهم اذا خالفوه ، والله المستعان لا رب غيره "(١).

ومن الاغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الإدارية الاوامر والتوجيهات والوصايا الادارية المختلفة التي كان الخلفاء والامراء يرسلونها الى ولاتهم وعمّالهم وكتّابهم في مختلف نواحي الاندلس . ومن هذه الرسائل ما كتبه عبدالرحمن الداخل إلى أحد عماله يستقصره فيما فرّط من عمله : " أمّا بعد ، فإنْ يكن التقصير لك مقدما ، فَعِدِ الاكتفاء أن يكون لك مؤخّرا . وقد علمت بما تقدمت ، فاعتمد على أيّهما أحببت !" (٢).

ومن تلك الرسائل أيضا ما كتبه الامير محمد بن عبدالرحمن الى عبدالملك ابن أميّة (٣) ،وكان قد اختاره كاتبا له فكتب اليه يقول : " قد فَهِمْنا عنك ولم نَأْتِ ما آتيناه عن جهل بك ،لكنّ اصطناعاً لك ، وعائدة عليك، وقد أبَحْنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتّاب . فتخيّر منهم من تثق به وتعتمد عليه . ونحن نعينك على أمرك بتفقُّد كتبك والاصلاح عليك ، الى أن تركب الطريقة وتُبْصِر الخدمة إن شاء الله تعالى "(٤).

ويتّضح للباحث أن معظم رسائل التوجيهات والاوامر الادارية كانت تتسم بالايجاز بخلاف رسائل التولية والتعيين التي كانت تتسم بالتفصيل والاطناب ،ومن امثلة ذلك،رسالة الامير عبدالله بن محمد إلى أحد عمّاله ،يوضح له ما ينبغي إتخاذه في كتبه : " أمّا بعدُ، فلو كان نظرك فيما خصّصناك به ،واهتبالك به على حسب مواترتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مهم أمرك ، لكنت من أحسن رجالنا غَنَاءً ، وأتمّهم نظراً ، وأفضلهم حزماً . فأقْلِلْ من الكتب فيما لا وَجْه له ولا نفع فيه ،واصرف همّتك وفكرتك وعنايتك الى ما يبدو فيه اكتفاؤك ، ويظهر فيه غناؤك ،إن شاء الله "(٥).

ومن الرسائل الادارية التي تبصر ولاة الاقاليم وكتاب الدولة وغيرهم بشؤون التنظيم الإداري الذي تقتضيه سياسة الدولة الداخلية ، ما كتب به إبن برد الاكبر عن المظفر بن أبي عامر موضحا فيه ما يجب على الكاتب أن يراعيه في الرسائل الرسمية من أحكام الخط،وإقامة الحروف وما الى ذلك من مقومات الرسالة الفنية (٦) كما ذكرت سابقا .

---

(١) المقتبس : ص ١١٤ .
(٢) البيان المغرب : ج٢،ص ٥٨ .
(٣) هو عبدالملك بن أمية ،أحد كبار كتاب الامير محمد بن عبدالرحمن الأوسط (انظر : البيان المغرب : ج ٢ ،ص ١٠٧ - ١٠٨) .
(٤) البيان المغرب : ج٢ ،ص ١٠٨ .
(٥) البيان المغرب : ج٢ ،ص ١٥٤ .
(٦) انظر : الذخيرة : ق١م١ ،ص ١٠٦ - ١٠٧ .

ومما يندرج ضمن رسائل التوجيهات والأوامر الادارية الموجهة إلى العمال والولاة ، تلك الرسائل التي تتعلق بشؤون الضرائب وغيرها ، من ذلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر الى القوّاد والعمّال بكور الأندلس باسقاط سدس مغرم الحشد عن جميع الرعايا سنة ٣٦٤ هـ شكرا لله تعالى على انظاره له ، وحسن بلائه لديه ، وفيها أوصى بأن يكون هذا السدس المسقط مكشوفا لجميع الرعايا ، شائعا في الناس يستوي في معرفته العالم منهم والجاهل ، فيسبق الى كلٍّ من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتي القابض ، ترفيها لهم واهتبالا بمصالحهم ، حيث يقول :
" ان أمير المؤمنين لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده رأى أن يجدد له الشكر ، ويمتري منه المزيد باسقاط جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفا عن رعيّته ، وإحسانا الى أهل مملكته ، وعهد أن يكون هذا الاسم المسقط مكشوفا لجميع الرعايا ليبعد عن احتيال العمال وتسوّغ الرعية النعمة به ، ويستوي في معرفته العالم والجاهل واليقظ والذاهل ، فاذا ورد عليك كتاب أمير المؤمنين هذا فاحتفل في إنذار الناس بأقطار عملك ولا يتخلفنّ منهم إلاّ من عُذّر أحد عنك ..." (١) .

---

(١) المقتبس : ص ٢٠٧ .

التوقيعـــــــــات

وهي تلك التعليقات التي كان يردّ بها أمراء الاندلس على بعض الرسائل والشكاوى التي كانت ترفع اليهم . وقد مالوا فيها الى الايجاز والبساطة في التعبير ، والابتعاد عن التعقيد والتكلّف .

وقد احتفظت بعض المصادر بعدد من توقيعات أمراء الاندلس ، ومن ذلك التوقيع الذي كتبه الامير عبدالرحمن الاوسط على رسالة رفعها أحد السُّعاة اليه ، بأنّ زرياب المغني لم يعظم في عينيه ذلك المال الذي أعطاه الامير له ، وأعطاه في ساعة واحدة ، فوقّع : " نَبَّهْتَ على شيء كنا نحتاج التنبيه عليه ، وانما رزقه نَطَقَ على لسانك ، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك الا ليحبّبَنا لأهل داره ، ويغمرهم بنعمنا ، وقد شكرناه ، وأمرنا له بمثل المال المتقدم ، ليمسكه لنفسه ، فان كان عندك في حقه مضرّةٌ أخرى فارْفَعْها إلينا "(١) .

ومن تلك التوقيعات ايضا ما ردّ به الامير عبدالله بن محمد على رسالة رفعها اليه الوليد بن عبدالرحمن بن غانم يطلب منه أن يقرّبه ، ويسند اليه بعض المناصب : " انّ الله شاكر يحبّ الشاكرين ، وقد ناديت فاسمعت ، ولكلّ أجل كتاب "(٢) .

وقد عرف الأمير عبدالله بن محمد هذا بحسن التوقيع ، ومن ذلك توقيعه لبعض مماليكه ، وقد اعتذر اليه من تقصير وقع منه : "وان مخايل الامور لتدُلّ على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصُّلك ، ولو بؤتَ بذنبك ، واستغفرت لجرْمك لكان أجمل لك ، وأشْدَل لستر العفو عليك "(٣).

وقد رد عليه المملوك : " إنما أنا بشر وما يقوم لي عذر"(٤) ، فجاوبه الامير عبدالله : " مهلا عليك ورويدا بك ، تقدَّمت لك خِدْمة ، وتأخّرت لك توبة ، وما للذنب مجال بينهما ، وقد وَسِعَك الغفران"(٥) .

---

(١) المغرب : ج١ ،ص ٥١ . (٢) اخبار مجموعة : ص ١٤٨.

(٣) اعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٦ . (٤) المصدر السابق نفسه : ج٢،ص ٢٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ج٢، ص ٢٦ .

رسائـــــل العهــــود

العهد رسالة ديوانية يدبّجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده ، وتعرف حينئذ " بعهد الولاية ". وتكتب أحيانا على لسان الخليفة أو الامير بالأمان لثائر أو خارج على الدولة ، أو لدولة مجاورة زالت أسباب الخلاف معها ، وتعرف حينئذ "بعهد الامان".

ومن عهود الولاية ذلك العهد الذي كتبه أبو حفص بن برد الاكبر على لسان الخليفة هشام المؤيد بجعل عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وليّا لعهده ، وقد جاء فيه : " هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - الى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفس خاصة ، وأعطى به صَفْقَة يَمينه ، بَيْعَةً تامَّة ، بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة ، وأهمَّه ما جعل الله له من إمامة المسلمين ، وعَصَب به من إمْرَة المؤمنين ... ، فلم يجد أحداً هو أَجْدَرُ أن يُقلده عهدَهُ ، ويُفوّض أمر الخلافة اليه بعده ، في فضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مركبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ، ومعرفته واشرافه ، وحزمه وثِقافِه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجَيْب ، النّازح على كلّ عيب ، ناصر الدّوْلة أبي المُطرّف عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر"(١) .

وكان الكتّاب وهم يكتبون مثل هذه العهود ينتهجون اسلوبا خاصا ، وينتقون معاني تتمشى مع طبيعة هدف العهد المتميز عن غيره من الرسائل الديوانية . فقد كان الكاتب يبدأ بالنص على العهد كما تقدم ، ثم يتدرج الى بيان الصفات الكريمة والمناقب العظيمة التي تجمعت في ولي العهد ، فاستحق بها ولاية العهد ، ومن ذلك ما جاء في عهد الخليفة سليمان بن الحكم بالخلافة من بعده لولده محمد :" إنّ محمد بن أمير المؤمنين أولى أهل بيت الخلافة بولاية عَهْد المسلمين غير محاب ولا آخِذ بهوادة فيه ، بل لما قد عَلِمَتْه الخاصَّة والعامَّة من تكامل خلال الخير له واجتماع أدوات الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه وهديه وورعه وفضله ، وطهارة أثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال حلمه ، وسعة عِلْمه ، وكمال أدبه ، واضطلاعا بأعباء الخلافة ، ومعرفته بمعاني السياسة ونفاذه في التدبير والادارة "(٢) .

وكان الكتّاب يسترسلون ويطنبون في بيان صفات ولي العهد وخصاله الحميدة ، ويختمون العهود بتواريخ كتابتها (٣) .

أمّا عهود الامان فقد كانت من الاغراض الرئيسية التي تناولها كتاب الرسائل الديوانية في هذه الفترة ، وذلك بسبب كثرة الفتن والثورات التي قامت في أنحاء مختلفة من الأندلس . وقد وصلتنا اشارات كثيرة إلى عقود أمان مختلفة أعطاها الامراء والخلفاء لعدد من الثائرين على الحكم منها طلب للامان من أهل طليطلة إلى بدر مولى عبدالرحمن الداخل (٤) ،

---

(١) الذخيرة : ق١ م١ ،ص ١٠٤ .
(٢) أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ١٢٦ .
(٣) انظر المصدر السابق نفسه : ج٢،ص ١٢٦.
(٤) انظر البيان المغرب : ج٢ ،ص ٥٣ .

وعقـــــدان لعمر بن حفصون[1] الثائر ببُشْتَر[2] .

ومما نقلته المصادر من هذا الضرب من العهود ،العهد الذي أعطاه عبدالرحمن الناصر لمحمد بن هاشم الذي كان ثائرا بسرقسطة ، وقرّ له فيه بعهد الله وأمانه ، والمحافظة على حياته وحياة أتباعه من أهل سرقسطة ، ماداموا ملتزمين بشريط العهد وقيودة ، متجنبين لنقضها ، ومما جاء فيه : " الامان لمحمد بن هاشم ، وأخوته ، وبنيه ، وذويه ، وجميع أصحابه ورجاله ، ومن اتّصل به وبهم جميعا ، من أهل مدينةسرقسطة ، مُدَّةَ يرضاها الناصر لدين الله ويُملّكُه إيّاها تمليكاً ، يُدْخِل فيها من يشاء من أهلها في العدد الذي يَرْضاه من رجاله وأَحْشامه . ويكون أهلُ مدينة سَرَقُسْطة ومن يُبْقِيه محمّد بن هاشم بينهم من أهله وأُتْباعه ، آمنين بأَمان اللـه ، محفوظين بِعَهْد الله ، مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير متعقّبين في أَنْفُسِهِم ، ولا مأخوذين بذَنْبِ سلف "[3].

ولا تختلف عهود الامان والصلح التي كان حكام الاندلس يصدرونها لجيرانهم النصارى عن عهود الامان التي كانت تعطى للثائرين على الحكم في الاندلس . ومن بواكير هذه العهود ما كتبه عبدالعزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير ملك القوط ،يقر له فيه بعهد الله وذمته والمحافظة على ملكه ورعيّته ، وحريّة اعتقادهم وتعبدهم ، وسلامة أماكنهم المقدسة ، ما داموا محافظين على العهد متجنبين الغدر أو النقض لشروطه ، حيث يقول: " من عبدالعزيز الى تدمير ، انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته ألا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ونساءهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأنه لا يأوي لنا عدوا ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا علمه ..."[4] .

ويبدو للباحث أن تلك العهود كانت تبدأ بالنص على العهد والمشتركين فيه كما في العهد السابق ، وفي عهد الامان والصلح الذي اصدره عبدالرحمن الداخل لجيرانه نصارى قشتالة ، وفيه يقول : " كتاب أمان الملك العظيم عبدالرحمن ، للبطارقة والرهبان والاعيان والنصارى والاندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام "[5].

ثم يتدرج الكاتب إلى وصف ظروف العهد وما اشتمل عليه من الشروط، وكثيرا ما كانت تحشى هذه العهود باسماء المناطق والمدن التي شملها العهد[6] .

---

(1) هو عمر بن حفص بن عمر المعروف بابن حفصون ، كان من كبار الثائرين بالاندلس بأعمال رية قبل سنة خمس وسبعين ومائتين ، وكان جلدا شجاعا أتعب السلاطين ولم يستطيعوا القضاء عليه الى أن توفي سنة ٣٠٥ هـ (انظر ترجمته وأخباره في : الجذوة : ص ٣٠١ ،بغية الملتمس : ص ٣٩٣،البيان المغرب : ج٢ ،ص ١١٤ – ١١٨، ١٧١). (2)ببشتر : حصن منيع بالاندلس بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا،وقدكان قاعدة العجم ، كثير الديارات والكنائس ، وقد دمره ابن حفصون على أكثره (انظر:الروض المعطار : ص ٧٩).
(3) المقتبس : ج٥ ،ص ٤٠٥ . (4) نصوص عن الاندلس : ص ٨٠ – ٨١ .
(5) الوثائق السياسية : ص ١٣٤ . (6) انظر:بغية الملتمس : ص ٢٧٤ .

الرسائل السياسية

ويقصد بها تلك الرسائل التي كتبت لمعالجة موضوعات سياسية أو فكرية مختلفة ، فرضتها طبيعة الأحداث السياسية التي شهدتها الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح الاسلامي لها .

تعد تلك الرسائل صدى للصراعات السياسية والاضطرابات والفتن الداخلية [١] ، إلى جانب الحركات الفكرية التي ظهرت في الأندلس آنذاك [٢] ، كذلك فقد كانت تلك الرسائل أحيانا صدى للتطور السياسي الذي وصلت اليه الدولة ، وعلاقاتها بالدول المجاورة [٣] ، لذا فقد كانت الرسائل السياسية ترسم سياسة الدولة ، وتوضح موقفها من تلك الأحداث والتطورات المختلفة .

ويظهر للباحث أن الرسائل السياسية لم تقتصر على ما كان يصدر عن الدولة وديوان الرسائل فيها ، بل كانت تشمل أيضاً ما كان يصدر عن الحكام والثائرين على الدولة في بعض المدن والاقاليم ، من رسائل تعالج أمورا سياسية مختلفة .

وقد تعدّدت ألوان الرسائل السياسية وتنوعت أغراضها ، ومن ذلك رسائل الزجر والاستصلاح وتهديد الخارجين على الحكم ، وهي تلك الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في حالة شيوع الاضطرابات في ناحية من نواحي الاندلس المختلفة ، وفي حالة خروج أو عصيان والٍ على الامير أو الخليفة ومحاولته الاستقلال عن سلطانه .

وتعمد هذه الرسائل إلى أسلوب الزجر والتخويف والتهديد حينا ، وإلى أسلوب المصانعة والملاطفة والترغيب حينا آخر .

ومن بواكير رسائل الزجر والتهديد ما كتبه عبدالرحمن الداخل إلى رجل خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي ، حيث يدعوه بالرجوع عن غروره ، ويهدده بالبطش به ان هو لم يستجب لدعوته ، حيث يقول: " أمّا بعد ، فدَعْني من مَعَاريض المعاذير ، والتّعسف عن جادة الطريق ، لتمدّن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقينّ بنابها على رضف المعصيّة نكالا بما قدّمت يداك ، وما الله بظلاّم للعبيد" [٤] .

وكان بعض الثائرين على الدولة قد وجّه عددا من رسائل التهديد لأمراء الأندلس ، ومن ذلك تلك الرسالة التي بعث بها عبدالرحمن الجليقي [٥] الى الامير محمد بن عبدالرحمن عندما علم بأنه قد جهز حملة عسكرية ضده،

---

(١) انظر: البيان المغرب : ج٢ ، ص ٥٨ . (٢) انظر: المقتبس : ج٥، ص ٢٠ — ٣١ .
(٣) انظر، المصدر السابق نفسه : ج٥، ص ٣٠٦، البيان المغرب : ج٢، ص ١٩٨، الوثائق السياسية : ص ١٣٤ . (٤) البيان المغرب : ج٢، ص ٥٨ . (٥) هو عبدالرحمن بن مروان الجليقي منسوب الى بلده ، كان من الخوارج في أيام بني أمية بالاندلس ، وكان ابتداء خلافه مع أمراء الاندلس سنة ٢٦١هـ ، وتوارثها ولده (انظر ترجمته وأخباره في: الجذوة : ص ٢٧٩ ، المغرب : ج١، ص ٢٦٣-٢٦٤).

ويهدده فيها باحراق مدينة بطليوس واضرامها بالنار ، ان حاول جيش الامير التعرض له ، حيث يقول : " بلغني أن هاشما خرج الى جهة الغرب ولست أشك أنه قد أطمعه في أخذ الثأر مني كوني في حصن مغلق ، وبالله لئن جاز لبلة (١) إليَّ لأضرمن بطليوس بالنار ، ثم أعود الى حالي الأول معك " (٢) .

ومن بواكير الرسائل التي سلكت سبيل المصانعة والملاطفة والترغيب ، تلك الرسالة التي وجهها يوسف الفهري إلى عبدالرحمن الداخل قبل الحرب بينهما ، يعرض فيها عليه الرعاية ، ويحاول خداعه واقناعه بالعدول عن الحرب متبعا أسلوب الترغيب والملاطفة : " أمَّا بعد ، فقد انتهى الينا نزولك بساحل المُنَكَّب ، وتأبُّش من تأبَّش اليك ونزع نحوك من السُّرَّاق وأهل الخَتْر والغَدْر ونقض الايمان المؤكَّدة ، التي كذبوا الله فيها وكذبونا ! وبه - جلَّ وعلا - نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذَرَى كَنَفٍ ورفاهيَّة عيش ، حتَّى غمصوا ذلك ، واستُبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيطٌ ، فإن كُنت تريد المال وسَعَة الجناب فأنا أولى لك ممَّن لجأتَ اليه ، أكْنفُك ، وأصِلُ رَحِمَك ، وأُنْزلك معي ان أردتَّ وبحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذِمَّتُه في ألاَّ أغدر بك ، ولا أُمكن منك ابن عمِّي صاحب افريقيا ولا غَيْرَه " (٣) .

ومن الرسائل التي سلكت سبيل الملاطفة والترغيب في مخاطبة الثائرين على الدولة ، ما كتبه يزيد بن طلحة (٤) الى أهل قرْمُونية (٥) يحضّهم على الطاعة ونبذ الخلاف ، لما في ذلك من مصلحة لـلامة وحقن للدماء : " ان أحقَّ ما رجع اليه الغالون ، ولحق به التالون ، وآثره المؤمنون ، وتعاطاه بينهم المسلمون ، مما ساء وسرَّ ونفع وضرَّ ، ما أصبح به الشمل ملتئما ، والامر منتظما ، والسيف مغمودا ، ورواق الامن ممدودا ، وليس في ذلك أولى باحراز الثواب ..." (٦) .

ومن هذا الضرب من الرسائل أيضا ما كتبه ابن برد على لسان المظفر ابن أبي عامر في استنزال أحد الخارجين على الدولة : " السعيد من خاف ربَّه ، وَعَرف ذَنْبَه ، وبادرَ بالتَّوْبَة قبل فَوْتِها ، واستعطى الرَّحمة قبل مَنْعِها ، وان كنتَ تركت قَصْدَك ، وخَالَفْتَ رُشدك ، ونُكِبْتَ عن سبيل سَلَفِك ، فلم يوحِشك ممن شَرَدْتَ عليه مَكْروهٌ نالك به ، ولم يؤنِسك ممَّنْ جَنَحْتَ اليه أملٌ لم تَطْمَعْ فيه الا كَدَيْه ... ولن تضيق بك السُّبلُ عند أمير المؤمنين ، وأنت بين طاعة سالفة ، واستقامة مَوْروثة ، وبين إنابةٍ منتظرةٍ ، وتوبةٍ مُستقبلة ..." (٧) .

---

(١) لَبْلَة : مدينة قديمة ، تقع غرب قرطبة (انظر : مراصد الاطلاع : ج٣ ، ص ١١٩٧ ، الروض المعطار : ص ٥٠٧) . (٢) تاريخ افتتاح الاندلس : ص ١٠٨ - ١٠٩ . (٣) البيان المغرب : ج٢ ، ص ٤٥ . (٤) هو يزيد بن طلحة القيسيّ ، ويعرف بيزيد الفصيح ، كان استاذا في العربية ، مقدما مشهودا بالفضل ، شائع الذكر ، ذا خط في البلاغة (انظر ترجمته في : طبقات النحويين : ص ١٧١ ، تاريخ علماء الاندلس : ج٢ ، ص ١٩٧) . (٥) قرمونية : مدينة كبيرة قديمة ، تقع شمال شرقي اشبيلية ، وقد افتتحها عبدالرحمن الناصر سنة خمس وثلاثمائة (انظر : مراصد الاطلاع : ج٣ ، ص ١٠٨١ ، الروض المعطار : ص ٤٦١) . (٦) طبقات النحويين : ص ٢٧١ . (٧) الذخيرة : ق١م١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

ومن ألوان الرسائل السياسية أيضاً ما كان يصدر على شكل منشورات، أو بيانات سياسية عامة توجّه الى الرعية . ومن هذه المنشورات ما وجهه الثائر عمر بن حفصون الى الناس زمن الامير منذر بن محمد عندما وجد إقبالا من الناس، يذكّرهم فيه بالمظالم التي لحقتهم من سوء إدارة بعض ولاة الدولة، مستغلا بذلك العصبية القبلية، حيث يقول: " طال ما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلّتكم العرب، واستعبدتكم، وانما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عُبُوديّتكم"(١).

ومن ذلك أيضا المنشور السياسي الذي وجهه الخليفة عبدالرحمن الناصر الى عمّاله ليخبرهم باتخاذه لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وليلزمهم بمخاطبته به، ولينبهوا الخطباء الى مراعاته، لما استحقه من هذا اللقب الذي هو أهل له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة، فهو ابن أمراء المؤمنين، وسُلالة الهُداة الفاضلين، والائمّة المتقين القائمين بالحق(٢)، حيث يقول: " أمّا بَعْدُ، فإنّا أحَقُّ من استوفى حقه، وأجدَرُ من استكمل حظّه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضّلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا اليه، ويسّر على أيدينا إدراكه، وسهّل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعُلُوِّ أمْرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم الينا، واستبشارهم بدولتنا ..."(٣).

ثم هو يؤكد أن اتخاذ هذا اللقب واجب عليه، وأن ترك هذا اللقب هو ترك لحق أضاعه واسم ثابت أسقطه: " وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك إذ كلّ مُدّعٍ بهذا الاسم غيرنا مُنْتَحِلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومُتّسم بما لا يستحقه، وعَلِمْنا أنّ التماديَ على تَرْك الواجب لنا من ذلك حقٌّ أضعْناه، واسْمٌ ثابتٌ أسْقَطْناهُ ..."(٤).

ومن البيانات والمنشورات السياسية ما كان يصدر باسم الخليفة لتوضيح موقف الدولة من بعض العقائد الزائفة والافكار المنحرفة، أو الاتجاهات الفكرية المخالفة للدولة، وللتنديد بها والتحذير من اتباعها، وذلك لحماية أفكار الرعية منها.

ومن ذلك البيان السياسي الذي وجهه الخليفة عبدالرحمن الناصر الى

---

(١) البيان المغرب: ج٢، ص ١١٤.
(٢) انظر: المقتبس: ج٥، ص ٢٤١، البيان المغرب: ج٢، ص ١٩٨.
(٣) البيان المغرب: ج٢، ص ١٩٨.
(٤) المصدر السابق نفسه: ج٢، ص ١٩٨.

آفاق الأندلس في التنديد بمذهب ابن مَسَّرة (١) وأتباعه وتحذير الرعية من اعتناقه ، وهو من انشاء الوزير الكاتب عبدالرحمن بن عبدالله الزجالي.

وقد بدأ الكاتب رسالته بالحديث عن تعاليمهم المنحرفة ، وأفكارهم الزائفه ، وخروجهم عن الجماعة ، وما ابتدعوه في الشريعة ، وانتحلوه في الديانة ، حيث يقول : " طَلَعت فِرْقة لا تَبْتَغي خَيْرا ولا تأتَمر رُشْداً، من طَغام السَّواد ، ومن ضُعْف آرائهم ، ومن خُشونة الأوغاد ،.... كُتُباً لم يَعْرفوها ، ضَلَّتْ فيها حلومهم وقَصُرت عنها عُلومهم ، وظَنّوا أنّهم فهموا ما جَهلوا وتفقّهوا فيما لم يُدْركوا ، واستولى عليهم الخِذْلان وأحَلّ عليهم بخَيْله ورَجْله الشيطان ، فزيّنوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا عِلْمَ عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستيأسوا وآيسُوا من روح الله ... وأكثروا الجدال في آيات الله ، وحرفوا التأول في حديث رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فبرئت منهم الذمَّة ..." (٢) .

ثم انتقل للحديث عن موقف أمير المؤمنين من هذه الفرقة الخبيثة ، فحذَّر الناس من إعتناقها وهاجم أتباعها : " وأن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ونظره محيط بهم ، ولما صار غَيُّهم فاشيا وجَهْلهم شائعاً ، واتصل بأمير المؤمنين من قَدْحهم في الديانة وصدوفهم عن الجادة ما شَغَل نَفْسَه وأقْصَر مَضْجعه وأسْهر ليله ، أغْلظ أمير المؤمنين في الأخْذ فوق أيديهم، وأوعز إيعازا شديدا وأنْذر إنذاراً فظيعاً وعهد عهداً موَكَّداً شافياً كافياً، نظر به لوَجْهه ، تبارك اسْمه ، وقدَّم فيه بين يدي العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الاعظم بحَضْرته ، ليقرع قلب الجاهل ،ويفُتّ كَبْد المسْتَهتر الحائر ، ويَنْتَقض عَزْم المُعاند المُعاجِل ، ويَفُطر الغواة إلى الإنابة الصحيحة التي تقبّلها الله منهم ..." (٣) .

ثم ختم كتابه بتوجيه أمر سياسي إلى عمَّال أمير المؤمنين وقوّاده وولاته بتتبّع هذه الفرقة المارقة ، والتحري لها ، والتضييق عليها ، والقاء القبض على من عثر عليه من أتباعها ، لاستجلابهم الى الخليفة لينظر في أمرهم حسب ما يوجبه الحق : " وتتبَّع هذه الطائفة بجميع أعْمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب منهم غورهم جهدك ، فمن تجلّى بطبقتهم أن انتسب اليهم وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب الى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم الى باب سُدَّته ، ليُنَكّلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ويشفى حرّ صدره ..." (٤) .

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن مسرة بن نجيح ، من أهل قرطبة ، خرج الى المشرق ،واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، فحذق أقوالهم ثم انصرف الى الأندلس ، فأظهر ورعا ونسكا واعتزالا للناس ،فاغتروا بظاهره ، واختلفوا اليه وسمعوا منه ، ثم ظهر الناس على سوء معتقده وقبح مذهبه ، فانقبض عنه من كان له ادراك وعلم بحجره، وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجهل والتحير ، فدانوا بنحلته ، وبثوا في الناس مذهبه الاعتزالي ، وقد رمي بالزندقة بالاندلس ، توفي سنة ٣١٩هـ ، (انظر : تاريخ علماء الاندلس : ج٢ ،ص ١٩، المقتبس : ج٥ ،ص ٣٠-٣٦، الجذوة : ص ٦٣) .

(٢) المقتبس : ج٥ ،ص ٢٧ .

(٣) المقتبس: ج٥،ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ج٥ ،ص ٢٩ .

ومن الأغراض المهمة التي تناولتها الرسائل السياسية أيضا العلاقات الخارجية ، وبعض الامور والمشكلات السياسية بين الدولة الاسلامية في الاندلس وبعض الامارات والدول الاسلامية والدول النصرانية في أنحاء مختلفة من أوروبا .

وقد كان لنشاط حركة السفارات بين قرطبة وزعماء الشمال الافريقي ودول اوروبا النصرانية (١) دور كبير في ازدهار هذا اللون من الرسائل السياسية .

ومما يؤسف له أن جل هذه الرسائل لم يصل الينا ، وقد وصلتنا اشارات كثيرة عن رسائل سياسية متبادلة بين حكام الاندلس وزعماء آخرين في أوروبا وافريقيا .

وقد كانت الرسائل السياسية التي انتهت الينا تتسم حينا بالشدة والعنف ، وتتسم حينا آخر باللين واللطف ، وهي تتراوح بين الايجاز والاطناب .

ومن تلك الرسائل التي تتسم بالعنف الشديد ما جرى بين الحكم المستنصر والعزيز بالله الفاطمي ، فقد كتب العزيز بالله الفاطمي رسالة الى الحكم المستنصر يهجوه فيها ويسبه ، فرد عليه الحكم المستنصر برسالة عنيفة قال فيها : " وبعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام "(٢) .

ومن الرسائل السياسية التي تتسم باللطف واللين، تلك الرسالة الجوابية التي بعث بها الامير عبدالرحمن الاوسط الى امبراطور الروم تيوفيلوس ، ويستدل من هذه الرسالة على ما انطوت عليه رسالة امبراطور الروم التي ضاعت ولم تصل الينا ، فهو يطلب من الامير عبدالرحمن اقامة علاقات ودية وصداقة قوية بينهما لتكون امتدادا للصداقة التي كانت بين أسلافهما زمن الدولة الاموية في المشرق ، ويعبر عن أسفه وحزنه الشديد لما حل ببني أمية في المشرق من قتل وتشريد ، ويهاجم الخلافة العباسية ، ويعرض لسوء حكم بعض الخلفاء العباسيين وانحرافهم عن مصلحة رعيتهم .

وقد رد عليه الامير عبدالرحمن برسالة مماثلة ، يذكر له فيها أنه يرغب في مودته وصداقته ، وأنه يسعى لذلك احياء لذكر المودة التي كانت بين أسلافهما ، حيث يقول : " وأمّا ما رغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أولوك لأولينا ، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا . وأن نتمسك من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعضهم لبعض ، ويشدون أيديهم به "(٣) .

---

(١) انظر: المقتبس : ص ٧١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٩ ، البيان المغرب : ج٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ . (٢) النجوم الزاهرة : ج٤ ، ص ١٤٩ .
(٣) الوثائق السياسية : ص ١٤٧ .

ثم هو يشكره على مشاعره الصادقة نحو بني أمية لما حل بهم في المشرق من قتل وتشريد وانتهاك للمحارم ، ويشاركه في مهاجمة بني العباس ، والطعن في سيرة بعض خلفائهم والتقليل من شأنهم ، ويعده ان رد الله سلطان الامويين في المشرق فانه سينظر بعين العطف في طلبه بما فيه صلاح للطرفين ، ومما جاء في ذلك قوله : " وفهمنا ما ذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وآسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وما كان من الفاجر أبي جعفر ، وجرأته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه لمحارمه ،والله قد أحصى عليه ذلك فآسفه منه ، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه ...، وان الله بحوله وقوته وفضله ومنّته رد الينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه من صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك "(١).

ويختتم رسالته هذه بالتعبير عن صدق مودته له ، ويذكر له بأنه قد أرسل اليه رسولين من عنده توكيدا لهذه المودة الخالصة ، حيث يقول : " قد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذي أوصيت به الينا ، وعن كلّ ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجّهنا اليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا ، فاكتب الينا معهما بالذي أنت عليه من الامر الذي كتبت به الينا ، والذي يجب عليك من سائر خيرك ، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك ان شاء الله "(٢) .

ومن الرسائل السياسية أيضا تلك الرسائل التي كان يتبادلها حكام الأندلس مع حلفائهم من أمراء البربر في العدوة المغربية ، ومن ذلك رسالة بعث بها الخليفة عبدالرحمن الناصر إلى محمد بن خزر(٣) . وقد بدأ رسالته بالحديث عن عزمه على استرداد ملك أجداده الامويين في المشرق : "وإنّ أمير المؤمنين ، لما تفرَّغ باله ، وتَقَضَّتْ بالاندلس أشْغالُه ، واكتملت له في أعدائه آماله ، ولم يَبْقَ عليه فيها بقيةٌ يعانيها ، ولا حال يَسْتَعمل رجاله فيها ،صرف عزيمتَه ، وأمالَ همته الى ما بَيْنَ يَدَيْه من أسباب المشرق ، وَطَلَبَ ما لم يَزَل لأوله حقّاً ، وله ميراثاً ، مع ما ينويه ويرجو أن يجري الله أكرومته على يديه ، من إحياء الدين بنظره ، واماتة البدَع بقويم منهاجه ، وحماية بيت الله الحرام ، المُنْتَكثة حُرْمته المعظمةَ ..."(٤).

ثم انتقل للحديث عن عمله على العبور إلى العدوة المغربية بجيوش عظيمة العدد والعدة لقراع من ابتزّهم الخلفاء بالمشرق من خلائف الهاشميين في سبتة ووهران : " وقد أمر أمير المؤمنين بالتأهب والاستعداد بالرجال والأجناد ، وتخيُّر الكُماة وانتقاء الرماة ، وتضعيف

---

(١) الوثائق السياسية : ص ١٤٦-١٤٨. (٢) المصدر السابق نفسه :ص ١٤٨-١٤٩.
(٣) هو محمد بن الخير بن خزر الزناتي ،أمير زناتة ،ومن دعاة بني أمية الاندلسيين في العدوة (انظر : المقتبس : ص ٣٥ ،البيان المغرب : ج٢،ص ٢٤٣) . (٤) المقتبس : ج٥ ،ص ٣٠٦ .

العددَ وتكثير العُدَد ، وتَجْريد الآلات ، وتكميل الأدوات ، والنظر في إلحاق الحُشود بالجُنود لميقات معلوم ووقت محدود ، وأن يستكثِرَ من جميع المراكب ، إلى ما قد قام منها ، ويتوسّع في عددها لتجهيز الاساطيل المؤيّدة في وقت اجازتها ، وعند امكان البحر لها السَيْر ، طائفة منها نحو سَبْتَة(١) ، وأخرى الى جهة وَهْران(٢) ، فيمن تَخيَّره من وُجوه قُوّاده وأعلام رجاله وصميم حَشَمه وأبطاله ، من أهل البأس والصبر وحُسْن البَلاء وقُوّة الجَلَد ....، لا يَهُول أحدهم قِرْنٌ يُنَاوله ، ولا يثني مِقْنَبهم جَيْش يُقابِلُهُ ، كالليُوث في إقبالها ، والتنانين في التهامها ، قد مارستهم الحرُوب ومارسوها ، وساستهم الخطوب وساسوها ، فهي أُمّهم ، وهم بنوها ..."(٣) .

ثم ختم رسالته إلى الامير محمد بن خزر بأن طلب منه أن يستعد ويتأهب لقيادة الجيوش الأندلسية ، فهو نصيره على استرداد ملك أسلافه الامويين في المشرق ، ومقدّمته في طلبه ، حيث يقول : " فاستعدَّ ، أسْعَدك الله ، وتأهّبْ وَشمّر وتلبَّبْ ، وكُنْ على انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين وولاته ، لتكون صدْر القوّاد ، كما أنت صدْر أولي الوداد ، ومتقدِّما للرجال ، كما أنت صدر الصيال ، فان أمير المؤمنين يَرْجُو ، بالله عَوْنه وعليه توكله ، أن يكون قد قَرُب الوقت الذي قد رَجَوْتَ الفوز به والإدراك له وبلوغ الأمل منه ، إن شاء الله ، عزَّ وجلَّ "(٤) .

---

(١) سبتة : بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، وهي تقع على البحر المتوسط في مقابلة جزيرة الاندلس (انظر : مراصد الاطلاع : ج٢،ص ٩٨٨ ، الروض المعطار : ص ٣٠٣) .

(٢) وهران : مدينة بالمغرب على ساحل البحر الابيض المتوسط ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا من جهة الغرب ، ويقال أنها بنيت سنة ٢٩٠ هـ (انظر : مراصد الاطلاع : ج٣ ، ص ١٤٤٦، الروض المعطار : ص ٦١٢) .

(٣) المقتبس : ج ٥ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ج ٥ ،ص ٣٠٧ .

الرسائـل الحربيـة

ومن الموضوعات المهمة التي عالجتها الرسائل الديوانية الامور الحربية مختلفة . فقد شهدت الأندلس خلال القرون الثلاثة الاولى للفتح كثيرا من الأحداث السياسية التي تمخضت عنها حروب ووقائع داخلية وخارجية خطيرة . وقد كان لنشاط الجيوش الأموية واستمرار حركتها في محاربة الثائرين على الحكم ، إلى جانب نشاطها الخارجي الذي يتمثل في الجهاد ضد الدول النصرانية في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الالبيرية ، ومحاربة الحسينيين الذين تحالفوا مع الفاطميين في العدوة المغربية ضد الامويين بالأندلس ، صداه الواسع في أدب الرسائل إذ كان حافزا قويا لانشاء تلك المكاتبات الحربية التي كانت حلقة الوصل بين الخليفة أو الأمير الأندلسي وأمراء الجيش في ساحات المعارك .

وقد تعددت أغراض الرسائل الحربية وتنوعت بحسب المواقف التي تمليها طبيعة الظروف الحربية السائدة . ومن الاغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الحربية اسداء النصائح المختلفة للقادة وتوجيههم الى ما فيه سلامة الجيش وتحقيق الظفر . ومن هذه الرسائل ما كتبه الامير عبدالله بن محمد إلى قائده أحمد بن محمد يحضه على التوكل على الله والثقة به ، ويدعوه الىأخذ الحيطة والحذر من العدو ، حيث يقل : " أمّا بعد ، فالتزم التوكل على الله – تبارك وتعالى – والثقة به في جميع أمورك ، وما أنت بسبيله من ثغرك ، فانهما حِرْز من كلّ ضر يتقى ، وبلاغ لكل خير يرتجى ، وكن من التحفظ في أيام عيدك على أحسن الذي يجب عليك الأخذ به والتحفظ فيه فالله خير حافظ ، وهو أرحم الراحمين "(١) .

ومن هذه الرسائل ايضا تلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر الى قُوّاده في العدوة المغربية ، وفيها يوصيهم بجملة من الوصايا العسكرية التي تكفل لهم النصر ، وتؤمن لهم سلامة الجند ، ويدعوهم الى إذكاء العيون وبث الجواسيس لاستطلاع أحوال العدو : " ان أفضل ما احتمل عليه وعمل به استشعار الحزم ، وادّراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، واذكاء العيون ، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ، ومن حَمَلَة الأخبار حتى لا تخفى لحسن(٢) – أهلكه الله – حركة ولا يتوارى له مذهب "(٣) .

---

(١) أخبار مجموعة : ص ١٥٢ .

(٢) هو حسن بن قاسم بن قنون الحسيني الادريسي ، آخر أمراء الدولة الادريسية الثانية في العدوة المغربية ، وقد تحالف مرات عديدة مع الفاطميين ضد الامويين بالأندلس ، وقد بعث الحكم المستنصر اليه جيوشا عظيمة الىأن تمكنمن الانتصار عليه سنة ٣٧٥هـ ، وقد اقتيد أسيرا الى قرطبة وقتل غيلا وهو في الطريق (انظر : الانيس المطرب : ص ٨٩ ، جذوة الاقتباس : ج١، ص ١٧٦) .

(٣) المقتبس : ص ٩٧ .

ومن ذلك أيضا ما جاء في الرسالة الجوابية التي بعث بها الحكم المستنصر إلى قائده في العدوة المغربية غالب بن عبدالرحمن الناصري(١) ، وفيه يدعو الى إستشعار الحذر ، وايقاظ النظر ، حيث يقول : " وليس يخفى عليك أن الشتاء بين يديك ، والبحر دونك ، وربما تعذر ركوبه فاجعل الطعام ذخيرتك ، وحفظه تجارتك ، فالأموال بحمد الله موفورة ، واحتمالها في كل وقت متمكن ... واحتط في الطعام جهدك ، ووطّن على الصبر نفسك، ولا تمنها برجوع الى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين ويفرق ملأ الملحدين "(٢) .

ومن الموضوعات التي طرقتها الرسائل الحربية أيضا الاستنجاد وطلب الامدادات العسكرية والمؤن ، وقد نشأ هذا اللون من الرسائل بسبب انشغال الجيوش الأندلسية بإخماد نيران الفتن والثورات الداخلية والحروب الاهلية التي اشتعلت في بعض الأقاليم الأندلسية ، إلى جانب توالي الفتوح في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الأندلسية ، وانطلاق الجيوش الأندلسية في العدوة المغربية لمحاربة الحسن بن قنون وأتباعه من الحسينيين ، وما يتطلبه ذلك من امداد الجيوش بالعدد والعدة لتحقيق الظفر .

ويتصل بهذا اللون من الرسائل تلك الرسائل والمنشورات التي كان يوجّهها الخليفة أو من ينوب عنه في قيادة الجيش الى القواد والعمال بأنحاء الأندلس يحضهم فيها على الجهاد واستنفار الناس الى الاعداء .

ومما انتهى الينا من رسائل الاستنجاد وطلب الامدادات العسكرية تلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر إلى قائدة غالب بن عبدالرحمن الناصري ، جوابا على رسالته التي ارسلها اليه يشكو فيها غلاء الاسعار في العدوة المغربية لكثرة أفراد الجيش ويطلب منه المدد . وقد استهل رسالته تلك بدعوة قائده ألاّ يهتم بالاطعمة والارزاق : "وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام ، فموادها موصولة بك متلاحقة لديك، حتى يفتح الله في الظالم القاطع بعدله ، ولو أتى ذلك على بيوت الاموال المترعة وأهراء الأندلس المفتحة ، فلو لم يبق منها غير ما في الاهراء الخاصة بقرطبة لاحتمل اليك جميع ما فيها "(٣) .

ثم هو يذكّره بأنّ عليه أن يجعل همّه الأول الحرب ومجاهدة الفاسق المارق ابن قنّون حتى يظفر به : " فاقبل على ما بين يديك إقبال من

---

(١) هو القائد غالب بن عبدالرحمن الناصري ، أحد أمراء البحر ، ومولى عبدالرحمن الناصر ، وقد أصبح أيام الحكم المستنصر من كبار رجال الدولة ، ثم صار حاكما للثغر الاعلى ، وأراد المنصور بن أبي عامر أن يتألفه ليستعين به ، حيث كان غالب من فرسان الاندلس الكبار ، فتزوج بنت غالب ، ولكن دب الخلاف بينهما ، وانتهى الى معركة عسكرية ، قتل فيها غالب سنة ٣٧١ هـ (انظر البيان المغرب : ج٢ ،ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٦٢ - ٦٥) .

(٢) المقتبس : ص ١٣٥ .

(٣) المقتبس : ص ١٣٠ - ١٣١ .

لا يناجي نفسه بانصراف أو انحراف ، إلاّ بعد الظهور على عدوّك بحول الله وقوته ، أو اضطراره الى الجنوح والرجوع عن غيه والانابة الى رشده باللحاق بباب سُدّة أمير المؤمنين ، فهذا أقلّ الاحوال المرتضى بها منه أو نفيه عن أرضه واخراجه عن جميع ذلك البلد "(١) .

ومهما يكن من أمر،فان الحكم المستنصر يريد من رسالته أن يبث الحماسة في نفس قائده ، ويذكي فيه روح الاستبسال .

وللحكم المستنصر ايضا رسالة أخرى بعث بها الى قائده غالب بن عبدالرحمن الناصري ، يمده فيها بجيش عظيم يقوده الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي في العدوة المغربية ، وقد جاء فيها: " وأن العهد عند الوزير القائد يحيى بن محمد مقرر بالخفوف اليك والبدار نحوك ، متى ورد كتابك في ليل أو نهار ، وأن يتصرف كيف رأيت تصريفه ، فهو مدد لك وعون على محاولتك ، فانظر في جميع ما بين يديك ، ومن يحويه عسكرك نظر من أفرده أمير المؤمنين ببعثه ، وقلّده ما بين يديه "(٢).

ومن الأغراض التي تناولتها الرسائل الحربية أيضا الثناء والعتاب ، اذ أن الخليفة أو من ينوب عنه في قيادة الجيش كان يراسل بعض القادة الذين يظهرون الطاعة والولاء أو الاخلاص في تأدية مهامهم العسكرية ، فيتوجه اليهم بالشكر والثناء والتقدير . وكان يكاتب أحيانا من يصدر عنهم تقصير في القتال أو تفريط في القيادة .

ومن رسائل الثناء والتقدير التي انتهت الينا ما كتبه الحكم الربضي الى قائده وعامله على سرقسطة الفرج بن كنانة (٣) يثني عليه وقد أبلى بلاء حسنا في القضاء على حركة تمرد قامت في سرقسطة وتمكن من جمع كلمة العرب والبربر في ولايته ، ومما جاء فيها : " أصبت رأيك فيما جمعت من كلمة الفريقين ، وأصلحت من أمرهم ، وقد عرفنا حسن رأيك وصواب سياستك فيما حملناك من أماناتهم ، وعصبنا بك من أمرهم ، ووقع لك منا موقع المعرفة والسلام"(٤) .

ومن رسائل اللوم والعتاب تلك الرسالة التي وجهها المنصور بن أبي عامر الى جنده يلومهم فيها يعاتبهم لنكوصهم عن محاربة الاعداء ، وفرارهم ، ويصفهم باليعافير والرئال ، وهي من انشاء كاتبه الجزيري ، وفيها يقول : " وكثيرا ما فرض من قولكم انكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شانجة بالأمنية وقاتلكم بالشريطة ، أَنْكَرْتُم ما عرفْتُم ونافرْتُم ما ألفتُمْ ، حتى فَرَرْتُم

(١) المقتبس ص ١٣١ . (٢) المصدر السابق نفسه ص ١٢٩-١٣٠ . (٣) هو الفرج بن كنانة بن نزار الكناني ، كان من أهل العلم والتقييد ، وكانت له رحلة الى المشرق ، ولما قدم من رحلته استخصه الامير الحكم ، واستقضاه على قرطبة ، وولاه عددا من المدن الاندلسية ، وقد تولى قيادة عدد من جيوش الحكم في حربه ضد النصارى (انظر ترجمته في : قضاة قرطبة : ص ٤٠-٤٤).
(٤) قضاة قرطبة : ص ٤٣ .

فرار اليعافير من آساد الغيل ، وأَجْفَلْتُمْ اجفال الرِّئال عن المُقْتنصين، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار ، وحرَّروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم ، وشملت بالمَوْجدة كافتكم ، وخرجت للامام والامة من عُهدتكم ، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم ..."(١) .

ومن الاغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الحربية أيضا الكتابة الى الخليفة لاخباره بالفتح وتهنئته بالظفر بأعداء الدولة من الثائرين والخارجين على الحكم ، أو تهنئته بتلك الانتصارات والفتوحات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية ، سواء كانت في الأندلس أو في العدوة المغربية . وقد تصدر هذه الرسائل أحيانا عن الخليفة نفسه الى القواد والعمال في الآفاق عندما يتحقق النصر أو يتم الفتح على يده .

ويتصل بهذا اللون من الرسائل أيضا تلك الرسائل التي جاءت تشرح ظروف الهزائم التي منيت بها بعض جيوش الدولة عقب انتصارها. ومما يؤسف له أن جل تلك الرسائل لم يصل الينا ، وقد وصلتنا اشارات بسيطة وعابرة الى عدد من كتب الاخبار بالفتح والتهنئة بالنصر "(٢) .

ومن تلك الاشارات ما ذكره الحميدي من أن ابن دراج القسطلي قد شهد وقعة "شانت ياقوب" سنة ٣٨٧ هـ ، وله فيها رسالة مشهورة كتبها من هناك على لسان المنصور بن أبي عامر الى الخليفة هشام المؤيد ، وفيها يخبره بالفتح ، ويصف الغزوة من أولها الى آخرها ، ومشاهد القتال ، وكيفية الحال ، بأحسن وصف وأبدعه ، فاستحسنت ووقع الاعجاب بها ، وللجزيري في ذلك الفتح رسالة مماثلة لم يبق منها عين ولا أثر(٣).

ومن رسائل الاخبار بالظفر بأعداء الدولة والثائرين عليها وفتح معاقلهم ، ما كتبه الخليفة عبدالرحمن الناصر الى الآفاق بعد انتصاره على حفص بن عمر بن حفصون وفتح قلعة بُبَشْتَر سنة ٣١٥هـ . وقد بدأ رسالته تلك بالحديث عن سياسة الدولة في الجهاد ضد أعداء الله من أهل الشقاق والنفاق ، وظفرها بهم : " ثم انّا لم نَزَل ، مُذْ شَرَّفنا الله بخلافته واختَصَّنا بإمامة عباده ، نَبْتَغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأب في نصر أوليائه ، ولا تلفتنا عن ذلك لفتة سأمة ، ولا يلهينا عنه تملي دعة ، حين امتلأت الأرض كفرا ، وفاضت شِرْكا ، وتوطَّد النفاق ، واستعجل الشقاق ، وهدر كل ناعق في طَوْدٍ منعة ، ونبَّ كلُّ وَعْلٍ في رأس شاهقة ، قد تأثّلوا بكثرة العدد والعدة ، واعتزوا بطول المُهْلة وتراخي المدة ، فرفلوا بين الخليقة ، واتسعت بهم البسيطة ، وابتعثنا اللهُ بقدرته لنَثْنيهم عن الضلال وحَمْلهم عن الطريقة ، فلم نزل نُبْخِعهم وَنَتَحَرّاهم واحداً بعد واحد ، وَنَسْتَتِر لهم عن مَعْقِلٍ بعد مَعْقِل ... حتّى

---

(١) أعمال الأعلام : ج٢ ،ص ٧٢ .
(٢) انظر : الجذوة : ص ١١٢ .
(٣) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ١١٢ .

أذل الله عزتهم ، وسكّن ثورتهم ، وأوهن كَيْدهم ، وشتّت جَمْعهم ، وزلزل بهم وأخْلى معاقلهم ، وقيدوا الى الطاعة صَغَرة بجرائمهم..."(١) .

ثم تدرج للحديث عن مدينة ببشتِر وقلعتها التي كانت وكر الفتنة ، ومبعث الفرقة ، وسبب البلاء ، وللدين غُصّة ، ولعمارة الارض اخرابا ، وقد وصف حصاره لها بشكل مفصل ، اذ حل بها حلول الاحاطة ، ونازلها بالقتال وضيّق عليها بالحصار ، حتى تمكّن من فتحها ، وقد بلغ من فتحه إياها أقصى حدود ما أحببه ، بفضل الله وعونه له ، وتأييده لأمره ، وقد خرج أهلها فارين منها ، وتفرقوا أيـدي سبأ في جوانب شتى : " قصدنا لها بأنفسنا وأقمناها بعزائمنا ، فابتنينا عليها المدائن الشريفة ، ورفعنا فوقها الحصون المنيفة ، وأنزلناها القواد والقوة ، وكثّرنا فيها من العَدَد والعُدّة ، وتقدمنا اليهم بمُداومة التضييق على من فيها ، وصلة المُحَاصرة والتردُّد بالأرصاد ، والمضايقة وقطع الميرة من كل جهة ، وترك تقبل النُّزوع من كل طبقة ، وحمل السيف على كل من خرج عنها أو دخل اليها ، وَسَبْي مَنْ وَجَبَ سَبْيُهُ من نسائها وولْدانها ، فتَبَدّوا ذلك من عَهْدِنا ، واحتملوا فيه على آمرنا ، وأخذوا بأجَدّ عَزْم وأسدّ حزم ، فأكلهم جد الحصار ، والارتصاد بالليل والنهار ، وذهبت طوائف منهم بالقتل وجماعات بالسباء ، وعاينوا ما لا صبر لهم ولا قرار بهم معه ، ولا استيطان به ، ولم يجدوا مَلْجأً يلجأون اليه ، ولا مَحيصاً عمّا صاروا فيه ... فَصَدَدْنَاهم عن الاستقْرار بعُش ضلالتهم ، وأبَحْناهم النزول خارجين عنها ، متبدّدين منها ، فأسرعوا الى ما أبحنا لهم من ذلك إسراعَ الإضطرار ..."(٢) .

والرسالة طويلة ، مال كاتبها الى الاطالة والاطناب .

ومن الرسائل التي كتبت لشرح ظروف الهزائم وتبيين أسبابها تلك الرسالة التي وجهها عبدالرحمن الناصر الى قواده وأنصاره يشرح فيها الظروف التي أدت الى هزيمته في غزوة الخندق (٣) سنة ٣٢٧ هـ ، ويحاول فيها التخفيف من آثار الهزيمة في نفوس جنده ورعيته ، وهي من انشاء كاتب الرسائل عيسى بن فطيس .

وقد بدأ الكاتب رسالته هذه بالحديث عن خروج الخليفة عبدالرحمن الناصر الى بلاد الاسبان مجاهدا في سبيل الله بجيوش عظيمة ، وحربه ايّاهم ، وكيف هزمهم بعد حرب شديدة ، وقد وصف حركة الجيش الاسلامي ، وسير المعركة ، وهجوم الفرسان المسلمين واستبسالهم فيها : " وتخيّر أمير

---

(١) المقتبس : ج ٥ ، ص ٢٢٧ .   (٢) المصدر السابق نفسه : ج٥ ، ص ٢٢٩ .

(٣) غزوة الخندق : غزوة مشهورة غزى فيها الخليفة عبدالرحمن الناصر أرض جليقية ، وهزم أهلها بعد حرب شديدة ، وعندما انصرف جيشه الى بلاده ، نصب له الجليقيون كمينا قرب خندق عميق ، فوقع فيه عدد كبير من فرسان المسلمين ، واليه تنسب هذه الغزوة (انظر : المقتبس ج٥ : ص٤٣٦-٤٣٧) .

المؤمنين كُدْية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تَلاحقتْ جموع الكفرة ، وقدّموا صلبانَهم ووثقوا بشيطانهم ، الذي غرَّهم ، وكان المسلمون على نشْطة الى لقائهم ، فلم ينتظر أوّلهم الى توافي آخرهم ، ولا فارسهم أن يقتعد براجلهم ، وتخطّوا الرماح الى السيوف والطعن الى الضرب ، وكرّوا في حومة المنايا كر من يحمي قليله ، ويخشى بعد ساعة أن تُسْبَى ذُرّيته ، فلم يَرَ المسلمون حَرْباً أشدَّ منها ، ولا شهدوا يوم وغى أطْوَل من يومهم ذاك، ونصر الله تعالى يهوّنُ عليهم ما هم فيه ، حتّى فَضّوا جموعَ المشركين وزَلْزلوا رُدوءهم التي كانت أكاليل الجبال وردم الشِّعاب ، وضموهم الى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ما غيّب من كان في القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها ... وانحاز المسلمون الى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقَوامِهم وأهل البأس من فرسان الحرب ،ومن صَبَرَ لوقْع السيف ، فكانت مُصيبتهم بمن قُتِل منهم عظيمة "(١) .

ثم تدرج للحديث عن ظروف الهزيمة وأسبابها ، فبعد أن سارت الجيوش الاسلامية في بلاد الاعداء ، تدك الحصون ، وتنتسف الزروع ، وتقتل الفرسان نصب لها الأعداء في منصرفها الى بلادها كمينا قرب خندق عظيم ، فأصيب عدد كبير من الفرسان المسلمين ، ولكن الله سلّم الغالبية ، ورجعت الجيوش سالمة : " ثم أشْرف على خنادق وَعْرة وَمَهاوٍ مُتَقاذِفةٍ وأجْراف مُنْقَطِعَةٍ ، قد عَرَفَها المشركون ، وقَدموا إليها ، وألقوا الى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من حماة فرسانهم ومتقدمي رجالهم جُمْلة ، لو أُصِيْبَتْ بحيثُ يتراءى الجمعان لكانت سَبَبَ هزيمتهم ، ولكنهم وُثِقُوا بالوَعْر ، وانتظروا تقدُّم الحُماة ، وترادف الأثقال . فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصّته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم وجازت الخندق أثقالهم ، الا من ضَعُفَتْ دابته أو ضَعُفَتْ نفسه عن استنفارها ... وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقه ، حتى استهلوا ، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعهم وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تَدُر بغلبة ، ولا ظفر المشركون بما ظفروا به فيها عن مُساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ووَعْر الطريق وسَوْقهم الدليل لما جَلَبَهُ ، إلى أقدار الله تعالى ، التي لا تُصْرَفُ ، ومحِنه التي لم يزل يمتحن بها أولياءه ، ليعظهم ويَبْتَلي عبيده ليؤدّبهم "(١) .

---

(١) المقتبس : ج٥ ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

الرسائل الوصفية

لم يتناول كتاب الرسائل في الأندلس في هذه الفترة فن الوصف تناولا مستقلا ، الا في نهاية القرن الرابع الهجري ، فقد ظهر هذا الفن مقترنا إنشاوه بتلك الفتوحات العسكرية والانتصارات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية ، وارتبط بها ارتباطا قويا ، حيث كانت بعض رسائل الاخبار بالفتوحات والتهنئة بالانتصارات التي كان يرسلها القادة إلى الخليفة ، أو يرسلها الخليفة الى الامة بشأن المدن التي تم فتحها أو الانتصارات التي تم تحقيقها تضم أحيانا شذرات غير قليلة في وصف الجيوش وسير المعارك ، ومشاهد القتال ، والمناطق التي تم فتحها.

ومما انتهى الينا من هذه الرسائل تلك الرسالة التي كتبها عيسى ابن فطيس على لسان الخليفة عبدالرحمن الناصر الى الآفاق ليخبرهم عن غزوة الخندق وظروفها ، وهي رسالة طويلة ، اتسمت بجمال الأسلوب ودقة الوصف .

لقد استهل الكاتب رسالته هذه بوصف خروج الخليفة الى بلاد الاسبان مجاهدا في سبيل الله بجيوش عظيمة العدد والعدة : " فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صادقة ، وجموع كثيفة ، وكتائب تملأ الفضاء ، ومَقانِب تضيق عنها الشِعاب ، وتصير في سهل الأرض كالآكام ، تتألق عليهم سوابغ الدّروع ، فاذا تَدَاعَوْا قلتَ مَوْج مُتَراكِم ، وإذا وقفوا فكأنَّما النَّقْعُ عليهم لَيْل مظلم ..."(١).

ثم انتقل الى وصف سير المعركة ، وهجوم الفرسان المسلمين واستبسالهم في القتال : " وكان المسلمون على نَشْطة الى لقائهم ، فلم ينتظر أولهم الى توافي آخرهم ، ولا فارسهم أن يقتعد براجلهم ، وتخطوا الرماح الى السيوف والطعن الى الضرب ، وكروا في حومة المنايا كر من يحمي حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبى ذريته ..."(٢).

ثم وصف بعد ذلك وعورة الطريق ، وضيق المسالك في المناطق التي جرت فيها المعركة ، فعندما قصد أمير المؤمنين العدو " وقطع بعض محلته استقبل شَعْراء(٣) لا يتخلّلها المُفْردة بَجْمده ، ولا يتخلّص منها المُخِفّ ، لَوْ لم يكن أحد يَعْترِضه ، ثم أشرف على خنادق وَعْرة ، ومَهاوٍ متقاذِفة وأجراف مُنقطعة ..."(٤) .

كما أن بعض رسائل الاخبار بالفتوحات التي كانت تكتب بشأن المدن المفتوحة تنطوي أحيانا على قدر لا بأس به من وصف حصانة تلك المدن ومنعتها . ومن ذلك ما كتبه عبدالرحمن الناصر الى الآفاق بفتح قلعة

---

(١) المقتبس : ج٥ ،ص ٤٣٩. (٢) المصدر السابق نفسه : ج٥ ،ص ٤٣٩.
(٣) الشَعْراء : الأرض الكثيرة الشجر (اللسان : مادة أمم) .
(٤) المقتبس : ج٥ ، ص ٤٤٢ .

بُبَشْتَر ، وقد وصف مدينة بُبُشْتَر وصفاً مركَّزاً ، حيث يقول : " وهي من شرف المكان ، وسَماكة البُنْيان ، مع سمو الذِرْوة وعُلُو الرِّفْعة مِنْ كلِّ جهة ، لا شبيه لها ، ولا نِدَّ يُقَارنها شُرْفة البُنْيان ، مَسَاكِنُها على اتِّساعها مُتَضاغِطة الابنية بأهلها على فُسْحة رباعها ..."(١) .

كذلك فقد وصف خروج أهلها منها بعد فتحها : " فتساربوا خارجين، وتهافتوا ذاهبين ، وتفرَّقوا أيدي سبأ الى جوانب شتى ..."(٢) .

ومن رسائل الاخبار بالفتح والتهنئة بالظفر التي تناولت وصف المعارك والحروب ، ولم تصل الينا ما ذكره الحميدي من أن لابن دراج القسطلي والجزيري رسالتين في وصف معركة شانت ياقوب سنة ٣٧٨هـ من أولها الى آخرها ، ومشاهد القتال وكيفية الحال(٣) ، وقد تقدم الحديث عنهما .

أما اللون الاخر من الرسائل التي تناولت فن الوصف تناولا مستقلا ، فهو لون جديد في الموضوع والشكل ، وهو يتمثل في تلك الرسائل التي كتبت على ألسنة الورود والازهار ، ويفضِّل فيها الكاتب ورداً بعينه على غيره ، وتقوم هذه الرسائل على أساس التفاخر والمناظرة والجدل والنقاش بين الورود والازهار كل يبدي محاسنه ويفخر بصفاته .

ويعدُّ الجزيري أول من كتب هذا اللون من الرسائل في الاندلس ، ومن ذلك رسالته التي كتبها للمنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية ،وقد فضل الجزيري في رسالته هذه البنفسج على النرجس والبهار ، حيث يقول : " وقد ذهب البَهارُ والنَّرجسُ في وَصْفِ مَحَاسنهما والفَخْرُ بهما كل مَذْهَب ، وما منهما الا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أَوْضَحُ من الشمس التي تَعْلُونا ، وأَعْرَفُ من الغَمام الذي يَسْقِينَا "(٤) .

ولعل الباحث يرى في هذا اللون من الرسائل منحى رمزيا ، وصدى للتنافس الذي كان بين الكتاب في بلاط الامير ، حيث أن الكاتب يرجو التميز على أقرانه ، ويوضح فضله على غيره من كتاب القصر فهو يقول على لسان البنفسج : " اني أَعْطَرُ منهما عِطْراً ، وأَحْمَدُ خُبْراً ، وأَكْرَمُ إِمْتاعاً شاهِداً أَوْ غَائِباً "(٥) .

ثم ان الكاتب قد اتجه بالرسالة نحو المديح ، حيث يقول على لسان البنفسج أيضا مخاطبا المنصور بن أبي عامر: " اذا توافقت الخصوم - أيد الله - المنصور مولاي في مذاهبها وتنافرت في مفاخرها فاليك مَفْزَعُهَا ، وأنت المُقْنع في فصل القضية بَيْنَها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسرِّها وَجَهْرِها "(٦) .

---

(١) المقتبس : ج٥ ،ص ٢٢٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ج ٥ ،ص ٢٣٠ .
(٣) انظر الجذوة : ص ١١٢ . (٤) البديع : ص ٧٨ .
(٥) المصدر السابق نفسه :ص ٧٨ (٥) المصدر السابق نفسه : ص ٧٨ .



الفصل الثاني

أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري

- مكانته وتطوره
- اتجاهاته وموضوعاته

مكانتـــه وتطـــوره

تطور أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري تطـــورا كبيرا ، وتشعبت موضوعاته واتجاهاته وأغراضه تبعا لتشعب أمور الحيـــاة في المجتمع الاندلسي في هذا القرن .. واقتحم على الشعر ميدانه وشاركـــه في أغراضه وفنونـــه .

وظهر عدد كبير من الكتاب البلغاء الذين أخذوا يروضون أقلامهم علـــى كل فن ، ويجولون بها في كل ميدان معتمدين على بلاغتها في التعبير عـــن خلجات القلب وخطرات النفس وأمور الحياة . ولقد صاغوا أحاسيسهـــم ومشاعرهم في رسائل رائعة تناقلتها الاجيال جيلا بعد جيل .

ومهما يكن من أمر، فقد تهيأ لأدب الرسائل من عوامل الازدهار مـــا بوأه منزلة رفيعة في أدب القرن الخامس الهجري . ومن هذه العوامل مـــا يتعلق بالانهيار السياسي الذي أصاب الاندلس بعد سقوط الخلافة وتجزؤ البـــلاد الى دويلات صغيرة مستقلة ، وما نجم عن ذلك من كثرة المشاحنات والخصومـــات بين ملوكها ، وما كان من نشوب الحروب الداخلية ، واشتعال الفتن ، وسياسـة البطش والارهاب التي انتهجها بعض ملوك الطوائف مع رعاياهم ، اضافة الـــى انقسام الامـة واختلاف كلمتها .

ولا يخفى ما لكل هذه الاحداث السياسية الخطيرة من تأثير مباشر فـــي أدب الرسائل وتطوره ، وتشعب موضوعاته ، واتساع أغراضه ، وظهور ألـــوان جديدة من موضوعات أدب الرسائل لعل أبرزها الحديث عن الاتجاهات السياسيـــة التي تصطرع في الاندلس ، والخصومات والاضطرابات السياسية ، اضافة الـــى النقد السياسي والدعوة الى وحدة الصف .

وقد كان لتكتل الصليبيين وسيرهم الى الاندلس بجحافل جرارة لاستعادة الاندلس الى حظيرة النصرانية ، وما نجم عن ذلك من سقوط القواعد والمـــدن الاندلسية الواحدة تلو الاخرى، أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل وتطـــوره ، اذ كان لابد من اذكاء روح الحماسة ، وبثها في النفوس للقيام بأعبـــاء الواجب المقدس لانقاذ الاندلس والدفاع عنها. وقد كانت الرسالة خير وسيلـــة لتحقيق هذه الغاية الجليلة ، فكانت رسائل الاستنفار التي تبكي الامـــة ومدنها المتساقطة ، وتستثير الهمم للالتئام والوحدة ، وتنبه على مواطـــن الخطر المحدق بالامة . وقد نشط هذا الضرب من الرسائل بعد سقوط طليطلـــة بيد الأذفونش عام ٤٧٨ هـ ، اذ كثرت الرسائل التي تحض على الجهـــاد

لانقاذ الاندلس ، وبخاصة تلك الرسائل التي كان يبعث بها ملوك الطوائف الى المرابطين يطلبون منهم العون والمساعدة في رد الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوجود الاسلامي في الاندلس .

وبعد جواز جحافل المرابطين الى العدوة الاندلسية ، وما كان من نصرتهم للاسلام ونجدتهم للمسلمين ضد الصليبيين ، وما نجم عن ذلك من معارك حققوا فيها انتصارات باهرة على الصليبيين،عظمت الحاجة الى رسائل تشرح سير المعارك وتصفها ، ففسح المجال أمام الكتاب الذين أخذوا يشرحون سير المعارك ، ويبينون نتائجها ، ويخبرون بالفتوح ، ويبشرون بها ، ويهنئون بالانتصارات ، ويتغنون بالجهود العظيمة ، والمواقف الجهادية ، والحماسة الفائقة التي تحلت بها الجيوش الاسلامية وقادتها .

كذلك فقد كان لفساد الاحوال الاجتماعية في هذا القرن ، وانتشار الترف والبذخ واللهو في سائر جوانب المجتمع الاندلسي ، وانصراف ملوك الطوائف ووزرائهم عن مصلحة الامة الى المظاهر الكاذبة ، وانشغالهم بشرب الخمور ، وارتكاب المعاصي دور فعال في شيوع أدب الرسائل وتعدد موضوعاته .

فقد واكب أدب الرسائل هذه الحياة الاجتماعية المضطربة ، فصور كثيرا من ملامحها ومظاهرها ، واستطاع الكتاب أن يعبروا عن الظروف النفسية الصعبة التي عاشها ابناء الشعب الاندلسي آنذاك . وقد تباينت مواقف الكتاب من هذه الظواهر ، وتنوعت ردود فعلهم تجاهها . فمنهم من أقبل على الملذات والمتع والمجون ، ودعا غيره اليها لتحقيق حاجاته الحسية ومطالبه الوجدانية دون أن يعبأ بمسؤوليته ازاء المجتمع[1] . ومنهم من وقف من المجتمع موقف الناقد الملتزم بالقيم الخلقية والفضائل الاسلامية، وأخذ يحدد الادواء والمعوقات في مسيرة المجتمع ، ويرسم صورة للاصلاح الاجتماعي[2] .

ولقد كان لنهوض العلوم والاداب على الرغم مما شهده الاندلس في هذا القرن من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل . كذلك فان قيام دول الطوائف قد ترك آثارا مباشرة على أدب الرسائل ، اذ كانت هذه الدول الناشئة بحاجة ملحة الى الكتابة لتؤدي الاغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والتشريعية وما اليها من مهام تتطلبها الدولة .

---

(١) انظر : القلائد : ص ١٠٨ ، الذخيرة : ق ٣ م ٢ ، ص ٥٤٢ – ٥٤٣ ، الخريدة : ج ٢ ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٢) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٤١٤– ٤١٥،ق٣م١ ،ص ٢٣٨ ، ق٤م١، ص ١٩١، ق٢م١،ص ٨٤ – ٨٦ . وانظر ايضا : " الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي " ، عالم الفكر م ١٢ (١٩٨١) ،ع٤ ،ص ١٣١ – ١٣٤ .

وكان عماد الكتابة الكاتب المعد اعدادا خاصا لتأدية هذه المهام ، ولهذا فقد أخذ الامراء والملوك يتنافسون في اجتذاب الكتاب الى عواصم ملكهم لتأدية هذه المهام . وكانوا يقربونهم ويرفعون من مراتبهم ويشجعونهم ويغدقون عليهم العطايا والصلات . ولهذا أيضا اصبحت الكتابة هي الاداة الاولى التي كانت تمنح صاحبها حق الوصول الى المناصب العليا في الدولة ، اذ ان مهمة الوزارة تتصل قبل أي شيء آخر بالكتابة ، فاذا كان الكاتب مثل ابن برد الاصغر وابن زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة الوزارة ، ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك ، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة . ولو نظرنا في مصادر الادب الاندلسي لوجدنا ان طبقة الوزارة غالبا ما تتصل بالكتابة (١) .

وكان لطبيعة الاندلس الساحرة كذلك ومفاتنها المتعددة وبساتينها الوارفة ، وأنهارها الجارية ، وحيواناتها الجميلة أثر كبير في جذب أنظار الكتاب الاندلسيين كما جذبت أنظار الشعراء ايضا ، فأقبلوا عليها في شغف شديد ، يتغزلون بها ، ويتغنون بمحاسنها ، ويصورون فضائلها ومفاتنها ، فازدهرت بهذا رسائل وصف الطبيعة ومظاهرها المختلفة ، وتعددت ألوانها ، وتشعبت أغراضها .

وقد كان لبعض الظواهر الادبية التي شهدها الاندلس في القرن الخامس الهجري أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل . فقد أدت ظاهرة كثرة الشعراء الجوالين الذين يطوفون على الامراء مادحين متكسبين باشعارهم الى كثرة الرسائل التي تكتب في الشفاعات والوصايا من أجل اولئك الشعراء (٢) . اذ كان الواحد منهم يحتاج الى رسالة توصية من أحد المشهورين حتى يستطيع أن يبلغ مأمله ، وربما كانت الحدود السياسية الكثيرة آنذاك عاملا آخر في اللجوء الى مثل هذه الرسائل (٣) .

ولقد استمر أدب الرسائل في ازدهاره بعد خلع ملوك الطوائف ، ووجد الكتاب اهتماما كبيرا لدى أمراء المرابطين وولاتهم في الاندلس ، فقد ذكر صاحب المعجب في حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علي ابن يوسف أنه " اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار " (٤)

---

(١) انظر : فهرس القلائد ، الذخيرة : ق ١ م ١ ، ص ٢١ - ٢٩ .

(٢) انظر : الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٣١١ ، ق ٣ م ٢ ، ص ٤٦٨ .

(٣) انظر: عصر الطوائف والمرابطين : ص ٨٦ .

(٤) المعجب : ص ٢٢٧ .

ومهما يكن من أمر فقد تعددت مظاهر ازدهار أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري • ومن هذه المظاهر انه شارك في التعبير عن حركة النقد الادبي التي كانت في الاندلس آنذاك ، فوضح كثيرا من آراء الاندلسيين في الشعر وفي الشعراء المشارقة والاندلسيين وكتابهم وأساليبهم، فظهرت بذلك رسائل النقد الادبي [١] •

ومن مظاهر ازدهار أدب الرسائل ايضا انتشار ظاهرة المعارضات بين المترسلين ، وهي تشكل جزءا مهما من ظاهرة السلاسل الادبية التي كانت مألوفة في الادب الاندلسي في هذا القرن ، اذ كانت رسالة تثير عدة رسائل ، أي أن الرسالة الواحدة تثير كتابة رسائل اخرى لاسيما حين يدخل حلبة النزال كتاب آخرون بقصد اظهار براعتهم واقتدارهم في القول، ثم مجاراة الرسالة الاصل ومحاولة التفوق عليها • ومن هذه السلاسل الادبية رسائل الزهديات ، ورسائل الزرزوريات ، ورسائل وصف مطر بعد قحط[٢] •

لقد تأثر الكتاب الاندلسيون في هذا القرن بتلك الرسائل الرائعة التي ابتدعها عدد من كتاب المشارقة من أمثال سهل بن هارون ، والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ، والتي انتقلت فيما بعد الى الاندلس ، واستقوا من هذه الرسائل [٣] ، ولم يقفوا عند هذا الحد فحسب،بل طوروها،وابتكروا جوانب جديدة سبقوا المشارقة اليها ، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل ، ومن ذلك أنه كان لرسالة عبدالحميد الكاتب في وصف الصيد[٤] - وهي من الرسائل التي نقلت موضوع الطرد من الشعر الى النثر - أثر كبير في أدب الرسائل في الاندلس في هذا القرن ، اذ انهم نقلوا هذا الموضوع عندهم من الشعر الى النثر ، وابتدعوا لونا جديدا من الطرديات هو صيد البحر[٥]، وهو لون لم يعرفه أدب الرسائل في المشرق •

وظهرت رسائل مبتكرة كان للاندلسيين فضل السبق فيها ، ومن ذلك رسائل الشوق والوجد الديني لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتأدية فريضة الحج •

وكما تطور أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري من حيث الموضوعات والاغراض،فقد تطور كذلك من الناحية الفنية ايضا اذ استطاع الكتاب

---

(١) انظر : رسالة التوابع والزوابع ، رسائل سياسية واخوانية اندلسية (الاسكوريال ٤٨٨) ورقة ٣٩ ، ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٢٨-٢٩ •
(٢) انظر نماذج من هذه الرسائل في : البديع : ص ٥٣-٥٩، الذخيرة: ق٣م١ ، ١٩٤-١٩٥ ، ق ٣ م١ ،ص ٤٧١ ،ق٢ م١ ، ١٩٦ ، ٢٨٩ ،ق٢ م١ ،ص ٣٤٧ ، ص ٣٥١ ،ص ٣٥٦ •
(٣) انظر: ابن بسام وكتابه الذخيرة : ص ١٩٤،ص ٢١٣، ٢١٤،عصر الطوائف والمرابطين : ص ٢٨٤، الادب العربي في الاندلس : ص ٤٦٢ •
(٤) انظر : جمهرة رسائل العرب : ج٢ ،ص ٥٤٤ •
(٥) انظر : الخريدة : ج ٢ ، ص ٢٩٩ •

أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم ، وأن يفنّنوا فيها حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور لا ينقصه غير الوزن والقافية .

لقد كان أدب الرسائل في هذا القرن انعكاسا للبيئة الاندلسية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية والطبيعية ، وهو يمثل وثائق تاريخية وسياسية مهمة تقدم مؤشرات لكثير من الاحداث والوقائع والقضايا ، وتكشف عن أدق الامور التي ألمت بالمجتمع الاندلسي آنذاك ، وتسبر اغواره وترسم ملامحه المختلفة ، وبخاصة تلك التي لا نجد لها أحيانا ذكرا في كتب التاريخ والسير والتراجم وغيرها .

وكما أن الباحثين في أدب الرسائل كانوا يستعينون في تدوين تاريخه بالمصادر التاريخية ، فان المؤرخين كانوا يستندون الى الرسائل لاستكمال ما لم تستطع المصادر التاريخية استيفاءه أو ذكره ، وهذا يبدو أكثر وضوحا في الرسائل التي تتصل بالملوك والامراء والوزراء ، وتلك الرسائل التي عاصرت الوقائع ، وصورت النكبات ، وأسهمت في الاحداث السياسية ، وفصلت في المسائل الاجتماعية بعيدا عن العواطف الذاتية ، والمشاعر الخاصة ، وأدب الرسائل الذي نتحدث عنه هنا يقع تحت هذا الباب .

ولم تقتصر وظيفة أدب الرسائل على الجانب السياسي الذي نوهنا به ، وانما تعدت ذلك الى الكشف عن عدد من مظاهر الحياة الاجتماعية التي حفل بها المجتمع الاندلسي آنذاك ، كما استطاع أدب الرسائل أن يقدم صورة واضحة لما كان عليه المسلمون من بأس وقوة ومحبة في الجهاد يعتدون بها .

لقد واكب أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري جميع مظاهر الحياة الاندلسية آنذاك ، مما جعل له قيمة انسانية حفظت له حياته ، وضمنت له بقاءه في المصادر التاريخية والادبية .

اتجاهاتـــه وموضوعاتـــــه

ذكرنا فيما تقدم أن اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته تشعبت تبعا لتشعب أمور الحياة في المجتمع الاندلسي في هذا القرن ، وانه اقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه وفنونه . ويبدو ذلك واضحا في تلك الرسائل التي تزخر بها المصادر الأندلسية والمشرقية . لهذا فان الباحث يرى أنه كان من الواجب أن تقوم دراسة منفصلة ومستقلة تعنى بموضوع واحد من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ، كما تعنى بدراسة أعلامه وخصائصه الفنية واللغوية .

لقد حاول الباحث في هذه الدراسة تصنيف موضوعات الرسائل في مجموعات متجانسة بحسب مضامينها وتقاربها في أغراضها ، حتى تكون صورة أدب الرسائل واضحة المعالم بينة القسمات ، كما تكون دراستها ومتابعة الاتجاهات والتيارات التي احتوتها ، والخصائص الفنية واللغوية التي امتازت بها قريبة سهلة ، معبرة عن الحياة الأندلسية بكل أبعادها الطبيعية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها .

من هنا فقد رأى الباحث أن تكون أولى هذه المجموعات التي تتم دراسة نصوصها رسائل الاتجاه السياسي ، ثم تليها دراسة رسائل الاتجاه الاجتماعي ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، والرسائل الدينية ، ورسائل المفاضلات والمفاخرات ، ثم رسائل النقد الادبي ، والرسائل الفكاهية ، والرسائل الوصفية ، والرسائل الديوانية ، ثم الرسائل الاخوانية .

ولابد من الاشارة هنا الى أن هذه المجموعات لا تعني الحرفية في الدلالة على مضامين الرسائل ، اذ ان وشائج القربى بين هذه المضامين قريبة جدا ، ويلاحظ الباحث تداخلا وامتزاجا بينها أيضا فالطابع الاجتماعي مثلا يمكن أن يلاحظ في رسائل الاتجاه السياسي ، والرسائل الاخوانية ، والرسائل الديوانية ، والرسائل الوصفية . كما يلاحظ أن رسائل الهجاء مثلا ترتبط ارتباطا دقيقا برسائل السخرية والتهكم ، وبرسائل النقد السياسي والنقد الاجتماعي التي تعرض لكثير من معاني الهجاء . كذلك يلاحظ تشابها وتقاربا في مواضع عديدة بين رسائل الشكوى من المصائب والمحن ، ورسائل الوصف ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين وهكذا .

الاتجـــــاه السيـاســـــي

يعد القرن الخامس الهجري من أكثر عصور التاريخ الاندلسي تشتتـــا واضطرابا ، فقد كانت السمة الغالبة عليه الانهيار السياسي ، وكثـــرة المشاحنات والخصومات بين ملوك الطوائف الذين طمع كل واحد منهم فـــي توسيع أملاكه وامتداد سلطانه على حساب جيرانه ، فنشبت بينهم الحـــروب واشتعلت الفتن فضلا عن الخطر الصليبي الذي كان يهدد الوجود الاسلامي فـــي الأندلس . ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى ، والفتنة بيـــن أمراء الأندلس تستعر الى أن قيّض الله المرابطين للأندلس ، فجـــازوا اليها وسجلوا أروع الانتصارات الاسلامية على الصليبيين في معركـــة الزّلاقـــة (١) .

لقد تفاعل الكتاب الأندلسيون مع هذه الاحداث السياسية اذ ان عـــددا من الكتاب كانوا وزراء لملوك الطوائف . ويستطيـــع الباحـــث أن يلمـــس الاتجاه السياسي في حديث الكتاب عن الخصومـــات والاضطرابات السياسية ، وفي النقد السياسي والدعوة الى وحدة الصف ، وفـــي حديثهم عن التيارات السياسية في الاندلس آنذاك .

الخصومات والاضطرابات السياسيـــة :

لقد اشتعلت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف ، فما تكاد تخمد حـــرب حتـى تشتعل أخرى ، ولم يخل عهد أمير من ثورة يقوم بها هذا الاقليـــم أو ذاك ، أو حرب تشن على هذا الأميـــر أو ذاك ، فتعددت المعـــارك وكثرت الاشتباكات التي لم تقف عند حـــد ، وكان عدد الضحايا مـــن المسلمين كبيرا (٢) . وفي ظل هذه الظروف لم ينهض بعض الكتاب بدورهـــم السياسي الصادق والمتمثل باثارة نفوس الجند وتوجيه الامراء الى توحيـــد الصف ، وتعبئة الجهود لمواجهة الخطر الذي يهدد الوجود الاسلامي ، فقـــد انشغلوا مع أمرائهم بالخلافات الداخلية ، ولعل مرد ذلك حرصهم علـــى مكانتهم عند الامراء . وقـــد سجلوا كثيرا مـــن محاولات ملوكهم الاستيلاء على الامارات المجاورة ، وتلك الانتصـــارات المزعومة والاحداث الخطيرة التي تفوّق فيها الامير على جيرانه المسلمين .

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٤١-٢٤٣ ،البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٣٩ ، تاريخ الاندلس لابن الكردبوس : ص ٩٣-٩٥ .

(٢) انظر : البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٧٩ ، تاريخ الاندلس لابن الكردبـوس : ص ٧٧ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ١٧٨ ، ١٩٥ ،التاريخ الاندلســـي : ص ٣٢٦ .

فهذا أبو بكر بن القصيرة يكتب رسالة على لسان المعتمد بن عباد الى رؤساء الأندلس يخبرهم فيها بعودة قرطبة اليه وقتل ابن عكاشة (١) على يديه . وقد افتتح رسالته بالحديث عن تلك الظروف الصعبة التي عاشها أهل المدينة ، وما كان من تأييدهم للمعتمد واستنجادهم به لتخليصهم ، وأشار الى استجابة المعتمد لنجدتهم ، وزحفه الى تلك المدينة بجيوش جرارة وما كان من محاصرته لها ، وافتتاحها بموازرة أهلها ، يقول: " فتحركت من وقتي ، ولم أكد أطلّ على أفقهم الا الاشارة علينا ، بأثوابهم الينا : أن أقدموا ، وصمموا ، فاقتحمت من النهر مخاضة توازي الربض الشرقي منها ، وثار أهلها معي ، داعين بشعاري ، معلنين بانتصاري ، وكلمة ثاري ، يكسرون بين يديّ كل غَلَقٍ يعترضني ، ويفتحون كل مُرْتَجٍ (٢) ينتصب دوني ..." (٣).

ويختتم رسالته بوصف مطاردة جيشه لفلول ابن عكاشة ومحاصرته لها ، وما كان من احلال الهلاك بهم جميعا وعلى رأسهم ابن عكاشة الذي قتل ،يقول: " وأحسَّ ابنُ عكاشة ومن معه من الشيعة المفلولة بمكاني ففرُّوا بأرواحهم ، وألقوا ما كان معهم من سلاحهم . وقد كنت أحطت بنواحي الحضرة خيلا ترصدُهم ، وتقطع من النجاة سَبَبَهُم (٤) ، فوقعوا فيها ، وأتي على آخرهم ، وسيق إليَّ رأسُ ابن عكاشة ..." (٥) .

ومن ذلك رسالة اخرى لابن القصيرة يتحدث فيها عن معركة خاضها المعتمد بن عباد ضد احدى المدن الاسلامية المجاورة ، ويصف ما أصاب هذه المدينة على يديه من حرق ونهب وتدمير أحالها الى خرائب ، يقول: " وتقدمت لطلب الثأر ... فتقدمت في معسكر أَلْفَتْهُ يدُ الإعْجَالِ ، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال ، فأَنَخْتُ به على بلده أياما ، قطعتُ فيها دونه كلَّ الرفاق ، ولم أبق حوله سقفا على جدار ولا قائمة على ساق، ثم مررت الى جهة فلانة أجوس خلالها ، وأتقرّى (٦) بالنهب والاحراق أعمالها ، وأَتَسَنَّمُ معاقلها وأجعل أعاليها أسافلها ..." (٧) .

ان هذه الرسائل تكشف لنا عن أمر تلك الفتنة الشديدة بين ملوك الطوائف ، وتربص بعضهم ببعض ، وما كان من شنهم الغارات على المدن الاسلامية دون مراعاة لحرمة الدين والأخوة .

---

(١) هو الحكم بن عكاشة ، أرسله المأمون بن ذي النون للاستيلاء على قرطبة سنة ٤٦٧هـ (انظر : الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٧٠-٢٧٢ ،أعمال الاعلام ج ١ (ص ١٤٩ - ١٥٢) .

(٢) مرتج : الرتج الباب المغلق (انظر : لسان العرب : مادة رتج) .

(٣) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٧٣ . (٤) سببهم : السب : الدبر (اللسان :مادة سبب) .

(٥) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٧٣ . (٦) أتقرى : يقال تقريت المياه أي تتبعتها (اللسان : مادة قرا) .

(٧) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٨١ .

ولقد تزايدت الاطماع على السلطة على مدى الايام حتى اختلف الأب مع ولده ، واختلف الاخ مع أخيه وأضمر له العداوة والخصام والحقد والحسد.

فهذا اسماعيل بن المعتضد كان يتطلع الى انتزاع الملك من يد أبيه وتآمر على حياته مما دفع المعتضد الى البطش بولده وقتله [١]. وقد أمر المعتضد بكتابة رسالة عن هذه المأساة الى رؤساء الأندلس يصف فيها أطوار الحادث ، ويبرر قتل ابنه الذي ينعته بالخائن الغادر ، وقد أنشأ أبو محمد بن عبدالبر تلك الرسالة ارتجالا بين يدي المعتضد بحضور عدد من الوزراء والكتاب فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة [٢] ، وفي ذلك يقول مخاطبا عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر صاحب بلنسية : " وطرأتْ عليّ يا سيدي وأغلى عددي من خطوب الايام ، طارئةٌ دهياءُ دهماءُ ، وفجأتني من ضروب الاقدار فاجئةٌ عمياءُ صماءُ ... وشَرْحُ ذلك - أيدك الله أن الغبي العاقّ ، اللعين الشاقّ ، اسماعيل ابني بالولاد لا بالوداد ، ونجلي بالمناسب لا بالمذاهب ، كنتُ قد ملتُ بهواي اليه ، وقدّمْتُهُ على من هو أسنُّ منه ... قُيِّضَ له قُرناءُ سوءٍ أعدَوْهُ وأردَوْهُ ، وأتيح له جُلساءُ مكرٍ أغرَوْهُ ، وأشعرُوه الاستيحاشَ والنِّفار ، وزيّنوا له العقوقَ والفرار ، لينفردَ. وينفردوا معه بالبلد ، ولا تكون على أيديهم فيه يدٌ أحد ، فخرج ليلاً بأهله وولده خروجا شنيعا ... يؤمّ الجزيرة الخضراء وما يليها ، ليتملكها ويعيث فيها ..."[٣] .

ويصف بعد ذلك أدوار المؤامرة التي دبرها اسماعيل مع جماعته منذ فراره وعوده وعفو والده عنه ، وما كان من معاودته التآمر عليه حتى حصل في قبضته هو وجماعته ، فأقام حدود الله على الجميع منهم ، وأنفذ حكمه فيهم [٤] .

ولأبي محمد بن عبد البر من اخرى عن علي بن مجاهد الى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن له ، وتآمره عليه مع المعتضد بن عباد ، وما كان من فشل المؤامرة ، يقول : "... قدّ أخي حَسَنٌ ببيعتي يدا ، وأظهر في طاعتي مُعْتَقَداً ، فما آن لمدادِ عهده أن يجفّ ، ولا حان ليد عاقده أن تنحرف ، حتى داخل صاحب اشبيلية في الغدر والخلاف ، فأنفذ اليه رجلا يُدعى سلمةَ من جنده ليتصرَّفَ على إرادته ، فأجمعوا أيديهم والقضاءُ أمْلَكُ ، وأزمعوا كيدهم والقَدَرُ يضحك ، وتوخّوا صدري من صلاة الجمعة ، فوافاني قد انسربتُ في كلّةِ الأمن ، ونمت في حِجْرِ حُسْنِ الظن ، فما استيقظتُ الا لصفح صفائحهم تُصْلَتُ عليّ ، ولا انتبهت الا لضوء رماحهم تُشْرَعُ اليّ، إلاّ أنّ الله كان بازائي ظهيرا ، وتلقاني نصيرا ، وبين يديّ رفدا ، ومن ورائي مددا وردءا . فما كان إلاّ أن تساقطَ فراشُهُم في مصابيح الفَرَج... وفزت وقد انجلت الكرَّةُ عليهم ..."[٥] .

---

(١) انظر عن هذه الحادثة : الذخيرة : ق٣ م١،ص ١٤٣-١٤٨. (٢) لقد كان لهذه الرسالة أثر كبير في أوساط الكتاب الاندلسيين ، اذ تنادت لمة من كتاب العصر في معارضتها ، وقد ذكر ابن بسام فصولا من رسائل هؤلاء الكتاب ممن انتصف بالمعارضة منها (انظر الذخيرة :ق٣ م١،ص ١٤٩-١٦٤.

(٣) الذخيرة :ق٣ م١،ص ١٣٨-١٣٩. (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ١٤١ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ١٦٩ - ١٧٠ .

ومن الرسائل التي تتحدث عن الخصومات والاضطرابات السياسية أيضا ما كتبه المقتدر بن هود الى صديقه المعتمد بن عباد يخبره فيه بقصته مع أخيه المظفر ، ويرميه بالظلم والحسد ، ومجانبة العدل والانصاف ، ويشير الى أنه حاول أن يسلك سبيل المودة والتفاهم ، فأبى مما اضطره الى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة ، وألزمه البقاء في حصن منتشون[١] ، حيث يقول : " فلما رأيته عن سوء معتقده ... وفساد رأيه غير راجع ... رأيت النظر في قطع مضرّته ، والسعي في حسم علته ومعرّته أصمى ، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه وألزمته البقاء بقصبة منتشون"[٢] .

ثم هو يحاول أن يبرر تصرفه مع أخيه ، بقوله : "وللنفس ،يعلمُ الله، مما حملني عليه ارتماض[٣] واشفاق ، ولما يُؤثره الرحم من ذلك من ازعاج واقلاق ، الاّ أنه لم يوجد الى غير ذلك سبيلا ... وكان فيما يأتيه أعقّ ، وبما جره القدر اليه بحكم اعتقاده أحقّ ، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهبا ..."[٤] .

وكان بعض الكتاب يهنئون رؤساءهم وملوكهم بالانتصارات المزعومة التي أحرزوها على منافسيهم من رؤساء الامارات الأندلسية الأخرى ، وكانت بعض هذه الرسائل على ألسنة الكتاب أنفسهم ، وبعضها على ألسنة أمرائهم الى أمراء آخرين . ومن ذلك رسالة لأبي العلاء صاعد البغدادي كتبها الى مجاهد العامري يهنئه فيها بانتصاره على خيران العامري في موقعة بحرية ، ويعبر عن فرحته العظيمة بهذا النصر الذي تناقلت أخباره الركبان ، حيث يقول : " ولما أتتني احدى خرائطك الجزيلة ، وتبادرت التباشير باحتلال المركب ، كاد الفرح يقضي عليّ ، وينزعُ التماسك من يديّ..."[٥] .

ومن الامثلة على ذلك ايضا[٦] رسالة لابن حيان يهنئ فيها المعتمد بن عباد بظهوره على المأمون بن ذي النون ، ويزين له فعلته هذه ويبررها بسوء السياسة التي ينتهجها المأمون مع رعاياه ، فهو " عدو أسود الكبد ، مظاهر البغي على الحسد ... لا يرزأ العدو الغائظ له الا التسلط على ضعفاء رعيته بافساده لأقواتهم ، ونيله من دماء المحاويج منهم ، فكم نال فُسّاقه الذين أرسلهم عليهم من دم أرملة

---

(١) منتشون : من حصون سرقسطة ، وقد وقع بيد المغامر الطليبي السيد (انظر : دول الطوائف : ص ٢٨٥) .
(٢) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٥٣٨) : ورقة ١١٨ .
(٣) ارتماض : يقال ارتمضت لفلان: حزنت له (اللسان : مادة رمض) .
(٤) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٥٣٨) : ورقة ١١٩ .
(٥) الذخيرة : ق٤ م١ ، ص ١١-١٢ . (٦) انظر ايضا رسالة (لأبي محمد بن عبدالبر كتبها عن مجاهد العامري الى المعتضد مهنئا اياه بأخذ شلب في القلائد : ص ١٨١ .

غرثى(١) ، ويتيمة كفرخ الحُبارى الى مَنْ أُصيبَ فوقهم من عابر سبيل، وضارب لمعيشة ، مُوَيِّمُ نسوة ، ومُوتِمُ صبية ، أضحوا طُعْمَ ذئاب"(٢).

ثم هو يمدحه ويصف جحافله الجرارة ، ويتغنى بشجاعة جنده واقدامهم، وما كان من تحقيقهم النصر بقيادة ابنه سراج الدولة الذي انقضّ عليه " انقضاض الكوكب الساري ، فخسف به وبجمعه ، أحفل ما كان في عديده، وأوثق ما هو بجنوده ، فطواه طيّ الرِّواء ، وغلّ أيدي كماته عن إعمال القنا ، وأرغى فوقهم سقب السماء ، فاقتسمتهم أيدي الحتوفِ بين حرّ الحديد وبرد الماء ..."(٣) .

وتتصل برسائل الفتن والخصومات أيضا رسائل الزجر والاستصلاح وتهديد الخارجين على الحكم . وقد كانت تلك الرسائل تعمد الى أسلوب الزجر والتهديد أحيانا ، والى أسلوب المصانعة والملاطفة حينا آخر . ومن الرسائل التي عمدت الى أسلوب الملاطفة والترغيب الرسالة التي كتبها ابن برد الاصغر يخاطب بها أحد المتمردين الذين عادوا الى رشدهم ، ويذكّره بقوة الدولة ، ويحذّره من مغبة التمرد مرة أخرى ، حيث يقول : " فمهدنا لك الترغيب لتأنَسَ اليه ، وظللنا لك الترهيب لتفرَقَ منه ... وأَمَانُ الله لك مبسوطٌ منّا ومواثيقُه بالوفاء لك معقودةٌ علينا ، وأنت الى وجهتك مصروفٌ، وبعفونا والعافية منّا مكنوفٌ ، إلاّ أن تطيشَ الصنيعةُ عندك ، فتخلع الرِّبْقَةَ(٤)، وتَمرُقَ(٥) من الطاعة ، فلسنا بأوّل من بُغي عليه ولستَ بأولِ من بدت لنا مقاتلُه من أشكالك إنْ بغيتَ ، وانفتحت لنا أبوابُ استئصاله من أمثالك ان طَلبْتَ ..."(٦) .

ومن الرسائل التي تميل الى الملاطفة والمصانعة أيضا رسالة كتبها أبو محمد بن عبد الغفور عن يوسف بن تاشفين الى بعض الأمراء جوابا عن كتاب يعتذر فيه عن هزيمة انهزمها ويصف من فرّ من العساكر ومن لزمها، وفي هذه الرسالة يبدو طابع الملاطفة والترغيب والاستصلاح ، فهو يخبره بأنه لو تكتم الخوف في قلبه وثبت في مكانه فان جاره كان يثبت بثباته ، أما اعلانه الخوف وايثاره الفرار فقد نقل عدوى الخوف الى بقية الجيش فانهزم بانهزامه ، وكتمان الخوف فضيلة ولا اثم فيه ، يقول مخاطبا اياه :" وما بعثناك لتشهد ، وانما بعثناك لتجد في طعن بخطي أو ضرب بمُهَنَّدٍ ، فاذا لم

---

(١) غرثى : الغرث : أيسر الجوع ، وقيل شدته ، وقيل هو الجوع عامة ،ويقال غرث يغرث غرثا ، فهو غرث وغرثان ، والانثى غرثى (اللسان :مادة غرث) .
(٢) الذخيرة :ق١ م٢،ص ٥٧٨-٥٧٩ . (٣) المصدر السابق نفسه :ق١ م٢، ص ٥٨٠ .
(٤) الربقة : (الربقة) : الحبل والحلقة ، ويقال أخرج ربقة (ربقة) الاسلام من عنقه : أي فارق الجماعة (اللسان : مادة ربق) .
(٥) تمرق : تخرج من الطاعة (انظر اللسان : مادة مرق) .
(٦) الذخيرة : ق١ م١ ،ص ٥٠٠ .

تعقل فلا أقل مما تجلد وتصبر ، وتحمل من معك على الصبر ، ولا تكون أول من فرّ فتَعْدِي بفرارك تَثَبُّتَ جارك ، ولو كتمتها من شهادة لما آثِمَ قَلْبُك ، فلا تُؤْثِر الكتب ، بما يثيرُ عليك العَتَب ، ولْتَأْنَف من المستأنف من ايثار الدنيّة على المنيّة ، ولتكن لك نفسٌ أبيّة ..."(١) .

ومن الرسائل التي تعمد الى اسلوب التهديد والوعيد تلك الرسالة التي كتبها أبو بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين الى طائفة متعدية ، وفيها يهددهم ويتوعدهم ان هم لم يعودوا الى الصواب ويقلعوا عما يرتكبونه من الزلل والانحراف يقول : " وحسبنا هذا إعذاراً لكم ، وانذاراً قبلكم ، فتوبوا وأنيبوا وأقلعوا وانزعوا واقتصوا من أنفسكم كل من وَترْتُمُوه ، وانصفوا جميع من ظلمتموه وغششتموه ، ولا تستطيلوا على أحد بعد ... وإلاّ عاجلكم من عقوبتنا ما يجعلكم مثلا سائرا وحديثا غابرا ..."(٢) .

النقد السياسي والدعوة الى وحدة الصف :

لقد أثارت تلك المصائب والمحن التي حلت بالمسلمين بالاندلس الغيارى من الأندلسيين ، ونبهتهم الى الخطر الكامن وراء تلك الفتن والخصومات السياسية ، فدفعهم حرصهم على مصلحة الامة الى الدعوة للمّ الشعث ، وتوحيد الجهات وتهيئة الجهود لمواجهة الاخطار الداخلية والخارجية .
لقد نهض كثير من الكتاب برسالتهم من تلقاء أنفسهم أو بتكليف من بعض الأمراء المخلصين للامة . وقد تجلّت جهودهم تلك في شكل رسائل مبثوثة الى أمير أو حاكم أو الى المجتمع الأندلسي بأسره في وصف المحن والنكبات ، وفي الدعوة الى وحدة الصف ونبذ التفرق والخلاف ، أو في شكل نقد سياسي لاذع لممارسات بعض الملوك والأمراء ، وكانوا يقدمون في ذلك كله تشخيصا للداء وبيانا للعلاج .

ونلمح هذا الاتجاه النقدي في رسالة طويلة للبزلياني(٣) عن أحد الأمراء الى صاحبي شاطبة(٤) دعاهما فيها الى الوحدة والتعاون ونبذ الفرقة وتوحيد الجهد لمواجهة خطر الصليبيين . وقد افتتحها بنقد عام لأوضاع المسلمين في الاندلس وما هم عليه من افتراق الشمل ، وانقطاع

---

(١) الخريدة : ج٣ ، ص ٤٢٢ . (٢) القلائد : ص ١٠٤ - ١٠٥ .
(٣) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد البزلياني ، أصله من مالقة ، وكان في خدمة حبوس أولا ، ثم انتقل الى بني عباد ، وذكر ابن بسام أنه كان أحد شيوخ الكتاب وجهابذة أهل الادب (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق١ م٢ ، ص ٦٢٤) .
(٤) هما مظفر ومبارك العامريان ، وكانا صاحبي بلنسية أيضا (انظر : الذخيرة : ق٣ م١ ، ص ١٣) .

الحبل ، واختلاف الكلمة ، ويأمل الكاتب أن يحقق الله على يديهما وحدة الامة وجَمْعَ شملها ولمَّ شعثها ، حيث يقول مخاطبا اياهما : " ومشارب الآمال قد تكدَّرَتْ ، ووجوه المحاسن قد تغيَّرَتْ ، وأيدي التوازُر قد قصرت ، وسبل التناصر قد توعَّرَتْ ، إلاّ أن يتلافى الله الخَلَلَ بتسديد نظريكما ، وينعشَ الأمل بحميد آثركما ، فينظمّ الشمل ، ويصل الحبل ، ويسدّ الثلْم ، ويشدّ الحزم ، ويرقع المنخرق ، ويجمع المفترق ... وبعيد الكلمة متفقة ، والأمة متّسقة ، والأيدي متأيّدة..."(١) .

وتحدث عن موضوع الفتنة التي نشبت بين الأميرين وأمير آخر ، ويكشف عن حرصه على السعي لاصلاح ما فسد بينهم خشية أن يتمادى بهم اللجاج ، ويتعاصى في أمورهم العلاج ، ولهذا فهو يحضهم على توحيد الصف ورأب الصدع مبينا الفوائد الجمة التي تعود على الاسلام والمسلمين ، ومذكرا اياهم بما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة من دعوة المؤمنين الى الاعتصام بحبل الله ، يقول : " ولم يَخْفَ عليكما ما في صلاح ذات البين ، من الفوز بخير الدارين ، وأمن العباد ، وخصب البلاد ، واعزاز الدين ، واذلال القاسطين ، وتوهين المشركين ، وقوة العضد ، ووفور العدد ، ودعة الأجسام ... وستر العورات ، وحفظ الحرمات ، والانتهاء الى حدود الله ، والازدجار بزجره ، والتأدب بأدبه ، والائتمار بأمره ..."(٢) .

وينفّرهم من الفتنة مبينا عواقبها الوخيمة ، فهي الحرب المهلكة المدمرة للاسلام والمسلمين ، إذ " إنه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية ، والقرون الخالية الا بتقاطعهم ، وتحاسدهم وتدابرهم وتخاذلهم ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب(٣) ، مع ظنك المتغلّب وكأنه المنغلب ، تُوَتِّمُ الأطفال ، وتلتهم الرجال ، سوق لا ينفق حاضروها غير النفوس والأرواح ، وشرب يتعاطون المنايا بظبا السيوف وأطراف الرماح ، مصروعهم واترٌ ، وصارِعُهُم خاسرٌ ..."(٤) .

ثم يوجه اليهما نقدا لاذعا ، وينتقد سياستهما التي تقوم على الاستعانة بالنصارى ضد اخوانهم في الدين ، ويبين ما جره ذلك على المسلمين من مصائب ومحن ، يقول : " فقد بلغني أنَّ مذهبكم الاستجاشة بالنصارى الى بلاد المسلمين ، يطوّون ديارهم ، ويعفون آثارهم ، ويجتاحون أموالهم ، ويسفكون دماءهم ، ويستعبدون أبناءهم ويستخدمون نساءهم "(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٦٣٧ . (٢) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٦٣٨ .

(٣) من قول أبي تمام :

لما رأى الحرب رأي العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب

(ديوان أبي تمام : ج١ (ص ٧٠) .

(٤) الذخيرة :ق١ م٢ ،ص ٦٣٨ - ٦٣٩ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق١ م٢ ، ص ٦٣٩ .

وتتجلى في هذه الرسالة عاطفة النقمة الشديدة على ممارسات هؤلاء الحكام المنحرفين عن مصلحة الأمة ، اذ أن ذلك مما ينذر بانهيار الوجود الاسلامي في الأندلس ، يقول : " فهي حالة مؤذنةٌ بالذهاب ، وجزيرة تؤذن بالخراب "(١) .

ومما جاء في النقد السياسي والدعوة الى وحدة الصف والتعاون رسالة كتبها ابن التاكرني ردا على رسالة لأبي جعفر بن عباس ، وفيها يكشف عن رغبة ملك بلاده في التعاون والتآلف ورأب الصدع ، وقطع دابر الفتنة ، ويشير الى ما يلاقيه من صدودهم واعراضهم عن ذلك بقوله : " ومن العجب قولك : اقدح لي أضيءُ لك ، ولقد قدحنا لكم فأظلمتم ، وحفظنا ذِمَامَكُم فضيعتُم ، ووصلنا فهجرتُم ، وقربنا منكم فبعدتم ..."(٢) .

ويشخص أسبابَ الشر التي جلبت النحس على الأندلس ، فهي تتمثل في انشغال المسلمين بالفتنة عن مواجهة الخطر الصليبي ، ويوجه اليهم نقدا لاذعا ، فيحملهم نتيجة ما حل بالمسلمين من مصائب ونكبات ويرميهم بعدم مراعاة حرمة الدين ، واظهار الرغبة في الوحدة مع أنهم يسيرون في طريق الفتنة "فالنِّعَمُ تُنْتَسَفُ ، والستورُ تَنْكَشِفُ ، والدماءُ تُسْفَكُ ، والحرمُ تُنْتَهَكُ ، والاسلام يعلزُ(٣) عَلَزَ المحتضر ، وأهلُهُ للشرك كالهشيم المُحْتَظَر ، فلا حرمة الاسلام رعيتُم ، ولا ذِمامَ المشاركة قضيتُم ، فلِمَ تعدّونَ ذلك من ذنوبنا ، وتبثون بذلك رُسُلَكُم في البلاد ، وتنادون هَلُمَّ الى الجهاد ، تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم ..."(٤) .

ويوجه اليهم نداءً للتعاون والاتفاق والوحدة ، يقول : " فيا للمسلمين ! تعالوا الى التعاون ، واتفقوا ولا تفرقوا ، واتقوا عاقبة الخذلان وقد ناديتُ إن أسمعتُ ، ونصحتُ بقدر ما استطعتُ ، فان وافقت قبولا ولقيت تأويلا جميلا ، فانّ الخير عتيد ، والتناولَ غيرُ بعيد ..."(٥) .

ويختتم رسالته بالتأكيد على أنه لا مجال أمام المسلمين الا أحدُ طريقين " فاما ألفَةٌ وانتظامٌ ، واتفاقٌ يحيي رَمَقَ الاسلام ، واما داعيةُ تلفٍ وراعدةُ صلفٍ(٦) ، وهنالك تزلّ القَدَمُ ، ولا يَنْفَعُ الندمُ"(٧).

---

(١) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٦٣٩ . (٢)المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ٢٣٧ .
(٣) العلز : القلق والكرب عند الموت (اللسان : مادة علز) .
(٤) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٢٣٨ . (٥) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٢٣٨ .
(٦) راعدةصلف: الراعدة هي السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة النزل والخير .
وفي الامثال العربية : رب صلف تحت الراعدة (انظراللسان:مادة صلف) .
(٧) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٣٨ .

ونلمح نقدا سياسيا في تلك الرسالة التي كتبها ابو بكر بن عبدالعزيز [١] جوابا عن أهل قرطبة على خطاب ورد من قبل المستعين بن هود يحرضهم فيه على مواجهة المرابطين ومقاومتهم . وقد وجه اليه نقدا شديدا لتراجعه عن رأيه في تسليم قرطبة للمرابطين ليدافعوا عنها أمام الطليبيين ، ويرميه بالضعف والجبن والخيانة التي تمثلت في تعاونه مع النصارى أعداء المسلمين ، يقول : " لكنّ العجبَ كل العجب أن يكون سعيُك للكفار ، وتوفيرُك للدمار ، وكيف يَسُوغُ لك أن تُحذِّرَ من الله وأنت لا تَحْذَرُهُ ؟ ! ... ألست تعلم أن النصارى - لعنهم الله - قد استولوا على ثغور المسلمين التي كانت بنظرك مَنُوطَة [٢] ، وبمستقر قَدَمَيْكَ مخلوطة فهل كانت لك طاقة بمحاربتهم ، أو قوة على مقارعتهم ، أو اصراخ لمن استصرخك من قتيل مستشهد ، أو أسير مفطهد ؟ ! ..." [٣] .

ويذكره بأن جواز المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين الى الاندلس كان بعد دعوة الاندلسيين لهم واستنجادهم بهم ، وأنهم ما جاءوا الا لنصرة الاسلام ، ونجدة المسلمين ضد النصارى ، فيوسف بن تاشفين لم يبلغ " بلادك ولا غيرها لمال يَبْتَزُّهُ ، ولا لتملّك يستفزُّهُ ، وانما بُغْيَتُهُ أن يقمع شيطان الشرك ، ويستنقذ المسلمين من الهُلْك ..." [٤] .

التيـارات السياسيـة :

على نحو ما عبرت الرسائل عن بعض الخصومات السياسية والفتن والاضطرابات الداخلية ، فقد عبرت الى حد ما عن بعض مظاهر التيارات السياسية التي كانت تصطرع في الاندلس في القرن الخامس الهجري . اذ يلمس الباحث في بعض الرسائل بعض آثار التشيع الذي تسرب الى الاندلس في ظل الدولة الحمودية التي كانت دولة شيعية معتدلة ، اذ لم يكن لها مذهب كامل واضح المعالم ولا فلسفة تقوم على أسس ثابتة ولا فقه خاص بهم ، كما كان في الدولة الفاطمية في مصر والدولة البويهية في ايران [٥] .

ولابد من الاشارة الى أنه بعد انتهاء ثورة قرطبة سنة ٣٩٩هـ ، وخلع الخليفة هشام المؤيد ، تضاربت الأقوال في أمر الخليفة المخلوع ، فمن

---

(١) هو محمد بن عبدالملك بن عبدالعزيز ، نشأ في حجر دولة بني عباد ، كان مشهور البراعة متحققا بالادب ، توفي سنة ٥٣٦ هـ (انظر ترجمته في : القلائد : ص ١٦٢ ، الذخيرة : ق٢ م٢ ،ص ٥٣٣ ، المغرب : ج١ ،ص ٣٠٧ .

(٢) منوطة : يقال ناط الشيء ينوطه نوطا : علقه ، ويقال نطت هذا الامر به أنوطه ، وقد نيط به ، فهو منوط أي معلق به (اللسان :مادة نوط)

(٣) الذخيرة : ق٢م٢، ص ٥٤٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٢م٢ ،ص ٥٤٧ .

(٥) انظر : ((التشيع في الاندلس)) ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية (١٩٥٤) ع ٢ ، ص ١٣٢ .

قائل: إنه قد مات ، ومن قائل: إنه حيّ يرزق في قبضة سليمان المستعين وقد استغل علي بن حمود هذه الظروف السياسية المضطربة فأعلن أنه قد تسلم رسالة من الخليفة هشام المؤيد يستنجد فيها به كي يخلّصه من أسر البربر، وسليمان المستعين ، ويعده بحق ولاية العهد اذا ما تمّ خلاصه . وقد استطاع علي بن حمود أن يحتل قرطبة وأن يقتل سليمان المستعين وحينئذ أعلن نفسه خليفة بعد أن أذاع أن هشاما المؤيد قد مات ، وأخرج جثته ليثبت وفاته (١) . وفي هذا الوقت الذي قوي فيه خطر الدعوة العلوية فشلت محاولات الاتجاه الأموي في استرجاع الخلافة فرأى المعتضد بن عباد أن يقدم رجلا للخلافة زعم أنه هشام المؤيد وبايع له . ودخل الناس في طاعته وذلك سنة ٤٢٧هـ وقد أخذ الاتجاه الاموي يستغل بعض الأفكار الشيعية وينشر الاشاعات عن عودة الدولة الاموية ، وان هشاما انما رحل الى مكة لتأدية المناسك ، ثم يعود فيعيد الى الارض العدل وينشر السلام.

وقد أثارت هذه الخرافات حفيظة عدد من روساء الاندلس وكتابه ، فهذا أبو جعفر بن عباس يكتب رسالة عن زهير الصقلبي صاحب المرية الى أهل قرطبة حول هشام الدعي ، ويهاجم فيها المعتضد ، يقول: " وأشدّ هذه العصابة المشوّومة ابن عباد الذي سلّ سيف البغي والفتنة من قِرابه ، وأثار بعير الظلم من مَبْرَكِـهِ ، وانتزى ببطنته أشرا ، ومشى في الارض مَرَحاً ، وظن أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا ، فغزا أهل الاسلام في عقر دارهم ... واستعار اسم الشهيد هشام المؤيد بالله لغير أهله ، وعزاه الى مَنْ ليس من شكله ... واتّبع الرسم الدارس ، وجعل خطّ الناس فيه التمثيل في اسم كاذب ، واعترض على منكريه بكهانة شِقّ (٢) وسَطيح ، وآيات طسم وجديس(٣) ، واحتج بكتب الجَفْر، ودان بالتناسخ..."(٤) .

ويختتم رسالته بدعوة أهل قرطبة الى مبايعة ادريس بن علي بن حمود خليفة للمسلمين بعد موت أبيه ولا سيما أنه " قد اتفقت الكلمة في وضع رأس الامارة على كاهله ، ونَصْل الامامة في نصابه ، وأعدنا الحق الى أهله ، وأصفقنا(٥) على بيعة رضى واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين ادريس المتأيد بالله ... وطهرنا المنابر من دَنَس تلك الدعوة المستعارة ، وهتفنا بها هَتْفَ التباشر ، وقامت بها الخطباء على المنابر... فاعتبروا بما ألقينا اليكم اعتبارَ مَنْ يحتاط لدينه وتقواه ... والرمزُ يَكْفيكم والايماءُ يُغْنيكم ..."(٦) .

---

(١) انظر : البيان المغرب : ج٣ ،ص ١١٦ ،أعمال الاعلام :ج٢ ،ص ١٤١-١٤٢.
(٢) شق : اسم كاهن من كهان العرب (اللسان : مادة شقق).
(٣) طسم وجديس : حيان من عاد (اللسان : مادة جدس) .
(٤) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٦٥١ . (٥) أصفقنا : أجمعنا (اللسان : مادة صفق) .
(٦) الذخيرة : ق١ م١ ،ص ٦٥٢ .

لقد استخدم أبو جعفر بن عباس بعض مصطلحات الشيعة كالجفر الذي هو وعاء من جلد ثور صغير مكتوب فيه علم ما سيقع وهو مروي عن جعفر الصادق . والتناسخ الذي هو من العقائد التي دانت بها الكيسانية من الشيعة .

وعندما ضعف أمر الدعوة العلوية (الشيعية) واضمحلت دولتهم أعلن المعتضد بن عباد (موت هشام الدعي في سنة ٤٥٠ هـ ، اذ انه لم يعد بحاجة الى الدعوة له . ومهما يكن من أمر فقد أخذت الدعوة العلوية تحاط بجو من الكراهية الشديدة من جانب الاندلسيين الذين تأصل فيهم المذهب السني منذ عصر الامارة ، فقد كتب أبو جعفر بن عباس رسالة يتحدث فيها عن أحد خلفاء بني حمود ويرميهم بعدد من التهم فهو " مُلْحِدٌ رجس ، لا يؤمن بالله واليوم الاخر ، ولا يؤاخي الا كلَّ منافق كافر ، يسبُّ الصحابة الأبرار ، ويكذِّب بالجنة والنار ، ولا يرجو حِسابا ، ولا يحذَرُ عقابا ... يأخذ الرِّشوة على بيت الله الحرام ، ويستخفُّ بشرائع الاسلام ، يهتك الحريم ، ويسفك الدماء ، ويستصحب الاوغاد والشطار ..."(١) .

ثم يهاجم الشيعة ، فيقول : " بئس الشيعةُ وقودُ جهنم وحَصَبُها ، وعليهم يزداد حَنَقُها وغَضَبُها "(٢) .

---

(١) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق١ م٢ ، ص ٦٥٥ .

الاتجـــــاه الاجتماعـــــي

أشرنا فيما تقدم الى أن المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري كان يمر في مرحلة خطيرة من مراحل الوجود الاسلامي في الأندلس، اذ انشغل الأمراء والحكام عن مصلحة الأمة ، ودفع العدو الجاثم على صدر الأندلس بالمظاهر الكاذبة ، وبركوب المعاصي وسماع العيدان ، وبناء القصور ، فانتشر الفساد ، وغشي حب الشهوات والترف جميع طبقات المجتمع الأندلسي ، وقلت الموارد والمصادر ، وافتقرت الرعية ، وارتفعت الأسعار، وطمع الفقير في الغني ، واجترأ الضعيف على القوي ، ونهج بعض ملوك الطوائف سياسة البطش والقوة مع رعاياهم ، فكثر النفي والتشريد والطرد والجلاء والقتل ، وامتلأت السجون(١) .

وقد واكب أدب الرسائل في الأندلس هذه الحياة الاجتماعية المضطربة، فصور كثيرا من ملامحها ومظاهرها ، كما استطاع أن يعبر عن الظروف النفسية الصعبة التي عاشها أبناء الأندلس آنذاك . وقد تباينت مواقف الكتاب من هذه الأحداث ، وتنوعت ردود فعلهم تجاهها ، فمنهم من أقبل على المتع والملذات والمجون ، ودعا غيره اليها لتحقيق حاجاته الحسية ومطالبه الوجدانية دون أن يعبأ بمسؤولية ازاء المجتمع(٢) .
ومنهم من وقف من المجتمع موقف الناقد البصير الملتزم بالقيم الخلقية والفضائل الاسلامية ، وأخذ يحدد الأدواء والمعوقات في مسيرة المجتمع ، ويرسم الصورة الملائمة للاصلاح(٣) ، وسوف يتضح ذلك كله من خلال دراستنا لموضوعات الرسائل الاجتماعية .

الشكوى من الزمان وفساد الأحوال :

أشرنا فيما تقدم الى توالي النكبات والمصائب والمحن على المجتمع الأندلسي نتيجة التهديد الصليبي للوجود الاسلامي . وقد وصف كثير من الكتاب تلك المحن والمصائب ، وبينوا آثارها على المجتمع الأندلسي، وسنوضح ذلك في حديثنا عن موضوعات رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين .

ومهما يكن من أمر فقد كان من نتائج فساد الأحوال في المجتمع الأندلسي أن تفككت العلاقات الاجتماعية ، وانهارت الصلات والوشائج بين الناس ، فأصبح الغدر والكذب والنفاق والخيانة من شيم الزمان وأهله ، مما دفع كثيرا من الكتاب الى الشكوى من الزمان وفساد الأحوال ، وكثرة

---

(١) انظر: الذخيرة :ق٤ م١، ص ١٦٤، تاريخ الأندلس : ص٧٧٠ (٢) يجد الباحث صورا لهذه الموضوعات في : القلائد: ص ١٠٨، الذخيرة : ق٣ م٢، ص ٥٤٢ – ٥٤٣ ، الخريدة : ج٢، ص ٢٩٨–٢٩٩ . (٣) يجد الباحث صورا لهذه الموضوعات في: الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ١٧٧–١٧٨، ص ٤١٤–٤١٥ ، ق ٤ م١ ، ص ١٨٩ ، ص ١٩١ .

المحن والمصائب ، فهذا أبو الفضل البغدادي(١) ، يصور لنا اختلال الأمور، وتدهور الأحوال ، وانهيار الأخلاق ، وانعدام الأمن ، وضعف الوازع الديني في نفوس الناس ، ثم هو يشخص أسباب الشر وعوامل الفساد التي حالت دون تطور المجتمع ونهضته ، يقول : " وكنت مَرَرْتُ ببلادٍ شُمُوسُ الفضائل في آفاقها مَكْسُوفَةٌ ، وعُيُونُ العلم والآداب في عَرَصَاتِها مَطْرُوقَةٌ ، وستائِرُ الأحرار بين أهلها مَهْتُوكَةٌ ، مَكْشُوفةٌ ، وجَنَبَاتُها بأنواعِ البلاءِ مَحْفُوفَةٌ . وقد نَضَبَتْ في رباعها مياهُ الأمانةِ والأَمَانِ ، ونبعت بين أهلها عيونُ الخيانةِ والبُهْتَان ، وضَعُفَ حبلُ الديانةِ فيهم والايمان، فجنحوا الى جحودِ النِّعَمِ والكُفْرانِ ، وتوسعوا في مطاوعةِ الظلم والعدوان ..."(٢) .

ويختتم رسالته بالاشارة الى النتيجة الحتمية لتلك الأعمال السيئة حيث " أبدلهم الله من النور في أحوالهم ظلاما ، وبالحلال في مكاسبهم حراما ، وخصّ أسعارَهم بالغلاء ، وجَمْعَهم بالفناء ، ولَفِيفَهم بالتشتت والجلاء ، وللخراب ما يعمرون ، وللقتل ما يَلِدُون ، وللنهب ما يجمعون، ولغيرهم ما يكسبون ..."(٣) .

ويعتبر ابن الدباغ(٤) من أبرز الكتاب الأندلسيين الذين أكثروا من شكوى الزمان وفساد الأحوال ، يقول في احدى رسائله مصورا الظروف النفسية الصعبة التي يعاني منها : " لا تَسْأَلْ عن الحال ، فقد صار في عينيّ معمور الكُرَةِ ، أَضْيَقَ من خُرْتِ(٥) الإبرة ، واستبهمتْ(٦) لي المطالب ، وانسدت عليّ المذاهب ... ويا ليت شعري أين الفرج فهذا التناهي، وقد بلغت القلوب الحناجر ومتى التلاقي ؟ ..."(٧) .

وقد دفعت تلك الظروف الاجتماعية المتدهورة كثيرا من الكتاب الى سوء الظن بالناس ، والى المناداة باعتزالهم حتى يكون الانسان بمنجاة من شرورهم وآثامهم ، فهذا أبو المغيرة بن حزم يقول في احدى رسائله

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن عبدالواحد البغدادي ، أحد الوافدين على الاندلس والطارئين عليها ، توفي سنة ٤٥٥ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة : ص ٢٧٤ الذخيرة : ق٤ م١، ص ٨٧) . (٢) الذخيرة : ق٣ م١، ص ٤١١ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م١، ص ٤١١ . (٤) هو أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كان كاتبا للمقتدر بن هود ، ثم فرّ عنه الى المعتمد بن عباد (انظر ترجمته في: القلائد : ص ١٠٦ ، الذخيرة : ق٣ م١، ص ٢٥١ ، المغرب : ج٢ ، ص ٤٤٠) . (٥) الخرت: الثقب (اللسان : مادة خرت) .

(٦) لعل الصحيح "استبهمت علي المطالب" ، أي اشكلت علي ولم تتضح وجهتها ومعرفتها واستقامتها (اللسان : مادة بهم) .

(٧) الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٢٥٧ ، وانظر أمثلة أخرى من هذه الرسائل في : الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٢٥٤ - ٢٧٨ .

ان " في الاحتماءِ حَسْمُ الداءِ ، ولا عدوّ للانسان الا نفسُهُ ، ولا حيّةَ ولا عَقْرَبَ الا جنسُهُ ، وليس في الحيوان ، أخبثُ في ذاته من الانسان ، فالاحتراسُ كلّ الاحتراس والمعاشرة الجميلة للناس ... وأَعْقَلُ الناس من عَرَفَ الناسَ ، ولم يعرفوه ، فاستراح من أجنبي متكلف ، أو قريب غير منصف ..."(١) .

ولعل مرد ذلك ما خبره في أهل زمانه من مظاهر النفاق والغدر والخيانة التي كانت انعكاسا لاضطراب المجتمع وفساده .

ويشير ابو المغيرة بن حزم في رسالة أخرى الى انهيار القيم ، واختلال المبادئ ، وانقلاب موازين الأمور ، وارتقاء الجهلاء ، وغياب الفضلاء(٢) .

ولقد كان من آثار التفكك الاجتماعي أن زالت من بعض النفوس الأنفة الاسلامية ،وغابت عنها الفضائل الدينية ، واضطربت القيم الخلقية ، حتى عادت لا تثني الابن عن شق عصا الطاعة لوالده ، أو ترك الشفقة عليه والاحسان اليه ، فهذا أبو بكر البطليوسي يرفع رسالة الى أحد الامراء على لسان من استعفى ابنه ، وفيها يشكو اليه عقوقه ، يقول : " معلوم – أيّدَ الله الأميرَ الأجلَّ – أن العُقوقَ ثَكْلُ مَنْ لم يُثْكَلْ ، وأن العاقّ إنْ عاشَ نغّص ، وإنْ ماتَ نقص ، وأن الناس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم ، ولا يشفع في ابن أبٌ ، وانّ المرءَ لا يهدي مَنْ أحبّ ... ولما أريته طُرُقَ التبصير والتسديد ، وقلت له : يا بني مَنْ وُعِظَ بغيره فهو السعيد ، ولم يُغْنِ الوعد ولا الوعيد ، تبرأت منه اليك ..."(٣) .

ونقرأ لأبي بكر البطليوسي رسالة أخرى رفعها الى الحاكم يشرح فيها قضية أخت له هجرها زوجها ، واختلس ابنها الصغير منها ، مما أحرق كبدها ، وهو يسأله أن يرد ابنها اليها ، يقول : " وذلك أنّ أُخْتًا لي، أمتك ، لا باكية لي سواها ، كان لها ابن من ابن فلان ، فعرض له فاختلسه ، ومر به الى الحضرة المزدانة بك ، فَتَمَثّلْ ما شئت من كَمَدِها ، واحتراق كَبِدِها ، وتذكّر قوله عليه السلام : (لا تُوَلّهُ والدةٌ على ولدها) ، وانظر سوء فعل هذا المعاند ، وتدري وَجْدَ ثكلى أصيبت بواحد ... وأنت وليّ النعمة في جبره عليها ، وردّ نومها به اليها ..."(٤) .

كذلك فقد أدت تلك الأوضاع الاجتماعية المضطربة الى تدهور الأوضاع الاقتصادية ، والى انتشار الفقر بين مختلف طبقات المجتمع الاندلسي مما أدى الى ظهور الكدية ، يقول ابن حيان مصورا رجلا من أهل الكدية ، وقد امتلأت حقائبه بألوان الطعام وغيره :" وصدر فلان مع أصحابه الرسل

---

(١) الذخيرة : ق١ م١ ،ص ١٥٣ .
(٢) انظر نص الرسالة في : المصدر السابق نفسه : ق١ م١ ،ص ١٦٠ – ١٦١ .
(٣) الذخيرة : ق٢ م٢ ،ص ٧٦٢ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٢ م٢ ،ص ٧٥٦-٧٥٧ .

وقد امتلأت حقائبه مما قَمَشَهُ من السُّحْتِ(١) ، بضروب الكدية والشحذ، وبخل حتى بالزاد المأدوم(٢) في الطريق ، وضن به على الرفيق"(٣) . ومهما يكن من أمر فسنفرد لرسائل الكدية التي عرفت بالرزرزوريات مكانا خاصا فيما بعد .

ولقد دفعت تلك الظروف الاقتصادية المتدهورة بعض الأندلسيين الى الضرب في الآفاق ، والتجوال في البلاد طلبا للرزق ، وفي ذلك اشارة الى ما كان يعانيه الأندلسيون من قلق واضطراب ، والى ما يواجهونه من مصائب ومحن ، والى ذلك يشير أبو أحمد المُنْفَتِل(٤) في رسالة خاطب بها ابن النغريلة حيث يقول : " ولمّا أعَضّني - الزمانُ - بالريق، وحَفَزَني بالمضيق ، ولم يترك همّاً الا سنَّى عَقْدَه ، ولا نَظْماً الا نَثَرَ عِقْدَهُ، ورأيت الاستحالة في الحال ، والعَيْلَةَ(٥) في العيال ، وَجْداً قد جَدَّ ... هَيّأتُ راحلةً وأثاثاً ، وطَلّقْتُ ابنةَ الوطنِ ثلاثاً ، وقلتُ إمّا أنْ أجِدَ فأظهر ، أو أموت فأعذر ..."(٦) .

وفي ظل تدهور الاحوال السياسية كثر النفي والتشريد والسجن ، مما جعل كثيرا من الأندلسيين يعيشون في قلق دائم ، وخوف مستمر ، فأصبحت عندهم الحياة المستقرة ضربا من المستحيل ، وفي هذا المعنى يقول ابو محمد بن عبد البر : " من صحب الدهر - أعزك الله - وقع في أحكامه، وتصرف بين أقسامه ،في صحةٍ وسَقَم،وغِنىً وعَدَم،وبعَادٍ واقترابٍ،وانتزاح واغترابٍ ، واتفق لي ما قد علمتُ من الانزعاج والاضطرابِ والتقربِ والايابِ ..."(٧) .

ويكشف ابن شرف القيرواني في عدد من الرسائل التي وضعها على ألسنة المساجين ، عما يعانيه بعض الأندلسيين من شعور شديد بالغربة ، وقلق نفسي وعدم استقرار ، يقول في احداها واصفا اضطراب الحالة النفسية لأحد المساجين " قد حكمت بسجن الأشباح ، وهي سجون الأرواح ، فامْنُنْ على ما شئتَ منهما بالسراح ، فالحبس نَزّاعُ الأرواح ، والغَفْلَةُ(٨) أختُ القِتْلَة، وكلاهما فَقْدٌ ، ومَهْرٌ للخطوب ونَقْدٌ ، وإنما بينهما نَفَسٌ متصاعدٌ ، وأجَلٌ متباعد..."(٩) .

ان هذه الرسائل تعكس لنا بعض جوانب وملامح الحياة الاجتماعية في الأندلس في القرن الخامس الهجري .

---

(١) السحت: كل حرام وما خبث من المكاسب وحرم (اللسان: مادة سحت) .
(٢) يقال طعام مأدوم ، أي مخلوط (اللسان : مادة أدم) .
(٣) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٥٩٤ . (٤) هو أبو أحمد عبدالعزيز بن خيرة القرطبي المشهور بابن المنفتل ، من أعلام شعراء وكتاب البيرة في عصر ملوك الطوائف (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٣٩٠ ، الذخيرة : ق١ م٢، ص ٧٥٤ ، المغرب : ج٢ ،ص ٩٩) . (٥) العيلة : الافتقار (اللسان : مادة عيل) . (٦) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٧٦١ . (٧) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ١٢٨ . (٨) الغفلة : الترك والسهو (اللسان : مادة غفل) .
(٩) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٢٥ .

الترف والمجون :

على الرغم من حياة الحرب التي عاشها المسلمون في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فقد انتشرت آيات الترف والبذخ في سائر جوانب المجتمع ، وتعددت مظاهرها وأشكالها . وقد عبر أدب الرسائل عن بعض مظاهر هذه الحياة اللاهية العابثة .

ومن ذلك تصوير احتفال الملوك والأثرياء ببناء القصور الخاصة (١) بهم ، فهذا ابن جابر (٢) يصف القصور الذنونية الجليلة في طليطلة وما اشتملت عليه من محاسن تذهل الناظرين ، وما أحاط بها من جنان وبحيرات صناعية نصبت على أركانها تماثيل لأسود ينساب من أفواهها الماء ، يقول : " ولهذه الدار بحيرتان ، قد نُصِّبَتْ على أركانها صورٌ أسودٍ مصوغةٌ من الذهب الإبريز أحكم صياغة ، تتخيّل لمتأمّلها كالحةَ الوجوه فاغرةَ الشدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هونا ..." (٣) .

كذلك فقد صورت الرسائل الاسراف والتبذير في اقامة الاحتفالات ، ومن ذلك ما جاء في وصف الحفل الذي أقامه المأمون بن ذي النون بمناسبة حفيده يحيى . فقد كتب الاديب ابن جابر رسالة الى ابن حيان يحدثه فيها عن مظاهر الترف والبذخ والتبذير في المطعم والمشرب ومجالس الغناء والأنس في حفل اعذار يحيى بن ذي النون ، حيث " أُبيدتْ لمطابخه أممٌ من الأنعام، جَمَعَ فيه بين المشّاء والطيّار والعوّام ، وانتسفت لمخابزه أهراء من الطعام، وأنفقت على مجامره ومعاطره جُمَلٌ من الأموال الجسام ..." (٤) .

ومن ذلك أيضا ما جاء في رسالة لأبي عبدالله بن مسلم (٥) ، حيث صور جانبا من ترف الحياة عند أحد الأثرياء ، وقد تعدوا الى الطعام، ووصف أواني الطعام وأدوات الوضوء ، يقول : " وأخذنا مراتب القعود الى الطعام ، يُطاف علينا بصحافٍ من فضةٍ وذهبٍ ، وجفانٍ كالجوابِ أُتْرِعَتْ من كل أَرَبٍ ، فلما أتينا على الريّ قمنا الى الوضوء ، نجيء بطِساسٍ من التبر ، وأباريق رُصِّعَتْ بالدُّر ..." (٦) .

---

(١) انظر : رسالة أبي عبدالله بن مسلم في وصف أحد القصور الأندلسية في: الذخيرة : ق ٣ م١ ، ص ٤٣١ . (٢) لم يعثر الباحث على ترجمة له ، ولكن سياق النص الذي نقله ابن بسام عن ابن حيان في الذخيرة ، يدل على أنه كان واحدا من اولئك الكتاب الذين يعملون في قصر المأمون بن ذي النون (انظر : الذخيرة : ق ٤ م١ ، ص ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق ٤ م١ ، ص ١٢٨ . (٥) هو أبو عبدالله محمد بن مسلم ، من كبار الوزراء والكتاب الذين سفروا لبعض ملوك الطوائف (انظر: ترجمته في: الذخيرة : ق٣ م١ ، ص ٤٢٧ ، المغرب : ج٢ ، ص ٤٠٥ . (٦) الذخيرة : ق٣ م١ ، ص ٤٣٢ .

ومن مظاهر الترف التي صوّرها أدب الرسائل اقتناء القيان والجواري، وما كان من نشاط تجارة الرقيق ، حيث حرص النخاسون على أن يعلموا الجواري والقيان الشعر والنحو والطب والحكمة والمنطق ليكسبوا في بيعهن مالا وفيرا ، فقد كتب ابن الكتاني رسالة يصف تعليمه للقيان والجواري الغناء والموسيقى والآداب والعلوم ، وكسبه المال الوفير من بيعهن ، يقول: "ان في ملكي الآن أربعَ روميات كنّ بالامس جاهلاتٍ ، وهنّ الان عالماتٌ حكيماتٌ منطقياتٌ فلسفياتٌ هندسياتٌ وموسيقاوياتٌ أسْطِرْلابيّاتٌ معدلاتٌ نُجُوميّاتٌ نَحْويّاتٌ عروضياتٌ أديباتٌ خطاطيات ..."(١) .

كذلك فقد انطلق الكتاب الأندلسيون يصفون مجالس اللهو والأنس والطرب والغناء وما فيها من شراب ولهو ومجون ، وأكثروا من الذعوة الى عقدها (٢) . ويصف أبو عبدالله بن مسلم أحد مجالس الشراب والغناء التي عقدها أحد أمراء الأندلس الذي نزل بهم في احدى رحلاته ، يقول: " وقام بالجِرْيَال ساق جعل المنديل ، مكانَ حمائلِ السيفِ الطويلِ ، وأدار نُجُوماً بُرُوجُها أيْدِينَا ، وشُموساً تطلعُ منه وتغربُ فينا ... وأوحي الى المزمارِ أن يَنْطِقَ ، والى الأوتارِ أن تَخْفِقَ ، والى الغناء أن يُذيبَ القلوبَ ، ويشقّ الجيوبَ ... فاندفعت - بلابلُ - المداري تُغَرّدُ ، وحمائمُ الأوتار تُصَوّبُ وتُصَعّدُ ، وأطيارُ المعازفِ تتجاوبُ ، وأصنافُ الملاهي تَتَنَاوَبُ ..."(٣) .

ويحدثنا ابن الحنّاط عن مجلس خمرة حضره ، ويصف ما دار فيه يقول : " وجعلتُ الكأسَ تدورُ ، ولا حديثَ لِسُقَاتِها ، غير هاكَ وهاتِها "(٤).

ولقد أكثر الكتاب الأندلسيون من الحديث عن الخمرة ، حيث كانوا يستهدونها ويهدونها، وينعمون بشربها ، فهذا ابن الدباغ يكتب الى أحد غلمانه يستهديه خمرا ، ويبين تعلقه بها وشدة بحثه عنها ، يقول: " وللراح - جُعِلْتُ فداك - من قلبي محلٌ لا تصلُ اليه سَلْوَةٌ ، ولا تعترضُ عليه جَفْوَةٌ ، الا أن معينها قد جفّ ، وقطينها (٥) قد خفّ ، فلا توجد للسّباء (٦) ، ولو بِحُشَاشَةِ الحُوباء (٧) ، فَصِلْني منها بما يوازي قدري، ويقومُ له شكري ..."(٨) .

---

(١) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٣٢٠ . (٢) انظر امثلة من هذه الرسائل في : الذخيرة : ق ٢ م٢ ، ص ٥٤٢ - ٥٤٣ . الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٨ .
(٣) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .
(٤) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٨ .
(٥) القطين : يقال قطين الرجل : حشمه وخدمه (اللسان : مادة قطن).
(٦) السباء : يقال سبأ الخمر يسبوها سباء ، أي اشتراها ليشربها (اللسان : مادة سبأ) .
(٧) الحوباء : النفس (اللسان : مادة حوب) .
(٨) القلائد : ص ١٠٨ .

النقـــد الاجتماعـــي :

أشرنا فيما تقدم الى ظهور اتجاه نقدي اجتماعي عام لأوضاع المجتمع الأندلسي ، وما أصبح عليه من ترد وضعف وفساد متزايد ، فقد أخذ كثير من الكتاب يعرّضون بطبقات المجتمع الأندلسي المختلفة من أمراء ووزراء وقادة وقضاة وكتاب وعامة ، ويحذرونهم من مغبة ما هم فيه ، ويرسمون لهم الصورة المثالية التي يجب أن يكونوا عليها من أجل النهوض بالامة وصيانتها .

وكان في مقدمة الأسباب التي ساهمت في تردي الأوضاع الاجتماعية في الأندلس انشغالُ الحكام عن مصلحة الأمة بالمظاهر الكاذبة والملذات ، وقد انبرى لهم الكتاب يعرّضون بهم ويفضحون ممارساتهم ، وفي ذلك يقول ابن شرف القيرواني : " همُّهُ جوازُ يومه ، وحلاوةُ نومِه ، أعلى همّتِهِ ارجالُ جُمّتِه(١) ، واعتدالُ عِمّتِهِ ، وأسرُّ سرورِه ، تناهي مُدُورِه ، وترويقُ خمورِه ... ثاني العطف عن الناصح ، متعامٍ عن الأمر الواضح ، مستغنٍ بعبده عن جنده ، متشاغلٌ بالأنياب الطاحنة في فمه ، عن الأنياب الوالغة في دمه ، نيّامٌ عن مسهرات الأنام ..."(٢) .

ويشتد هجوم ابن شرف على الحكام فيتهمهم بالظلم والجور ، وينعتهم بعدم العدل بين أفراد الرعية ، يقول :" سلطانٌ يَشْتَري بدينِه ودمِهِ ، رضى ابن عمّه ، خاسرُ البَحْر ، محرومُ الأجرِ ، لا يساوي بين أهل القِبْلَةِ ، وهم سواء ، ولا يتكافأ عنده المسلمون وهم عند الله أكفاء ..."(٣) .

كذلك يصور لنا ابن شرف بعض ممارسات الحكام المنحرفة حيث دفعهم ضعف الوازع الديني في نفوسهم الى اثارة العصبيات القبلية ، مما أدى الى تخريب الديار وضياع الاوطان ، يقول : " تَعَصُّبٌ جاشتْ له صدورُ الجيش ، وتكدّر به صفاءُ العيش ، وللمساعدة في العصبية طارتْ الرؤوسُ والسواعدُ وتهدّمَتِ الذُّرى والقواعدُ ..."(٤) .

وفي فصل من رسالة لابن حيان يشير فيه الى افساد المأمون بن ذي النون في الأرض ، وتسلطه على الضعاف من أهل بلده ، يقول : " أسْوَدُ الكَبِد ، مظاهر البغي على الحسد ... متسلط على ضعاف رعيته بالسادة لأقواتهم ، ونيلِهِ من دماءِ المحاويجِ منهم . فكم نال قَتَلَتُهُ الذين أرسلهم عليهم من دمِ أرملةٍ غرثى ، ويتيمة كفرخ الحُبَارَى ، الى من اصيب

---

(١)يقال جاء فلان في جمة عظيمة ، أي في جماعة يساؤون في ممالة (اللسان: مادة جمم). (٢) الذخيرة : ق ٤ م ١ ، ص ١٨٩ .
(٣)الذخيرة : ق ٤ م ١ ،ص ١٩١ .
(٤)المصدر السابق نفسه : ق ٤ م١ ،ص ١٩١ .

فوقهم من عابرِ سبيل ، وضارب لمعيشة ، مُوَيِّم نسوة ، ومُوَتِّم صبيـــة ، اضحـوا طُعْمَ ذئاب ..."(١) .

كذلك فقد انبرى الكتاب الى نقد الوزراء الذين ارتبطت بهم بعـض مظاهر الفساد الاجتماعي ، كابن النغريلة الذي أفسد في الأرض ، وتسلـط على العباد ، وقيل عنه كلام في القرآن الكريم ، وسمح لقومه باستغـلال السلطة استغلالا سيئا مما جعل العقلاء من أهل الأندلس يتنبهون الى تفاقـم الخطر من تمكن الوزير وتسلطه ، فكتب ابن حزم رسالة في الرد عليـه ، ناقشه فيها وقارعه في أمور دينه(٢) .

وممن انتقد الوزراء ابن شرف حيث أشار الى أن هذا المنصب قد أصبـح مجرد لقب يطلق على اولئك الذين انشغلوا عن مصلحة الأمة بالسعـي وراء الملذات والترف واللهو ، يقول :" قد يتسمّى بوزير ، مَنْ شُغْلُهُ البَمُّ(٣) والزِّيرُ(٤) ، يُعْجِبُهُ اللهو ، ويُغْلِبُهُ السهوُ . دمارٌ من أوى اليه ، وبَوَارٌ من عَوَّلَ عليه ... ليله ناعس ، ونهاره بالس(٥) ، لم يَعْلَقْ به من الوزارة الا حُسْـنُ الشَّارَةِ ..."(٦) .

ويشير الى اهمالهم ، وسوء اداراتهم وعدم قدرتهم على تصريـف الأمور ، يقول :" حتى اذا طرقت السرايا ، وسبقت السبايا ، ونَفَرَ النافـر ، وضجّ البادي والحاضر ، وَنَزَعَ ثقات الأجناد ، فتفرقوا في البلاد . فزع الـى الوزير ، في وجه التدبير ، فكان جوابه دموعَهُ ، وصوابُه هُلُوعَه ، فحينئـذ دارت الدائرة ، واضطرمت النائرة(٧) ، وانصرمت الدول ، وتبدلـت الحلل ..."(٨) .

كذلـك انتقد بعض الكتاب القضاة الذين طغوا واستبدوا بالأمـور حيث استغلوا مكانتهم الاجتماعية ، فهذا ابن شرف يصفهم بالظلم والانحلال والفساد والرشوة ، يقول :" ولايَتُهُ القضاءِ من سوءِ القَضَاءِ ، جائرٌ حائـرٌ: إنْ جارَ فَعَنْ تَعَمّدٍ ، وإنْ حَارَ فَعَنْ قِلَّةِ تَعَهّدٍ ، ليلُهُ مُنْتَشٍ ، ونَهَارُهُ مُرْتَشٍ ... اذا رأى الأمرد تمرّد على خصمه ، ومال عليه بحُكْمِه ، يُزْرِي باختيـار سلطانه ، ويستخفّ بفقهاء زمانه ، يجور في نظره المقسوم ، ويَبْصُـقُ في وجه الخصوم ، وَيَرْكُلُهُم برجله ، ويَلْطِمُهُم بنعله ..."(٩) .

---

(١) الذخيرة : ق١ م٢ ،ص ٢٧٩ . (٢) رسائل ابن حزم : ج٣ ،ص ٣٩ – ٧٠ .
(٣) البم من العود وهو الوتر الغليظ (اللسان : مادة بمم) .
(٤) الزير : ما استحكم فتله من الأوتار (اللسان : مادة زير) .
(٥) أبلس فلان اذا سكت غما (اللسان : مادة بلس) .
(٦) الذخيرة : ق٤ م١ ،ص ١٩١ .
(٧) يقال نارت نائرة في الناس : هاجت هائجة (اللسان : مادة نار) .
(٨) الذخيرة : ق٤ م١ ،ص ١٩٢ .
(٩) المصدر السابق نفسه : ق٤ م١ ،ص ١٩٣ .

وقد اقترنت بعض مظاهر الفساد الاجتماعي ايضا بخاصة الأندلسيين على اختلافهم ، اذ كان عدد منهم يعنى باختيار الجواري والاماء ، ويعهد اليهن بتربية أبنائهم ، حتى اذا ما بلغوا مبلغ الرجال التحقوا ببيئات الفرنجة ، وهي بيئات غريبة عنهم في مقوماتها ومبادئها ، ولهذا لابد أن تترك هذه الظاهرة آثارا سيئة عليهم ، فلابد أن يتكلم الواحد منهم بلسان الروم الذين تربى بينهم ، ويتزين بزيهم ، ويقول بقولهم ، ويميل اليهم ، وفي مثل ذلك يقول أبو المطرف بن المثنى[(١)] :
لم يقرع سمع ابن من أبناء خاصتنا عند ميلاده ولا خامر طبع الرضيع منهم في مهده ، الا كلامُ أمةٍ لَكْعَاءَ ، أعجميةٍ خرقاءَ ، ولا ارتضع الا ثديها ، ولا اكتسب الا عِيَّها ، ولا سكن الا في حِجْرِها ، ولا قَرَنَ الا بتدبيرها ، حتى اذا صار في عديد الرجال حفظ لغتهم ، وعانى طباقهم ، وكابد أخلاقهم ..." [(٢)] .

ومما تقدم يستطيع الباحث أن يقول بأن ذلك النقد الاجتماعي الموجه الى الحكام والوزراء والقضاة ، كان يمثل احيانا موقفا خاصا من كاتب ازاء حاكم أو وزير أو قاض . وكان في أحيان كثيرة يعبر عن موقف عام ازاء فساد المجتمع الأندلسي على اختلاف طبقاته .

ان رسائل النقد الاجتماعي تعتبر ومضات مشرقة تدل على قيام بعض الكتاب بدورهم على خير وجه ومشاركتهم في الاحداث ، محاولين درء الاخطار وايقاف التيار المضطرب أو التخفيف منه .

---

(١) هو أبو المطرف عبدالرحمن بن أحمد ، كان كاتبا ووزيرا للمأمون بن ذي النون ، وقد انتفع به الناس في وزارته لدينه وسكون طائره وسلامة باطنه وظاهره ، توفي ببلنسية سنة ٤٥٨هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٤٠٩) .

(٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٤١٤ - ٤١٥ .

الجهـــاد والصـــــراع مع الصليبييــــن

لقد تكتل الصليبيون وساروا الى بلاد الأندلس بجحافل جرارة يدفعهم تعصب ديني أعمى ضد الاسلام والمسلمين ، وتطلع لاستعادة الأندلس الى حظيرة النصرانية . وفي طريقهم الى الأندلس كانوا يدمرون كل شيء، ويقتلون أعدادا كبيرة من المسلمين ، فأخذت المدن والثغور الاسلامية تسقط تباعا بيد النصارى ، وما كان ذلك ليحدث في بداية الصراع لولا تفرق كلمة المسلمين ، وانشغالهم بقتال بعضهم بعضا ، وضعف الوازع الديني في نفوس بعض امراء الطوائف ، اذ كان الواحد منهم يمالىء الفرنجة ضد اخوانه في الدين .

لقد واكب أدب الرسائل تلك الأحداث الخطيرة ، وهذه الحملات الصليبية منذ بدايتها ، وعايشها وعاش معها في كل مراحلها التي انتهت بانتصارات المسلمين ودخول المرابطين ، فكانت رسائل الجهاد التي تصف ما حل بالأمة ومعاقلها من ذل وهوان على يد الأعداء ، وتحث على الجهاد لانقاذها ، وتستنفر الجهود لمواجهة الأخطار ، ومن ثم تعبر عما يتمتع به المسلمون من بأس وقوة ومحبة للجهاد ، وتتغنى بالانتصارات وتصف المعارك .

وصف النكبات والحض على الجهاد لانقاذ الأندلس :

لقد تعاظم الخطر في الأندلس ، وتفاقمت الأحوال ، وتعاقبت النكبات ، وسقوط المدن والمعاقل بيد النصارى ، وقد تفاعل الكاتب الأندلسي مع هذه الاحداث ، فكانت كل مدينة تسقط تثير مشاعر الحزن والأسى في نفوسهم ، فيعبرون عنها برسائلهم مستنفرين أمراء الطوائف والمسلمين كافة لانقاذ الاسلام من الخطر الذي يتهدده . وكان في مقدمة تلك النكبات سقوط قلعة أيوب وتونكه ، وسقوط بربشتر عام ٤٥٦هـ ، وسقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ ، وسقوط بلنسية عام ٤٨٨ هـ .

وكان في مقدمة تلك الرسائل التي تصف هذه النكبات رسالة لابن طاهر كتب بها الى المعتصم بن صمادح يصف فيها العدو العابث بالأندلس ، ويشير الى تكتل الصليبيين ومحاصرتهم لمعاقل الاسلام بجحافل جرارة وجيوش كثيفة ، حيث يقول : " وذلك أن فرديناند نزل على قلعة أيوب محاصرا لمن فيها ، ومغيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء ، وتتساقط لملاحظتها الأعضاء ... وغرسيه دمره الله بسرقسطة كذلك ، ورذمير أهلكه الله بوشقة [١] وما ولاها ينكي [٢] بما يبكي ." [٣] .

---

(١) وشقة : مدينة حصينة بالأندلس ، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا (انظر : الروض المعطار : ص٦١٢) . (٢) ينكي : كثر فيهم الجراح والقتل فرهنوا لذلك (اللسان : مادة نكي) . (٣) القلائد : ص٥٨ .

ثم هو يصور حال المسلمين وما يعانونه من ذل وهوان وما يلاقونه من هلاك ، ويسأله أن يتدارك الحال ويتدبر الأمر تخوفا من المصير السيء الذي ينتظر المسلمين ، يقول : " والمسلمون بينهم سَوَامٌ رُتَّعٌ ، وأموالُهُم نَهْبٌ يُوَزَّع ، والقتلُ يأخذُ منهم فوقَ ما يَدَعُ ، فأَطِلِ الفكرةَ في هذا الخَرْمِ الداخلِ ، والبلاءِ الشاملِ ، واسبِلِ العَبْرَةَ ، وأَطِلِ العِبْرَةَ..."(١).

ويبدو الطابع الديني جليا واضحا في هذه الرسالة ، حيث يركز على أن المصاب هو مصاب الاسلام ، يقول : " فلينْدُبَ الاسلامَ نادبٌ ، وليَبْكِ له شاهدٌ وغائبٌ ، فقد طُفِيءَ مصباحُهُ ، وَوُطِيءَ ساحُهُ ..."(٢) .

ولابن عبدالبر رسالة كتبها على لسان أهل بربشتر عندما سقطت بيد الاسبان سنة ٤٥٦هـ ، ووجهها الى المسلمين في جميع أنحاء الأندلس يستثير هممهم ، لنصرة اخوانهم في بربشتر ، فيصف حال المسلمين وما هم عليه من ذل وهوان ، ويذكر أن الصليبيين يسومونهم سوء العذاب ، ويستبيحون أعراضهم ودماءهم ، يقول :" فلو رأيتم - مَعْشَرَ المسلمين - اخوانَكُم في الدين ، وقد غلبوا على الأموال والأهلين ، واستحكمت فيهم السيوف ، واستولت عليهم الحُتُوفُ ، وأَثْخَنَتْهُمُ الجِراحُ ، وعبثت بهم زُرْقُ الرماح ، وقد كَثُرَ الضجيجُ والعويلُ والنياحُ ، ودماؤُهُم على أقدامهم تسيل ، سَيْلَ المطرِ بكل سبيل ..."(٣) .

ويستمر ابن عبد البر في الكشف عن أفعال الصليبيين والجرائم العظيمة التي ارتكبوها ، ويركز على ذكر مصائب النساء والأطفال والشيوخ ، وكأنه يتخذ من ذلك مجالا ليوهج في نفوس المسلمين نار الثأر والانتقام ، ويستثير فيها النخوة والحمية ، حيث يقول : " فما ظنكم - مَعْشَرَ المسلمين - وقد سِيقَتِ النساءُ ، والولدانُ ، ما بين عاريةٍ وعُريانَ ، قَوْداً بالنواصي الى كل مكان ، طورا على المُتُون ، وطوراً على البُطُون ، ومشيخة الرجال مُقرَّنين في الحبال ، مُصَفَّدِين (٤) في السلاسل والأغلال ..."(٥) .

ثم هو يشير الى أن الحرب حرب دينية ، تستهدف القضاء على الاسلام والمسلمين " فالجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن ، وحلاوة الاذان ، مطبقة بالشرك والبهتان ، مشحونة بالنواقيس والصلبان ، عوضا من شيعة الرحمن ... والكفر يضحك وينكي ، والدين ينوح ويبكي ..."(٦) .

---

(١) القلائد : ص ٥٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ص ٥٨ . (٣) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ١٧٥ . (٤) مصفدين : مقيدين بالحديد والأغلال (اللسان : مادة صفد) . (٥) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ١٧٦ . (٦) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ١٧٦ .

ويختتم ابن عبد البر رسالته بتوجيه نداء الى المسلمين يستنفرهم للجهاد من أجل نصرة اخوانهم في الدين ، ويدعم نداءه هذا ببيان فضل الجهاد ، وما يجازي فيه رب العباد ، يقول : " فيا ويلاه ، ويا ذلاه ،ويا كرباه ، ويا قرآناه ، ويا محمداه ... فاللهَ اللهَ في اجابةِ داعينا ، وتلبيةِ منادينا ، قبل أن تُصَدَّعَ صَفاتُنا كصدعِ الزجاجِ ، فهناك لا ينفعُ العلاجُ ..."(١) .

ويحذرهم من عاقبة استمرار فرقة الصف وارتكاب المعاصي ، وضعف الوازع الديني في نفوسهم ، وتقاعسهم عن نصرة اخوانهم في الدين ، حيث يقول : " فالحذرَ الحذرَ ! فإنه رأسُ النظرِ ، من بركانٍ تطايرَ منه شررٌ مُلْهِبٌ ، وطوفانٍ تساقطَ منه قطرٌ مُرْهِبٌ ، فلما يُؤْمَنُ من هذا إحراق ، ومن ذلك إغراق ، فتنبهوا قبل أن تُنَبَّهوا ، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم ، وجاهدوهم في ثغورهم ، قبل أن يجاهدوكم في دوركم ، ففينا مُتَّعَظٌ لِمَنِ اتَّعَظَ ، وعِبْرَةٌ لِمَنِ اعتَبَرَ ..."(٢) .

كذلك فقد أثار سقوط مدينة بربشتر الاسلامية عواطف ومشاعر الحزن والاسى في وجدان الفقيه الكاتب أبي حفص الهوزني(٣) ، فعبر عنهما برسالة طويلة خاطب بها المعتضد بن عباد يحثه فيها على الجهاد ويستنجد به لانقاذ الاسلام من الخطر الذي يتهدده في بربشتر وغيرها من معاقل الاسلام في الأندلس ، ولقد كتب رسالته " عن حالة يشيب لشهودها مَفْرق الوليد ، كما يُغَبِّر لورودها وجه الصعيد(٤) ، بدوّها ينسف الطريف والتالد ، ويستأصل الوليد والوالد ، تذر النساءَ أيامَى ، والأطفالَ يتَامَى ... وَطَمَتْ حتى خُشِيَ على عمود الاسلامِ منها الانقضاض ، وَسَمَتْ حتى تُوُقِّعَ على جناحِ الدينِ الانهياض ..."(٥) .

وبعد أن يشخص أبواب الشر التي جلبت المصائب على المسلمين ، ويعلل أسباب الضياع ، يستثير نخوة المعتضد وعزيمته ، ويحرك في نفسه نوازع الجهاد ليدفع العدو الجاثم عن صدور المسلمين في بربشتر بعد أن توانى الاخرون عن نجدتهم ، يقول : "فانتهزْ فُرْصَتَها فقد بان من غيرك العجزُ ، وَطَبِّقْ مضاربَها ، فكأنْ قد أمكنك الحزّ ... وما زلتُ أَعْتَدُّكَ لمثلَ هذه الجولة وَزَراً ، وأدخرك في ملتها مَلْجأ ، لدلائل أوضحت فيك الغيب ، وشواهد رفعت من آمرك الريب ، ... ففضلكم في الأعناق أطواق ، ومجدكم للآفاق اشراق ..."(٦) .

لقد صدع الهوزني في رسالته هذه بالحق أمام أقوى ملوك الطوائف آنذاك ، مما أثار حفيظة المعتضد وغضبه عليه ، فانتهى الهوزني الى نهاية المجاهدين ، اذ استدرجه المعتضد الى اشبيلية فذهل عما يترصده

---

(١) الذخيرة : ق٣ م١، ص ١٧٧-١٨٧ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١، ص ١٧٨ .

(٣) هو أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني (٣٩٢-٤٦٠هـ) ، طلب العلم على شيوخ الاندلس ثم ارتحل سنة ٤٢٤هـ ، وأخذ عن علماء المشرق ، وأصبح متقنا في العلوم (انظر : الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٨٢ . المغرب : ج١، ص ٢٣٩ ، مسالك الابصار : ج١١ ، ص ٤١٦ ، النفح : ج٢ ، ص٩٣ .

(٤) الصعيد : الارض الطيبة (اللسان : مادة صعد) . (٥) الذخيرة : ق٢ م١، ص ٨٤ .

(٦) المصدر السابق نفسه : ق ٢ م١ ، ص ٨٤ .

له من خطر حتى ليقتله بيده سنة ٤٦٠ هـ[1] . ولعل المعتضد انما فعل ذلك اعتقادا منه بأن دعوة الهوزني له للجهاد لم تكن الا نوعا من التوريط العسكري والسياسي ، فاذا حارب وأخفق كسرت شوكته لدى ملوك الطوائف واذا لم يحارب كشف عن تقاعسه في الدفاع عن حوزة الدين[2] . ولقد بقيت بربشتر تحت وطأة الاحتلال الصليبي حتى قيض الله تعالى لها أحمد بن هود الذي أعادها الى ركاب الاسلام .

وقد شهد ابن طاهر محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور سنة ٤٨٨ هـ ، فوصف هول المصيبة التي داهمت تلك المدينة ، وبكاها بكاء حارا ، حيث كان من سكانها ، يقول في رسالة كتبها الى بعض اخوانه : " كتبتُ منتصفَ صفرٍ ، وقد حصلنا في قبضةِ الأَسْرِ ، بخطوبٍ لم تجرِ في سالفِ الدهرِ ، فلو رأيتَ قُطْرَ بلنسية – نظر الله اليه ، وعادَ بنوره عليه – وما صنع الزمانُ به وبأهله ، لكنتَ تندبُهُ وتبكيه ، فلقد عَبَثَ البلى برسومه ، وعفى على أقمارِهِ ونجومِهِ ، فلا تسألْ عما في نفسي ، وعن نكدي وبأسي "[3] .

الاستنجاد بالمرابطين :

يتصل بالرسائل التي كانت تصف النكبات ، وتحض على الجهاد لانقاذ الأندلس تلك الرسائل التي كان يبعث بها ملوك الطوائف الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في العدوة المغربية ، يطلبونه العون والمساعدة في رد الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوجود الاسلامي في الأندلس ، وبخاصة بعد سقوط طليطلة بيد الأذفونش عام ٤٧٨ هـ ، وامعان ملوك الصليبيين وامرائهم ومغامريهم في اهانة المسلمين وتهديدهم . ولعل أول صريخ أندلسي يرجع الى ما قبل سقوط طليطلة بسنتين أو ثلاث سنوات ، فقد وفد على يوسف بن تاشفين جماعة من كبار أهل الأندلس ، وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، وما هم عليه من ذل وهوان ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى بلادهم[4] . ومنذ ذلك الحين توالى صريخ أهل الأندلس ورسائل الاستنجاد على يوسف بن تاشفين ، كما يذكر يوسف نفسه في رسالته التي بعث بها الى تميم بن المعز بن باديس[5] أمير افريقيا ، وذلك عقب معركة الزلاقة[6] .

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٢ م١، ص ٨٢ ، ٨٤ . (٢) انظر عصر الطوائف والمرابطين : ص ١٨٠ . (٣) الذخيرة : ق٣ م١، ص١٩، وانظر في هذا المعنى ايضا رسالة لأبي الاصبع بن أرقم عن مجاهد العامري الى أحد الامراء يصف بها النكبات والمحن التي ألمت بالمسلمين في الاندلس بكل تفصيلاتها : الذخيرة : ق٣ م١، ص٣٦٣ . (٤) انظر الحلل الموشية : ص٣٣ . (٥) هو تميم بن ابن المعز بن باديس الصنهاجي ، من ملوك الدولة الصنهاجية بافريقيا الشمالية ، ولاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٤هـ (انظر ترجمته في البيان المغرب: ج١، ص ٢٩٨، وفيات الاعيان: ج١، ص٣٠٤) .
(٦) انظر الرسالة بكاملها في: رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٤٨٨) : ورقة ٤٩ .

وكان في مقدمة هذه المراسلات ما كتبه أبو عبدالله بن أيمن[(١)] على لسان المتوكل بن الأفطس. وقد ذكر ابن بسام أن هذه الرسالة كانت ثالثة المفاتحة أو ثانية المداخلة[(٢)] .

وقد افتتح ابن أيمن رسالته بمدح يوسف بن تاشفين ، وذكر فضائله العظيمة ، وغيرته على الدين ، انه يستثير بذلك نخوته وعزيمته ، ويحرك في نفسه نوازع الخير والجهاد لدفع العدو والثأر للمسلمين ، يقول: " لما كان نورُ الهدى - أيدك اللهُ - دليلَكَ ، وسبيلُ الخير سبيلَكَ، وَوَضُحَتْ في الصلاح معالِمُكَ ، ووقفتْ على الجهاد عزائِمُكَ ، وصحّ العلم بأنك لدعوة الاسلام أعزُّ ناصرٍ ، وعلى غزوِ الشركِ ، أقدرُ قادرٍ ، وجب أن تُسْتَدْعَى لما أُعضل من الداء ، وتُستفات لما أحاطَ بالجزيرة من البلاء ..."(٣) .

ثم هو يشكو اليه الحالة التي آلت اليها البلاد ، ويصف ما دهى المسلمين من ذل وهوان ، وما أصابهم من خراب ودمار ، وقتل وتشريد ، وما كان من دفعهم الجزية الى النصارى ، ويكشف له عن المطامع التي طفت على الأذفونش ، وتطلعه للسيطرة على معاقل المسلمين وحصونهم ، بعد ما رآه من سوء أحوالهم ، اذ لم يزل دأب طوائف الصليبيين " التشطُّطَ والعنادَ ، ودأبُنَا الاذعانً والانقيادً ، حتى اسْتُصْفِيَ الطريفُ والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المِنَنِ[(٤)] وقويت اطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتُهُم وشفارُهُم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فانما هو بأيديهم أسرى وسبايا"(٥) .

ثم هو يستصرخ يوسف بن تاشفين على النصارى ، ويدعوه الى الجهاد، ويطلب اليه أن يسرع اليهم بالنجدة ، ويلفت نظره الى العواقب الوخيمة التي تنتظر المسلمين ان لم يبادر المرابطون لنجدتهم ، يقول : " فيا لله ويا للمسلمين !! أيسطو هكذا بالحق الافكُ ، ويغلب التوحيدَ الشركُ، ويظهر على الايمان الكفرُ ، ولا يكتنف هذه الملة النصرُ ؟! ولا ناصر لهذا الدين المهتضم ... (٦) وما هو الا نَفَسٌ خافتٌ ، ورَمَقٌ زاهقٌ ، ان لم تبادروا بجماعتكم عِجَالا ، وتتداركوها رُكبَانًا ورجالاً ، وتنفروا نحوها خِفافاً وثِقالاً ..."(٧) .

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن ايمن، من أعلام النظم والنثر ، استوزره المتوكل بن الأفطس بعد اقالته لأبي الوليد بن الحضرمي (انظر ترجمته في: الذخيرة : ق ٢ م ٢ ،ص ٦٥٢ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٦٦) .

(٢) انظر : الذخيرة : ق٢ م٢ ،ص ٦٥٣ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق٢ م٢ ، ص ٦٥٣ - ٦٥٤ . (٤) المنن : مفرد منة : أي القوة (اللسان: مادة منن).

(٥) الذخيرة : ق٢ م٢ ،ص ٦٥٤ . (٦) المهتضم : المظلوم والمغصوب ،والمقهور (انظر : اللسان : مادة هضم) .

(٧) الذخيرة : ق ٢ م ٢ ،ص ٦٥٤ - ٦٥٥ .

ولم يذهب هذا الاستصراخ سدى ، فعندما بلغ هذا الخطاب أمير المسلمين كتب الى المتوكل بن الأفطس يعده بالجواز والامداد على العدو[1].

كذلك فقد كان المعتمد بن عباد يستصرخ يوسف بن تاشفين ويستميله بمكاتبات منها من انشائه ، ومنها من انشاء كتابه ، فمن انشائه وخطه رسالته التي افتتحها بوصف ما أصاب الامة الاسلامية في الأندلس من فرقة وخلاف وضعف ، وما آل اليه أمرها من تغلب العدو على أكثر قلاعها وحصونها ، يقول : " انا نحن العربَ في هذه الاندلس ، قد تلفت قبائلُنا ، وتفرق جمعُنا ، وتغيرت أنسابُنا ، بقطع المادة عنا من معينِنا ، فصرْنَا شعوباً لا قبائل ، اشتاتاً لا قرابة ولا عشائر ، فَقَل ناصرُنا ، وكثُرَ شامتُنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش ... وأسَرَ المسلمين ، وأخَذَ البلادَ والقلاعَ والحصونَ ..."[2] .

ويخلص الى مطلبه في دعوة أمير المسلمين الى الجواز للاندلس لانقاذ اخوانه في الدين ، فيستثير نخوته ، ويذكر فضائله ، حيث يقول: " وأنت،أيدك الله ، ملك المغرب أبيضه وأسوده ... نزعتُ بهمتي اليك، واستنصرتُ بالله ثم بك ، واستغثتُ بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام ، وتذبوا عن دين محمد ..."[3] .

ومما كتب أيضا في الاستنجاد بالمرابطين واستدعائهم لانقاذ الاندلس ما أنشأه الوزير الكاتب أبو بكر بن الجد على لسان المعتمد بن عباد ، وهو لا يختلف عن مضمون الرسالة السابقة [4] .

ولقد استجاب زعيم المرابطين لدعوة امراء الطوائف بعد مشاورات مع كبار فقهاء المغرب ، واعتبر صريخ ملوك الطوائف دعوة الى المشاركة في الجهاد والذود عن الدين المشترك ، فجهز ابن تاشفين جيشا كبيرا عبر به الى الأندلس ، وانضم الى الجيوش الأندلسية فكانت معركة الزلاقة التي أحرز فيها المسلمون نصرا مؤزرا على الصليبيين .

التهديد والوعيد :

يستطيع الباحث أن يلمس في أدب الرسائل صورة لما كان يتبادله المسلمون والصليبيون من تهديد ووعيد فقد كانوا يتبادلون رسائل التهديد والوعيد في شتى المناسبات ، فبعد أن سقطت طليطلة على يد الاذفونش وجيشه الزاحف سنة ٤٧٨ هـ ، واستولى على أعمالها ، شعر بأنه أضحى قادرا على تحدي ملوك الطوائف والقضاء عليهم واحدا بعد الآخر،

---

(١) انظر رسالة يوسف بن تاشفين في: الحلل الموشية : ص٣٦ . (٢) المصدر السابق، نفسه : ص ٤٥-٤٦ . (٣) المصدر السابق نفسه :ص ٤٦ .
(٤) انظر الرسالة بكاملها في : الحلل الموشية ، ص ٤٧ .

فمد بصره الى بقية المدن الاندلسية ، وطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وأخذ يرسل الى ملوك الطوائف رسائل يتهددهم فيها ، ويطلب اليهم أن يسلموا بعض القواعد والحصون بالامان اليه ، وأن يؤدوا الجزية له في كل سنة ، ويتوعدهم بشر العواقب ، ومن ذلك رسالة كتبت على لسانه الى المعتمد بن عباد يتهدده فيها ويطلب اليه تسليم بعض أعماله الى رسله وعماله ، والا فان مصيره كمصير أهل طليطلة وأعمالها ، وكان يقصد من وراء ذلك تحطيم الروح المعنوية لدى المسلمين وبث الخوف في قلوبهم [1] . وعندما وصلت هذه الرسالة المعتمد بن عباد رد عليها برسالة قوية حازمة بخط يده من نثره ، وهي تنم عن الشجاعة والنبل والاباء ، حيث رفض أن يستجيب للوعيد والتهديد ، افتتحها بالسخرية من أذفونش والتهكم عليه ، فنعته بالطاغية الباغية ورد عليه ما ادعاه لنفسه ، لأنه لقب نفسه بما ليس هو حقيقة ، يقول " الى الطاغية الباغية أذفونش بن شانجة ، الذي لقّب نفسهُ بملك الملوك ، وسمّاها بذي الملتين ، قَطَعَ الله دعواه . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانه أول ما نبدأ به من دعواه أنه " ذو الملتين " والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ومجبي المملكة ، لا تملكه قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ..." [2] .

ثم هو يفخر بجيوش المسلمين ، وما يتمتعون به من قوة وبأس ، ويتوعده بما سيفعلونه به ، وأنهم سيحاربونه بعون الله ، ويذكره بماضي قومه الأذلاء مع المسلمين ، يقول : " أما تعلم أنا في العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وحماة الشجعان ، يوم يلتقي الجمعان ، رجالٌ تدرعوا الصبر ، وكرهوا الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشِّفار ، وتنعاهم الهامُ [3] في القفار ، يديرون رحى المنون ، بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم ، وقد أعدوا لك ولقومك جلادا [4] ، وشفارا حدادا ، شحذها الاصفاق ..." [5] .

وكان أذفونش قد بعث برسالة الى المتوكل بن الأفطس على نحو رسالته للمعتمد بن عباد التي مر ذكرها ، وقد رد عليه المتوكل برسالة قوية حازمة تفيض بالشجاعة والنبل والاباء ، اذ رفض أن يستجيب للوعيد والتهديد ، وقد بدأ رسالته بالسخرية والاستهزاء به لأنه يريد أن ينتصر بجيوشه الوافرة على المسلمين ، ويذكره بأنه ليس في يديه الا الاماني الكاذبة لأن الله تعالى قد تكفل بحماية دينه ، وقد وشى المتوكل رسالته هذه بالآيات القرآنية ليؤكد صلابة ايمانه وقوة عزيمته ،

---

(١) انظر الرسالة بكاملها في: الحلل الموشية ص ٣٨-٣٩ . (٢) الحلل الموشية : ص ٤٠ .

(٣) كانت العرب قبل الاسلام ترى أن الهامة طائر يخرج من رأس الميت ، وكانوا يقولون ان القتيل تخرج هامه من هامته ، أي من رأسه ، فلا تزال تقول: اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله (انظر اللسان: مادة هوم) .

(٤) يقال جالدناهم بالسيوف مجالدة وجلادا : ضاربناهم (اللسان: مادة جلد) .

(٥) الحلل الموشية : ص ٤٠-٤١ .

يقول : " وقد وصل الينا من عظيم الرومكتابُ مدعٍ في المقادير ، وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ويفرّق ، ويهدد بجنوده الوافرة ، وأحواله المتضافرة ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام ..."[١] .

ثم هو يرد عليه تعييره للمسلمين بالوهن والاختلال ، ويعترف له بأن ما حل بهم انما كان عقوبة لذنوب اقترفوها ، وأنهم لو اتحدوا لأذاقوا الصليبيين سوء العذاب ، يقول : " وأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم ، وظهر من اختلالهم ، فبالذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك ، لعلمت أي مصاب أذقناك "[٢] .

ثم يذكره بعدة أحداث سابقة على ملكه وحكمه من استيلاء المسلمين على بلاد الصليبيين ، وأدائهم الجزية لهم ، ويذكره بفتوحات المنصور ابن أبي عامر ، وكيف أدى سلفه الجزية له ، ويتوعده ويهدده بلهجة قوية ، ويؤكد أن المسلمين سينتصرون عليهم تحقيقا لوعد الله لهم ، يقول : " أما نحن ، وان قلّت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، الا سيوفا تشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره في ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين ، نتقوى عليك ونستعين ، ليس لنا سوى الله مطلب ، ولا لنا الى غيره مهرب ، وما تربصون بنا الا احدى الحسنيين ، نصر عليكم ، فيا لها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنّة "[٣] .

وقد توالت رسائل التهديد والوعيد من أذفونش على ملوك الطوائف وبعث رسالة الى يوسف بن تاشفين بالمغرب يطلب اللقاء به اما في الأندلس أو في المغرب حتى ينجاب ويصفو حكم الأندلس للغالب منهما[٤] . ثم انه جاز أمير المسلمين الى العدوة الأندلسية ، وسار بنفسه للقاء أذفونش في موقعة الزلاقة ، كانت بينهما مخاطبات ، ودارت بينهما مراسلات كثيرة قبل المعركة[٥] .

ومن الرسائل في هذا الباب أيضا ما كتبه أبو جعفر بن أحمد[٦] عن بعض أمراء الثغور الأندلسية الى قوم من النصارى ، يتهددهم فيها ويتوعدهم لأنهم كانوا قد نقضوا عهدهم مع المسليمن ، يقول " أيتها الشرذمة الطاغيةُ ... لسنا نحاكمكم الى غير المهند ، ولا نماطلكم ذلك وكأن قد ،

---

(١) الحلل الموشية : ص٣٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ص٣٦-٣٧ . (٣) المصدر السابق نفسه : ص ٣٦ - ٣٧ . (٤) انظر الرسالة بكاملها في : المصدر السابق نفسه : ص ٤٢ . (٥) انظر الحلل الموشية : ص ٥٣ . (٦) هو أبو جعفر احمد بن أحمد الداني ، ذكر ابن بسام أن له احسانا كثيرا ومنظوما ومنثورا ، شهد له بفضل براعة ، وتقدم في هذه الصناعة (انظر ترجمته في: الذخيرة : ق٣ م٢ ،ص ٧٥٧ ، المغرب : ج٢ ،ص ٤٠٤) .

فان الله لكم بالمرصاد ، ولن يتولى كبيركم الا أقل الاعداد ، من أنجاد الاجناد ، فتصبحوا كأن لم تكونوا شيئا مذكورا"(١) .

وصف المعارك والتغني بالانتصارات :

من الموضوعات المهمة التي عالجها أدب الرسائل المتصل بحركة الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس وصف المعارك والتغني بالانتصارات العظيمة التي أحرزها المسلمون على الصليبيين ، وبخاصة معركة الزلاقة التي كان لها أثر عميق في نفوس المسلمين . فقد أشاد الكتاب بهذا الانتصار الباهر ، والأمل العظيم الذي بعثه في قلوبهم ، وتغنوا بالجهود العظيمة والحماسة الفائقة التي تحلت بها الجيوش الاسلامية وقادتها .

وكان في مقدمة تلك الرسائل رسالة كتبها يوسف بن تاشفين الى تميم ابن باديس يصف فيها جوازه للأندلس وجهاده فيها ، وما كان من هزيمة آذفونش . وقد افتتح رسالته بوصف الجيوش المرابطية التي جازت البحر لنجدة المسلمين في الأندلس ، وأشار الى الحماسة الفائقة والروح المعنوية العالية ، والقدرة العظيمة التي تحلت بها هذه الجيوش ، حيث يقول: " وجوزنا للعدو أسودا ضاربة ، وسباعا عادية ، شيبا وشبانا ، بسواعد قوية وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجرّبوها ، فهي أمهم ، وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزآرون زئير الأسود ..."(٢).

ثم تحدث بتفصيل عن جيوش النصارى التي قصدت محل اللقاء ، ووصفها بالضخامة والقوة ، وكمال الاستعداد ، وبين ما أصابهم من اغترار بانتزاع النصر على المسلمين ، حيث يقول : " ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق ، وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ، قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا في سوقهم الألواح ، وبطونهم ملىء من الخمور ، يقدرون آن الدائرة علينا تدور ..."(٣) .

وقد كشف لنا بعد ذلك عن تنظيم الجيوش الاسلامية قبل بدء المعركة الفاصلة ، فقد كانت الجيوش الأندلسية التي اتحدت بقيادة المعتمد بن عباد في المقدمة ، وكان المرابطون في كتائب متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء . وذكر ما كان من زحف الجيوش النصرانية واشتباكها مع الجيوش الأندلسية في معركة عنيفة ردت فيها الجيوش الأندلسية عن مواقعها ، اذ ولى عدد كبير من جنودها هاربين وكادت الدائرة تدور عليها ، لولا ثبات المعتمد بن عباد وعدد من جنوده الذين أبلوا بلاء حسنا في مواجهة النصارى(٤) .

(١) الذخيرة : ق٣ م٢ ،ص ٧٦٨ . (٢) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٤٨٨) : ورقة ٤٩ .
(٣) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٤٤٨): ورقة ٥٠ .
(٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ورقة ٥١ .

ثم وصف بعد ذلك المعركة الفاصلة التي اتحدت فيها الجيوش الأندلسية والمرابطية ، مبينا مراحلها وخطواتها ، ومصورا مدى ما تملك الصليبيين من اضطراب وخوف شديد عندما رأوا جحافل المسلمين ، اذ لم يستطيعوا الصمود أمام استبسال جنود المسلمين ، فولوا هاربين ، وقد تتبعوهم ، وأعملوا سيوفهم فيهم ، ولم يفلت من القتل الا القليل الذي سيقتله الأسى والحزن لهول المصيبة ، يقول : " فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولّى النصر لنا ، فولّوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ، ولا ضربة تثخنه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنّاهم بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضاقت بهم الارض بما رحبت ، حتى أنّ هاربهم لا يرى شيئا الا ظنه رجلا..."(١) .

ثم يشير الى وفرة الغنائم التي جمعها المسلمون من أرض المعركة ، يقول : " فكم من دِلاصٍ(٢) على البقاع ساقطة ، وخيول على القاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أَزْيَد ، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار ، عدد ليلهم..."(٣) .

ويختتم رسالته بالحديث عن مقتل عدد قليل من جنود المسلمين(٤).

ومن الرسائل التي تحدثت عن معركة الزلاقة ، وأشادت بانتصار المسلمين فيها ما كتبه أبو بكر بن القصيرة على لسان المعتمد بن عباد من أرض المعركة الى أهله باشبيلية يخبرهم بالنصر العظيم الذي منّ الله به على المسلمين ، وقد افتتح رسالته بوصف اقدام المسلمين واستبسالهم في المعركة ، وما كان من نصر أعز الله فيه الاسلام وأذلّ الكفر ، ويركز على فداحة المصيبة التي لحقت بالنصارى ، حيث ضربهم المسلمون بعون الله ضربة قاصمة أدت الى مصرع عدد كبير من رجال أذفونش ومشاهير قواده ، يقول: " كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين ، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يسره الله في أمسه وسناه ... من هزيمة أذفونش ... واتيان القتل على أكابر رجاله وحُمَاتِهِ ، وأخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به الى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم ، ولم يحتزّ الا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قُبض ونُهب ..."(٥) .

ويذكر أن المسلمين قد اتخذوا من رؤوس القتلى آكاما صعدوا من فوقها ، وأذنوا عليها شكرا لله تعالى على ما من به عليهم من نصر مؤزر ، يقول : " واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ..."(٦) .

---

(١) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال٤٤٨) ورقة ٥٢ . (٢) دلاص : يقال درع دلاص : براقة ملساء لينة بينة الدلص (اللسان: مادة دلص).
(٣) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال٤٨٨) :ورقة ٥٢ . (٤) المصدر السابق نفسه :ورقة ٥٣ . (٥) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٤١ . (٦) المصدر السابق نفسه :ق٢م١ ، ص ٢٤ .

ثم يشير الى أن فرسان المسلمين قد أخذوا في مطاردة الفارين من النصارى ، وتتبع آثارهم في كل مكان . وأن من لم يمت منهم تحت السيف فسيموت لا محالة جوعا وكمدا ، يقول : " والتتبع بعد في آثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم والذي لا مِرْيَة فيه أن الناجي منهم قليل، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ..."(١) .

ويختتم رسالته بالاشارة الى أن المعتمد لم يصب في هذه المعركة الشديدة الا بجرح بسيط غير قاتل : " ولم يصبني بحمد الله الا جرح أشوى (٢) ... وعنت رغّبَ حسن المآل عندي وزكّى ..."(٣).

ومن الرسائل التي كتبت في التهنئة بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة تلك الرسالة التي كتبها أبو عبيد البكري يهنيء فيها المعتمد ابن عباد بهذا الانتصار . وقد بين في هذه الرسالة عظم هذا الفتح وصداه في نفوس المسلمين ما جلبه من فوائد جمّة عادت على الاسلام والمسلمين ، ومن مصائب عظيمة حلّت بالنصارى ، فهو فتح بل " فتوح أضحكت مَبْسَمَ الدهر ، وسفرت عن صفحة البشر ، وردت ماضي العمر ، ...وثنت آمال الشرك كذبا ، وطوت أحشاء الطاغية رهبا ... فغدا الدين جديدا ، والاسلام سعيدا ، والزمان حميدا ، وعمود الدين قائما ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصورة ..."(٤) .

ويربط أبو عبيد انتصار المسلمين في هذه المعركة الفاصلة بانتصارات المسلمين الاوائل ، حيث يقول : " فلله هذه المساعي الكريمة ... فقد تمثل بها العهد الاول والقرن الافضل الذي أُخرج للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..."(٥) .

كذلك قد وصف الكتاب بعض الانتصارات التي حققها المسلمون على النصارى بعد معركة الزلاقة ، وما كان من استرداد المرابطين لمدينة بلنسية وغيرها . ومن ذلك رسالة لابن القصيرة عن المعتمد بن عباد الى المعتصم بن صمادح يخبره فيها بمحاصرته حصن لييط واحلاله الهلاك بمن فيه من جنود الطليبيين ، حيث أخذهم على حين غرة ، فدحرهم ونفث في قلوبهم الرهبة ، يقول : " وأنفذته من حصن لِيِّيط ... وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعان من الجند - نصرهم الله - عند اطلالي عليه تناوش أطمع فيهم ، ودل بأنه قد سُقِطَ في أيديهم ، ثم صوبحوا يوم كذا بالحرب ، وكوفحوا الى آخره بالغرب ، بالطعن والضرب، وانصرفوا ولاذوا بالانجحار ، واحتجزوا بالجدران والاسوار ، ولم يكن واحد منهم يثور الى حمام ، ولا يبدي جارحة الا الى سهم رام..."(٦).

---

(١) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٤١ - ٢٤٢ . (٢) أشوى: أصاب الشوى أي الاطراف ولم يكن قاتلا (انظر: اللسان: مادة شوي) . (٣) الذخيرة :ق٢ م١ ،ص٢٤٢ .
(٤) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص٢٣٩ - ٢٣٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق ٢ م١ ،ص ٢٣٦ .
(٦) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٢٦٢ .

ثم هو يبين أثر هذا الفتح على الاسلام والمسلمين ، حيث يقول :
" وغير ذاهب على أحد ما تقتضيه هذه الحال المبهجة بما يخالفها على علو كعب الاسلام ، وينصب على الشرك وأهله من سوء الانتقام ..."(١) .

ولابن طاهر رسالة وجهها الى الوزير أبي عبد الملك بن عبدالعزيز عندما فتحت بلنسية ، وانتهى الاحتلال القشتالي لها سنة ٤٩٥ هـ ، يخبره بالفتح الذي أنهى الاحتلال وتلك المحنة التي حلت بالمدينة ، يقول :
" كتبت وقد وافى بدخول بلنسية - جبرها الله - الفتح ، بعدما خامرها القبح ، فأضرم أكثرها نارا ، وتركها آية للسائلين واعتبارا ، وتغشاها سوادا ..."(٢) .

ثم هو يرى عهد المرابطين عهدا جديدا انجلت فيه الظلمة التي غمرت المدينة أيام الاحتلال ، حيث يقول : " وبَسَعْدِ أمير المؤمنين وناصر الدين ، واقبالِهِ عليها ينْجَلي عنها ظلامُها ، ويعودُ عليها حلَيُّها ونظامُها وتروحُ في الحلل ، وتبرزُ كالشمس في بيت الحمل ..."(٣) .

---

(١) الذخيرة : ق ٢ م ١ ، ص ٦٦٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م١ ،ص ١٠١ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م ١ ،ص ١٠١ - ١٠٢ ، وانظر أيضا رسالة كتبها ابن عبدون عن المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين يخبره بفتح شنترين في : المعجب : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ورسالة اخرى لأبي الفضل ابن شرف القيرواني يهنيء فيها أحد القادة بفتح بلنسية في : الذخيرة : ق ٣ م٢ ، ص ٨٦٨ - ٨٦٩) .

الرسائل الدينية

يستطيع الباحث أن يصنف الموضوعات التي تناولتها الرسائل الدينية في ثلاثة أصناف هي : التحميدات والتسبيحات ، والشوق والوجد الديني والوعظ والارشاد والدعوة الى الزهد .

رسائل التحميدات والتسبيحات :

يقصد برسائل التحميدات والتسبيح تلك الرسائل التي تقوم على تمجيد الله عز وجل وتقديسه ، وتعظيم الذات الالهية وتنزيهها . ولم ينته الينا من هذا اللون من الرسائل الا عدد من الفصول التي كتبها ابن برد الأصغر ، وأوردها ابن بسام تحت عنوان " فصول له في التحميدات"[١] .

ويلاحظ الباحث أن هذا اللون من الرسائل يعالج عددا من الأمور التي تتعلق بقوة الله عز وجل وقدرته المطلقة في تصريف شؤون الكون المختلفة .

ومن هذه الرسائل ما يشير الى قدرة الله في التصرف في الكون ، ومن سمات هذه القدرة ودلائلها اجلاء الكروب ، وتفريج الهموم والمصائب ، واقالة العثرات وابدال النعم بعد النقم والراحة بعد الجهد . يقول ابن برد : " الحمد لله جالي الكرب السود ، وفاتح المبهم المسدود ، الذي أقال العثرات ، وأدال من الحسرات ، وانتاش[٢] من البأس ، وأعقب بالنعماء ، وأراح من جهد البلاء"[٣] .

كما يكشف بعض هذه الرسائل جانبا آخر من جوانب قدرة الله تعالى ، فهو يجمع الشمل بعد التفرق ، ويوحد الصف بعد التشتت ، ويمنح القوة والوحدة بعد الضعف والفرقة ، حيث يقول ابن برد في أحد فصوله : " الحمد لله واصل الحبل بعد انقطاعه ، وملائم الشمل بعد انصداعه ، المصبح بنا في ليالي الخطوب، والماحي عنا غياهبَ الكروب والناظم لما انتشر من الأُلْفَةِ ..."[٤] .

ويلاحظ الباحث أن هذه الفصول يمكن أن تكون مقدمات لرسائل في موضوعات مختلفة ، رفعت من تلك الرسائل ووضعت وحدها .

---

(١) الذخيرة : ق١ م١ ،ص ٤٩١ . (٢) انتاش : استنقذه من الشر (اللسان: مادة نوش) .
(٣) الذخيرة : ق ١ م ١ ، ص ٤٩٢ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق١ م١ ،ص ٤٩٢ ، وانظر أمثلة أخرى من هذه الفصول في المصدر السابق نفسه : ق ١ م ١ ، ص٤٩١ - ٤٩٣ ، المغرب ج ١ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

رسائل الشوق والوجد الروحي :

لقد أثار الوجد والشوق الروحي الى زيارة الأماكن المقدسة لونا طريفا من ألوان أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، كما يشير الى ذلك المقري في حديثه عن هذا اللون من الرسائل " أقول : هذا مقام طالما طمحت اليه هِمَمُ الرجال ، وتسابقت جيادُ أفكارِهم في مضمارِه بالرويّة والارتجال ، وسارت أرواحُهُم مع الرِفاق ، وان أقامت الأشباح ، وطارتْ قلوبُهُم بالأشواق ، ولِمَ لا وهو سوقٌ تعظُمُ فيه الأرباح ..." (١) .

وكانت بعض هذه الرسائل تصور نفسية أولئك الكتاب الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة الحرم المكي والقبر النبوي ، وتصف ما يكابدونه من شوق وحنين الى تحقيق هذه الامنية العزيزة التي حرمت منها نفوسهم ، فكانوا يكتبون بها الى الرسول عليه السلام مع أولئك الذين شدوا الرحال الى قبره الطاهر . فهذا ابن أبي الخصال يبعث رسالة الى قبر الرسول الكريم ، وقد افتتحها بمدحه وذكر صفاته الطيبة ومناقبه العظيمة ومكاثره الكثيرة ومعجزاته البينة ، حيث يقول : " الى الرؤوف الرحيم ، الرسول الكريم ، ذي الخلق العظيم ، والحسب الصميم ، والصفح الجميل ... خطيب الأنبياء ، وامامهم في اليوم المشهود (٢) ، المكين الأمين ، الذي ليس على الغيب بضنين (٣) ..." (٤) .

وقد كتب ابن أبي الخصال رسالته هذه عن " دمع يفسح ، ونفس يلفح ، وصدر بأشواقه ملآن يطفح ... وزفرة بأحناء الضلوع تجيء وتذهب ..." (٥) .

وسبب هذا الحزن الذي بلغ به مبلغا عظيما أنه " لم أعبر الى زيارتك لُجّةً ولا موماة ، ولا أخطرت في قصدك نفسا أنتَ منقذها ومحييها ، ولا مثلت بمعاهدك المشهرة ، ومشاهدك المطهّرة ..." (٦) .

---

(١) أزهار الرياض : ج٤ ، ص٢ . (٢) جاء في الحديث أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ، وأنا خطيبهم اذا وفدوا (انظر : شرح الزرقاني : ج١ ، ص ١٤٠) . (٣) اقتباس من قوله تعالى : " وما هو على الغيب بضنين " ، سورة التكوير : آية ٢٤ . (٤) أزهار الرياض : ج٤ ، ص ٢١ .
(٥) أزهار الرياض : ج ٤ ، ص ٢١ . (٦) المصدر السابق نفسه : ج ٤ ، ص ٢٤ .

ثم هو يدعو الله أن يحقق له هذه الأمنية العزيزة في زيارة قبر الرسول الكريم ، والتي أصبحت حلما وخيالا ، يقول : " اللهم كما جعلتني من أمته ، واستعملتني بسنته ، وشوقتني الى آثاره ، وشغلت قلبي بتخيله وتذكاره ، وأريتني تلك المعالم المنيفة خيالا ، وخططت منها في الضمير مثالا ، وأشهدتنيها ملء السمع والفؤاد جمالا ، فاشفِ بمرآها بصراً ضريراً وبسناها يرتدُّ بصيرا ..."(١) .

ويكشف لنا عن تلك الاخطار والمصاعب التي حالت دون زيارته ، ويقدم عذره للرسول الكريم ، يقول : " لو أتيت يا رسول الله سؤلي لسبقت اليك كتابي ورسولي ، ولكن قلَّ الوعد ، واستفل السفر ، وغادروني حرضا ، ولسهامهم بالوجد والاسى غرضا ، أتبعهم نفسا لا يؤوب وقلبا يسحقه القلق والوثوب ..."(٢) .

ويختتم ابن أبي الخصال رسالته متشوقا الى قضاء مناسك الحج ، ومشاهدة مواقيته ، ويشفع ذلك بقصيدة طويلة (٣) .

ويرسل ابن السيد البطليوسي خطابا بالمثل " ينم عن شوق شديد ، وحنين عظيم لزيارة قبر الرسول الكريم ، فهو خطاب " مؤمن مذنب من قاصية المغرب ، تمسك بدينك الحميد ، وبتبصرةٍ ارتفع بها عن حسد التقليد ، ولم يرْضِه من الدين الا ما وقف منه على اليقين ..."(٤) .
وسبب خطابه هذا أنه " حُرِمَ زيارة قبرك الكريم بشخصه على شدة شغفه بذلك ومرضه " ولهذا فقد " قضى حق الله تعالى بالنية إذ لم يستطع على اقضائه بالهنية ، وخطابك متوسلا بك الى ربه فازعا اليك من خطيئته وذنبه "(٥) .

وقد يكتب الكاتب الرسالة على لسان من صدر من البيت الحرام وزيارة قبر الرسول الكريم ، مثل رسالة ابن الجد التي خاطب بها الرسول الكريم قائلا " كتبت يا أكرم الأنبياء وسائل ، وأعظمهم فضائل ، وأعمهم فواضل ، وقلبي بحبك معمور ومأهول ، وعلى الايمان بك مفطور ومجبول ، وبتمثل ما عاينته من عظيم آثارك مهول مشغول ..."(٦) .
انه يكشف عن حبه الشديد ووجده العظيم للرسول الكريم ، وكأنه ينفّس عن نفسه المحرومة من زيارة قبر الرسول ، ويسقط رغبته المكبوتة ويحوّلها الى رسالة ، ويستعير ذاتا وتجربة أخرى ليتحدث عنها ، فهاهو يأسف لارتحاله وبعده عن قبر الرسول الكريم ويأمل بالعودة ، بقول : ولما

---

(١) أزهار الرياض : ج٤ ،ص٢٥٠ (٢) المصدر السابق نفسه :ج٤،ص ٢٥ – ٢٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ج٤، ص ٢٧ . (٤) رسائل سياسية واخوانية أندلسية (الاسكوريال ٤٨٨) : ورقة ٦٥ . (٥) المصدر السابق نفسه : ورقة ٦٦ .
(٦) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٨٦ .

صدرتُ يا رسولَ اللهِ عن زيارتِكَ الكريمة ... ، لحقني من الأسفِ لبعد مزارِك ، والحنين الى شرف جوارك ، ما أودع جوانحي التهابا ، وأوسع جوارحي اضطرابا ، وأشعر أملي عودا الى محلك المعظم وايابا..."(١) .

ويختتم رسالته بمناجاة الرسول مناجاة قوية تكشف عن شوق عظيم وعاطفة دينية صادقة ، ويحلم بأن يتشفع له الرسول الكريم أمام الله عز وجل ، يقول : " فلا تنسَ لي يا رسولَ اللهِ عياذي بك ولياذي واسراعي الى زيارتِك ، واذكُرني في اليوم العظيم المشهودِ عند حوضِك المورود ، وظلِّكَ الممدودِ ، ومقامِكَ المحمودِ ..."(٢) .

وقد كتب ابن الجد رسالة أخرى يهنيء فيها من سعد بزيارة قبر الرسول الكريم ، ويعبر فيها عن مشاعره العظيمة وتهانيه الصادقة ، وهو يتخيل رحلة الحج كاملة ، ويبين تأديته لشعائر الحج ، حيث يقول : " لقد شهد فيه الميقات بخلوص اهلالك واحرامك ، واهتز البيت العتيق لطوافك ، واستلامك ، ورضيت المروة والصفا عن كمال شواطك ..."(٣) .

ومهما يكن من أمر فان هذا اللون من الرسائل يكشف عن التدين العميق الكامن في نفوس الأندلسيين ، وتطلعهم الصادق الى تأدية فرض من جوانب عبادة الله تعالى ، وتشوقهم الى زيارة قبر الرسول الكريم ، كما تكشف عن المصاعب والمخاطر التي تكتنف رحلة الحج والتي تجعل من تأدية هذه الفريضة أمرا صعبا عزيز المنال ، مما يدفع بعض الكتاب الى التعويض عن الرحلة بكتابة رسائل مطولة وارسالها الى مقام الرسول الكريم مع حجاج بيت الله .

ولعل السبب الرئيسي الذي أدى الى ظهور هذا اللون من الرسائل هو الظروف الصعبة التي مرت بها الأندلس في هذه الفترة ، حيث اتخذ الكتاب الأندلسيون من ذكر مناقب الرسول الكريم ومعجزاته والتشوق اليه وسيلة لطلب النجدة ، والاستشفاع به ليخلصهم الله من المحن والمصائب التي حلت بهم ، ويرد عنهم كيد الصليبيين(٤) .

الزهد والوعظ :

شاع الزهد في الأندلس بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، وكان صادرا في جملته عن روح الاسلام الذي يحث على اتخاذ العبرة والعظة والتفكير في الماضي والحاضر ، والوقوف عند الأحداث وسلوك طريق الرشاد والتمسك بأهداب الدين ، والابتعاد عن مناهيه ، ونبذ حياة اللهو والخلاعة .

ولقد كان هذا الزهد ردة فعل لهذه الحياة اللاهية الماجنة ، وهذه الاضطرابات السياسية والحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التي كانت تهدد

---

(١) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٨٦ (٢) المصدر السابق نفسه : ق٢ م١ ، ص٢٨٧ .
(٣) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ٢٨٨ . (٤) انظر تعليل الاستاذ احسان عباس لهذه الظاهرة في : عصر الطوائف والمرابطين : ص ٣٠٣ .

حياة الناس الخاصة بل الوجود الاسلامي في الأندلس[١] .

ولقد استوعب أدب الرسائل هذا الجانب المهم من الحياة ، حيث أخذ عدد من الكتاب الأندلسيين المشهورين والمعروفين بالصلاح والزهد بالمناداة بالابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها ، وجعلوا رسائلهم وسيلة لنقد المجتمع ، وللمطالبة باصلاحه الاجتماعي بالنصح والوعظ والارشاد ، وكان ذلك يظهر أحيانا في رسائل مستقلة أفردوها لهذا الغرض وحده ، ومن أشهر هذا اللون من الرسائل تلك الرسالة التي خاطب بها أبو عبدالله بن مسعود[٢] ابنه عندما توجه الى المغرب ، وقد بلغه انغماس ابنه في الملذات والملاهي ، يقول فيها : " فاز يا بني من استشعر البر والتقوى ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بحبل القناعة والرضى ، وتحصن بالعفاف ، وتبلغ بالكفاف ، فلم يزاحم الأقدار ..."[٣] .

انه يرسم له صورة واضحة لقواعد السلوك الاجتماعي المستقيم ، فهو يحثه على اللجوء الى الله والتمسك بأهداب الدين ، والاعتصام بحبل القناعة والرضى ، وسلوك سبيل الرشاد والهدى ، فهو طريق الفوز والنجاح .

وأورد ابن بسام رسالة لأحد الزهاد[٤] من أهل سرقسطة ، يحث فيها على الزهد والتزام سبيل الهداية والرشاد ، ويرسم صورة معبرة لسلوك الزهاد المتعبدين ، ويبين فضلهم عند الله وتعظيمه لهم ، فقد " أنار وجوههم بنور اخلاص سرائرهم ، وكلّلهم بالمهابة في العيون ، وطهّر قلوبهم من اختلاج سوءِ الظنون ، فنفوسهم مستريحةٌ رائحةٌ ، ومحاسنُهم لأهل العقول لائحةٌ ، وثناؤهم عطرُ الانتسام ، فهم بين الأنام كالأعلام ، بهم يُستمطر الغمامُ اذا حُجِب ، وفي جملتِهم يُحْشَر السعيدُ اذا نَجُبَ ..."[٥] .

أما اولئك العصاة الظالمون الذين عدلوا عن سبيل الرشاد وسلكوا طريق الفساد والضلال ، وخالفوا أوامر الله تعالى ، فانه ينتظرهم عذاب أليم و " يا بؤس مقام الظالمين ، وندامة العاصين ، اذا رأوا العذاب ، وتقطعت بهم الاسباب ، ويقولون هل الى مرد من سبيل ، ولات حين سبيل ..."[٦] .

أما النوع الثاني من رسائل الزهد والوعظ ، فقد كان بعض الكتاب يضمنون رسائلهم في التعزية ووصف المحن والمصائب والشكوى دعوتهم الى الزهد في الحياة ، ويقدمون المواعظ والحكم الى الناس ، وممن شارك في هذا الاتجاه أبو محمد بن عبدالبر ، فقد افتتح احدى رسائله بالاشارة

---

(١) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص١٣ ، البيئة الاندلسية : ص٥٠٢ .
(٢) هو أبو عبدالله محمد بن مسعود من أهل قرطبة (انظر ترجمته في الذخيرة : ق١م١ ، ص٥٤٩ ، المغرب : ج١ ، ص١٣٤ ، المسالك : ج١١ ، ص٤٠٠) .
(٣) الذخيرة : ق١م١ ، ص٥٤٩ . (٤) لم يعثر الباحث على ترجمة لهذا الزاهد في كتاب الذخيرة ، ولم يعثر على صورة أخرى لهذا النص الذي أورده ابن بسام في مصادر الأدب الأندلسي الأخرى . (٥) الذخيرة : ق١م٢ ، ص٨٥٢ .
(٦) الذخيرة : ق١ م٢ ، ص٨٥٢ .

الى تقلب أحوال الدنيا ، وتغير أوضاعها ، فهي قد بنيت على التداول والتعاقب بين مساءاتها ومسراتها ، يقول : " فالدنيا تحلو لتمر ، وتصفو لتكدر ، وتنظم لتنثر ، وتجمع فتفرق ، وتسقي لتشرق ..."(١) .

ولهذا فهو يحذر من الاغترار بمظاهرها الكاذبة ، ويدعو الى الزهد ، واحتقار ملذات الدنيا ومباهجها الزائلة ، يقول : " فالأولى الزهد عن زخرفها وزبرجها(٢) ، والترك لما يحلو من رضابها ، ويخدع من سرابها ، والاعراض عن وصالها ، ونصرتها وجمالها ، فليست تبقي على السيد ولا المسود ، ولا على القريب ولا البعيد ..."(٣) .

ومن ذلك أيضا ما جاء في رسالة لأبي المطرف عبدالرحمن بن الدباغ يصف فيها خبر نكبة حلت به ، ويشير فيها الى اقبال الناس على الدنيا وتكالبهم على ملذاتها ومباهجها الزائلة ، يقول :" فليت شعري : لم هذا ؟ وعلام الرغبة في الازدياد ، وهذا الحرص على التماد ؟ ولو أن الايام كلها في نعيم محتفل(٤) ، وسرور متصل ، لما كان ذلك الا بمنزلة ظل زائل ، ولم يحل منه بطائل ، ان هذا لطموس(٥) أضل الألباب ، فلا تدري الرشاد ، وأفسد الأفكار فلا تعلم ما المراد ."(٦) .

ونلمس في هذه الرسالة ترغيبا في الزهد وحثا على الابتعاد عن ملذات الدنيا ومباهجها فهي سراب زائل .

---

(١) الذخيرة : ق١ م٢ ، ٨٥٣.

(٢) زبرج الدنيا : غرورها وزينتها (اللسان : مادة زبج) .

(٣) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٢٢٥ .

(٤) محتفل : مجتمع (اللسان : مادة حفل) .

(٥) الطموس : الدروس والانمحاء (اللسان : مادة طمس) .

(٦) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٢٧٧ .

رسائل المفاضلات والمفاخرات

وهي تلك الرسائل الأدبية التي تقوم على أساس التفاخر والمناظرة والجدل والنقاش والاحتجاج بين الورود والأزهار والشعوب والجمادات ، كل يبدي محاسنه ويفخر بصفاته . وقد كانت هذه الرسائل امتدادا وتطورا لتلك الرسائل التي أنشأها الجزيري في أواخر القرن الرابع الهجري على ألسنة الورود والأزهار ، حيث اعتمد عليه كتاب القرن الخامس الهجري وطوروا هذا الفن ووسعوا مجالاته .

وتكشف هذه الرسائل عن براعة الكتاب في الاحتجاج والجدل ، وتدل على تأثرهم العام بمدارس الجدل والحوار .

المفاخرات بين الأزهار والورود :

تقع في مقدمة هذا اللون من الرسائل رسالة طريفة كتبها ابن برد الأصغر لابن جهور ، وصف فيها خمسة من الأزهار ، وفضل الورد عليها ، وقد بدأ ابن برد رسالته بالحديث عن مجلس تنادت اليه الأزهار المختلفة للتأمل في أحوالها ، حيث شرع كل واحد منها في وصف محاسنة والتغني بها " وكان مما حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمّام.."(١).

ثم أجرى الكاتب حوارا على لسان الأزهار ، وفي ذلك يبدو الأسلوب الجدلي حينما وقف كل نور حضر هذا المجلس يؤدي شهادته ويدلي بوجهة نظره في مبايعة الورد ، ويعضد رأيه باستنباط الأدلة العقلية مستغلا خصائص الورد الطبيعية لتأييد ما يذهب اليه ، فيقول النرجس الأصفر مشتغلا بنحولة جسمه في المبايعة : " لقد كنت أُسِرّ من التعبد له والشغف به ، والأسف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه ، ما أنحل جسمي ومكن سقمي ، واذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خف ثِقَلُ البلوى"(٢) .

أما البنفسج فقد استغل الكاتب صفاته الطبيعية ، حيث يقول على لسانه : " انا والله المتعبد له الداعي اليه المشغوف به كلفا ... وكفى بوجهي من ندب ، وبجسمي من عدم نهوض ، ولكن في التأسي بك أنس ، وفي الاستواء معك وجدان سلو "(٣) .

---

(١) البديع : ص ٥٣ - ٥٥
(٢) المصدر السابق نفسه : ص ٥٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ص ٥٥ .

أما البهار فقد سلم بالطاعة والمبايعة اذ يقول : " لا تنظرن الى غضارة منبتي ، ونضارة ورقي ، وانظر الي وقد صرت حدقة باهتة تشير اليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه "(١) .

أما الخيري النمام فقال : " والذي أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعة يمني ، ما اجترأت قط اجلالا له واستحياء منه "(٢) .

وقد انتهى هذا المجلس بمبايعة الورد بالرئاسة ، وكتابة عقد لهذه المبايعة (٣) .

وقد انبرى ابو الوليد بن عامر الحميري للرد على ابن برد في تفضيله الورد على سائر الأزهار فكتب رسالة خاطب فيها المعتضد بن عباد مشتملة على وصف سبعة من النواوير هي البنفسج والنرجس والخيري النمام ، والأقحوان ، والخيري الاصفر ، والبهار ، والورد (٤) .

وقد زعم الكاتب أن أول من اطلع على عقد لواء الرئاسة للورد نواوير فصل الربيع ، وكان لها موقف ورأي يخالف ما ذهبت اليه الأزهار في الرسالة السابقة من مبايعة للورد . وقد دعت تلك الأزهار الى مجلس للمناظرة والمفاخرة فكتبت الى الأقحوان والخيري الأصفر كتابا تخالف فيه عقد لواء الرئاسة للورد ذلك أنه " لو استحق الورد امامة أو استوجب خلافة لبادر بها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه وتجيء معه في أوانه "(٥) .

وقد أجمعت تلك الأزهار على أن البهار أحق بالرئاسة والتقديم على سائر الأنوار ، فهو " البادي فضله بُدُوَّ النهار والذي لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها ولا يحور حَوَرُها "(٦) .

وهي تستغل الخصائص الطبيعية للبهار والورد في اثبات ما تذهب اليه " فالبهار مشبه بالعيون في حين أن أفضل تشبيه للورد الخد ، يقول على لسانها : " وأفضل تشبيه للورد الخد عند من تشيَّع فيه وعُني به ، وأشرف الحواس العين ، إذ هي على كل منوّل عونٌ ، وليس الخدُّ حاسةً فكيف تبلغه رياسة ؟ "(٧) .

أما ابو عمر الباجي فكتب على لسان البهار رسالة لابن هود يشكو فيها الورد عندما تعدى عليه ، واغتصب رئاسته " وقد علم الوردُ موقعَ إمارتي ، وغني بلطيف ايمائي عن عبارتي ، وانها تحية الزهر حيَّاك بها ، وخبيئةٌ ذخرها لك وأهَّلَكَ لها ... "(٨) .

---

(١) البديع : ص ٥٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ص ٥٦ . (٣) المصدر السابق نفسه : ٥٦-٥٧ . (٤) المصدر السابق نفسه : ص ٥٨ . (٥) المصدر السابق نفسه : ص ٥٩ . (٦) المصدر السابق نفسه : ص ٦٠ . (٧) المصدر السابق نفسه : ص ٦٠ . (٨) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ١٩٤ .

لهذا فهو يتودد اليه ، ويطمع في أن يكرم وفادته ، وأن يقربه منه لأنه حقيق بالتكريم والتقديم ، وأهل للفضل والجود والاحترام ، وذلك لما امتاز به من صفات نادرة في الشكل واللون والرائحة ، يقول " أنا عبد مطيع مسخر ... حقيق بأن يُحْسَنَ اليّ فادنى ، وجدير بأن يُهْتَبَلَ بي ولا أُجْفَى ، لأني سابقُ حَلَبَةِ النوار ، وأول طلائع الأزهار ، وأنا ناظر الفضل وعينه ونضار الروض ، ولجينه ، وقائد الظرف وفارسه ، وعاقد مجلس الأنس وحارسه "(١) .

ثم يتجه الباجي الى مديح السلطان على لسان البهار للتقرب اليه واستدرار عطفه ، فقد عرف باكرامه وتقديره للزهر ، يقول : " فهل لمولاي أن يُحْسِنَ اليَّ صنيعا ، ويُكرم النور جميعا ، ويدنيني فأرقى الى أختي الثريا سريعا في مجلس قد أخلصته سحائبه ، وأفرغت الحسن عليه ... وجهُكَ بدرُهُ ، وغرتُكَ فجرُهُ ، وأخلاقُكَ زهرُهُ ، وثناؤك دُرُّهُ وعطرُهُ..."(٢).

أما ابن حسداي فقد كتب رسالة بعث بها الى المقتدر بن هود ينتصر فيها للنرجس ، لكنه لم يجر الحوار بين النرجس والازهار ، بل أجراه بين النرجس ورجل ظريف من خواص الأمير ، يقول على لسان النرجس : " فبينا أنا سقيم الجفون من غير سقم ، ماثل الجيد من دون ألم ، حتى أتيح لي ظريف من خواصك يقصدني ، ونبيل من عبيدك يعتمدني ، فأوجست حذرا وتشوقا ، حتى آنسني بالكلام تألفا ، وقطعني بغير ايلام تلطفا ، وحاورني بلفظ يلقنه النوار عيانا "(٣) .

ولم يذكر ابن بسام ما رد به النرجس على هذا الظريف ، وقد أورد فصلا افتخر فيه النرجس بذاته (٤) .

ويرى الباحث في هذا اللون من الرسائل منحى رمزيا ، اذ ظهر هذا اللون من الرسائل في أواخر عصر الخلافة على يد الكاتب الجزيري وغيره من الشعراء . وكان المنصور بن أبي عامر قد سمى بناته بأسماء الأزهار ووصف الشعراء والكتاب الأزهار في رسائلهم وقصائدهم على نحو يظهر فضائل بنات المنصور ، كما يشير الى ذلك ابن بسام في ترجمته للشاعر والكاتب الجزيري(٥) . ومن هنا جاز للباحث أن يرى في هذا اللون من الرسائل منحى رمزيا عبر فيه الكتاب والشعراء في الأصل عن تفاخر الجواري داخل القصور أو تفاخر بنات الأمراء الحاكمين ومن اليهن ، وعندما جاء كتاب القرن الخامس الهجري طوروا هذا اللون من الرسائل ووسعوا من جوانبه .

---

(١) الذخيرة : ق٢ م١ ، ص ١٩٤ – ١٩٥ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٢ م١ ، ص ١٩٥ . (٣) الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٤٧١ . (٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ، ص ٤٧١ – ٤٧٢ . (٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٤ م١ ، ص ٤٧ – ٤٨ .

لهذا فان الباحث يرى فيه صدى عميقا للحالة السياسية لملوك الطوائف . ويبدو أن المداهنة والتملق الى الملوك قد دفعت بعض الكتاب الأندلسيين الى تفضيل ملك بعينه على غيره من ملوك الأندلس فيتخذ من وردة أو زهر معين رمزا لأميره وولي نعمته ، ويجعل من تفرده بين الورود والأزهار نظيرا لتفرد أميره بين الأمراء . وقد تكون هذه الرسائل أيضا صدى للتنافس والحسد الذي كان بين الكتاب في بلاطات الأمراء، حيث أن كثيرا من الكتاب يرجو التميز على أقرانه ، ويوضح فضله على غيره من كتاب القصر ، فهذا ابن حسداي يقول على لسان النرجس مخاطبا المقتدر ابن هود : " فأزل عني حسدهم بكبتهم ، فقد شجاهم تقدمي قبل وقتهم ..."(١) .

وهذا الباجي يخاطب المقتدر أيضا على لسان البهار " أطال الله بقاء المقتدر بالله ... وأعاذني من خيبة العناء ، وعصمني معه من اخفاق الرجاء ، ولا أشمتَ بي عدوا من الرياض يناصبني ، وحاسدا من النواوير يراقبني ... وقد أتيت في أواني ، وحضرت وغاب أقراني ، ولم أخْلِ من خدمتك رتبتي ومكاني ، ولم أعْرِ من الحضور بين يديك نوبتي وزماني ..."(٢) .

ولكن السؤال الذي نطرحه هنا هو : ما العوامل والأسباب التي جعلت الورود والأزهار تختص بالمناظرات والمفاخرات أكثر من غيرها ؟ لقد وقف الأستاذ احسان عباس عند هذه الظاهرة وعلل ذلك بقوله : " أما القطع الشعرية والنثرية التي كتبوها للمفاضلة بين نور ونور ، وأحدهم يرد فيها على الثاني ، فقد افتتحوا بها مقدرتهم الجدلية ، واتخذوا من الطبيعة موضوعا للجدل بدلا من أن يكون جدلهم حول شؤون العقيدة، اذ كانت المناظرات في أمور العقيدة مظِنّةَ خطر ، وما زال شأنها ضعيفا حتى ظهور ابن حزم ، وكانوا في الحالين يُرضون لديهم ميلا عقليا أكثر من توفرهم على اقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل "(٣) .

لقد ربط الاستاذ احسان عباس بين العداء الفكري في عصر المرابطين للفلسفة والجدال وبين هذه المناظرات ، وجعل منها مظهرا من مظاهر الميل العقلي ، ولكننا نجد في التاريخ الأدبي ما يدل على عكس ما يقرره الاستاذ احسان عباس ، فقد ظهرت هذه الرسائل في أواخر عصر الخلافة على يد الجزيري كما ذكرنا سابقا ، وتطورت على يد كتاب عصر الطوائف .

---

(١) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٤٧٢ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص١٩٤ .
(٣) عصر الطوائف والمرابطين : ص ١٩٧ .

ويستطيع الباحث القول بأن هذا اللون من الرسائل كان مظهرا من مظاهر تأثر الأندلسيين بالمشارقة اذ يعتبر ابن الرومي أول من آثار قضية المفاضلة بين الأزهار(١) . وقد عمد الأدباء الاندلسيون الى تطوير هذا الفن في محاولة للتفوق على المشارقة .

كذلك استغل الأدباء الأندلسيون طبيعة بلادهم الساحرة الجميلة ، وأقاموا حول جمالها موضوعا أدبيا يتنافسون في اظهار البراعة فيه ، ولا يخلو الأمر من تأثرهم بمدارس الجدل وأساليب النقاش والحوار بشكل عام ، ذلك أن الموضوع بعناصر تكوينه يتيح استخدام هذا الأسلوب في العمل الأدبي أكثر من غيره ، هذا بالاضافة الى أن الأدب الأندلسي قد انفرد عموما في شعره ونثره بظاهرة المعارضة : قصيدة واحدة تثير عدة معارضات ، أو رسالة تثير عدة رسائل ، أو كتاب يستدعي آخر تذييلا عليه (٢) .

المفاخرة بين السيف والقلم :

يعد ابن برد الأصغر أول من سبق الى القول في ذلك بالأندلس(٣) ، حيث كتب رسالة الى مجاهد العامري ، وقد أقامها على المناظرة والمفاخرة بين السيف والقلم ، وفي أحقية كل منهما بالسيادة والزعامة .

وقد بدأ ابن برد رسالته بمقدمة وصفية تحدث فيها عن أهمية السيف والقلم ودورهما في الحياة ، فهما وسيلتان للوصول الى المجد والشرف والمراتب العليا ، يقول : " وان السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان الى القصد ، من بات يسري الى المجد ، وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرب اليه ... "(٤) .

ولا غرو أن ينشب بينهما الخلاف والتحاسد ، وأن يتفاخرا أو يتناظرا فيذكر كل واحد منهما مآثره وفضائله ومحاسنه ، ويزعم أنه أكثر أهمية من الآخر . ولما اشتد الصراع بينهما واحتدم قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال ، وقد جعل ابن برد القلم أول من يتحدث في المفاخرة والمناظرة ، ونلمس في ذلك تأكيدا على أهمية دور القلم حيث يقول : " الأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله ، مُقسماً به لرسوله ، فقال : (ن والقلم وما يسطرون)(٥) ، وقال : (اقرأ وربك الأكرمُ الذي علّمَ بالقلم)(٦) ... لقد أخذتُ الفضل برمته ، وقدتُ الفخر بأزمته ... "(٧) . ويجيبه السيف قائلا ان : " قيمة كل امرىء ما يحسن،

---

(١) انظر : الجذوة : ص٢١٢، عصر سيادة قرطبة : ص١١٠ . (٢) انظر : عصر الطوائف والمرابطين : ص١٩٦ . (٣) انظر معجم الأدباء : ج٦ ، ص١٠٦ .
(٤) الذخيرة : ق١ م١ ، ص٥٢٣ . (٥) سورة القلم : الاية ١ . (٦) سورة العلق، الايتان ٣ و٤ . (٧) الذخيرة : ق١ م١ ، ص٥٢٤ .

إنّ عاتقاً (١) حملَ نجادي (٢) لسعيد، وإنّ عضداً بَاتَ وسادي (٣) لسديد ... أفْصحُ والبَطَلُ قد خَرِسَ ، وأبْتَسِمُ والأجَلُ قد عَبَسَ ..." (٤) .

ويرد عليه القلم معدداً مفاخره ومآثره " وهل أنا إلاّ قطبٌ تَدُورُ عليه الدولُ ، وجوادٌ شَأْوُهُ يدركُ الأملَ ، شفيعُ كلِّ ملكٍ الى مطالبه ، ووسيلتُهُ الى مكاسبه ، وشاهدٌ نجواه قبلَ كلِّ شاهد ، ووارِدٌ معناه قبلَ كلِّ وارد ..." (٥) .

ويحتدُّ الخلاف بينهما ، ويثور غضب السيف ، ويرد عليه بلهجة عنيفة قاسية فيها شيء من السباب والهجاء ، يقول : " اسْتَنَّتِ الفِصَالُ حتى القَرْعَى (٦) ، وربَّ صَلَفٍ تحت الراعدة (٧) ، لقد تَحاول امتداداً بباع قصيرة ، وانتفاضاً بجناحٍ كسيرة ، أمستغربٌ والفلسُ ثمنُكَ ، ومُسْتَجَلَبٌ وكلُّ بقعةٍ وطنُكَ ، جسم عار ، ودمع جار ..." (٨) .

ويحتد الجدال وتشتد المناظرة بينهما ، فلا يأتي هذا على ذكر مفاخر له معروفة حتى ينبري ذاك فيعارضها بمفاخر أعلى ويدفع حجة خصمه بأسلوب المناطقة ، فهذا القلم يدافع عن صغر حجمه ، وقلة ثمنه ، بقوله : " ان ازدراءك بتمكّن وجداني ، وبَخْسٍ أثماني ، لنقصٌ في طباعِكَ ، وقصرٌ في باعِكَ ، إلاّ أنّ الذَّهَبَ معدنه في العَفْر (٩) ، وهو أنفس الجواهر ، والنار مكمنها في الحجر ، وهي احدى العناصر ، وان الماء وهو الحياة ، أكثر المعايش وجدانا ، وأقلها اثمانا ..." (١٠) .

وبعد جدال طويل لم يتغلب فيه أحدهما على الآخر أدركا أن من الأنسب تحالفهما ، وأنه أجدر بهما أن يتخذا طريقا الى السلم ، حيث أنهما سويا في يد مجاهد العامري الذي جمع بين السيف والقلم في يد واحدة فهو عالم وفارس شجاع قوي . ويجعل ابن برد القلم آخر من يتكلم ويكون له دور حاسم في المفاخرة ، وقد كتب عهدا بالصلح والمصافاة (١١) .
ومهما يكن فلا بد أنّ يكون ابن برد قد نحى منحى رمزيا ، فكتابته الرسالة الى مجاهد العامري الذي كان من كبار ملوك الطوائف الذين اعتمدوا على الجند في توطيد سلطانهم ، وقد أدى ذلك الى تأخر

---

(١) العاتق: الرجل الحر (اللسان: مادة عتق) . (٢) نجادي: النجاد : حمائل السيف (اللسان: مادة نجد) . (٣) وسادي: يقال توسد الشيء : اتخذه وسادة ، جعله تحت رأسه (اللسان : مادة وسد) . (٤) الذخيرة : ق١ م١ ، ص ٥٢٤ . (٥) المصدر السابق نفسه : ق١ م١ ، ص٥٢٤ . (٦) أي أخذت الفصلات في سنن واحد من المرح والنشاط ، حتى نشطت القرعى لنشاطها (انظر فصل المقال : ص ٤٠٢-٤٠٣) . (٧) سبق شرح هذا المثل .
(٨) الذخيرة : ق١ م١ ، ص٥٢٩ . (٩) العفر : ظاهر التراب (اللسان: مادة عفر) .
(١٠) الذخيرة : ق١ م١ ، ص ٥٢٥ . (١١) انظر كتاب الصلح في الذخيرة : ق١ م١ ، ص٥٢٧ .

مرتبة أصحاب الأقلام تؤكد ما نذهب اليه . لقد أراد ابن برد أن يشيد بفضل الكتاب ودورهم في توطيد السلطان ، حيث لا يستطيع السلطان الاستغناء عنهم ، فمهما كانت الدولة قوية فهي محتاجة اليهم لتسجيل مآثرها ونشر مكارمها وادارة أمورها . وهو ينبه الى ما حل بالكتاب من ضيقة ، ويستجدي في أخذ بعض الحق لهم من أصحاب السيوف ، بل هو يدعو الى مساواة أصحاب الأقلام بأصحاب السيوف(١) .

فضائل البلدان :

ويقصد بها تلك الرسائل التي تدور حول الاشادة والمباهاة بفضائل الأندلس وما فيها من سماء الحضارة وألوان الثقافة والعلم ، وبما خصها الله به من محاسن وسمات تنفرد بها دون غيرها .

لقد كتب أبو علي بن الربيب القيرواني (٢) الى الوزير الكاتب أبي المغيرة ابن حزم رسالة يلوم فيها علماء الأندلس على تقصيرهم في الاشادة بمحاسن أهل بلدهم(٣) . وقد ذكر ابن بسام أن أبا المغيرة قد رد عليه برسالة أطال فيها القول ، وتناول فضل الأندلس وأهلها ومدنها وعلمائها ، وأعرض ابن بسام عن نقلها لنا كاملة ، واقتصر على اثبات جزء يسير منها . وقد بدأ رده بكلمة اطراء لابن الربيب وذكر لبعد صيته بين أدباء الأندلس ، يقول : " وما زلت أتَنَسَّمُ ذِكْرَكَ ، فأتَرَسَّمُ قَدْرَكَ ، وأسمعُ خَبَرَكَ ... حتى أرادت الأيامُ كشفَ السِّرِ ، وَرَفْعَ السِّتْرِ ، فوقفتُ على الصحيفةِ التي ظاهرُها ديباجٌ مرقومٌ ، وباطِنُها لؤلؤٌ منظومٌ ، وَوَشْيٌ مَحُوكٌ ، وَذَهَبٌ مَسْبُوكٌ ، فرأيتُ صورةَ الأدبِ باهرةَ المَرْآى والعيان ، شاهدةً لك بأذْلَقِ لِسَانٍ ، وأصْدَقِ بيانٍ ، أنك أبو عُذْرَتِها ، ومالكُ جُمْلَتِها ، وواحدُ فُنُونِها ، ووارِدُ مَعِينِها ..."(٤) .

ونلمح في ثنايا رد أبي المغيرة بن حزم شكوى مبطنة من هذه الغربة التي يعاني منها أهل الأندلس ، وانصراف أهل المشرق عن تدوين علوم الأندلسيين وفنونهم وآدابهم ، حيث يقول : " وعلى كلِّ حالٍ ، فقد نادينا لو أسمعنا ، وطرنا لو وقعنا ، وما أشْبَهَنَا بالغريبة التي خَيْرُها يُدْفَنُ ، وَشَرُّها يُعْلَنُ ..."(٥) .

ثم أن أبا محمد بن حزم الامام الأندلسي المشهور ، وهو ابن عم أبي المغيرة عثر على رسالة ابن الربيب بعد وفاة مؤلفها ، فرد عليه برسالته المشهورة في فضائل الأندلس . وقد فخر فيها بفضل الأندلس وأهلها ومدنها وما فيها من سمات الحضارة والتقدم ، وأورد فيها عددا كبيرا من أسماء العلماء والأدباء في الأندلس في مختلف فروع المعرفة حتى عصره ، وتحتل هذه الرسالة مكانة عظيمة في الفكر الأندلسي

---

(١) انظر الابيات الملحقة بالرسالة في: الذخيرة : ق١ م١ ، ص ٥٢٨ .

(٢) هو أبو علي الحسن بن محمد القيرواني المعروف بابن الربيب ، كان عارفا باللغة شاعرا مقدما في الأدب ، وعلم الخبر والنسب ، قوي الكلام يتكلفه بعض التكلف ، توفي سنة ٤٢٠ هـ (انظر ترجمته في الانموذج : ص ٧١ ، انباه الرواة : ج١ ، ص ٣١٨ ، بغية الوعاة : ج١ ، ص ٥٢٤) . (٣) انظر رسالة ابن الربيب في: الذخيرة ق١ م١ ، ص١٣٢-١٣٦ ، وانظر: النفح ج٣ ، ص١٥٦ . (٤) الذخيرة : ق١ م١ ، ص ١٣٦ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق١ م١ ، ص ١٣٨ .

لأنه وضع فيها سجلا حافلا بمصادر التراث الأندلسي الى حد أن الاستاذ شارل بلا أطلق على ترجمته لهذه الرسالة وما أضاف اليها من دراسة عنوان "ابن حزم مفهرس الأندلس ومداحها"(١) .

وقد افتتح ابن حزم رسالته بمخاطبة صديقه الحميم أبي بكر بن اسحق(٢) ، وذكر له أنه وقع في يده رسالة ألفها رجل من مصاقبي الأندلس ، أخذ فيها عليهم اهمال الأندلسيين لذكر علمائهم وفضائلهم وآدبائهم(٣) .

ثم انتقل الى الثناء على صاحب البونت(٤) أبي عبدالله بن قاسم، ووصف المجلس الأدبي الحافل بأصناف الآداب وأنواع العلوم والمعارف الذي كان يعقده في بلاطه ، وذكر كيف أن ابا عبدالله كان " حريصا على أن يجاوب هذا المخاطب ، وراغبا في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي، أو بعد عنه فخفي ..."(٥) .

ثم هو يسرد فضائل الأندلس ومآثرها ، ويحدثنا عما ألف فيها ، ويحاول أن يضفي على الأرض الأندلسية صفة القداسة مستمدا اياها من حديث ينسب الى الرسول الكريم ، يقول : " فأما مآثرُ بَلَدِنا فقد ألّفَ في ذلك أحمدُ بن محمد الرازي(٦) التاريخي كتبا جَمّةً منها كتابٌ ضَخْمٌ ذكر فيه مسالِكَ الأندلس ومراسيها وأمهات المدن وأجنادها الستة(٧) ، وخواصّ كل بلد منها ، وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا الا ما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بَشّرَ به أسلافَنا المجاهدين منه ، بصفات الملوك على الأسرة ، في الحديث الذي رويناه(٨) ... لكفى شرفا بذلك"(٩) .

---

(١) انظر : حوليات الجامعة التونسية ، ع ٢٠ : ص ٣٨ ، ومجلة "الاندلس" و Al. Andalus, Vol. 19,(1954), P.P. 53-102.

(٢) هو أبو بكر محمد بن اسحق المهلبي ، من أهل الأدب والفضل ، كان صديقا لابن حزم ومتنقلا معه في الأندلس ، واعتقل معه على يد خيران العامري، (انظر : الجذوة : ص ٤٤ ،طوق الحمامة : ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠) .

(٣) انظر : رسائل ابن حزم : ج٢ ، ص ١٧١ .

(٤) البونت : قرية من أعمال بلنسية استقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة (انظر : الروض المعطار : ص ١١٥ ،أعمال الاعلام : ص ٢١٨ .

(٥) رسائل ابن حزم : ج٢ ، ص ١٧٢ .

(٦) هو أحمد بن محمد الرازي ، كان نحويا لغويا ، وكاتبا بليغا ، غزير الرواية ، حافظا للأخبار ، توفي سنة ٣٤٤ هـ (انظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين : ص ٣٠٢ ، الجذوة : ص ١٠٤) .

(٧) لعله يعني الأجناد التي نزلت الأندلس في طالعة بلج القشيري ، وفرقها أبو الخطار على الكور (انظر : النفح : ج١ ، ص ٢٣٧ ، الاحاطة :ج١ ، ص ١٠٩) .

(٨) يشير الى حديث أورده مسلم ، وفيه أن رسول الله نام ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت له بنت ملحان : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة (انظر : صحيح مسلم : ج٣ ، ص١٥١٨) .

(٩) رسائل ابن حزم : ج٢ ، ص ١٧٣ .

ثم هو يحدد موقع الأندلسيين في الأقاليم الاسلامية ، ويبين أثر طبيعة الاقليم في ذكاء الأندلسيين ونبوغهم " وأما في قسم الاقاليم فان قرطبة مسقط رؤوسنا ومعق[1] تمائمنا ، مع سُرَّ مَنْ رأى في اقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا ، وان كانت الانوار لا تأتينا الا مُغَرِّبة عن مطالعها عن الجزء المعمور[2] .

وهو في هذا يعمد الى اسلوب المناقشة والجدل في سوق الحجج والبراهين ومن ذلك قوله : " وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانته التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبَصَر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن[3] ، متنائي الأقطار ، فسيح المجال "[4] .

ويناقش بعد ذلك قضية مهمة هي الشخصية الأندلسية ، فيحددها تحديدا دقيقا ملتزما في ذلك رأي الجماعة من المؤرخين والأئمة السابقين، فهم " متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها ، رحيل ترك لسكناها الى أن مات"[5] .

ويخرج بنتيجة مفادها أن " من هاجر الينا من سائر البلاد ، فنحن أحق به ، وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا ... وما هاجر منا الى غيرها فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به ، فكما لا ندع اسماعيل بن القاسم[6] ، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانئ سوانا..."[7]، وهو هنا يقيم الدليل على ما يذهب اليه .

وقبل أن يعالج موضوعه الاساسي يتناول قضية مهمة تلك هي مكانة العالم في بلده ، فيشير الى تنكر الأندلسيين لمن نبغ منهم في العلوم، وما يناله من غمط حقوقه ، وجحود علمه ، وطمس فضله ، وهو هنا يقيس على ما لقيه من أهل عصره من تحامل الفقهاء والأدباء وذوي السلطة ضده، وهو هنا يكشف لنا عما يغمر نفسه من مرارة وألم وقلق ، وضيق لما يلاقيه في هذه البلاد التي طالما أحبها وأخلص لها ، يقول : " وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر (أزهد الناس في عالم أهله)... ولا سيما أندلسنا ، فانها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد . ان أجاد قالوا : سارقٌ مُغيرٌ ، ومُنْتَحِلٌ مُدَّعٍ،

---

(١) معق : يقال للصبي اذا نشأ معحي حتى شب وقوي فيهم : عقت تميمته في بني فلان ، والاصل في ذلك أن الصبي ما دام طفلا تعلق عليه تمائم تعوذه من العين (انظر : اللسان : مادة عقق) . (٢) رسائل ابن حزم: ج٢ ،ص ١٧٤ . (٣) واسع العطن : واسع المواضع (انظر اللسان: مادة عطن) . (٤) رسائل ابن حزم : ج٢ ،ص ١٧٤ . (٥) المصدر السابق نفسه : ج٢ ،ص ١٧٥ . (٦) يريد أبا علي القالي ، فهو قد أصبح حسب مقياسه أندلسيا . (٧) رسائل ابن حزم : ج٢ ،ص ١٧٦ .

وان توسط قالوا : غثٌّ باردٌ وضعيفٌ ساقطٌ ، وان باكر الحيازة لقصب السبق ، قالوا متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ..."[١] .

ويبين بعد ذلك فضل بلاده ، ومدى مساهمتها ورجالها في بناء الفكر الاسلامي ، فيعدد تآليف الأندلسيين ومصنفاتهم في مختلف فروع المعرفة من تاريخ وأخبار وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وعدد وهندسة وحديث وعلم كلام ، وغيره ...[٢] ، ولم يورد من تلك التآليف الا المستحقة الذكر ، أما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم يلتفت الى ذكرها . وهذا يدل على سعة ثقافة ابن حزم وعمقها ، وعلى اطلاعه الواسع ، ومقدرته على تقويم المصنفات والتآليف ونقدها [٣] .

ونلمح في هذه الرسالة شعور ابن حزم بأندلسيته ومباهاته ببلده الذي يعتبر حضارة العراق مثله الأعلى والانموذج الذي يحتذى، بل ان لمراكز الحضارة العربية الاسلامية في المشرق مكانة عظيمة في نفسه ، يقول : " وهذه بغدادُ حاضرةُ الدنيا ، ومعدِنُ كلِّ فضيلة ، والمحلَّةُ التي سبق أهلها الى حمل ألوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم ،... وهذه البصرة وهي عين المعمورة في كل ما ذكرنا ..."[٤] .

ويختتم ابن حزم رسالته بذكر من تتباهى به الأندلس من رجالها وعلمائها وأدبائها ، وهو هنا يعقد مقارنة بينهم وبين أمثالهم من المشارقة في كل ميدان ، يقول : " ونحن اذا ذكرنا أبا الأجْرب، جَعْونَة بن الصِّمَّة الكلابي[٥] في الشعر لم نباه به الا جريرا و الفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أُنصف لاستُشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين ... واذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به الا محمد بن اسماعيل البخاري ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري... واذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحي[٦] ، وأبي عبد الله محمد بن عاصم[٧] لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد ..."[٨] .

---

(١) رسائل ابن حزم : ج ٢ ،ص ١٧٦ .   (٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ج٢ ، ص ١٧٨ – ١٨٦ .   (٣) انظر : ابن حزم الأندلسي : ص ١٧٨ .

(٤) رسائل ابن حزم : ج٢،ص ١٧٦ .   (٥) هو أبو الاجرب جعونه بن الصمة الكلابي ،من قدماء شعراء الأندلس ،وكان فارسا شجاعا يدعى عنترة، الأندلس (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ١٨٩، المغرب ج١،ص١٣١–١٣٢) .

(٦) هو محمد بن يحيى الرياحي ،كان حاذقا بعلم العربية، دقيق النظر فيها ،غاية في الابداع والاستنباط ، توفي سنة ٣٥٨ (انظر ترجمته، في : طبقات النحويين واللغويين : ص ٣١٠) .   (٧) لم يعثر الباحث على ترجمة له .   (٨) رسائل ابن حزم : ج٢ ،ص ١٨٧ .

وواضح أن ابن حزم يضع أساسا جديدا لمفاخرة البلدان ، فهو يرى أن العلم وحده هو ينبوع الفضائل ، وأن العلماء وحدهم هم الذين يحق للبلدان أن تتفاضل بهم ، وهذا يعد تطورا جديدا في أدب المفاضلات بين البلدان[١] .

وتعتبر رسالة ابن حزم سجلا حافلا بمظاهر النشاط العلمي والأدبي في الأندلس حتى عصر مؤلفها ، ومناظرة أدبية يتحدى بها من عاب على أهل الأندلس تقصيرهم في ذكر علمائهم ، وهي تحتل مكانة رفيعة في الأدب الأندلسي لبراعة صاحبها في السرد والحجاج .

الرسائل الشعوبية :

ذكرنا فيما تقدم أنه كان من نتائج انتشار عقد الخلافة وتمزق البلاد الى دويلات مستقلة يتناهب الحكم فيها الصقالبة والمولدون والموالي والبربر والعرب أن ضعفت الروابط العربية في بعض هذه الدول المستقلة ، مما أتاح للنزعة الشعوبية أن تظهر في نتاج أدبي[٢] ، تمثل في رسالة كتبها ابن غرسيه الذي عاش في كنف مجاهد العامري بمدينة دانية ، وكان شعوبيا يكره العرب ويتعصب للعجم ، وقد خاطب في رسالته هذه أبا جعفر ابن الخراز معاتبا لتركه مدح مجاهد العامري ملك بلاده ، واقتصاره على مدح المعتصم بن صمادح أمير المرية ، وقد ذم فيها العرب ، وافتخر بقومه العجم[٣] .

لقد احدثت هذه الرسالة ضجة كبيرة في الأندلس نجد بعض صداها في ما رواه عنها ابن بسام : " وهي رسالة ذميمة ... ذم فيها العرب ، وفخر بقومه العجم ، وأراد أن يُعْرِبَ فأعْجَمَ ، واذ قد أفضى بنا القول الى ذكرها ، فأنا اثبتها ها هنا بأسرها ، واحتلت ، فصولا من رسائل جلائل لبعض أهل العصر ردوا عليه وبكتوه حتى أسكتوه ..."[٤] وقد وصلتنا رسالة ابن غرسيه كاملة وثلاث رسائل في الرد عليها تعود الى القرن الخامس الهجري[٥] .

وقد استهل ابن غرسيه رسالته بالتهكم والسخرية من العرب متخذا من هجاء ابن الخراز وسيلة لذلك ، يقول : " سلام عليك ذا الرَّوِيِّ المَرْوِيِّ ، الموقوف قريضُه على حللة بجّانة أرش اليمن[٦] ، بزهيد الثمن ، كأن ما

---

(١) انظر فضائل الاندلس: ص ١٦ . (٢) انظر عن الشعوبية عند مسلمي الاندلس نوادر المخطوطات : ج٣ ، ص ٢٤١ -٢٤٢ ، عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٧٠-١٧١ .
(٣) انظر: الذخيرة :ق٣م٢، ص٧٠٥ ، المغرب: ج٢، ص٤٠٨ . (٤) الذخيرة :ق٣م٢، ص٧٠٤-٧٠٥ .
(٥) انظر المصدر السابق. نفسه :ق٣م٢، ص٧١٩-٧٧٥ . (٦) أرش اليمن: اقليم في شرق الأندلس ، أنزل الامويون فيه بني سراج القضاعيين ، وجعلوا اليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل ، فكان ما ضمنوا حفظه يسمى أرش اليمن ، أي عطيتهم ونحلتهم (انظر : الروض المعطار : ص ٣٧) .

في الارض انسانٌ الا من غسّان(١) أو من آل ذي حسان(٢) ، وان كان القوم أمْتَنُوك ، وعن العالم أغْنَوك على حسب المذكور ..."(٣) . ثم هو يفخر بماضي مختلف العناصر الشعوبية من روم وفرس ، وما يتمتعون به من بأس وشجاعة وذلك من خلال اسلوب المقابلة بين حياة العرب القدامى في ظل الابل والشاة ، وحياة الأكاسرة والقياصرة في ظل السيوف والرماح، حيث يصفهم بأنهم " الصُّهْبُ الشُّهْبُ ، ليسوا بعرب ، ذوي أينق جُرْب ، بل هم القياصرة الأكاسرة ، مُجُدٌ نُجُدٌ : بُهَمٌ ، لا رعاة شُوَيْهات ولا بَهَم(٤)..."(٥) .

ثم يعقد مقابلة أخرى بين مظاهر الحياة العربية ومظاهر الحياة الأعجمية ، فيذكر أن العجم يمتازون في لباسهم ومأكلهم ومشربهم ومطعمهم ، واقتنائهم أحسن الثياب ، ويقلل في مقابل ذلك من شأن العرب ، فيعيب عليهم قناعتهم بالشهوات كالطبل والزمر ومعاقرة الخمرة ، حيث يقول : " شُدِهُوا(٦) برنّات السيوف ، عن ربّات الشُّنُوف(٧) ، وبركوب السروج عن الكلب والفُروج ، وبالنفير عن النقير (٨)... وبالأمر والذمْر(٩) عن معاقرة الخمر والزمر ..."(١٠) .

ويفخر بعد ذلك بمعرفة العجم للعلوم المختلفة ، وينكر على العرب معرفتهم بالعلوم ، فهم " ذوو الآراء الفلسفية الأريضية (١١)، والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة الاسترلوميقي(١٢)... والقَوَمَةُ بالموسيقى والفوطيقا (١٣) ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمهرة في علوم الأديان والأبدان ..."(١٤) .

---

(١) غسان : هم بطون شتى من الأزد ، وقيل ان فيهم أيضا من غير الأزد، (جمهرة أنساب العرب : ص ٤٧٢) . (٢) لعله يقصد (حسان ذو معاهر) بن تبع من ملوك حمير (انظر : المصدر السابق نفسه : ص ٤٣٨).

(٣) الصهب : الصهبة : الشعرة في شعر الرأس ، والشهبة : لون بياض يصدعه سواد في خلاله (انظر : اللسان : مادتا صهب ، وشهب) .

(٤) بهم : جمع بهمة ، وهو الفارس لا يدري من أين يؤتى ، لشدة بأسه ، البهم جمع بهمة ، وهي الصغير من أولاد الغنم (اللسان : مادة بهم).

(٥) الذخيرة : ق٣ م٢ ، ص ٧٠٦ .

(٦) شدهوا : يقال : شده الرجل شدها وشدها : شغل (اللسان : مادة شده).

(٧) الشنوف : جمع شنف وهو الذي يلبس في أعلى الاذن (اللسان مادة شنف).

(٨) النفير : الخفوف الى الحرب ، والنقير : الوعاء الذي يتخذ فيه النبيذ، ويريد هنا النبيذ نفسه (انظر : اللسان : مادة نفر ، ونقر) .

(٩) الذمر : الحض والحث (اللسان : مادة ذمر) .

(١٠) الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٧٠٩ — ٧١٠ .

(١١) الأريضية : أي الصعبة (انظر : اللسان : مادة روض) .

(١٢) الاسترلوميقي : علم النجوم (انظر مفاتيح العلوم :ص ٨٠) .

(١٣) الفوطيقا : الشعر (انظر : أخبار العلماء : ص ٢٨) .

(١٤) الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٧١١ — ٧١٢ .

ولعل من الطريف في رسالته افتخاره على العرب بالنبي العربي ، حيث يرى أن محمدا وان كان عربيا فلا فخر في ذلك للعرب لأن التبر من التراب والمسك بعض دم الغزال والماء العذب يستودع جلد المزادة البالي ، يقول : " لكن الفخر بابن عمنا ، الذي بالبركة عَمَّنا ، الاسماعيلي الحسب ، الابراهيمي النسب"(١) .

ويختتم رسالته بعبارات يظهر فيها التقوى ، دفعا لما قد يفهم من كلامه مما قد يسيء الى العقيدة الاسلامية ، وهو في ذلك يعنف صديقه ابن الخراز(٢) .

واذا نظرنا في بعض الردود التي اثارتها الرسالة ، نجد مثلا أن ابن الدودين (٣) قد عمد في مطلع رسالته الى السباب والشتم والسخرية منه والاستهزاء به ، حيث يقول : " إِخْسَأْ أيها الجهول المارقُ ، والمرذولُ المنافقُ ، أين أُمُّك ثَكِلَتْكَ أُمُّك . أَوَ مَا علمتَ أنّك انما سُحبت من عقالك لعقّالك(٤) ، وقدّمت أول قدمك لسفك دمك ..."(٥) .

ويذكّره أنه لو كان في حضرته رجال ذوو حمية لما استطاع أن ينال من الاسلام والمسلمين ولعاقبوه على ما تورط فيه لكنه بين هَمَجٍ(٦) هامج ، وَرِعَاعٍ(٧) ماثج ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء"(٨) .

ثم هو يلج باب النقاش والجدل حيث يعمد الى تخريج كل ما عدّه ابن غرسية مفخرة لقومه على أنها معايب ومثالب ، فان كان قد قال عن قومه أنهم : " الصهب الشهب " قال عنهم ابن الدودين : " الصهب السِّبال(٩) من وَلَغِ الدم وشرب الأبوال ، أَكَلَة الجِيَفِ ، وحَلَلَةٌ(١٠) الكُنُفِ(١١) ..." وان كان قال عن قومه " جُمُحٌ طُمُحٌ(١٢) " ، قال عنهم ابن الدّودين: " جُمُحٌ في الإحجام عن الإقدام ، طلب الفرار يوم الانتصار ، وادراك الثار ، طمح الى كل رموح طموح ،..."(١٣) .

ويعلل ابن الدودين ما يذهب اليه من نقض صفاتهم ومفاخرهم ، ويذكر ابن غرسيه أنه فخر بما ليس هو حقيق بالفخر ، متخذا ذلك وسيلة لذم قومه والقدح بهم ، فهو يتهمهم بالاباحية ومزاولة الرذيلة وعدم الغيرة على نسائهم ، ويركز على كثير من عاداتهم الاجتماعية ، يقول : " هل يجوز في التحصيل ، أو يصح في العقول ، أن يحمي قومك سروح شأنهم ، وقد

---

(١) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص٧١٢-٧١٣ . (٢) انظر: المصدر السابق نفسه :ق٣م٢،ص٧١٣ .
(٣) هو ابو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، قال عنه ابن بسام: " هو أحد من لقيته وشافهته ، وأملي علي نظمه ونثره بالأشبونة ،سنة سبع وسبعين) انظر ترجمته في : الذخيرة :ق٣م٢،ص٧٠٣ ، المغرب : ج٢،ص٣٢٢) . (٤) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير (اللسان: مادة عقل) . (٥) الذخيرة : ق٣م٢،ص ٧١٥ .
(٦) همج: الرعاع من الناس ، وقيل هم الأخلاط (انظر: اللسان: مادة همج) .
(٧) رعاع : رعاع الناس : غوغاءهم وسقاطهم وسفلتهم (انظر: اللسان: مادة رعع) .
(٨) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص٧١٩ . (٩) السبال: جمع سبلة ،وهي ما على الشفة العليا من الشعر (اللسان: مادة سبل) . (١٠) حللة :جمع حال بمعنى نازل في المكان (اللسان: مادة حلل) . (١١) الكنف: جمع كنيف، وهي الحظائر التي تصنع للابل (اللسان: مادة كنف) .
(١٢) يقال جمح وطمح اذا أسرع ولم يرد وجهه شيء (اللسان: مادة جمح) .
(١٣) الذخيرة : ق٣م٢،ص٧١٦ .

أباحوا فروج نسائهم ، أليس هذا عَيْنَ المُحالِ ، ومُغَالَطَةَ الجُهّالِ..."(١) .
ويرد عليه المعايب التي ألصقها بالعرب واحدة اثر اخرى ، ويتهم قومه بها ، واذا كان قد عير العرب بسوء المأكل والمشرب رد عليه بأنه " لا افتخار في مشرب ولا مطعم ، لعرب ولا لعجم"(٢) .

ومع أن ابن الدودين قد أقر لهم معرفتهم بعلم الطبائع الا أنه ينكر عليهم معرفتهم بعلم الشرائع ، كما أنه ينكر عليهم معرفتهم بأسباب الفروسية والشجاعة والحرب ، بل هي من علم العرب الذين مجالسُهُم " السُّرُوجُ ، وريحانُهُم الوَشيجُ ، ومُوسيقَاهُم رَنّاتُ الرُّدَيْنيّاتِ(٣) وطُوبيقاتهم(٤) نغمات السُّرَيْجيّات(٥) "(٦) .

ويسخر منهم ابن الدودين لأنهم يؤمنون بدين بعيد عن المعقول ، ويتمسكون بآراء ضعيفة ومبادئ زائفة لا يقبلها ذوو العقول ، ويشير الى تحريفهم الانجيل ، واعتقادهم أن عيسى هو الله ، وايمانهم بصلبه بأيدي اليهود ، يقول : " ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الانجيل بالزيادة والنقصان ، الى أن أصاروه في حيز الهذيان ، وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون الها بنبيهم ، فوسموه بالرب المعبود ، وصيّروه بعد مصلوب اليهود ..."(٧) .

وممن رد ايضا على ابن غرسيه ، وأجاد ما أراد أبو الطيب عبدالمنعم القروي(٨) ، برسالة أثبت ابن بسام أكثر فصولها على طولها لاشتمالها على المآثر العربية والمفاخر الاسلامية . والذي زاد رسالة القروي قيمة فاقت بها ما وصلنا من الردود الاخرى نفاذ مؤلفها الى معان دقيقة لم يتنبه اليها غيره ، وتبحره في معرفة أحوال العرب وأشعارهم وأخبارهم ومن المعاني الدقيقة التي نفذ اليها أن ذكر ابن غرسيه في مطلع رسالته فضل العرب عليه حيث ربته وليدا ، وعنيت بتخريجه ، وحسنت من ثقافته ، ولولاها لما تعلم هذه اللغة التي يتطاول بها عليها ، وينال بها منها ، يقول له : " فأخبرني عنك ، أما كانت للعرب يَدٌ تشكرها ، ومِنّةٌ تذكرها ؟ أما جَبَرَتْ نقيصتك ، أما رفعت خسيستك ؟ أما استنهضتك من وهدتك (٩) ... ألم تُرَبِّك فينا وليدا ، ألم تتخذك لها تليدا ؟ ألم تُعْنَ بتخريجك ؟ أما انطقتك بعد العجمة ، أما اسلقتك(١٠) عقب الدُّكْنة ؟

(١) الذخيرة : ق٣ م٢ ، ص ٧١٧ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢ ، ص ٧١٩ .
(٣) الردينية : جمع ردينة ، ويقال ردينة اسم امرأة ، والرماح الردينية منسوبة اليها (اللسان : مادة ردن) . (٤) طوبيقاتهم : طوبيقا تعني العبارة ، (اللسان : مادة طبق) . (٥) السريجيات : تصغير سروج ، والسرج : رحل الدابة (اللسان : مادة سرج) . (٦) الذخيرة : ق٣م٢ ، ص٧٢١ . (٧) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢ ، ص ٧١٩-٧٢٠ . (٨) هو عبدالمنعم بن من الله القروي ، دخل الأندلس ، وحدث في شرقيها عن ابن البر الصقلي ، وكان أديبا شاعرا ، توفي سنة ٤٩٣ هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج١ ، ص٣٩٢ ، ألف باء : ص ٣٥١) .
(٩) وهدتك : الوهدة : الهوة ، تكون في الارض (اللسان : مادة وهد) .
(١٠) أسلقتك : جعلتك ذا سليقة (اللسان : مادة سلق) .

حتى اذا اشتدّ كاهِلُكَ وَعلِمَ جاهلُكَ ، وقوي ساعدُكَ وَرَقِيَ صاعدُكَ ، كفـرت نعمتها لديك ... وأخذت تطاولها بأرسانها ، وتقاولها بلسانهـا ، وتناضلها بسهامها وتُهاطِلُها بِرِهَامِها [1]..." [2] .

ثم هو ينفذ ايضا الى معانٍ دقيقة اخرى ، فيذهب الى القول بأنـه " ليس للسَّخَاء بالرُّوميةِ اسمٌ ، ولا للوفاءِ في العجمية رَسْمٌ" [3] .

ثم هو يفخر بالمآثر العربية الاسلامية ، فيبتكر في ذلك صفـات مزدوجة لهم ، حيث يقول : " أين أنت عن السُّمر القُمـر [4] ، البيـض غُرَرًا [5] وصِفَاحًا [6] ، السُّودِ طِرَزًا [7] ، وأوضاحـًا ..." [8] .

ويذكره بماضي فتوحات المسلمين وانتصاراتهم على القياصرة والاكاسرة ، وما ينعمون به من قوة وبأس ، يقول : " سعروا عليكم نارَ الحـرب ، بتلك الأنْيُقِ الجُرْبِ ، فكسروا أكاسرتِكُم ، وقَصَرُوا قياصرتِكُم ، فسفكـوا دماءهم ، وأباحوا أحماءهم ، وأخمدوا نارَ صولتهم ، ومحوا آثـارَ دولهم ، وطهّروا الأرضَ المقدسةَ من أنجاسِكُم ، والمسجدَ الاقْصى مـن أرجاسِكُم ..." [9] .

وقد نهج القروي نهج ابن الدودين في رد تلك الصفات التي زعمها ابن غرسية لقومه : فان قال عنهم : " مُلْسٌ لُمُسٌ" [10] ، قال : " وأنتـم كما وصفت مُلْسٌ لُمُسٌ ، لا تُغيرون ولا تَغَارون ، ولا تَمْنَعُـون ولا تُمَنَّـعون ..." [11] .

ثم هو يوجه الى قوم ابن غرسية الأعاجم نقدا لاذعا مركزا في ذمهم على عدم الغيرة وفساد الأخلاق ، وانتشار الرذيلة والاباحية الجنسية ، وما الى ذلك من القيم والعادات الاجتماعية المنتشرة في المجتمع الأعجمـي ، يقول : " ومن الآيات ذكر صواحب الرايات ، والمباضعة [12] عندكم كالمراضعة ما في الشكر [13] عندكم نُكر ، تبيحون وُلُوج العلوج ، على بدور الحُـدُوج [14] ، الزنا عندكم سنا ، والفجار بينكم فخار ، تقتادونهن وتستأدونهن [15]..." [16] .

---

(١) الرهام : جمع رهمة وهي المطرة تكون أشد من الديمة (اللسان : مادة رهم) .
(٢) الذخيرة : ق ٣ م٢ ،ص ٧٢٣ – ٧٢٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣ م٢ ،ص ٧٢٤ .
(٤) السمر القمر : السمرة : منزلة بين البياض والسواد يكون ذلك في ألوان الناس والابل ، والقمرة : لون الى الخضرة (اللسان : مادتا سمر وقمر) .
(٥) الغرر : من الغرة : بياض الوجه (اللسان : مادة غرر) .
(٦) الصفاح : جمع صفحة ، وصفحة الرجل : عرض وجهه (اللسان : مادة صفح) .
(٧) الطرز : البز والهيئة (اللسان : مادة طرز) .
(٨) الذخيرة : ق٣ م٢ ،ص ٧٢٤ .
(٩) المصدر السابق نفسه : ق٣ م٢ ،ص ٧٢٤ – ٧٢٥ .
(١٠) ملس لمس : يريد أنهم لينوا الملمس (اللسان : مادتا لمس وملس) .
(١١) الذخيرة : ق٣م٢،ص ٧٢٥ .
(١٢) المباضعة : الجماع (اللسان : مادة بضع) .
(١٣) الشكر : فرج المرأة ، وفي الحديث : نهى عن شكر البغي أي وطئها (اللسان: مادة شكر) .
(١٤) الحدوج : جمع حدج : وهو من مراكب النساء ، يشبه المحفة (اللسان : مادة حدج) .
(١٥) السأد : المشي (اللسان : مادة سأد) . (١٦) الذخيرة :ق٣م٢،ص ٧٢٦ .

ويتفوق القروي على سابقيه في شدة البحث والاستقصاء في جوانب مختلفة من العلم والمعرفة ، حتى ليربى عن الغاية ، كما يشهد له بالتمكن وسعة الاطلاع ، فها هو يفاخر بمعرفة العرب للخيل وأنسابها وأصولها ، وتعلقهم بها دون سائر الأمم ، ولا سيما أنها رمز للفروسية والشجاعة ، يقول : " الخيل حرثُ العرب وحصادُها ، وعُدَّتُها وأرصادُها ، ليست أمة من سائر الامم الأعجمية تُنَازِعُها ذلك ، ولا تُدَافِعُها عنه ، تسميها بأسمائها ، وتنسبها الى آبائها ، وتعرفها بأصواتها ..."(١) .

ويفخر بأن للعرب اليد الطولى في معرفة علم الهيئة ، ومعرفة الشهور والأيام ، وحساب الدهور والأعوام(٢) ، هذا الى جانب معرفتهم للطب وفضلهم فيه ، حيث " جمعته العرب في كلمتين معلومتين ، ولفظتين محفوظتين ، على رأيها في الاقتصار ، ومذهبها في الاختصار ، فقالت : (المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء)..."(٣) .

ومع تقدم القروي في الرد الا أنه يخفق عندما يتحدث عن العلوم التي افتخر بها ابن غرسية ، حيث يقول : " وفخرت بالرياضة والأرضية ، صدقت ونبت عني في الجواب ، هي كالرياض سريعة الذبول ، كثيرة الجفول ، وأما الاسترلوميقي الهندسية ، فعلم عملي مبني على التقاسيم والتراسيم ، وكله آلات للحالات ، وأدوات للذوات ، ومساحات للساحات " . ويرى أن أصحاب هذا العلم " هم عمال ممتهنون ، وبأشكالها مرتهنون ، والعرب بعيدة عن المهنة ..."(٤) .

---

(١) الذخيرة : ق ٣ م ٢ ، ص ٧٣١ .
(٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣ م٢ ،ص ٧٣٦ - ٧٣٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م٢ ،ص ٧٣٨ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م٢ ،ص ٧٣٦ .

رسائل النقد الأدبي

لقد شارك أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري في التعبير عن حركة النقد الأدبي التي كانت دائرة في الأندلس آنذاك ، فوضح كثيرا من آراء الأندلسيين في الشعر والشعراء والنثر والكتّاب ، وبين مواقفهم من شعراء المشارقة وكتّابهم وأساليبهم .

وفي مقدمة هذه الرسائل " رسالة التوابع والزوابع " التي تعدُّ قصة خيالية (١) يحكي فيها ابن شهيد رحلة قام بها الى عالم الجن برفقة تابع له ، وقد التقى خلالها بتوابع الشعراء والكتّاب ، فساجلهم وساجلوه ، وناقشهم وناقشوه ، وعرض عليهم أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة وكثيراً من إنتاجه الشعري والنثري ، فنال إجازتهم بالتفوق ، وانتزع إعجابهم ، وقد بثَّ فيها الى جانب ذلك طرفاً من السخرية والفكاهة (٢).

لقد قام ابن شهيد في المشهد الأول من رسالته بزيارة الى أرض الشعراء مع أنه يرغب في لقاء الكتّاب الذين يسميهم بالخطباء ، لأنه يرى أنهم أولى بالتقديم من الشعراء ، ولكنه الى الشعراء أشوق . وهذا يدل على موقف نقدي لابن شهيد ، فهو يقدّم الكتّاب على الشعراء ، يقول على لسان تابعه : " فقال لي : حَلَلْتَ أرضَ الجنّ أبا عامر ، فَبِمَنْ تُرِيدُ أنْ نبدأ ؟ قلتُ : الخطباءُ أولى بالتقديم لكنّي الى الشعراء أشوق..." (٣).

وفي أرض الشعراء يلتقي ابن شهيد بعدد من الشعراء الذين يعدُّهم أنداداً له ، معتمداً في ذلك على التدرج التاريخي ، فيلتقي بالجاهليين فالاسلاميين ثم المحدثين ، وهو في هذه اللقاءات يساجلهم ويعارضهم ويذاكرهم ، وينتزع منهم إجازات التفوق والإعجاب . فهذا تابع أبي تمام يقول له : " وما أنتَ إلاّ مُحْسِنٌ على إساءة زَمانِك" (٤)، وهذا

---

(١) انظر : الادب المقارن : ص ٢٢٨، الادب الاندلسي : موضوعاته وفنونه : ص ٦٤١ ، الادب الاندلسي : ص ٣٧٧ .

(٢) لقد أثارت هذه الرسالة تساؤلات جمهرة الباحثين المحدثين ، فاختلفوا حول نشأتها والاصول التي اعتمد عليها الكاتب ، ووجه التأثر والتأثير فيها ، الى جانب شخصية من أرسلت اليه ، انظر في ذلك : النثر الفني: ج١ ،ص ٣٢٠ ، الادب الأندلسي : ص ٣٧٧ - ٣٨٤ ، تاريخ الشعوب الاسلامية : ص ١٧١ ، بلاغة العرب : ص ٤٨ ، نقاط التطور في الأدب العربي : ص ٣٣٠-٣٣١، الادب الاندلسي : موضوعاته وفنونه : ص ٦٧٩ - ٦٨٢ .

(٣) التوابع والزوابع : ص ٨٨ .

(٤) التوابع والزوابع : ص ١٠١ .

تابع أبي نواس يقول عن نصوص شعره التي قرأها عليه : " هذا والله شيء لم نُلْهمه نحن"(١) ، وهذا تابع أبي الطيب يشهد له بالعبقرية ، حيث يقول : " إن امتدَّ به طَلَقُ(٢) العُمُر ، فلابد أن ينفث بدُرر ، وما أراه الا سيَخْتَضر ، بين قريحةٍ كالجمر ، وهِمَّة تضعُ أخمَصُهُ على مَفْرق البدر ..."(٣) .

وينتقل ابن شهيد بعد ذلك الى المشهد الثاني الى أرض الكتّاب ، فيلتقي مع عدد من توابعهم الذين اجتمعوا في مَرْج مجلس أدبي للحكم على كلام اختلف فيه فتيان الجنّ . ولابُدَّ أن نشير هنا الى أن ابن شهيد قد جعل للكتّاب تابعين لأول مرة أسوة بالشعراء(٤) . وهو يلتقي هناك بعدد من توابع أعلام النثر العربي المشرقي ، يتصدرهم الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، فيناقشهم وينتزع منهم إجازات التفوق والإعتراف بالفضل وهو في ذلك يستغلّ الفرصة لإثارة قضية نقدية تتعلق بفنه النثري وهي احتفاله بالسجع ، حيث يقول على لسان صاحب الجاحظ :" إنك لخطيب ، وحائكٌ للكلام مُجيدٌ ، لولا أنك مُغرىً بالسَّجع ، فكلامك نظمٌ لا نثر ..."(٥) . وقد دفع عن نفسه هذه التهمة وبين أنه يجاري ذوق أهل عصره ، ويخاطبهم بما يشهدون له فيه بالتقدم مع أنه على علم بأصول البيان ، وأسبابه ، حيث يقول : " ليس هذا ، أعزك الله ، مِنّي جهلاً بأمر السجع ، وما في المماثلة(٦) والمقابلة(٧) من فضل ، ولكنّي عدِمتُ ببلدي فُرسانَ الكلام ، ودُهيتُ بغباوةِ أهل الزمان ، وبالحَرَا(٨) أن أحرِّكهم بالازدواج ، ولو فرشت للكلام فيهم طَوْلَقا(٩)..."(١٠) .

ولما كان كلامهم " ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق ، ولا للبيان عليه سِمَة ، إنّما هي لُكْنَة أعجميّةٌ يؤدّون بها المعاني تأدية المجوسِ والنَّبط ..."(١١) أجاز له صاحب الجاحظ أن يرميهم " بسجع الكُهّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطيرُ لك ذِكْرا فيهم ."(١٢) .

---

(١) التوابع والزوابع : ص ١١١ .
(٢) الطلق : الغاية التي يجري اليها الفرس (اللسان : مادة طلق) .
(٣) التوابع والزوابع : ص ١١٤ .
(٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ص١١٥-١٣٢ ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري : ص ٣٢٢ .
(٥) التوابع والزوابع : ص ١١٦ .
(٦) المماثلة : هي أن تكون ألفاظ الفواصل والقرائن في الكلام المنثور متفقة في الوزن لا في التقفية (انظر : التبيان في علم البيان : ص١٧٠-١٧٢) .
(٧) المقابلة : هي مجموعة المعاني المتوافقة يؤتى بعدها بما يقابلها على الترتيب ، وقد عدها بعضهم نوعا من الطباق بين الجمع والعبارات ، وليس بين الالفاظ والمفردات (انظر : العمدة : ج٢ ،ص ١٥ - ١٩) .
(٨) بالحرا : يقال بالحرا أن يكون ذلك ، أي بالخليق (اللسان : مادة حري) .
(٩) الطولق : النبات . (١٠) التوابع والزوابع : ص ١١٧ .
(١١) المصدر السابق نفسه : ص ١١٧ .
(١٢) المصدر السابق نفسه : ص ١١٧ .

وهو هنا يجد مجالا واسعا للسخرية من أعدائه وحساده الذين انتقصوا أدبه وبلاغته ، فيذكر عددا منهم ، وينص على أحدهم بصراحة وهو ابن الافليلي[١] الذي يسمي صاحله بأنف الناقة ، وقد أدار معه حوارا نقديا حول قضية الابداع الأدبي . ويسخر من ابن الافليلي الذي يزعم أنه أبو البيان " وأنه تلقى البيان عن المؤدبين (لقد علمنيه المؤدبون . قلت : ليس هو من شأنهم ، انما هو من تعليم الله تعالى حيث قال : الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان علمه البيان "[٢] .

فهو يرى أن الموهبة هي أساس الابداع الادبي ، لذا فهو يجعل الثقافة في مرتبة تالية لها .

ويقف ابن شهيد في محاورته مع صاحب ابن الافليلي عند قضية الجمال الفني في العمل الادبي ، ويجعل معياره قدرة الاديب على حسن الصياغة وبراعة التعبير عن الغرض المقصود ، ويستبعد الصدق من معياره ، يقول : ان مقياس الجودة هو أن " تتناول الوضيعَ فترفَعُهُ ، والرفيعَ فتضعه ، والقبيحَ فتحسِّنُهُ "[٣] .

وهو أثناء محاورته هذه يعرض على ابن الافليلي عددا من روائع رسائله الادبية التي تشهد بفضله وبلاغته كرسالته في وصف برغوث ، ورسالة في وصف ثعلب[٤] . وقد انفض مجلس الكتاب ، وقد أقروا له بأنه شاعر كاتب ، حيث يقول : " فقالا : اذهبْ فانك شاعرٌ خطيبٌ . وانفضَّ الجمعُ والأبصارُ اليّ ناظرةٌ ، والأعناقُ نحوي ماثِلَةٌ "[٥] .

ثم ينتقل ابن شهيد الى المشهد الثالث حيث يحضر وصاحبه مجلسا من مجالس الجن الادبية ، فتذاكر " ما تَعَاوَرَتْه الشعراء من المعاني "[٦] .

ويرى ابن شهيد اتباع المعنى أمرا جائزا ، وأن الشعراء في ذلك نوعان : من يأخذ ويزيد فهو محسن ، ومن يأخذ ويقصر فهو مسيء[٧] .

ولذلك فانه يضع شرطا للأخذ واتباع المعنى حيث يقول على لسان شيخ من الجن يعلم ابنه صناعة الشعر : " اذا اعتمدت معنى قد سبقَكَ اليه غيرُك فأَحْسِنْ تركيبَهُ ، وأرقَّ حاشيتَهُ فاضربْ عنه جُمْلَةً . وإنْ لم يكنْ بدٌّ ففي غير العروض التي تقدَّم اليها ذلك المُحْسِنُ ، لتنشَّطَ طبيعتُكَ ، وتقوى مُنَّتُكَ[٨] "[٩] .

ويدعم ابن شهيد أثناء ذلك آراءه بشعره ونثره ، ويظهر للباحث أنه قد أراد أن يدافع هنا عن آرائه بمعارضة فحول الشعراء . ومهما يكن من أمر فقد جاءت رسالة التوابع والزوابع معرضا يوضح ابن شهيد من خلاله صورة عامة للأدب والأدباء في عصره ، ومظهرا من مظاهر نبوغ ابن شهيد وقدرته على التصرف في فنون القول ، الى جانب عرضه لكثير من القضايا النقدية التي كانت تشغل الأندلسيين في عصره .

---

(١) هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد المعروف بابن الافليلي ، قال عنه ابن حيان : انه بز أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي ، والضبط لغريب اللغة ، وكان غيورا على ما يحمل من ذلك الفن ، كثير الحسد فيه (انظر ترجمته في : الجذوة : ص١٤٩ ، الذخيرة : ق١ م١ ، ص٢٨ . (٢) التوابع والزوابع : ص ١٢٥ . (٣) التوابع والزوابع : ص١٢٩ . (٤) المصدر السابق نفسه : ص١٢٥-١٢٦ . (٥) المصدر السابق نفسه : ص١٣١ . (٦) المصدر السابق نفسه : ص١٣٢ . (٧) المصدر السابق نفسه : ص١٣٢ . (٨) المنة : القوى (اللسان : مادة منن) . (٩) التوابع والزوابع : ص ١٣٥ .

وهناك رسالتان نقديتان ، كتب احداهما أبو محمد بن القاسم وكتب الثانية ابو عبدالله بن أبي الخصال [١] . وقد جاءت الرسالة الثانية ردا على الرسالة الاولى ومناقشة لها ومناقضة .

وقد افتتح أبو محمد بن القاسم رسالته بمقدمة تدل على أنه قد وضعها بطلب من أحد الأدباء للمفاضلة بين الصابي وبديع الزمان [٢] ، وقبل أن يعقد الموازنة بينهما أعطى صورة منصفة للكاتبين الكبيرين البليغين، يقول : " البديع والصابي - أعزك الله - فيما يتجاذبانه من أهداب البيان فرسا رهانٍ ، جريا منه الى مدى فأدركاه ، وتناولاه عن عَفْوٍ فملكاه ... وكلاهما يغرفُ من بحر ويقذِفُ في بحر" [٣] . ثم هو يتحدث بايجاز عن انتاج كل منهما ، وما يمتاز به أحدهما عن الآخر ، ويجعل اصابة الغرض المقصود أساسا نقديا للموازنة بينهما ، يقول : " هذا يبلغُ شَأْوَهُ عفواً ، وذاك يجهد اليه عَدْواً ... فالبديع اذا وقع أبدع ، والصابي اذا صاب أصاب ، بيد أن البديع اذا وَصَفَ رَصَفَ [٤] ، والصابي اذا رام مرامه دَلَفَ اليه وَرَسَفَ [٥] " [٦] . فالبديع في رأيه يصل الى غرضه المقصود بسهولة ويسر وعفو خاطر ، أما الصابي فيرهق نفسه ويكد ذهنه .

ثم هو يعود الى توسيع فكرة الموازنة بينهما فيجعلها تقوم على مرتكز أكبر وهو طريقة التأليف . ويؤثر هنا طريقة البديع ويميل اليها ، اذ أن كلام البديع مطبوع محكم التأليف ، وكلام الصابي متكلف مصنوع ، يقول : " وإنَّ أحقَّهُما عندي بالتقديم وأحْذَقَهُمَا يفْرِي الأديم [٧] من سلمت مباني كلامِهِ عن التكلفِ ، وكرمت معاني نظامه عن التعجرف ، والأعدل في الحكم عن الاقرار بالفضل لأبي الفضل [٨] في سجاحة [٩] الطبع ،ورجاحة الوضع ، ولأبي اسحق [١٠] في قوة آسر [١١] الكلام وشدة النزع [١٢] ".

ويلاحظ الباحث أن ابا محمد بن القاسم يأتي بالعلل والأسباب التي أوجبت تفضيل البديع على الصابي . وهو على الرغم من ميله لطريقة البديع الا أنه لم يفتأ يعدل بينهما ، وينصف الصابي ، يقول : " لا جَرَمَ أنهما فارسا الحَلْبَةِ بالاجتماع، وإماما القوم في حُسْنِ الاختراع ، فإليهما منتهى الحدّ، وعليهما تُثْنَى الخناصرُ في القدّ " [١٣] .

لقد اثارت هذه الرسالة حفيظة ابن أبي الخصال الذي كان من أنصار الصابي . فعندما اطلع على هذه الرسالة رأى أن حكم أبي محمد بن القاسم اطلق اطلاقا عاما مما أوقعه في خطا فاحش في الموازنة بينهما ، وقد دفعت الحماسة ابن أبي الخصال الى الرد عليه برسالة احتجاجية طويلة قدم فيها الصابي على البديع مدعما رأيه بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل

---

(١) سبقت ترجمتهما . (٢) سبقت ترجمتهما ايضا . (٣) رسائل اخوانية أندلسية : ورقة ٣٩ . (٤) رصف : الرصف ضم الشيء بعضه الى بعض ونظمه (اللسان :مادة رصف) .
(٥) رسف: الرسف: مشيء المقيد (اللسان : مادة رسف) . (٦) رسائل اخوانية اندلسية :ورقة ٣٩ . (٧) فرى الأديم يفريه فريا : اذا خرزه وأصلحه (اللسان : مادة فرا) . (٨) أبو الفضل : كنية بديع الزمان . (٩) ابو اسحق : كنية الصابي . (١٠) سجاحة : يقال خلق سجع : أي لين سهل (اللسان : مادة سجح) .
(١١) أسر : يقال أسر فلان الكلام ، أي أحسنه (اللسان : مادة أسر) .
(١٢) رسائل اخوانية أندلسية : ورقة ٣٩ . (١٣) المصدر السابق نفسه :ورقة ٣٩ .

وقد افتتح ابن أبي الخصال رسالته بمقدمة طويلة يفصح فيها عن مقصده وقضيته التي يود مناقشتها ، ويخلص الى القول بأنه " لا يخلو أمراءُ الكلام من أتباع يَمْشُونَ على مَدْرَجِهم ، ويقومون بحجَجِهِم ، ويحمون حماهم ويرمون من رمأهم ..."(١) . ويَخبره بأمر رسالته ، وأنه قد اطلع على ما كتبه ، ويثني على أسلوبه ، الا أنه يعتب عليه أن حمل على الصابي ، ويبين صدى ذلك في نفوس أتباعه ، حيث ملأ هذا الأمر صدورهم " أوصابا(٢) فهم بين جموع منفّضة(٣) ، ودموع مُرفضة(٤) ، ونواظرُ كليلةُ ، وخواطرُ فليلةٌ(٥) ..." .

ثم هو يرى أن الحكم الذي أطلقه في تفضيل البديع كان من باب التسرع وقلة التروي مما أوقعه في خطأ فاحش ، ولهذا فان ابن أبي الخصال يرفض المفاضلة بينهما ، ويرى أن امكانية النظر في أيهما أجود غير ممكنة التحقق لأن " الموازنة كالمبارزة ، انما تكون بالوفاء ومقارعةِ الاكفاء بالاكفاء ... وأبو الفضل وان كان قد سمي بديعاً ولأخلاق البلاغةِ رضيعاً ، لا يُقاسُ بأبي اسحق رأساً ، ولا يُجعل له سُلّماً ، ولا بأسا ... لأنهما وان جمعهما أصل اللسان ... كالثريا وسهيلٍ لا يلتقيان"(٦) .

ويظهر للباحث أن ابن أبي الخصال قد آثر الصابي على البديع من مقدمة رسالته ، وقبل أن يأتي بالعلل والأسباب التي أوجبت هذا التفضيل. وفي مقدمتها انقياد الكلام له ، وطواعية المعاني لسن قلمه ، وقدرته على الكتابة في موضوعات وأغراض مختلفة ، يقول : " أبو اسحق مَعينُ القول مُقْدِمٌ على الهول ، يَصُولُ صَوْلَ القرمِ(٧) في الشَّول(٨) ، ان غضب حسبت الناس غِضَابا ، ورأيت السهول وعوراً وهضاباً ، أو رضي أعاد المشيب شباباً ، وفَتَحَتِ السماءُ أبوابها ، وضَرَبَتِ النجومُ قِبَاباً ...كُتُبُهُ تُغْني عن الكتائب ، وتُقيمُ المجرمَ مقامَ العابد التائبِ ، كم جيوشٍ فَلَّتْ وعزائمَ نَقَضَتْ وَحَلَّتْ ، ورقابٍ كرقابِ الأُسْدِ ذَلَّتْ "(٩) .

ومن تلك العلل ايضا خدمته للخلافة الاسلامية واخلاصه لها ، وهي مهمة خطيرة وعظيمة ، يقول : " وكيف تجارى أقلام أرضعت الخلافة الهاشمية بلبانها ... ونطقت فأفحمت الناطقين بلسانها ، وآخذت على الأيام بطرفي شمائلها وأيمانها ..."(١٠) .

---

(١) ترسل : ورقة ٢٨ - ٢٩ .
(٢) أوصاب : جمع وصب : وهو الوجع والمرض (اللسان : مادة وصب).
(٣) منفضة : متفرقة (اللسان : مادة فضض) .
(٤) مرفضة : يقال ارفض الدمع ارفضاضا ، سال وتفرق وتتابع سيلانه وقطرانه (اللسان : مادة رفض) . (٥) فليلة : مكسورة (اللسان : مادة فلل).
(٦) ترسل الكاتب الفقية : ص ٢٩. (٧) القرم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة (اللسان : مادة قرم) . (٨) الشول : الشول من النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها (اللسان : مادة شول) .
(٩) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٢٩.
(١٠) المصدر السابق نفسه : ورقة ٢٩.

ومن تلك الأسباب التي دفعته الى تفضيل الصابي براعة نثره الذي يمتاز بالرقة والعذوبة فهو " الفستق المقشور ، ووجه الحبيب يملأ عينَ مُحبّه ، ويصوّرُ ويزيدُ في النّسْك أضعافاً وينمع ، وتودُّ الثغور أنها بكلماته الغُرّ تَكْرَعُ (١) أو تُرَصّعُ " (٢) .

وهو الى جانب ذلك يجري في جوهر أسلوبه على طرائق العرب وأساليبهم في الكتابة الفنية وهو بعد على مهيع (٣) العرب وأسلوبها الأبعد الأقرب (٤) .

ويخرج من ضرب الأمثلة ، وذكر الحجج والأدلة على ما يذهب اليه من تفضيل الصابي الى تقويم أسلوب البديع وأدبه ، ويجعله في المرتبة التالية للصابي ، يقول : " لأبي الفضل فضل يُرعى ، وهو بعد أبي اسحق مرعى ... رَجُلٌ لطيفُ الحيلةِ ، مُشَخّص للأوهام المستحيلة (٥) . ان أصاب فرصة قتل ، وان أخطأ ختل ومسح بالذرة والغارب وفتل (٦) . ضيّق من الكلام ما توسّع ... وشعّب وفرع ، واخترع من الأخاليق ما اخترع ... " (٧) .

ثم هو يسرف في الهجوم على اسلوب البديع وطريقته في الكتابة وتلاعبه بالألفاظ وموضوعاته التي طرقها . ويعود ابن أبي الخصال الى نقض فكرة المفاضلة التي أقامها أبو محمد بن القاسم بين البديع والصابي اذ أنه لا يجد مسوغا للمقارنة بين كاتبين لم تجمع بينهما غاية واحدة أو ظروف متشابهة ، ويحتج بمقارنات الجهابذة من المشارقة بين الكتاب والشعراء ، وفي مقدمتهم الثعالبي الذي وازن بين الصابي والصاحب بن عباد ، وقد مدح هذه الموازنة وأثنى عليها . واحتج أيضا بموازنة الآمدي الذي عرف طريقه ، ووازن بين أديبين تشابها في ظروف الحياة هما أبو تمام والبحتري (٨) .

ويناقش ابن ابي الخصال ابا محمد بن القاسم في عدد من الاحكام النقدية والتعابير اللفظية التي وردت في رسالته . ومن ذلك تهمة التكلف والسجع في الاسلوب التي وجهها ابن القاسم الى الصابي ، فرد عليه هذه التهمة ورمى بها البديع ، يقول : " وكيف يَتَعَسّفُ أو يَتَكَلّفُ من يدعو الحِكَم فلا تَتَخَلّفُ ، وتنقادُ له البلاغةُ طَوْعاً وتَتَألّفُ ... وهل نفس التكلف الا ما دفع البديع اليه ، وتبعناه معشرَ الضعفاءِ عليه ، حين عدلنا عن المنهج ، ودخلنا تحت الحرج ، ولو شاء الله بنا يُسراً لوضع عنا من هذه المشقة إصْراً . فالصابي ينسّقُ أعلاقا (٩) ، ونحن نُلَفّقُ (١٠) أخلاقا (١١) ... وعمدة إحساننا حين نعزم انما هي لزوم ما لا يلزم ، ومقابلات

---

(١) تكرع : يقال كرع في الماء يكرع كروعا وكرعا : تناوله بفيه من موضعه (اللسان : مادة كرع) . (٢) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٢٩ .
(٣) مهيع : الطريق الواضح الواسع البين (اللسان : مادة هيع) . (٤) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٢٩ . (٥) أي يبتدع ويخترع أشياء وهمية .
(٦) جاء في أمثال العرب " لم يزل يفتل في الذروة والغارب " وهو في المخادعة ، أي ما يزال يدور من وراء خديعته . (٧) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٣٠ .
(٨) انظر ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٣٠ . (٩) الاعلاق : جمع العلق وهو الثوب الكريم أو الترس (اللسان : مادة علق) . (١٠) نلفق : يقال لفقت الثوب ألفقته لفقا ، أي ضممت شقة الى اخرى أخيطها (اللسان : مادة لفق) . (١١) الأخلاق : جمع خلق أي بال (اللسان : مادة خلق) .

يبدأ بها الكلام ويُخْتَمُ ، يَعثرُ فيها العلم ، ولا يكادُ يُقيمُها اللسانُ والفمُ . فكأننا نُضارعُ[1] الدُّرَّ بضريع[2] ، ونُحاسنُ بالهشيم خُضْرَةَ الربيع ..."[3] .

ويظهر للباحث أن هذا القول يوضح رأي ابن ابي الخصال وموقفه من تقليد المشارقة ، وترسم خطاهم ، فهو يهاجم السجع والتكلف ، وتقليد البديع في هذه الخاصية في وقت كان فيه الأندلسيون يتسابقون لتقليد المشارقة في أساليبهم ، هذا على الرغم من أن الكاتب نفسه سار في هذا الاتجاه الذي يهاجمه .

ومهما يكن من أمر فان ابن أبي الخصال يخلص الى وضع البديع في مرتبة تالية لمرتبة الصابي ، حيث يقول : " وليس على أبي الفضل نقصٌ في كمالِهِ ، لأنه إلاّ يكنْ صاحبَ رضوان فهو تابعٌ بإحسانٍ"[4]

---

(١) نضارع : نشبه ، نجعله كأنه مثله (اللسان : مادة ضرع) .

(٢) الضريع : نبات أخضر منتن خفيف يرمي به البحر وله جوف .

(٣) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٣١.

(٤) ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٣١.

رسائل الفكاهة

يقصد برسائل الفكاهة تلك الرسائل التي تعالج موضوعا جديا بمنوال ساخر ، وذلك بالمبالغة أو التهويل في التصوير والعرض[١] . وقد احتل فن الفكاهة مكانة رفيعة في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فقد كان لتلك الرسائل والمقامات الهزلية والفكاهية التي ابتدعها عدد من كتاب المشارقة من أمثال سهل بن هارون والجاحظ وبديع الزمان وغيرهم والتي انتقلت الى الأندلس فيما بعد أثر كبير في ازدهار هذا الفن في الأندلس حيث استقى الكتاب الاندلسيون منها . وأصبحت طرائقهم في السخرية والفكاهة وخاصة طريقة الجاحظ مطلبا يحاولون بلوغه . ويقول صاحب المسهب في هذا المجال : " ولِشُطّار الأندلس من النوادرِ والتنكيتاتِ، والتركيباتِ وأنواعِ المضحكات ، ما تملأ الدواوينَ كثرتُه ، وتُضحِكُ الثّكْلَى وتُسلّي المسلوبَ قصّتُه ، مما لو سمعه الجاحظُ لم نعلم عنده ما حكى وما ركّب ، ولا استغربَ أحدٌ ما أوردَهُ ولا تَعَجّبَ ..."[٢] .

وتندرج رسائل الفكاهة في الاندلس في نوعين مترابطين : أولهما السخرية التهكمية ، وهي تعد أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاجه من ذكاء حاد وخفة ومكر وبراعة وقدرة على الحيلة والخيال فهي توجه الى شخص أو أمر ما لتحوله الى أضحوكة من خلال ترصد المثالب ، ونفي المحاسن ، وتصل الى حد الاقذاع والهجاء ، وهي بهذا تقوم على السخرية والتهكم والاستهزاء .

أما النوع الثاني فهو السخرية الفكاهية وهي أخف ألوان الفكاهة ، اذ تقوم على وصف لشيء مضحك ، كما هو في ذاته بقصد التسلية والترفيه ، انها سخرية بريئة قصدها التندر والاضحاك والتَّفَكُّه[٣].

ولابد من الاشارة هنا الى أن هذا التقسيم لفن الفكاهة انما هو بقصد الدراسة والتحليل ، اذ أن وشائج القربى والعلاقة بين النوعين قوية جدا ، فكلاهما يبعث على الضحك .

رسائل السخرية التهكمية :

تعد رسالة ابن زيدون التي عرفت بالرسالة الهزلية أشهر رسالة أندلسية في موضوع السخرية التهكمية ، وقد كتبها على لسان ولادة بنت

---

(١) "فن السخرية في شعر الكتاب " مجلة المورد (١٩٧٥)،م٤ ع٢، ص ٣٤ .
(٢) النفح: ج٣ ،ص ١٥٦ . (٣) انظر: الفكاهة في مصر : ص ٣٤-٣٥.

المستكفي الى ابن عبدوس[١] منافسة في حبها ، ليسخر منه ويتهكم عليه ، لأنه أوفد اليها امرأة تستميلها اليه ، وترغبها بالاستجابة لرغبته ، وهي تنبع من حقد شديد وغضب عنيف .

وقد افتتح ابن زيدون رسالته بتعداد نقائص ابن عبدوس ومثالبه ، فهو يرى أنه يدعي ما ليس فيه من خصال الكمال والجمال ، ويصب عليه جام غضبه ، فينعته بالمساوئ والمقابح التي لا حصر لها ، يقول : " أما بعد أيها المُصابُ بعقلِهِ ، المورَّطُ بِجَهْلِهِ ، البيِّن سَقَطُهُ[٢] ، الفاحشُ غَلَطُهُ ، العاثِرُ في ذيل اغتراره[٣] ، الأعمى عن شمس نهاره ... فان العُجْبَ أكذب ، ومعرفة المرءِ نَفْسَهُ أصوبُ "[٤] .

انها سخرية جارفة ، وتهكم مقذع ، فهو يسلب منه كل محمدة ومكرمة مادية ومعنوية ، ويصفه بضعف العقل ، وتشويه الصورة وفساد الخلق . ثم هو لا يلبث بعد ذلك حتى يستعمل أسلوب التهويل والمبالغة في وصف علمه وخلقه لاثارة السخرية منه والتهكم عليه والانتقاص من قدره . ولقد استخدم ابن زيدون هذا الاسلوب مقتديا بالجاحظ في رسالة التربيع والتدوير ، لما في ذلك من نفس انفعالي طويل ، ولما يوفره من فرصة كبيرة لاظهار معارفه في الدين والشعر والاخبار والامثال والفلسفة والطب والفلك والموسيقى والكتابة والمنطق واللغة والتاريخ .

ويلاحظ أن ابن زيدون يجعل السخرية هنا نابعة من نسبة هذه المعارف والعلوم المتباينة الى شخصية ابن عبدوس ، فهو يصوره وقد اجتمعت فيه ضروب المقدرة والمعرفة والاحاطة والشمولية التي ليست بمقدور البشر ، يقول : " ولو شئتَ خَرَقْتَ العاداتِ ، وخَالَفْتَ المعهودات فَأحَلْتَ البحارَ عذبةً ، وأعَدْتَ السَّلام[٥] رَطْبَةً ونقلتَ غداً فصار أمْسًا ، وزدت في العناصر فكانت خَمْسًا ... "[٦] .

ويتابع ابن زيدون سخريته من ابن عبدوس ، وتبلغ أقصاها في تصويره لجسم ابن عبدوس وحركاته ، حيث رسم له صورة كاريكاتورية مضحكة ، يقول " ونَخَرْتَ[٧] فَكَفَرْتَ ، وعَبَسْتَ[٨] وبَسَرْتَ[٩] ، وأبَدْتَ وأعَدْتَ ، .. هجينُ القِذال[١٠] أرعنُ[١١] السِّبال ، طويل العنق

---

(١) هو أبو عامر بن عبدوس ، ولي الوزارة بقرطبة ، وكان يدعي حفظ الشعر وقرضه توفي سنة ٤٨٢هـ . (انظر الذخيرة : ق١ م١ ، ص٤٣٢ ، رايات المبرزين : ص ٣٨ ، المسالك : ج ١٠ ، ص٣٣) . (٢) السقط : ما لا يرضي (اللسان: مادة سقط) . (٣) الاغترار: الغفلة (اللسان: مادة غتر) .
(٤) سرح العيون : ص ٣ . (٥) السلام: الحجارة الرطبة ، واحدتها سلمة (اللسان : مادة سلم) . (٦) سرح العيون : ص ٥ . (٧) نخرت : النخر صوت من الأنف ، أكثر ما يكون عند الغضب والانكار (اللسان : مادة نخر) (٨) عبست : تجهمت (اللسان: مادة عبس) . (٩) بسرت : من البسر وهو القطوب (اللسان : مادة بسر) . (١٠) هجين القذال : الهجين من الناس من في نسبه هجنة ، أي قبح ، والقذال جماع مؤخر الرأس (اللسان :مادتا هجن وقذل) . (١١) أرعن السبال : الارعن : الاحمق ، والسبال : جمع سبلة ، وهي شعر الشفة العليا ، شبهت بسبل المطر لما فيها من التحدر، وخصت الرعونة بالسبال لأنها علامة الرجل (اللسان : مادتا رعن وسبل) .

والعلاوة (١) ... سيء الجابة (٢) والسّمع ، بغيضُ الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ... كثيرُ المعايب ، مشهورُ المثالب ، كلامُك تَمْتَمَةٌ (٣) ، وحديثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وبيانُك فَهفَهَةٌ ، وضحكُكَ قَهْقَهَةٌ (٤) ، ومشيُكَ هَرْوَلَةٌ (٥) ..." (٦) .

ومهما يكن من أمر فانها رسالة تنطق بالانفعال القوي والصريح المعبر عن سخط ابن زيدون وألمه من منافسه في حب ولادة ، ولهذا جاءت مثالا في الهجاء المقذع الذي يفيض بألفاظ السباب والشتم .

ونجد مثالا آخر للسخرية والتهكم في رسالة بعث بها أبو عبد الله ابن مسعود الى ابنه ، اذ توجه الى المغرب ، وقد بلغه أنه خلع عذاره في البطالة والشرب ، وقد أقام رسالته على تقريع ابنه وزجره والتهكم به على نحو ما تهكم ابن زيدون بابن عبدوس ، ويرسم لابنه صورة كاريكاتورية ساخرة ، ولعله يختلف عن ابن زيدون باضافة الاسئلة المعجزة الى رسالته ، وهو يدرك استحالة الاجابة عنها ولكنه قصد من ايرادها أن يجعل من مسألة ابنه اضحوكة ، فيسأله أن يصف له " جنةَ ارم (٧) ، والبركانَ المؤنِسَ (٨) ، وجزيرةَ الغنم (٩) ، وايوانَ كسرى (١٠) وكفر توثى (١١) ، والهرمين والمنارَ (١٢) ، وجبلَ اللّكام (١٣) ،

---

(١) العلاوة : الرأس ما دام على العنق (اللسان : مادة علو) .
(٢) سيء الجابة : أي يسمع الشيء على غير حقيقته (اما من البله أو الطرش (اللسان : مادة ساء) .
(٣) التمتمة : من معايب النطق المعدودة ومعناها التردد في التاء ، وكذلك الغمغمة والفهفهة من معايب النطق أيضا .
(٤) القهقهة : صفة الضحك الكثير ، كأن الضاحب يقول : قه قه (اللسان : مادة قهقه) .
(٥) الهرولة : بين المشيء والعدو (اللسان : مادة هرول) .
(٦) سرح العيون : ص ٧-٨ .
(٧) جنة ارم : ارم هو والد عاد الاولى (اللسان : مادة أرم) .
(٨) البركان المؤنس : لعله يقصد جزيرة البركان ، وهو بركان عظيم يقع بالقرب من صقلية ولا يعلم في العالم أشنع منظرا منه (انظر الروض المعطار : ص ٩٦) .
(٩) جزيرة الغنم : تقع في المحيط الاطلسي ، ويذكر أن فيها من الغنم ما لا يعد ولا يحصى (انظر : الروض المعطار : ص ٦١) .
(١٠) ايوان كسرى : يقع بالمدينة العتيقة من المدائن التي كان ينزلها ملوك بني ساسان (انظر : الروض المعطار : ص ٦٩ - ٧٠) .
(١١) كفر توثى : قرية من كور نصيبين من ديار ربيعة بالشام ، وفيها حصن قديم (انظر : الروض المعطار : ص ٤٩٩) .
(١٢) الهرمين والمنار : أهرامات مصر ، ومنارة الاسكندرية (اللسان : مادة هرم) .
(١٣) جبل اللكام : جاء في الروض المعطار أنه " ليس بمعمور الأرض أطول من جبل اللكام ، فانه يبتدئ من بحر القلزم الى نواحي الشام ، فيسمى هناك جبل لبنان ، ثم ينتهي الى حمص ويجاوزها فيسمى هناك جبل بهراء وتنوخ ، ثم يمر الى أن يجاوز اللاذقية ، ويسمى هناك اللكام" ص ٥١٠ .

... والكهفَ والرقيم (١) ، وحلقَ وادي الاشبونة (٢) ..." (٣) .

ولابن شهيد رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والاهزال قصار طوال ، برز فيها شأوه ، وبقاها في الناس خالدة بعده ، الى جانب ما يشيع في رسالة التوابع والزوابع ، أو شجرة الفكاهة ، كما كانت تسمى أحيانا .

ومن ذلك رسالة في السخرية بابن الافليلي وانتاجه الأدبي ، فهو يقدمه لنا وقد أحاط بضروب من العلوم وأنواع من المعارف ، وفي ذلك مدعاة للسخرية والاستهزاء به ، "فكل علم يَزْعُمُهُ قبض يده ، وكل جدّ وهَزْلٍ فإليه منسوبٌ وعنه مأخوذٌ" (٤) .

ويرسم لنا شكله وحركته وصوته وجلسته في صورة ضاحكة تفيض بالسخرية والتهكم ، حيث يقول : " ليست مشيتُهُ مشيةَ أديبٍ ، ولا وجهُهُ وجهَ أريبٍ ، ولا جِلْسَتُهُ جِلْسةَ عالمٍ ، ولا أنفُهُ أنفَ كاتبٍ ، ... وحكوا أنه اذا مشى الخيزلى ، وتقدّم قليلاً ثم رجع القهقرى ، والقصبةُ في يده ، والخرجُ على عاتقه ، أحذق الناس في اخراج لعبة اليهودي (٥) ..." (٦) .

الرسائل الهَزْلية الفكاهية :

ومن طريف الرسائل الهزلية التي تجري بميدان الفكاهة ، وتنخرط في سلك الدعابة ، تلك الرسالة التي خاطب بها ابن عباس أبا المغيرة بن حزم ، وقد أدارها حول رسول أرسله اليه ، وفيها يقدم ابن عباس صورة فنية فكاهية تفيض بالضحك والسخرية ، وقد عمد فيها الى تتبع صفات الرسول وميزاته في الأعضاء والالوان والصوت بصورة دقيقة بارعة ، فهو ساكن العينين ، تعلو أسنانه خضرة من بقية الطعام ، وتعلو أنفه عقد ، يمشي يتوجع ، ويرتدي ثوبا كبيرا ، ويغطي رأسه بقلنسوة قديمة رثة ، يقول : " أنهى اليّ كتابَك رجلٌ طويلُ القامةِ ، بعينيه ليانةٌ (٧) ، وعلى أسنانِهِ طُرامةٌ (٨) ، وفي شاشيته وضارةٌ (٩) ، وفي منطقِهِ لُكْنَةٌ صعبةٌ ، وعلى أنفه عُقدةٌ كالكُبّةِ ، وفي أطواقه سَعَةٌ ، يخرج منكباه من أقطارها كأنها ثيابُ والٍ ، أو شبارقُ (١٠) راهب تائهٍ ، وفي مشيته تَفَجّعٌ (١١) قبيح كأنه عائم في يَبَسٍ ، وعليه عِفَارةٌ (١٢) شفّافةٌ شبكيةٌ السّيدارة (١٣) ..." (١٤) .

---

(١) الكهف والرقيم : الكهف موضع في الجبل الذي دخله أصحاب الكهف المذكورون في القرآن الكريم فرارا بدينهم ، والرقيم : القرية التي كانت بازاء الكهف وقيل هو الجبل الذي فيه الكهف (انظر : الروض المعطار : ص ٢٧) . (٢) الاشبونة : مدينة بالاندلس من كور باجة (انظر : الروض المعطار : ص ٦) . (٣) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٥-٥٥١ . (٤) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٤ . (٥) يظهر من سياق النص أن المقصود بلعبة اليهودي أن أحد اليهود كان يقوم بلعبة خيال الظل ، ويأتي بحركات غريبة ينال عليها أجرا . (٦) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢٤٢ . (٧) ليانة : سكون (اللسان : مادة لين) . (٨) طرامة : خظرة تركب الاسنان أو بقية الطعام بينها (اللسان : مادة طرم) .

(٩) وضارة : وساخة (اللسان : مادة وضر) . (١٠) الشبارق : الثوب الرقيق أو المقطع (اللسان : مادة شبرق) . (١١) التفجع : التوجع (اللسان : مادة فجع) . (١٢) عفارة : كل ثوب يغطى به شيء (اللسان : مادة عفر) . (١٣) السيدارة : القلنسوة بلا أصداغ (اللسان : مادة سدر) . (١٤) الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٤٥-٦٤٦ .

ويمضي ابن عباس في تصويره الساخر بطريقة تبعث على الضحك والسرور، وتدل على قدرة كبيرة على التلوين الساخر الطروب(١) . وقد رد عليه أبو المغيرة بن حزم برسالة لا تقل فكاهة ودعابة وهزلا عن رسالته، وقد أدارها أيضا على وصف الرسول . وهو يستغرب أن يكون الرسول على هذا النحو الذي وصفه به ابن عباس فعهده " بجبينه كالصحيفة الصقيلة، وخده كمرآة الغريبة ، وعينيه كناظر صقر طاو على قَرَّقب ، وضِفدع ينظر من خلال طُحْلُبٍ ، وأنفَهُ كفرارِ سيفِ إبليس الذي قلّدته به..."(٢).

ويستمر في رسم صورة طريفة لطيفة ضاحكة يقصد من ورائها المداعبة واثارة السرور .

وقد كان لابن شهيد في باب الفكاهة باع معروف كما ذكرنا سابقا، ويشير الى ذلك ابن حيان بقوله : " كان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك "(٣) . ومن ذلك رسالة له في وصف الحلواء قالها يسخر بها من فقيه أكول لقيه في المسجد الجامع ، وقد جعلها في قالب قصصي ، وهي تذكرنا بمقامة بديع الزمان التي تعرف بالمقامة البغدادية التي قالها في السخرية بفلاح منهوم ، الا أن بديع الزمان كان أكثر اصابة لغرضه من ابن شهيد(٤) .

لقد خرج ابن شهيد الى السوق في لمة من أصحابه ، وفيهم فقيه أكول ، وعندما رأى الفقيه الحلوى استخفه الشره ، واضطرب به الوله، وأسال من لعابه ، فأخذ يدور حول ألوان الحلوى وصنوفها ، ويصف كل صنف منها وصفا دقيقا ، وعندما هم أن يأخذ شيئا منها ، تصدى له الحلواني ومنعه بأن " أثبت في صدره العصا ، فجلس القرفصاء ، يذري الدموع ، ويبدي الخشوع ..." . عندئذ أمر ابن شهيد بابتياع أرطال منها . ويرسم ابن شهيد صورة مضحكة لذلك الفقيه الاكول وقد أقبل على التهام أصناف الحلوى التي ابتاعها له حيث " جعل يقطع ويبلع، ويدحو فاه ويدفع ، وعيناه تبصان(٥) ، كأنهما جمرتان ، ... فلما التقم جُمْلَةَ جماهيرها ، وأتى على مآخيرها ... تجشأ فَهَبَّتْ منه ريحٌ عقيمٌ "(٦) .

وقد نحى ابن برد الاصغر برسائل السخرية الفكاهية منحى جديدا في الاندلس ، من حيث الموضوع والشكل . فقد كتب رسالتين يسخر فيهما من البخل والبخلاء ، وقد أقام احداهما وهي رسالة البديعة في تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء ، على أسلوب الجدل والحوار . أما الثانية وهي رسالة النخلة فقد أقامها على الاسلوب القصصي .

---

(١) انظر بقية الرسالة في الذخيرة : ق١م٢،ص٦٤٠ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق١م٢، ص ٦٤٨-٦٤٩ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١، ص١٩٢ . (٤) انظر : النثر الفني : ج٢،ص٣٨٣ . (٥) تبصان : تلمعان (اللسان : مادة بص) . (٦) الذخيرة : ق١م١،ص٢٧٢ . وانظر رسالة هزلية فكاهية لابن طاهر في وصف كاتب لأحد الامراء ، وفيها يرسم له صورة ساخرة في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٧٣ .

ففي الرسالة البديعة رد ابن برد على من عابوه باستعمال جلود الشاء واتهمه بالبخل وألصق به ضروبا من النقائص والمثالب ، وقد أقام معهم حوارا فكريا يدافع فيه عن نفسه ما رمى به من عيب ومثلب ، فهو يشرح هذه القضية ويبين أن استعماله لجلود الشاء ليس لبخل أو شح فيه ، بل لبعد نظر حين رأى فيها فوائد ومنافع جمة ومحاسن كثيرة غابت عن الناس . ويمكن القول بأن هذه الرسالة تحليل لنفسية رجل بخيل وسبر لأغوارها لنطلع على مجاهل مستترة لهذا الضعف الانساني .

ويلاحظ أن ابن برد يبسط وجهة نظر الشخص المنافر له ، حيث يعرض كل تهمة وجهها اليه أو نقيصة ألصقها به ، فلقد اتهمه بالبخل و " بارتخاصِ الأشياء ومقارعةِ الأقوامِ في الشراء ، وقلت لم تُؤثِر ذلك الا للؤمِ الخليقةِ والهمةِ الدقيقةِ" . كما اتّهمه بضعفِ العقل وفسادِ التفكيرِ على غِرارِ المعلمين الذين هم أكثرُ الناس افتراشاً لها " وقد قيل إن العقل لا يرضى عندهم ، فكيف تسلم في حسن الاختيار لهم ، واختيار المرء قطعة من عقله وعيار على نقصه أو فضله " . ويتهمه أيضا بضعف الخُلُق وسوء السلوك لأنه لبس الصوف الذي هو " زي رهبانِ البِيَع ، وأربابِ الخاناتِ ، وهم أضعفُ الناس أخلاقاً وأدناهم طينةً "(١) .

ولم يدخر ابن برد وسعا ولا جهدا في أن يدفع عن نفسه ما رمي به من عيب ونقص ، فيفندها واحدة بعد الاخرى مدعما ذلك بالادلة والبراهين ، وما يحفظه من أقوال السابقين وأعمالهم . فان كان قد اتهمه بالبخل والشح لاستعماله جلود الشياه رد عليه بايضاح فوائدها الكثيرة ومحاسنها الجمة لشخصه من جهة " وأي بساط منها أدلّ على التواضع وأعرب عن القناعة ، وأذما في السّبرة ، وألين في المسّ " .

ولطفله وأهل بيته من جهة ثانية " في التمهيد للطفل الصغير واستعمالها في الخمير في سحرة الليلة القرة ..." . ولضيوفه من جهة ثالثة " وان أدلج اليك ضيف يكرم عليك ، لم يكن بحضوره لوقته عندك منفس تقيس به وتقرنه معه "(٢) .

كذلك ينفي عن نفسه ضعف العقل مبررا استعمال المعلمين لها بسبب رجاحة عقولهم وثاقب نظرهم " المعلمون نظروا الى ضعف سبب اكتسابهم وفكروا في تيسُّر ما تعود عليهم صناعتُهم ، فأخذوا بالأقوى والأرفقِ ، واعتمدوا على الأرخصِ والأوفقِ "(٣) .

---

(١) الذخيرة : ق١م١ ، ص٥٢٣ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق١م١ ، ص٥٢٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١، ص ٥٢٤ .

ثم يدفع عن نفسه تهمة الضعف الخلقي وسوء السلوك ، ذلك أن لبس الصوف ليس وقفا على الرهبان وأهل الحانات بل هو " زي النُسّاك ، ولباسُ المنقطعين للتعبد ، وعمدةُ الطراز الأول من السَلَف "(١) .

ويلاحظ الباحث أن الفكاهة في هذه الرسالة نابعة من الباس الكاتب التافه من الاسباب ثوب الجد والوقار بتصيد العلل والتبريرات القاطعة ، وذلك لتأييد آرائه وأفكاره ، ومن خلال هذه الشواهد والامثلة التي يأتي بها ، ومن ذلك أن استعمال جلد الشاه " لا يحوجك الى خيّاطٍ ينازلُكَ في السَّوْم ، ويُخجلُكَ أمامَ القومِ ، نتح جبينك بعرق الاختلاف اليه ، وذَلّ التكرار عليه ، وهو تَبَخْبَحَ في دكانه ، واشتغلَ عن سوء مقامِكَ باستطابةِ محادثةِ صبيانِهِ ..."(٢) .

ويبدو للباحث أن هذا المنحى من التفكير مرده الى غريزة البخل الكامنة في النفس والتي يجتهد الكاتب في دفعها عن نفسه ، ومن هنا يكون الموقف أكثر هزلا ذلك أن محاولة التبرير هي أكثر اقناعا ، ومثال ذلك حين يدفع ضعف العقل عن المعلمين باستعمال جلود الشياه ، يقول : " ثم علموا أنهم ان تحاملوا على أنفسهم ، وافترشوا ما يزينُهم ، لم يلبث أحدُهُم أن يقومَ عن مجلِسِهِ لبعض الامراء أو لقضاءِ الفرض ، فتقوم حربُ لعبِ الصبيان على ساق ، وتبلغُ بتمزيقِ ذلك الذي افترشه وغالى فيه بالايدي والأقدام والتراب والازدحام ما لا تبلغُ أنيابُ كلابِ القَنَصِ في إهاب العَقيرةِ ..."(٣) .

وتبلغ الفكاهة والهزل في هذه الرسالة أشدها حين يحاول الكاتب تبريرات واسنادات لا مجال للنقاش فيها حين ينقل عن السلف الصالح ورؤساء الحكمة أنه " لم يجعل الله عز وجل من هذا الجنس أقربَ قربان فَدَى به ابنَ خليله ، وسماه ذِبْحاً عظيما في تنزيله ، الا لسرٍّ من فضله سَبَقَ في علمه "(٤) .

فان هذه الرسالة يمكن أن تكون على شاكلة تلك الرسائل التي تمدح الشيء وتذمه من وجهة نظر أدبية ، وهي تذكرنا برسالة سهل بن هارون الى أبناء عمه (٥) التي يحتج فيها للبخل احتجاجا قويا ، فهو يذم الكرم ويزري به ، ويمدح البخل ويثني عليه ، ويعنى فيها ببسط الادلة والبراهين ، ويدلي بأقيسة وقضايا وآثار مروية (٦) .

---

(١) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٣٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ٥٣٣.
(٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ٥٣٤.
(٤) المصدر السابق نفسه : ق١م١،ص ٥٣٣.
(٥) انظر الرسالة في : البخلاء : ج١ ،ص٣٣ .
(٦) انظر : بلاغة الكتاب : ص ٢٦٣ ،النثر الفني : ص ١٦٦.

أما رسالة النخلة فقد أدارها كما ذكرنا حول السخرية من البخل والبخلاء ، وأراد من ورائها اظهار مدى اطلاعه وثقافته في اطار قصصي، حيث تحدث فيها عن صديق له وعده وأصحابه بشيء من طلع نخلته ، ولما حان وقت الطلع أقدم صاحب النخلة بليل بهيم وجز طلعها ، وعندما ظهر الرطب في السوق ورآه أصحابه كتب اليه ابن برد هذه الرسالة يذكره بوعده الذي سبق ويسخر منه وينعته بالبخل[1] .

ولما كان غرض الرسالة التندر بالبخلاء وبغريزة البخل ، فقد حفلت بقسط من الفكاهة في مثل قوله مخاطبا صاحب النخلة : " ولا تخش منا ما أفسد به ابن الزبير عماله حين قال لهم : (أكلتم تمري وعصيتم أمري)[2] اذا نحن أكلنا منها فمرنا نناصب عنك أعداءك برا وبحرا ، ولا نعص لك أمرا " . وأطرف من ذلك قوله عندما يسخر من قلة وفاء صاحب النخلة وقلة احترامه لاصدقائه و بخله الشديد في صورة من الوقار والجدية تبدو في الظاهر بعيدة عن الهزل والاضحاك ، يقول : " فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه ، وصلى الله على محمد ولا صدّنا عنه ، فانه يقول : " نِعْمَتِ العمّة لكم النخلةُ " ، والخطاب لجميع المسلمين . وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم ، وتُمْسِك معروفها عنهم ، ونحن رجال من بني أخيها ، أتينا نعتفيها[3] ، فان أنت سوّيتنا مع نفسك فيما تَدُرّ به عليك ، وتملأ منه يديك . والا نافرناك الى السلطان ، وألّبْنا عليك أبناء الزمان "[4] .

ولقد اتخذ ابن برد من هذا الموضوع وسيلة لاظهار ثقافته ، حين تصيد الموقف ومضى مستطردا يتحدث عن النخل وأسمائه وصفاته[5] .

---

(١) يبدو أن ابن برد قد استوحى قضية هذه الرسالة من قصة عرقوب الذي يضرب به المثل في خلف الوعد ، وقد استغل ابن برد قضية عرقوب ليتندر بصفة البخل وخلف الوعد معا (انظر : عيون الاخبار : ج٣ ، ص ١٤٧) .

(٢) ذكر البلاذري أن مصعب بن الزبير قال ذلك لعامله على وادي القرى ويقال أنه قالها لشيوخ من العراقيين وجههم اليه مصعب (انظر : الانساب : ج ٥ ، ص ١٩٤) .

(٣) العتوف : النتف (اللسان : مادة عتف) .

(٤) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٣١ .

(٥) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٣٠ .

الرسائل الوصفية

يعد الوصف من أهم الموضوعات التي عالجها أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، فلم يكن لونا أدبيا مستقلا فحسب ، بل كان عماد أكثر موضوعات أدب الرسائل من سياسية واجتماعية وصراع مع الصليبيين ، وشوق ديني . ولهذا لا يعدو الباحث الحقيقة ان قال ان أدب الرسائل - الا أقله - راجع الى باب الوصف .

وسيقف الباحث في دراسته هذه عند بعض الرسائل المستقلة التي تعالج الوصف دون غيره ، كرسائل وصف الطبيعة ، والطرديات والرحلات . فلقد اشتهرت الاندلس بطبيعتها الساحرة ، ومفاتنها المتعددة ، وبساتينها الوارفة ، وأنهارها الجارية ، وحيواناتها الجميلة ، وروعة قصورها ، وسحر مناظرها(١) . وقد كان من أثر هذه الفضائل والمحاسن ان جذبت انظار الكتاب الاندلسيين ، كما جذبت انظار الشعراء ايضا ، فهاموا بها ، وأقبلوا عليها في شغف شديد ، يتغزلون فيها ، ويتغنون بمحاسنها ، ويصورون فضائلها ، ومفاتنها . فازدهرت لذلك رسائل وصف الطبيعة ، ولم يكن مجال الطبيعة الاندلسية هو وحده الذي ساعد على ازدهار رسائل الوصف ، بل كان لحياة الكتاب الاندلسيين اللاهية التي عاشوها في أحضان الطبيعة أثر كبير في ازدهار هذا اللون من الرسائل ، فوصفوا الطبيعة الاندلسية في جميع مباهجها ومظاهرها ، برياضها ومتنزهاتها وأشجارها وأثمارها وأطيارها وأنهارها ، وما يتصل بذلك من نسيم ورياح ومطر(٢) ، كذلك فقد وصفوا رحلات الصيد وما كان يجري فيها من صيد الحيوان والطير ، وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها ، وكانوا يصفون سرورهم بالصيد ، (وما كانوا يحسون به من سعادة وسرور)(٣) ، كذلك فقد وصفوا تلك الرحلات التي جابوا بها أنحاء الاندلس ، وبينوا ما كان يواجههم من مصاعب وأهوال ، وما شاهدوه من عادات وتقاليد وسلوك ، وما الى ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية(٤) .

وصف الطبيعة :

ان نظرة شاملة للطبيعة الاندلسية ، ووصف الكتاب لها ، تدفع الباحث الى أن يقسمها الى البابين التاليين : وصف الطبيعة الصامتة ، ووصف الطبيعة الصائتة .

---

(١) انظر : عجائب المخلوقات : ص ٣٧١ ، النفح : ج١ ، ص ١٤٠ ، ١٩٨ - ٢٠٠ .
(٢) انظر : البديع : ص ٨ - ٩ ، ٢٢ ، الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٥٤٣ - ٥٥٤ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٨ ، النفح : ج١ ، ص ٥٣٤ .
(٣) انظر : الخريدة : ج٣ ، ص ٥٣٩ ، ج٢ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .
(٤) انظر : الذخيرة : ق ٣م١ ، ص ٤٢٩ - ٤٤٣ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٣١٠ .

وصف الطبيعة الصامتة :

لقد وصف الاندلسيون من طبيعتهم الصامتة الربيعيات والروضيات ، والزهريات والثمريات ، ووصف مطر بعد قحط ، كما وصفوا الظواهر الطبيعية العامة كالليل والنهار والقمر والنجوم والرعد والبرق وما اليها :

الربيعيات :

احتل فصل الربيع منزلة رفيعة في أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، حتى لقد ألف أبو الوليد الحميري في ذلك كتابا جمع فيه ما قاله الشعراء والكتاب الاندلسيون في وصف الربيع ومظاهره ، سماه "البديع في وصف الربيع" .

وقد رسم الكتاب الاندلسيون لوحات فنية رائعة كثيرة تصور مشاهد الربيع الجميلة ، وتنطق بما فيه من سحر وجمال ، ومن ذلك رسالة لأحد الكتاب جاوب بها أبا عامر بن أبي عامر ، وقد كتب اليه يسأله اباحة الخروج له الى بعض ضياعه للتنزه في فصل الربيع ، ويصف مشاهد الربيع الجميلة ، ويجعل ذلك في اشراقة الأرض ، ونضارة الرياض ، وغناء الطيور ، واختلاف ألوان الزهر ، وأوراق الشجر ، وما الى ذلك من خضرة ساطعة وثمار يانعة ، حيث يقول : " وأقبل الربيع بكل حُسْنٍ بديع ، وأفصحت الطيرُ بعد عُجْمَتِها ، وأبْدَتِ النواويرُ غرائبَ زهرتِها ، وكستِ الوُرْقُ شَجَرَها ، وغطّت الزروعُ قدرها ، فلست ترى الا خُضرةً تَسْطَعُ ، وثمارًا تَيْنَعُ"(١) .

ويتوقف عند أثر هذه المناظر الجميلة في نفوس الناس ، فهي تسروح عن النفس الصدأ ، وتدفع عنها الحزن والأسى مما تبعثه من بهجة وسرور ، يقول : " تجلو الصدى من الكبدِ الحرّى ، وتزيحُ الأسى عن النفوس المَرْضَى"(٢) .

ويصف عبدالوهاب بن حزم سحر الطبيعة الاندلسية في الربيع متمثلة في الارض والاشجار والدنيا ، وما يتصل بها من مظاهر الجمال التي تأتي مع الربيع ، ويجعل ذلك لونا من التعاطف بينه وبين الربيع وما يبعثه من حياة في الطبيعة ، " فالأرضُ قد نشرت مُلاءَها ، وسحبتْ رداءها ، ولبست جِلْبَابَها ... وبرز الوردُ من كِمامِهِ ، واهتزّ الروضُ لتغريدِ حمامِهِ ، والاشجارُ قد نشرت شعورَها ، وهزّت رؤوسَها ..."(٣) .

لقد شخص الكاتب الطبيعة وبث فيها الحركة والحياة ، وخلع عليها المشاعر الانسانية .

---

(١) البديع : ص ٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ص ٨ - ٩ .
(٣) الذخيرة : ق ١ م١ ،ص ١٥٤ .

أما ابن خفاجة فانه يعبر عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة في صورة بديعة تمور بالحركة ، وكأنه حفل عرس ، أو منتدى غناء ، تشترك فيه كافة مظاهر الطبيعة ، وهي بين مطرب للسمع ، ومبهج للنفس وممتع للنظر ، يقول : " هذا يوم ضُرِبَتْ فيه أروقةُ الأنواءِ ، وأعْرَسَتِ الارضُ فيه بالسماءِ ، فالغصنُ يتلوّى ويتثنّى ، والحمامة تُرَجِّعُ وتتغنّى ، والماء يرقص من طربٍ ويصفّقُ ،..." (١) .

انه يعبر عما يحس به من احساس كبير بهذا الجمال والسحر ، ويجعل الطبيعة تشاركه الفرحة والسرور ، ثم هو يدعو صديقه الى مشاركته في الاستمتاع بمظاهر الطبيعة ، وما فيها من سمات البهجة وأسباب الفرحة ، يقول : " فان رأيتَ أنْ تكونَ في من شَهِدَ هذا الإفلاك(٢) ، وتَحْضُرَ في من حضر هناك ، أَجَبْتَ منعماً " (٣) .

كذلك حظيت الرياض باهتمام الكتاب بها ، فوصفوا مفاتنها ومواطن الروعة فيها . ومن أبرز الرسائل في هذا المجال رسالة لابن الدباغ يصف فيها احدى الرياض التي كان يتردد عليها مع رفاقه في أيام الربيع ، حيث الازهار المختلفة الالوان ، والاشجار الوارفة الظلال ، المتشابكة الاغصان ، والاطيار التي تَصْدَحُ بألحانها العذبة ، يقول : " كتابي هذا من وادي الزيتون ، ونحن فيه مختلفون ، ببقعة اكتست من السندس الاخضر ، وتحلّت بأنواع الزهر ، وتخايلت بأنهار تتخلّلُها ، وأشجار تُظَلِّلُها ، تحجبُ آدواحُها الشمسَ لالتفافِها ، وتأذنُ للنسيمِ فيميلُ أعطافَها..." (٤) .

ومن الامثلة على ذلك ايضا رسالة لابن خفاجة في وصف روضة غناء من تلك الرياض التي كان يتردد عليها مع رفاقه أيضا . ويبين ما فيها من أنهار جارية ، ونسيم عليل ، وظل ظليل ، وخضرة ممتدة ، يقول : " فاحْتَلَلْنا قبةً خضراءَ ، ممدودةً أشطانِ الاغصان ، سُندسيةً ، رِواقَ الاوراق ، وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ونشتمل عليه برداءِ نسيمٍ عليلٍ ..." (٥) .

وقد كانت تلك الرياض مسرحا لحياة الكتاب اللاهية ، فكانوا يلجأون اليها ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها بعد التطواف والتجوال الطويل في بلاد الاندلس ، فيمتعون أنظارهم بجمالها ، ويقيمون في رحابها مجالس الانس والشراب ، ولهذا فقد ارتبطت هذه المجالس بالطبيعة الاندلسية . ومن الرسائل التي جاءت في هذا الموضوع رسالة لابن الحناط يصف فيها مجلس لهو أقيم وسط احدى الرياض الجميلة ، وقد حضره مع بعض ندمائه ، " حيث جعلت الكأسَ تدورُ ، ولا حديثَ لسقاتها ، غيرَ هاك وهاتِها " (٦) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م٢،ص٥٤٦ . (٢) الافلاك : الفلك : المستدير من الارض (اللسان : مادة فلك) . (٣) الذخيرة : ق٣م٢،ص٥٤٦ . ويجد الباحث أمثلة أخرى على هذا اللون من الرسائل في : البديع : ص٢٢ . (٤) النفح : ج١ ،ص ٥٣٤ .
(٥) الذخيرة : ق٣م٢،ص٥٤٣-٥٤٤ . (٦) الخريدة : ج٢،ص ٢٩٨ .

الزهريـــات والثمريـــات :

لقد التفت الكتاب الاندلسيون الى الورود والازهار من ورد ونرجس وسوسن وخيري وبنفسج وآس وغيرها مما زانت حدائق الاندلس وجنانها، فألبست الطبيعة ثوبا سندسيا زادها حسنا ورونقا ، وقد افتتن الكتاب في وصف ألوانها الزاهية ، وعبيرها الفواح ، وعطرها الشذي ، وخلعوا عليها صفات الحسن والبهاء والجمال . ولقد تجاوز الاعجاب حد الوصف الى اقامة مناظرات ومفاضلات بين مختلف الازهار ، كما مر بنا سابقا.

وقد جعل بعض الكتاب وصفهم خاصا بزهرة واحدة ، كما صنع أبو الوليد ابن العثماني[1] الذي تحدث عن جمال الخيري منظرا ومخبرا ، وجعله في مقدمة الازهار ، يقول : " بعثتُ بخيري جاز حدّ التكبير بأنسِه فحاز قَصَبَ السَّبْقِ في أبناءِ جنسِهِ ، منظرُهُ أَرْبَى على المِسْكِ بنضرتِهِ ... بَهِجاً منظرُهُ أرِجاً مَخْبَرُهُ "[2] .

ولأبي الوليدالحميري من رسالة في وصف الورد ، وقد ربط بين لون الورد ولون خدود المعشوقين التي آدمتها ألحاظ العاشقين ، يقول : " بعثتُ بخدود المعشوقين ، قد آدْمَتْها ألحاظُ العاشقين .."[3] .

وقد وصف بعض الكتاب حشدا من الازهار والورود[4] ، ومن الامثلة على ذلك ما جاء في رسالة لابي جعفر بن أحمد الذي أعجب بالانوار على اختلاف اشكالها ، والازهار على تنوع ألوانها ، يقول : " فَمِنْ أَنْوُرٍ أيْنَعَتْ ، وأزهارٍ تَنَوَّعَتْ : ضمن وردٍ كتوريدِ الخدودِ ، ونرجسٍ كمقلِ الغيدِ، وسوسنٍ كأنه راحةُ ثَنَتِ البنانَ على قُراضَةٍ من العِقْبان ... وخيري كأنما استعار شكلَهُ أو اختار بذلةَ المحزون ، وبنفسج حكى زُرْقَ اليواقيت ..."[5].

لقد خلع عليها حيوية وحركة وجمالا فالورد محمر كالخدود ، والنرجس كعيون الفتيات الجميلات ، والخيري كأنه بنان انثنى على قطعة ذهب، والبنفسج أزرق كالياقوت .

وكما وصف الكتاب الاندلسيون الازهار والورود ، وصفوا الثمار، الا أنها لم تحظ بتلك المكانة التي حظيت بها الازهار فيما انتهى الينا من رسائلهم ، ولعل ذلك يعود الى أن الازهار والنواوير والورود شيء جمالي بألوانها ورائحتها وأشكالها ، وتثير في الكاتب انفعالات ومشاعر وأحاسيس أكثر مما تثيره وتحركة الثمار التي هي غالبا ما تكون مادة طعام وتفكه[6] .

---

(١) ابو الوليد بن العثماني ،كان صاحب الشرطة باشبيلية زمن المعتضد بن عباد (انظر : البديع : ص ١١٣) . (٢) المصدر السابق نفسه : ص١١٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ص١٢٩ . (٤) يجد الباحث أمثلة على ذلك في : البديع : ص ٣١ ، الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٤٦٩ - ٤٧٠ . (٥) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٧٦٢ .
(٦) انظر : الشعر في ظل بني عباد : ص ١١٣ .

وقد وصف الكتاب الاندلسيون بعض الثمريات ، كالتفاح والأترج ، ومن ذلك ما كتبه ابن خفاجة الى صديق له ، وقد بعث اليه تفاحا ، حيث يصور ابن خفاجة التفاحة تصويرا جميلا ، يجعله أفضل سفير ورسول بينه وبين صديقه ، فصديقه يعلم " أن خيرَ الهدايا ما جرى مجرى التَّحَايَا ، وأن أفضلَ سفيرٍ سَفَرَ بين صديقين ، وتردَّدَ بين عشيقين ، سفيرُ أشْبَهَ المحبَّ خِفَّةَ روحٍ ، والمحبوبَ عَبَقَ ريح "(١) . ويشبه لون التفاحة بلون الخمرة الحمراء ، أو دمعة المحب ، أو جمرة نار متقدة ، أو خمرة تشرب جامدة ، وأنه لم ير مثلها في اللون ، فلونها يفوق لون الذهب الصافي ، أو اللهب اللافح ، يقول : " مثل حمراء عاطرة ، كأنها دمعةُ صبٍّ ، مُشْتَقٌّ من الأَرَجِ اسمُها ... لم أرَ مثلَها ذهباً يَنْفَسِحُ ، ولَهَبًا لا يَلْفَحُ ... "(٢) .

ولابن خيرة القرطبي من رسالة يصف فيها ارتجة بعث بها الى أحد أصدقائه ، وقد التقطها من أحضان الورق ، يقول : " وقد بعثت اليك من بنات الثمار أجملها ، ومن نتاج البستان أفضلها ... " ، ثم هو يصف خصائلها العجيبة وصفاتها الغريبة ، " فان خزنتها عَطَّرَتْ أثوابك ، وان أمسكتها أذهبت أَوْصَابَك(٣) ... يا لها من أُتْرُجَّةٍ غَضَّةٍ ، قد صُوِّرت من ذهبٍ وفضةٍ "(٤) .

وصف مطر بعد قحط :

ويقصد بها تلك الرسائل الوصفية التي تعبر عن صفة الأرض حالة جدبها وقحطها ، وما يكون من حال الناس في مثل هذه الظروف الصعبة ، ثم وصف الارض حالة اخضرارها عقب نزول الغيث . وهي بذلك تقوم على الموازنة والمقابلة بين حالتي الارض في الجدب والخصب . وقد أورد ابن بسام عددا من هذه الرسائل تحت عنوان " صفة مطر بعد قحط "(٥).

ومن هذا اللون من الرسائل رسالة لابي عمر الباجي ، وقد بدأها بالتسليم الكامل لقضاء الله تعالى وقدرته ، الذي لا يتصرف الا بحكمة بالغة لا يدركها البشر ، ويعبر عن اعجابه بسلطان الله وارادته الحكيمة ، فاذا ما انقطع المطر وحل الجدب فلحكمة بالغة ينبغي أن يلتفت الناس اليها ، يقول : " ان لله تعالى قضايا واقعةً بالعدل ، وعطايا جامعةً للفضل ، ومنحاً يبسطُها اذا شاء إنعاماً وترفيها ويقبضها اذا أراد تنبيهًا والهاما ، ويجعلها لقومٍ صلاحاً وخيرًا ، وعلى آخرين فساداً أو ضَيْرًا "(٦) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م٢،ص٥٤٥ . (٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م٢ ،ص ٥٤٥ .
(٣) أوصاب : جمع وصب وهو الوجع والمرض (اللسان مادة وصب) .
(٤) الذخيرة : ق١م٢،ص ٧٥٥ . (٥) الذخيرة : ق٢م١ ،ص ١٩٦ ، ٢٨٩ .
(٦) القلائد : ص ١٠٣ .

ويربط بعد ذلك حال الأرض المجدبة ، بوصف أحوال الناس في هذا الجدب ، وما يبدو عليهم من هلع وخوف وبأس وجزع ، يقول : " وانه كان من امتساك السقيا ، وتوقف الحيا ، ما ريِّعَ به الآمن ، واستُطيرَ به الساكنُ ، ورجَفَتِ الاكبادُ فزَعاً ، وذُهلَتِ الالبابُ جَزَعاً ، ... ومَنَعَتِ السماءُ دُرَّها ، واكتست الأرياضُ غُبْرةً بعد خُضْرةٍ ، ولبست شحوباً بعد نضرة (١) .

انه يربط بين مظاهر الجدب المادي ومظاهر الجدب الروحي ممثلا في الارتجاف والفزع والذهول والجزع ، وكما يلاحظ فان الكاتب يعتمد على المقابلة بين الصور ليعطي صورة دقيقة معبرة موحية لحالة الغبرة والخضرة ، والشحوب والنضرة ، وهي صورة تقوم على اللون الدال الموحي .

ويتحدث بعد ذلك عن حال الأرض حال اخضرارها ، وقد اهتزت الازهار والثمار والطيور والسحر ، ويصور تجاذب مشاعر الناس مع مظاهرها الخلابة ، فبعد أن أرسل الله الغيث أصبحت " الارضُ مشهورةً ، وحُلَّةُ الزهر منشورةً ، وَمِنَّةُ الربِّ موفورةٌ ، والقلوبُ ناعمةٌ بعد بؤسها ، والوجوهُ ضاحكةٌ بعد عُبُوسِها ، وآثارُ الجزع ممحوّةٌ ، وسُوَرُ الحمد مُتْلُوّةٌ " (٢) .

لقد أدى زوال الجدب المادي الى زوال الجدب الروحي ، فأصبحت القلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها ، وآثار الجزع والهلع ممحوة ، وآيات الشكر والحمد متلوة .

وممن كتب في هذا الموضوع أيضا أبو القاسم بن الجد ، وقد افتتح رسالته بما افتتح به أبو عمر الباجي رسالته من تسليم كامل بقضاء الله وقدرته ، واعجابه بارادته الحكيمة في التصرف بشؤون الكون فما يحدث أمرا الا لحكمة بالغة ينبغي أن يلتفت الناس اليها (٣) .

ولقد وصف الارض المجدبة ، ووضح أثر ذلك في نفوس الناس ، حيث ساءت بتثبيط الغيث الظنون ، وانقبض بتثبط الشك اليقينُ ، واستراببت (٤) حياضُ الوهاد ، معهود العهاد (٥) ... واكتحلت أجفانُ الأزهارِ بماء ثمد (٦) النقاع ، وتعطلت الانوار من حُليِّ الدِّيمةِ المدرار " (٧) .

ويصف ايضا صورة الارض بعد نزول الغيث ، ويربط بينها وبين مظاهر الفرح والسرور التي نعم بها الناس بعد زوال الجدب " فيا بَرْدَ موقعها على القلوب والاكباد ، ويا خُلُوصَ ريِّها الى غُلل النفوس الصَّواد (٨) " (٩) .

وقد عرضت على أبي محمد بن عبدالغفور رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمتين – كما يقول ابن بسام – فعارضهما برسالة طويلة أوردها ابن بسام ، وهي لا تخرج عن النهج الذي سار عليه صاحبا الرسالتين السابقتين (١٠) .

---

(١) القلائد : ص ١٠٣ . (٢) المصدر السابق نفسه ص ١٠٣ . (٣) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٨٩ . (٤) استرابت : امتلأت ترابا . (٥) العهود والعهاد : جمع عهدة : وهي مطر بعد مطر ، مدرك آخره بكل أوله (اللسان : مادة عهد) . (٦) الثمد : الماء القليل الذي لا ماد له (اللسان : مادة ثمد) . (٧) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ . (٨) يقال صدنا ماء السماء أي أخذناه (اللسان : مادة صيد) . (٩) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٩٠ . (١٠) انظر المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٤ .

وينم هذا اللون من الرسائل عن ظاهرتين أدبيتين ، أولاهما أنه كان للطبيعة الاندلسية اثر كبير في نفوس الكتاب الاندلسيين ، وقد أدى ذلك الى امتزاج مشاعرهم بمظاهر الطبيعة المختلفة ، حتى لكأن الطبيعة نفوسهم ورسائلهم ، فلقد شاركوها في غبرتها وخضرتها وشحوبها ونضرتها ، وتجاوبوا معها ، وصاغوا ذلك في رسائل رائعة .

أما الظاهرة الثانية فهي انتشار ظاهرة المعارضات الادبية بين المترسلين ، أو ما يعرف بظاهرة السلاسل الأدبية ، حيث كانت رسالة تثير عدة رسائل ، أي تجر الرسالة الواحدة رسائل اخرى ، حين يدخل حلبة النزال كتاب آخرون بقصد اظهار براعتهم واقتدارهم في القول، ثم مجاراة الرسالة الاصل ، ومحاولة التفوق عليها .

أوصاف اخرى :

لقد وصف الكتاب الاندلسيون كثيرا من الظواهر الطبيعية العامة كيوم مشمس ، ونهار ممطر ، والليل والنجوم والكواكب والقمر ، وما اليها من ظواهر طبيعية عامة .

ومن ذلك تلك اللوحة الرائعة التي رسمها ابن خفاجة ليوم غائم، حيث وصف الارض والسماء عند تجمع الغيوم ثم نزول المطر ، وما في ذلك من الوان الجمال والبهاء ، يقول : " ولما أكبَّ الغمامُ إكباباً ، لم أجدْ معه إغباباً ، واتصل المطر اتصالاً ، لم آلف معه انفصالا ، أذن الله تعالى للصحو أن يُطْلِعَ صفحته ، وينشُرَ صحيفته ، فقشعت الريحُ السحابَ ، كما طوى السجلُّ الكتابَ ، وطفِقَتِ السماء تخلعُ جلبابَها ، والشمسُ تحطُّ نقابَها ، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروسٌ تجلّت"(1) .

ثم عبّر عن أحوال الناس في هذه الاجواء الجميلة وما يبدو عليهم من فرح وسرور وتجاوب مشاعرهم وقلوبهم مع مناظر الطبيعة الجميلة ، يقول وقد اندفع وصحبه طلبا للراحة والفرجة : " ذهبتُ في لُمَّةٍ من الاخوان نستبقُ الى الراحة ركضاً ونطوي للتفرّج أرضاً وننشُرُ أرضاً"(2) .

ونجد مثالا آخر في وصف يوم ممطر لابن برد الاصغر ،حيث صور اليوم وغيومه وأمطاره ، وما كان من احتجاب شمسه ، يقول : " اليومُ يومٌ بكت أمطارُهُ ، وضحكت أزهارُهُ ، وتقنعت شمسُهُ ، وتعطّر نسيمُهُ"(3).

كذلك فقد وصف الكتّاب النهار ، ومن الامثلة على ذلك ما كتبه أبو المطرب بن الدباغ في وصف نهار مضيء ، يكاد من جماله وطيبه يمطر صحوه ، ويحرك باعتدال حرارته الأفعى ، ويبعث بجماله وحسنه النشوة والطرب في الحليم ، ولقد دفع هذا الجو الجميل ابن برد الى عقد مجلس لهو وطرب حضره عدد من ندمائه وأصحابه ، يقول : " طلع علينا هذا اليومُ ، فكاد يُمطرُ من الغضارةِ صحوه ،ويغشي من الإنارة جوه ، ويحيي الرميمَ اعتدالُهُ ، ويصبي الحليمَ حُسْنُهُ وجمالُهُ ، فَلَفَّتْنا زهرتُهُ ، ونَظَمَتْنا بهجتُهُ في روضةٍ خَلَعَتْ عليها السماءُ سبائبَها ، ونَثَرَتْ عليها كواكِبَها"(4).

---

(1) الذخيرة : ق1م2 ،ص 543 . (2) المصدر السابق نفسه : ق1م2 ، ص 542 .
(3) المصدر السابق نفسه : ق1م1 ،ص 502 . (4) القلائد : ص 108-109 .

ووصف الكتاب الاندلسيون الليل وظلمته وما يتصل به ، على الرغم مما لليل من وحشة ورهبة ، فهم لا يجزعون منه ، ولا يترقبون طلوع الفجر . بل لقد وصفوا محاسن الليل وفوائده ، حيث يتيح لهم اقامة مجالس الانس واللهو والمجون ، فيمتعون أنفسهم غير حافلين بعذل العاذلين ، كما يذكر ابن برد في رسالة وجهها الى أحد أصحابه ، يقول: " فالزيارة في الليل أخفى ، وبالزائر والمَزُور أخفى ، وقد سَدَلَ حجابُه ، ووقع غرابُهُ ، وتَبَرْقَعَتْ نجومُهُ بغيومِهِ ، وتَلَفَّعَتْ كواكبُهُ بسحائبِه ، فاهْتِكْ الينا ستره ، وخُضْ نحونا بحره ، ولك الأمانُ من عين واشٍ تَرَاكَ، وشخصٍ رقيبٍ يَلْقَاكَ" (١) .

ورسم ابن أبي الخصال لوحة رائعة لعدد من مظاهر الطبيعة في الليل ، حيث وصف شدة البرد ، وقسوة الرياح وتلاعبها بالسراج ، ووصف الليل وسواده الحالك ، ونجومه الذهبية ، وأمواجه المتلاطمة حيث يقول : " والقَرُّ منازل ، والريح تَلْعَبُ بالسِّراج ، وتَصُولُ عليه صَوْلَةَ الحجّاج (٢) ، فطوراً تسدِّدُهُ سناناً ، وتارةً تحركُهُ لساناً ... والليل زنجي الأديم ، تِبْرِيُّ النجوم ، قد حَلَلْنا ساحَهُ ، وأغرقتنا أمواجُهُ ، فلا مجالَ للحظِه ، ولا تعارفَ الا بلفظِه ..." (٣) .

ووصف ابن حسداي القمر وقت ظهوره ، حيث يكون ساطع الضوء ، يجلو الظلمة ، ويهدي الساري الى الطريق ، كالحال في القمر يطلع في لياليه البيض ، ساطع السناء ، باهر الوميض ، يجلو الدياجير ، فيهدي الساري " .

كذلك وصف القمر عند غيابه " فاذا غرقت أعقابُهُ ، وتكامَلَ غيابُهُ فَقَدَتْهُ النجومُ ، فاعتراها الوُجُومُ ، ولفَّها الليلُ في مُلاءةِ ديباجِه ..." (٤) .

وصف الطبيعة الصائتة :

ذكرنا سابقا أن الكتاب الاندلسيين قد أقبلوا على وصف الطبيعة الحية (الصائتة) ممثلة في الخيل والبغل والحمار والثعلب والكلب والغزال وما اليها من الحيوان ، والباز والنسور والاوز والزرزور وما شابهها من الطيور . ووصفوا أيضا البرغوث والبعوض والنحل وغيرها من الحشرات ، كل ذلك في أسلوب ذاتي وروح حديثة ، لكنها لم تصل مع ذلك الى مستوى اقبالهم على وصف الطبيعة الصامتة (٥) .

---

(١) الذخيرة :ق١م١،ص٥٠٢ . (٢) الحجاج بن يوسف الثقفي . (٣) الذخيرة : ق ٣ م ٢ ،ص ٧٩٢ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢،ص ٤٨٢ .
(٥) انظر : البيئة الاندلسية : ص ١٤٧ .

ويبدو للباحث من خلال النصوص التي انتهت الينا في وصف الحيوان أن الحصان أكثر حيوان ظفر بعناية الكتاب الأندلسيين ووصفهم، ومن ذلك ما جاء في رسالة بعث بها الاصبغ بن أرقم[1] عن مجاهد العامري الى مقاتل العامري يصف مهرا استهداه لولده، ويربط فيها بين لونه ومظاهر الطبيعة، ويجعله مستعيرا من العمر والصباح والغلس والليل والنهار ألوانها، فجاء لونه يجمع بين سواد الليل وشقرة الشفق، يقول: " وأتى الوردُ المحلّى بالذهب ... فإذا بالقمر قد أعطاه غُرَّتَه، والصباحُ قد حباه بُلْجَتَهُ، والغَلَسُ قد كساه دُلْجَتَهُ، فجمع بين دُهْمَةِ الليل وشُقْرَةِ الشَّفَقِ"[2].

ثم تحدث عن سرعته ونسبه وصفاته الحميدة، فهو فرس سريع اتخذ من الريح أجنحة له، عظيم فاره توشح بالقوة والنشاط والحدة، أصيل يفوق بنسبه الخيول الكرام، يقول: " وأردت إنعالَهُ فاذا الرياح قد أنْعَلَتْهُ أجنحةً، وتفقدتُ جلالَهُ فاذا الفَرَاهَةُ[3] قد ألحفتْهُ أوشحةً، فلو عُزي الى الأعوج[4] الأنِفَ... ولو كان من خيل سليمان لما عَدَل بالصافنات العتاقِ "[5].

ومما جاء في وصف الفرس ايضا ما كتبه الاعلم الشنتمري، حيث يقول: " انظر اليه سليمَ الاديمِ، كريمَ القديم، كأنما نشأ بين الغَبْراءِ[6] اليَحْمُوم[7]، نَجْمٌ اذا بدا، وَهْمٌ[8] اذا عدا، يستقبل بغزال، ويستدبر برال[9] ..."[10].

انه جواد كريم الاصل، نتج من سلالة كريمة، جميل كالنجم، سريع كأنه لم يكن موجودا اذا عدا، يستقبلك بشكل الغزال، ويدبر عنك بشكل الرأل.

---

(١) هو عبدالعزيز بن محمد بن أرقم النميري، سكن المرية، وأقام بدانية مدة عند اقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، ثم صار الى المعتصم بن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه، توفي في خلافة المعتمد ابن عباد (انظر: القلائد: ص ٨، الذخيرة: ق٣م١، ص٣٦٠). (٢) الذخيرة: ق٣م١، ص ٣٦٥. (٣) يقال دابة فارهة: أي نشيطة جادة قوية (اللسان: مادة فره).

(٤) الاعوج: فحل كريم تنسب الخيل الكرام اليه (اللسان: مادة عوج).

(٥) الذخيرة: ق٣ م١، ص ٣٦٥. (٦) الغبراء: فرس تحمل بن بدر، ويزعم بعض الناس أنها لقيس بن زهير (انظر: أسماء خيل العرب: ص ١٨٣).

(٧) اليحموم: فرس الحسن بن علي بن أبي طالب، وفرس للنعمان بن المنذر، وفرس لهشام بن عبدالملك (انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٢٧٠ - ٢٧١).

(٨) وهم: يقال توهم الشيء تخيله وتمثله كان في الوجود او لم يكن (اللسان: مادة وهم).

(٩) الرال: ولد النعام (اللسان: مادة رأل).

(١٠) المطمح: ص ٣٠٧.

ولقد عمد بعض الكتاب الى اتخاذ وصف الخيل وسيلة الى المدح والمزج بين وصفها والثناء على الممدوح ، ومن ذلك ما جاء في رسالة لأبي الاصبغ بن الارقم ، حيث ربط بين صفات مهر وصفات مقاتل العامري، وجعل المهر مستعيرا صفاته من مقاتل ، حيث يقول : " استعيرتْ سُرْعَتُهُ من اسراعك الى المكارم ، وأخذ سَبْقَهُ من سبقِكَ الى ندى حاتم (١)، وعَلِمَ لِينَ قيادِكَ للصاحبِ ، واسترقتْ جودَتُهُ من سماع جودِكَ على الطالبِ "(٢) .

وكذلك وصفوا الحيوانات ذات الصلة بالانسان ، والتي لها أثر كبير على حياتهم الزراعية ، ومن ذلك ما كتبه الاعلم الشنتمري في وصف البغل ، حيث وصفه بأنه حيوان مختلط النسب ، يمتاز بالجودة والنجابة ، وفيه جلد وصبر واحتمال ، يعرف الاماكن العالية عن قرب ، يقول : " مقرفُ (٣) النسبِ ، مستخبرُ الشرفِ ، آمنُ الكبِ ، إن ركبَ امتنعَ اعتمالُهُ ، أو ركب استقلّ به أخواله "(٤) .

ووصف الاعلم الشنتمري حمارا بأنه محكم الجسم ، كريم القوة والحركة حسن للخدمة ، يقول : " وثيقُ المفاصلِ ، عتيقُ النهضةِ ، إذ وَنَتِ المراسلُ ، يشفي امتهانه ، ويدني من الامل رديانه (٥) "(٦).

ومن الحيوانات الاندلسية التي حظيت بوصف نادر الثعلب ، فقد كتب ابن شهيد رسالة يصف فيها الثعلب وصفا دقيقا ، ويشير الى ما يتصف به من دهاء وفتك وغدر وقوة ، وانتهاز للفرص ، فهو " أدهى من عمرو(٧) ، وأفتَكُ من قاتلِ حذيفةَ بن بدر(٨) ،... اذا رأى الفرصةَ انتهزَها ، وان طلبتْهُ الكماةُ أعجزَها ... غِذاؤُهُ حمامٌ ودراج ، وعشاؤه بذرحٌ (٩) ، ودجاج "(١٠).

ومن الحيوانات التي حظيت بوصف نادر أيضا الغزال ، فقد وصفه أبو محمد بن عبدالبر وصفا جميلا ، وصوره ضامر البطن ، له عينان ساحرتان ، لونهما كلون الخمرة ، كأنهما عينا نائم غير مستغرق في نومه ، مالت به نشوة الخمرة ، وله قرنان كأنهما قلمان ، وأذنان كأنهما مقراضان ، ووصف هيئته عند أنسه وخوفه ، يقول : " ووصل

---

(١) حاتم الطائي . (٢) الذخيرة : ق٣م١،ص ٣٦٤. (٣) مقرف : هجين (اللسان : مادة قرف) . (٤) المطمح : ص ٣٠٨ . (٥) رديانه : لعله مأخوذ من الردن وهو الغزل يفتك الى قدام ، ولعل المقصود هنا اندفاعه الى قدام (اللسان : مادة ردن) .

(٦) الخريدة : ج ٣ ،ص ٤٧٢ .

(٧) عمرو بن العاص .

(٨) هو حذيفة بن بدر سيد بني فزارة ، قتل في حرب داحس والغبراء (انظر : جمهرة أنساب العرب : ص ٢٥٦ ،أيام العرب في الجاهلية : ص ٢٤٩ – ٢٦٤).

(٩) هكذا وردت في الاصل، ولعل الصواب ذراح، وهو كل دويبة أعظم من الذباب شيئا (اللسان :مادة ذرح) .

(١٠) اليتيمة : ج ٢ ،ص ٥٤ .

معه الغزالُ الأهيفُ ، وكأنَّ عينيه عينا وسنانٍ(١) مالت به نشوةُ السراح، وثنى عِطْفَه هَزّةُ الارتياح ، كأنما كُحلا سحراً ، وأُشربا خمراً ... وكأنَّ قرنيه قلمانِ ، وكأن أذنيه جَلَمانِ (٢) ، ينصبُهما اذا أوْجَسَ ، ويثنيهما اذا آنَسَ ..." (٣) .

ولم تمنع الكتاب الطبيعة الاندلسية الجميلة بأزهارها وأطيارها ورياضها من أن يصفوا الحشرات والحيوانات الصغيرة التي يكثر أذاها وضررها للانسان ، ولا غرو في ذلك فهم يرون فيها سرا من عجائب الدنيا ، ودليلا على عظم قدرة الله ، ومؤشرا على ضعف الانسان أمام أضعف خلائق الله تعالى .

ومن هذا اللون من الرسائل ما كتبه ابن شهيد في وصف البرغوث، حيث وقف عند لونه وقوته وحجمه ، فهو أسود اللون ، بحجم الحبة السوداء ، أو نقطة المداد ، ليس بالضعيف والفتور ، ولا بالجبان الرذل ، يقول : " أسودُ زنجيّ ، وأهلي وحشي ، ليس بوان(٤) ولا زميل(٥) ، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل أو شونيزة(٦) ، أو ابنتها عزيزة ، أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب فؤاد"(٧) .

ويتحدث عن حركته وايذائه للناس وازعاجه لهم ، ويسجل بعض طباع هذا الحيوان الحقير ، ويكشف عن مواطن قوته وخصائص ضعفه ، " فشربُهُ عبٌّ ، ومشيه وَثْبٌ ، يَكْمُنُ نهاره ، ويسير ليله ، يُدارِكُ بطعن مُؤْلِمٍ ... يَهْتِكُ كلَّ حجابٍ ، ولا يَحْفُلُ ببواب ، يَرِدُ مناهلَ العيشِ العذبةَ ، ويصلُ الى الأحراج الرطبة ..."(٨) .

لقد رسم ابن شهيد صورة طريفة لطيفة ضاحكة ، قصد من ورائها اثارة المداعبة والتفكه ، وينبع ذلك من جعله هذا الكائن الحقير التافه مادة للفن ، وألبسه ثوبا من الجدية والوقار(٩) .

---

(١) الوسنان : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه (اللسان : مادة وسن).
(٢) جلمان : المقراضان ، واحدهما جلم للذي يجز به (اللسان : مادة جلم) .
(٣) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٢١٤ .
(٤) الونا : الضعف والفتور والكلال (اللسان : مادة وني) .
(٥) الزميل : الضعيف الجبان الرذل (اللسان : مادة زمل) .
(٦) الشونيز : الحبة السوداء (اللسان : مادة شنز) .
(٧) اليتيمة : ج٢ ، ص ٥٣ .
(٨) اليتيمة : ج٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .
(٩) يجد الباحث أمثلة أخرى للكاتب في هذا اللون من الرسائل في : رسالة التوابع والزوابع : ص ١٤٩ - ١٥٠ ، حيث وصف أوزة وصفا يبعث على السرور والفكاهة ، وفي اليتيمة : ج٢ ، ص ٥٤، حيث وصف البعوضة .

ونجد مثالا آخر في وصف البرغوث لابن شرف القيرواني ، حيث حـ
الفصول التي يشتد فيها أذاه ، وازعاجه للناس ، وذلك حين يشتد هطو
المطر ، يقول : " أذى البراغيث اذا البَرَّا [1] أُغيثَ ، بريءٌ عليل
بَرَانا ، وأثرى فقيرٌ ثَرَانا ، وتاريخ ذلك الغرام بآخر ، وقد
بلغت القلوب الحناجر ، بحمارة [2] احمرت لها خضرة السماء ، واغبرّت
لها مرآة الماء ، حتى انهلّ طالع وَسْمِيّ" [3] .

الزرزوريات :

يرمي هذا اللون من الرسائل الى وصف أصحاب الكدية من الادباء
الاندلسيين في اطار من الفكاهة والسخرية ، حيث اتخذ الكتاب من صورة
الزرزور [4] اطارا يتحدثون فيه عن الكدية وأصحابها ، وذلك لما يمتاز
به الزرزور من خفة وحركة ونشاط .

ويعد ابن سراج [5] أول من أثار هذا اللون من الرسائل حين كتب
رسالة لبعض أهل عصره ، يشفع فيها لرجل يعرف بالزُّرَيْزِير [6] ، حيث
يقول : " شخص من الطيور يُعرف بالزُّرَيْزِير ، أقام الدنيا أيام التحسير ،
وزمان التَّبلُّغ بالشكير ، فلما وافى ريشه ، ونبت بأفراخه عُشُوشُه ،
أزمع عنا قطوعا ، وعلى ذلك الافق اللدن تدلّياً ووقوعاً ، رجاء أن يلقى
في تلك البساتين معمرا ، وعلى تلك الغصون حَبّاً وثمرا ، وأنت بجميل
تأتّيك ، وكرمِ معاليك ، تصنع له هنالك وُكُوناً ، وتستمع من نِعَم
شكره على ذلك أغاريدَ ولحوناً" [7] .

وكما يلاحظ فقد أدار ابن سراج رسالته كلها على الزرزور وصفاته
المختلفة ، في اطار مليء بالسخرية والتهكم ، حيث رسم له صورة ساخرة
مضحكة ، واستعار الالفاظ المختلفة الخاصة بالطيور من تحسير وتشكير
وريش وفرخ وعش وقطوع ، وذلك للتعبير عن حالة ذلك الانسان الذي
وصفه ، وجعل صفاته وتصرفاته قريبة من تصرفات الطيور .

لقد تركت رسالة ابن سراج صدى واسعا في أدب الرسائل في الاندلس ،
حيث أعجب بها عدد كبير من الكتاب الاندلسيين ، فعارضوها برسائل
متعددة ، وكان في مقدمتهم ابن الجد الذي التقط فكرة الرسالة

---

(١) البرا : التراب (اللسان : مادة برى) . (٢) وحمارة الشتاء : شدة برده
(اللسان : مادة حمر) . (٣) الخريدة : ج٢، ص ٢٢٤ . (٤) الزرزور : طائر من
فصيلة العصافير : يتميز بالنشاط والحركة ، مع حجم صغير دقيق (انظر :
الحيوان : ج٥ ، ص ٢٢٠ ، ٢٣٣) . (٥) هو أبو الحسين سراج بن عبدالملك بن
سراج ، توفي سنة ٥٠٨هـ (انظر : ترجمته في القلائد : ص ٢٠٠ ، الذخيرة :
ق١م٢، ص ٨٢ ، المغرب : ج١ ، ص ١١٦) . (٦) زريزير : تصغير زرزور .
(٧) الذخيرة : ق١م١، ص ٣٤٧ .

فأبدع رسالة أدار الوصف فيها على ضروب مختلفة من الهزل والسخرية والتلاعب بالالفاظ ، حيث يقول : " لئن سمي بالزريزير ، لقد صُغِّر للتكبير ، كما قيل "(حُرَيْقيص)(١) ، وسِقْطُهُ يُحرقُ الحَرَجَ ،و(دويهية)، وهي تلتهم الارواحَ والمُهَجَ"(٢) .

ثم هو يسرف في الحديث عن صفات الزريزير ومناقبه ، ويجعلها على صيغة فعيل لتأتي مجانسة للفظ الزريزير ، يقول : " ومعلوم أن هذا الطائرَ الصافرَ يفوق جميع الطيور في فَهْمِ التلقين ، وحُسْنِ اليقين ، فاذا عُلِّمَ الكلامَ لَهَجَ بالتسبيح ، ولم ينطقْ لسانُه بالقبيح ، ثم تراه يقوم كالنصيح ، ويدعو الى الخير بلسان فصيح "(٣) .

ثم هو يصور حاله ومتاعبه ليرق له قلب مخاطبه، ويجودعليه وهو في الرسالة هنا يعبرعن منحى رمزي يصور ضيعة الاديب وضيق عيشه ، وضياع صوته الصيدح ، مما يدفعه الى التماس رياض أخرى ، حتى يغدو أشبه بالمكدين ، حيث يقول : " ولما طار ببلاد المغرب ، ووقع ، وزما في أكنانها وصقع ، وعاينَ ما اتّفَقَ فيها هذا العام من عَدَمِ الزيتونِ ، في تلك البطونِ والمتونِ ، أرفع عنها قَرَاراً ، ولم يجد بها قَرَاراً ،لأن هذا الثمر بهذا الأفقِ هو قِوامُ معاشِهِ ، وملاكُ انتعاشِهِ ... فاستخفّه هائجُ التذكارِ نحو تلك الاوكارِ ، حيث يكتسي ريشُهُ حريرا ، ويحتشي جوفُهُ بريرا ، ويحتسي قَرَاحاً نميراً ، ويهتدي على رَهْطِهِ أميراً ، فخذهُ اليك نازلاً لديك ماثلاً بين يديك ، يترنَّمُ بالثناء ، ترنمَ الذبابِ في الروضةِ الغَنَّاءِ ، وقد هزّ قَوَادِمَ الجناحِ لعادةِ الاستمناحِ..."(٤).

وكتب أبو محمد بن عبدالغفور رسالتين في موضوع الزرزور ، وجه الكلام في واحدة منهما الى العتاب ، وجعل الثانية في معنى الشفاعة(٥) .

وممن دخل حلبة المعارضة في هذا الموضوع أبو بكر عبدالعزيز البطليوسي الذي أقام رسالته على الشفاعة لهذا الزرزور ، واستعرض براعته الاسلوبية في ذلك ، حيث كتب رسالة حملها الى صديقه بمنقاره يقول : " آخذ الكتابَ بمنقارٍ ، صفّقَ من ريشِ الجناحين سرورًا ، وطارَ".

وقد أوصى البطليوسي صديقه بأن يحسن وفادته ويكرمه وأن " تَبْسُطَ له في بساتينك ، وتفرُشَ له بين وَرْدِكَ وياسمينِكَ ، حتى تلبسَ من أغاريدِهِ الحُلَلَ المنشرةَ "(٦) .

---

(١) فيه اشارة الى قصة أوردها القالي في أماليه ، وهي أن الاصمعي وقف على غلام من بني أسد اسمه حريقيص ، فقال له : أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصا حتى حقروا اسمك ؟ ان السقط ليحرق الحرجة (انظر : الامالي : ج ١ ،ص ٦٦) .

(٢) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣) الذخيرة : ق٢ م١ ،ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق ٢ م ١ ،ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٥) انظر: الرسالتان في : الذخيرة : ق ٢ م١ ،ص ٣٥١ — ٣٥٦ .

(٦) الذخيرة : ق ٢ م ٢ ،ص ٧٦٠ .

ومن اولئك الذين دخلوا حلبة المعارضة ايضا ابو عامر بن أرقم[(١)] الذي كتب رسالة الى أحد اصدقائه في معنى الشفاعة ، ولم يرد فيها سوى اظهار براعة الاسلوب على نهج وصفي متتابع ، يقول في شأن الزرزور " حيوان يُصْفِر كلّ أوان ، ويَسْفِر بين الاخوان ، رقيقُ الحاشية ، يعتمد على كَرْواءَ[(٢)] ، ويستمع بخذواءَ[(٣)] ، وينظر من عينٍ كأنها عينٌ ، ويَلْفُظُ بمنقارٍ كأنه مِنْ قارٍ "[(٤)] .

ولما انتهى الموضوع الى ابن أبي الخصال حاول أن يدخل فيه شيئا من التجديد ، فجعل الرسالة أقرب الى الخطبة الدينية ، حين أطال الادعية الدينية والتحميدات في أولها ، ثم جعل الزرزور يتحدث عن نفسه بعد أن كان متحدثا عنه[(٥)] ، يقول : " وقد أعفاكم زرزوركم من النَّصَب ، ومدّ الى السماء من الدعاءِ .. يا الله يا مَنْ جعل الارضَ قَرَاراً ، وفَجّرَ خلالها أنهاراً ، وجعل لنا من الشجرِ الاخضرِ ناراً "[(٦)] .

ولقد جعل ابن أبي الخصال من الزرزور في رسالة اخرى بطلا مقاميا ، حين جعله واعظا وخطيبا يزجر الناس ، وينهى النص في اطار من المزاوجة بين الشعر والنثر ، واستعراض لالوان متعددة من البلاغة والبيان ، ورغم ذلك فقد ظل عنصر الوصف طاغيا على الرسالة ، يقول : " انما هو زُرْزُور عليه الليل مَزْرُورٌ ، رَشّتْهُ النجوم بأنداثها ، وذرّتْ عليه من صبابَتِها ، فهو مُنَمْنَمُ الأوداج ، بديعُ الائتلافِ والازدواج ، يباسطُكُم البعيد والقريب ، ويطارحُكُم المستعملَ والغريب ، يلقط الاحسان حَبّاً ، ويُضْمِرُهُ حُبّاً ، ويَلْفُظُه لؤلؤاً رَطِباً "[(٧)] .

---

(١) هو أبو عامر بن عبد العزيز بن محمد بن أرقم الوادياشي ، من أهل المرية ، كان والده الوزير الكاتب أبو الاصبغ مبرزا في الكتابة فنشأ ولده كذلك (انظر : القلائد : ص ١٣٢ ، الذخيرة : ق٣ م١ ، ص ٤٠٣ ، الخريدة : ج٣ ،ص ٤١٦).

(٢) الكرواء : الساق الدقيقة (اللسان : مادة كرا) .

(٣) الخذواء : الاذن المسترخية (اللسان : مادة خذا) .

(٤) الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٤٠٥ .

(٥) انظر : عصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٦) ترسل الفقيه الكاتب : ص ٣ .

(٧) المصدر السابق نفسه : ص ٦٨ .

وصـــف الرحـــلات

لقد تحدث الكتاب الاندلسيون عن الرحلات التي قاموا بها في بلاد الاندلس ، وتعرضوا لوصف ما رأوه من مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة ، كما قدموا وصفا دقيقا للمناظر الطبيعية التي شاهدوها ، وصوروا ايضا انطباعاتهم النفسية عن هذه الرحلات .

ويعتبر هذا اللون من الرسائل الى جانب قيمته الادبية مادة وفيرة يسجل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية والسياسية والطبيعية التي يشاهدها أو يسجلها الكاتب خلال رحلته .

ومن أشهر الرسائل التي جاءت في وصف الرحلات رسالة لأبي عبد الله ابن مسلم[١] سماها " طي المراحل " وخاطب بها أغلب[٢] صاحب ميورقة[٣]، وهي قصة تطواف ينتقل فيها الكاتب من مدينة الى مدينة ومن حوزة أمير الى حوزة امير آخر . ويبدو أنه كان رسولا الى بعض ملوك الطوائف عن اقبال الدولة بن مجاهد العامري حين نازعه المقتدر بن هود أحد الحصون[٤].

وقد تحدث ابن مسلم عن طرقه أبواب احدى المدن الاندلسية ، وقد سد بابها في وجهه ، وفي ذلك اشارة الى طبيعة تنظيم بعض المدن الاسلامية في الاندلس ، حيث كانت تسور ، ويجعل لها باب . ويبدو أنه قد طرق باب هذه المدينة في فصل الشتاء ، حيث وصف ما لقيه من أهوال ، وعبر عن الحالة النفسية التي كان يعاني منها ، قبل أن يفتح له باب هذه المدينة ، يقول : " فجئنا فلانةَ ، وقد سُدَّ بابُها ، ونامَ بوّابُها ، والسيلُ قد طَمَى ، يحملُ غثاءً أحْوَى ، فلم تشك القلوبُ ، أن نفوسَنا ذائقةُ الموتِ ، حتى اذا بلغتِ النفوسُ التَّراقي ، والتفّتِ الساقُ بالساقِ، وقيلَ مَنْ راق ، وأُشْعِرَ صاحبُ الحصنِ بمكاني ، وقصَّ عليه شأني ، فأمَرَ بفتحِ بابِ المدينة ، وآواني الى دارٍ حصينةٍ "[٥] .

ويصف بعد ذلك كيف لجأ الى مدينة المرية ، وقد لقي المعتصم بن صمادح الذي أكرم وفادته ورحب به ، وحاول أن يبقيه عنده. فأعلمه أنه ماض لطيته ، يقول : " حتى جئت المرية ... ولما لقيت المعتصم ...

---

(١) هو ابو عبدالله محمد بن مسلم ، قال ابن بسام في وصفه انه آية الزمن ، ونهاية فطنة واللسن ، نفث بالسحر ، واغترف من البحر، ونظم الدرر بلآلاء من الدر (انظر : الذخيرة : ق ٣م١ ،ص ٤٢٧، المغرب : ج ٢، ص ٤٠٥) . (٢) كان أغلب مولى لمجاهد العامري، وقد جعله على ميورقة، وكان صاحب غزو وجهاد في البحر ، ثم تخلى عن ولايته أيام اقبال الدولة (انظر: كتاب العبر: ج٤،ص ١٦٤–١٦٥) . (٣) ميورقة : جزيرة في البحر الزقاقي ،تقع شرقها جزيرة سودانية، فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ وتغلب عليها الصليبيون سنة ٥٠٨ هـ (انظر : الروض المعطار :ص٥٦٧ – ٥٦٨) . (٤) انظر الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٤٢٩ . (٥) الذخيرة :ق٣م١،ص ٤٣٠.

قال مرحباً بالولي الحميم ، والصديق الحديث القديم ، أَعَنَّتْ لك عندنا أسبابُ أَوْجَبَتْ اقبالا ، أو نَحَتْ بك نَحْوَنا ركابٌ طلبتْ فِصالاً ؟ حُلَّ عن ذاتك ، وأرِحْ تعمّلاتِك [(١)] ، فقلت : أيّد الله مولاي ، ما أجاءني حبُّ الراحة ، ولا طلبُ الإراحة ، وإنما أنا في حُكْمِ الشرع وأداءِ فرضٍ ..."[(٢)] .

ثم وصف بعض مظاهر الطبيعة الجميلة التي مر بها أثناء خروجه من المرية ، وصور انطباعاته النفسية عنها ، حيث بعثت هذه المناظر الجميلة البهجة والسرور في نفسه ، فهي تروح عنها الغم ، وتزيد في العمر ، وتشفي من الكظم وتشرح الصدر ، يقول : " حتى وصلنا الى دار مُنْفَرِجَةِ الاقطار مُسْتَوْفِزَةِ[(٣)] الانوار ، متدفقةِ الأنهار ، هواؤها جلاءٌ للغمِّ ، وزيادةٌ في العمر ، وضياؤها شفاءٌ للكظم ، وانشراحٌ للصدر ..."[(٤)] .

ثم تحدث عن تلك الايام الجميلة التي قضاها في رحاب المظفر بن مناد صاحب غرناطة ، وأسرف في وصف مجالس الخمر والغناء هناك ، وما ينعمون به من لهو وفرح وسرور ، يقول : " فبتنا فاكهين فَرِحين نزمّر بالكؤوس ، ونرقصُ بالرؤوس ، ونشاقِفُ الاخوان ، ونوافِقُ الندمان ، موافقة الكرامِ ، بشرب المُدام لا بحدِّ الحُسامِ ... وما زلنا نسمع باقتراحٍ ، ونشرب على ارتياح ... حتى شُبّت مصابيحنا لقُفّال ، وحان أوانُ ظَعْنٍ وارتحالٍ "[(٥)] .

ثم هو خرج من غرناطة لطية فأدركه شتاء قارس ، ووصف ما لقيه من أهوال ومصاعب شتى تذهب العقل وتثير الفزع ، وقد أصابه من شدة البرد حمى قاتلة ، وقد غطته ندف الثلج حتى بدا كأنه من أصحاب القبور ، يقول : " وسرنا بين جبالٍ موحشةٍ ، ومياهٍ دَهِشةٍ[(٦)] ، فصاردتنا[(٧)] من ريح عاد ذاتِ صِرٍّ وإبراد ، أضرمت نار البرحاء[(٨)] ، وكظمت أنفاس الصعداء ... وما شك غمامُ الثلج المنثور ، أني من أصحاب القبور.."[(٩)] .

وخرج بعد ذلك على الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح ، فوصف حسن استقباله له واكرامه اياه[(١٠)] . كذلك صور ابن مسلم جانبا من

---

(١) يقال : لا تتعمل في أمر كذلك كقولك لا تتعن ، أي ليس لك فرح في سؤالك (انظر : اللسان مادة عمل) . (٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ٤٣٠-٤٣١ .
(٣) مستوفزة : مرفوعة (انظر اللسان : مادة وفز) .
(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٦ .
(٦) دهش : الدهش : ذهاب العقل من الذهل والوله ، وقيل من الفزع ونحوه (اللسان : مادة دهش) .
(٧) الصرد : البرد ، قيل سدته (اللسان : مادة صرد) .
(٨) البرحاء : الشدة والمشقة : وخص بعضها به شدة الحمى (اللسان : مادة برح) .
(٩) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٤٣٦ .
(١٠) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

ترف الحياة عند الاثرياء الذين زارهم في رحلته هذه [١] ، وقد أشرنا الى ذلك في حديثنا عن مظاهر الترف والمجون في المجتمع الاندلسي وتصوير أدب الرسائل لذلك .

وقد اختتم ابن مسلم رسالته بوصف توجهه الى حضرة المعتضد بن عباد باشبيلية ، وقد عرج قبل ذلك على قرطبة ، وصور تلك الحالة التي آلت اليها هذه المدينة بعد انهيار الخلافة الاموية ، حيث وقف على معالم الحضارة العربية الاسلامية التي بقيت شاهدة على روعتها ، كالمسجد الجامع بقرطبة الذي يمتاز بعظمة البناء وضخامته [٢] .

ونجد مثالا آخر على وصف الرحلات في رسالة كتبها أبو عامر بن الاصيلي [٣] الى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج [٤] ، وقد كشف لنا في هذه الرسالة عن رحلة قام بها الى بعض المدن الاندلسية كبلنسية وشنتمرية ودانية وجزيرة شقر وغيرها ، حيث يقول " واللهِ لقد جُبْتُ البلادَ وبَلَوْتُ العباد" [٥] .

وقد افتتح رسالته بالحديث عما لقيه من مهانة ، وما ناله من مضرة على يد أهل جزيرة شقر ، حيث يقول : " وخرجت على بلنسية جَبَرَها الله ، راكبَ حمارٍ ، ولابِسَ أَطْمَارٍ [٦] ، كأنني سُلِبْتُ في الطريق... الى أن وافيتُ الجزيرةَ وآمالي بها كثيرةٌ ، ونزلتُ منها على مقدارِ شاوي ، وقدَّمْتُ كتابَك الى الوزيرين الجليلين ... وكان من بِرِّهما أنني نزلتُ خلفَ السُّورِ ، أَخْزَى نزولٍ ..." [٧] .

---

(١) انظر الذخيرة : ق ٣ م١ ،ص ٤٣٢ .
(٢) انظر المصدر السابق نفسه : ق ٣م١،ص ٤٤٠ - ٤٤٣ .
(٣) هو أبو عامر محمد بن الاصيلي ، كان جوابة آفاق ، ومن كبار فحول الشعراء والكتاب في القرن الخامس الهجري (انظر ترجمته في الذخيرة : ق ٣م٢ ،ص ٨٥٧ ، الخريدة : ج٢ ،ص ٣٠٨، المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٤).
(٤) لم يعثر الباحث على ترجمة له .
(٥) الخريدة : ج٢ ،ص ٣١٠ .
(٦) اطمار : جمع طمر وهو الثوب الخلق (اللسان : مادة طمر) .
(٧) الخريدة : ج٢ ،ص ٣١٠ .

الطرديـــــــــــات

لقد اولع العرب في المشرق بالصيد في مختلف عصورهم ، ولم يكن بابا من أبواب الترف التي يلهو فيها الملوك وكبار رجال الدولة دون غيرهم ، وانما كانت رياضة يشترك فيها الصعلوك المنسحق الاطمار والملك الجبار على السواء ، ذلك أنها ضرب من ضروب الرزق ، ومتعة من متع النفس ، ولون من ألوان الحرب أيام السلم(١) .

وقد ألِفَ الشعراء العرب في المشرق أن ينظموا قصائد الطرديات يصفون فيها تتبعهم للظبي أو لحمار الوحش أو الطير ، ويصفون أحيانا أدوات الصيد من كلاب وصقور ورماح وخيول (٢) . وكان عبد الحميد الكاتب قد نقل الطرديات من الشعر الى النثر حيث كتب رسالة وصف فيها رحلة صيد في البر(٣) .

أما في الاندلس فقد أقبل كثير من امراء بني امية وخلفائهم على الصيد ، وقد بلغ اهتمامهم به أنهم خصصوا خطة للصيد بالبزاة وغيرها من الجوارح ، يتولاها بعض ثقات الامير(٤) . وقد استمر هذا التقليد متبعا في الاندلس طوال القرن الخامس الهجري ، حيث كان ملوك الطوائف وأبناء الطبقة المترفة يدربون صقورهم وجوارحهم وكلابهم على الصيد في نواح مختلفة من أشبونة ولبلة(٥) ، وجبال الشرق في الاندلس وجزر البليار . وتزخر كتب الادب الاندلسي بأمثلة شعرية كثيرة تسجل مناظر الصيد وأدواته المختلفة من شواهين وبزاة وكلاب وغيرها . وكان الكتاب يشتركون في رحلات الصيد(٦) لذلك كان من الطبيعي أن يصفوها ويصوروا ما كان يحدث فيها من وصف الحيوان والطير وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها ، وكانوا يصفون أيضا سرورهم بالصيد وما ينعمون به من سعادة .

ولقد تأثرت الطرديات كغيرها من فنون الرسائل بطبيعة البيئة الاندلسية ، فكثرت فيها التشبيهات المستمدة من بيئتهم المحيطة بهم ، كما أنهم قد جددوا في فن الطرد ، وأكثروا من الحديث عن صيد البحر الذي كان لهم فضل السبق وعلم التجديد فيه .

---

(١) انظر : البيزرة : ص ٤ ، ٦ ، ٢٠ . (٢) انظر : دائرة المعارف الاسلامية : مادة " أبو نواس " .

(٣) انظر جمهرة رسائل العرب : ج٢ ، ص ٥٤٤ .

(٤) انظر : البيان المغرب : ج٢ ، ص ١٥٩ ، الحلة السيراء : ج١ ، ص ٤١-٤٢ .

(٥) لبلة : في غرب الاندلس مدينة قديمة ، بينها وبين اشبيلية عشرون ميلا (انظر : الروض المعطار : ص ٥٠٧) .

(٦) انظر الخريدة : ج٣ ، ص ٥٢٩ .

ومن أشهر الطرديات رسالة طويلة لابن الحناط[1] ، جاءت في اطار قصصي ممتع ، وفيها مشاهد مختلفة للصيد ، فمنها ما جاء في وصف الصيد بجوارح الطير ، ومنها ما جاء في وصفه بضواري الحيوان ، ولم يقتصره على وصف صيد الحيوان والطير ، وانما وصف أيضا صيد البحر ، وهو لون جديد يمتاز بالطرافة والجدة ، فوصف أدوات الصيد ، من سفن وشباك ، كما وصف الصيد من سمك وحيتان .

لقد خرج الكاتب في ثلة من صحبه ، فلما " توسطوا وَهَدَاتِ الرُّبَا ، عَنَّتْ لهم آسرابُ الظبا " ومن ثَمَّ بدا أن عملية المطاردة والقَنَص " فغادرناها بين جريح مضرّج بدمائه ، وقتيل يجود بدمائه "[2] .

ولما قضوا مآربهم من صيد الظباء ، انقلبوا آخر الليل الى روضة غناء ، فنزل الركب للاستراحة والاكل والشرب ، ويصف الكاتب الروض الجميل الفتان الذي نزلوا فيه ، وما حواه من ورد وبهار ونواوير ، ووصف السماء الملبدة بالغيوم ، والسحاب الثقيل والطل وتصفيق الرياح وثني الاغصان ، وترجيع الطيور وشدوها ، حيث يقول : " فلما قرب ، وَصُفَّ شواء ، وصهب ، تعاطينا لحما كالعقيق ، وتهادينا شحما كالشقيق ، ثم قام كل الى جواده يمشّ[3] بعرفه كفّيه ، ويمسح بشُعَبِه بين عينيه ، ونحن اذ ذاك بحيث تضاحك الورد والبهار ، وتفاوح النورِ والانوارِ ، وآرضنا بمخضرِّ نَبْتٍ صاغَ النَّورُ تاجَهُ ، وحاك القطرُ ديباجَهُ ، وسماؤنا غُدَافِيّة[4] الإهاب ، جامعةُ السحاب ، فماءُ الندى مسكوبٌ ، ورواقُ الطَّل مضروبٌ ، والريحُ تعصفُ ، والغصنُ يتثنّى ، والقنبرة تُمَرْصِرُ ، والبلبل يتغنّى... "[5] .

لقد رسم صورة جميلة للطبيعة ، حيث الاضواء والالوان التي تدل على الحياة ، وجعل من الطبيعة كائنا حيا يشاركهم سرورهم ولهوهم .

ويختتم الكاتب هذا المشهد الجميل بالحديث عن مجلس الخمرة الذي أقبل عليه ورفاقه ، ويصف الساقي ، ويتغزل بجماله الفتان وقوامه وشعره المتدلي على خديه وثغره وخصره ، ويربط بين جماله وجمال الطبيعة الفتان ، يقول : " وجعلت الكأس تدور ... غزال في كفّه منها الغزالة ، وهلالٌ تحفّه من أصداغِهِ[6] هالَةٌ ، تَنَفَّسَ الصبحُ من طوقِهِ ، وعَسْعَسَ ليلُ الشعر من فوقه ، كأن الجُلَّنَارَ من خدّه خُلِق ، والاقحوانَ من ثغرِه سُرِق ، ذو خصر جوّال الوشاح ، وبشر كالدر بنهد التفاح "[7] .

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن سليمان الرعيني المعروف بابن الحناط ، كان متقدما في الاداب والبلاغة والشعر ، توفي حوالي سنة ٤٣٠هـ (انظر ترجمته في : الجذوة : ص ٥٧ ، بغية الملتمس : ص ٦٧ ، الذخيرة : ق١م١،ص ٤٣٧).

(٢) الخريدة : ج٢،ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٣) يمش : يمسح يده لينظفها ويقطع دسمها (اللسان : مادة مشش).

(٤) يقال اغدفت المرأة قناعها : أرسلته (اللسان: مادة غدف)

(٥) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٦) الاصداغ : الشعر المتدلي على الخدود (انظر : اللسان : مادة صدغ).

(٧) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٩ .

وتمضي هذه الرحلة من صيد البر الى صيد البحر ، فيصف ركوبهم البحر، وتصيدهم لأصناف السمك منه . وقد ركز على وصف الحركة ودقتها ، حيث اندفعت الزوارق بشدة كأنها تسير بأجنحة الغربان ، وتتحرك مقدماتها كأنها أعناق الغزلان ، ويحسبها الناظرون تسير فوق مجموعات من الخيول المصفوفة ، يقول : " وأقبلتِ الزوارقُ تهفو بقوادمِ غُربان ، وتعطو[1] بسوالفِ غزلانٍ ، تخالُها في سمائه أهِلّةً مكسوفةً ، وتَحْسِبُها فوق مائه رعيلَ دهمٍ مصفوفةً " [2] .

ويصف بعد ذلك أدوات الصيد كالشبكة والصنانير ، ويصورها تصويرا رائعا ، فالصنانير شبيهة بأظفار الصقر ، دقيقة الصنع ، مصقولة شديدة البرق واللمعان ، رقيقة حادة ، يقول : " فابتدر الملاحون ، فبعض الى شباك الحرير ، وبعض الى صنانيرَ كأظفارِ السنانير ، قد عطفَها القَيْنُ [3] كالرَّاء ، وصيَّرها الصقْلُ كاللألاء ، فجاءت أحدَّ من الإبر ، وأرقَّ من الشعر ، كأنها صرد[4] ، أو نصف حلقة زرد ..." [5] .

ثم يصف ما أفاء الله عليهم من أنواع السمك والحيتان ، ويرسم صورة جميلة ، حيث طلعت عليهم " النينانُ [6] أشباه النجوم ، تُبْرِقُ بريقَ الصوارمِ المسلولةِ ، وتلمعُ لمعانَ الذوابلِ[7] المصقولةِ ، مدبرةَ[8] الاصلاب ، مفضضةَ البطونِ ، مُذهّبةَ الافواهِ ، مُجزّعةَ العيونِ ، تَصِلُّ صليلَ السيوف في اضطرابها ، وتخطُرُ[9] خَطَراتِ الفحولِ بأذنابها "[10] .

انه يصف تلك الحيتان التي اصطادوها ، حيث أن لها بريق السيوف، ولمعان الرماح ، مشرقة متلألئة ، كأن بطونها مملوءة بالفضة ، وأفواهها مذهبة ، وتصدر صوتا كقرع السيوف ، وتهتز اهتزاز اعناق الخيول .

كذلك فقد وصف ابن الحناط في فصل آخر من الرسالة الصيد بضواري الحيوان ، حيث تحدث عن مطاردة كلب لقطع من الحمر الوحشية التي عنت لهم وهم يتجولون في تلك الخمائل الجميلة . لقد فتك الكلب بسرب الحمر

---

(١) تعطو : تمد أعناقها متطلعة (انظر اللسان : مادة عطا) . (٢) الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٩ . (٣) القين : الحداد (اللسان : مادة قين) . (٤) الصرد : طائر كبير الرأس يصطاد العصافير (اللسان : مادة صرد) . (٥) الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٩ . (٦) النينان : الحيتان (انظر اللسان : مادة نون) .
(٧) الذوابل : جمع ذابل وهو القنا الدقيق الملاصق (انظر اللسان : مادة ذبل) .
(٨) مدنرة : يقال دنر وجهه ، أي اشرق وتلألأ كالدينار (اللسان : مادة دنر)
(٩) تخطر : تهتز وتضرب بأعناقها يمينا وشمالا (اللسان مادة خطر) .
(١٠) الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

الوحشية ، وانقض عليها بشراهة حتى اذا عثر على احداها انقض عليه بأنيابه الحادة ، فكسر ظهره ، وشق عنه جلده ، وقد أصابوا من ذلك شيئا كثيرا ، يقول : " فَفَشِيَهُ كالغيث ، وأخَذَهُ كالليث ، فَفَقَرَ فَقَارَهُ بِشِفَارِه ، وقدّ قميصَه بأظفاره ، وتلاحقنا به ، وقد أكبّ على صيده وقعد ، كأنها فريسةٌ بين ساعدي أسد ، فرويناه من دمه ، وحللنا بينه وبين أدَمِه ، فتهيأ لنا من السوانحِ ما أردناه "(١) .

ووصف ابن الحناط الصيد بجوارح الطير ، حيث وصف مطاردة باز لقطاة (٢) .

وقد كتب الفتح بن خاقان أيضا رسالة في هذا الموضوع ، نجد فيها بالمثل خصائص رسائل الطرد ، من تصوير للحركة العنيفة ، وارتباط بالحالة الشعورية للصائدين ، حين " سنح لهم في البسائط سانحٌ ، وارتاعَ من رَجّةِ الموكب آمنٌ سارحٌ ، قد اتخذ العشبَ حجرا ... فَمَرَق كالسهم يَمْرُقُ من فوق، ومرّ لا يستمسكُ بواضح طريق ، فتارةً يسلُكُ مستبيناً ، وتارة لا يعرجُ شمالا ولا يمينا "(٣) .

ولقد كانت عملية المطاردة بالخيل وبجوارح الطير معا ، ويصفها بأنها كانت عنيفة ، ولكن انتهت بمحصول وافر من الصيد ، ملأوا منه حقائبهم ، حيث " ما زالت الجياد تباري استنانَه ، وذواتُ المخلب تحاكي روغانَه ، حتى غارت عليه الارضُ قنصاً ، وساقته الينا قنصا ، فعلقته كفّ كائد ، لا حبالة صائد ، فأخذه صاغرًا ، وفمُ الحِمام قد تعرّض له فاغرًا ، فذكاه بشفرته ، وقذف زاده في ثغرته ، وما زلنا نستوفر عدَدَها ، ونقصر أمدها ، حتى ملأت الحقائب ، واتبعت الركائب "(٤) .

ولما قضوا مآربهم من الصيد ، وقد أذكت الهاجرة شواظ لهيبها ، انتقلوا الى حدائق غناء للاستراحة والشرب (٥) .

---

(١) الفريدة : ج٢ ، ص ٣٠٢.
(٢) انظر المصدر السابق نفسه : ج٢، ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .
(٣) الخريدة : ج٣ ، ص ٥٣٩ ، وانظر ايضا رسالة لابن خفاجة في وصف الطرد بجوارح الطير في : الذخيرة : ق٣ م٢ ، ص ٦٤٥.
(٤) الخريدة : ج٣ ، ص ٥٣٩.
(٥) انظر المصدر السابق نفسه : ج٣ ، ص ٥٣٩.

الرسائل الديوانية

ذكرنا سابقا أن الرسائل الديوانية هي تلك الرسائل التي تعالج أمور السياسة العامة للدولة ، من حيث الادارة والتنظيم الداخلي والتشريع والقضاء والاقتصاد ، وما اليها من مهام تتعلق بالحياة العامة وشؤون الرعية . ويظهر للباحث أن الرسائل الديوانية التي انتهت الينا من هذا العصر قليلة جدا ، ولعل ذلك يعود الى أن كثيرا من المؤرخين قد أغفلوا هذا اللون من الرسائل ، وركزوا على تلك الرسائل التي تعالج موضوعات بعيدة عن الدولة وأحوالها ، هذا الى جانب ضياع كثير من هذه الرسائل وعدم وصولها الينا . ومن الملاحظ أنه قد شارك في كتابة هذه الرسائل الى جانب كبار الادباء والكتاب والوزراء الامراء والملوك(١) ، ولاسيما أن كثيرا منهم كان من كبار الادباء والكتاب .

ومن الاغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الديوانية في هذه الفترة التولية والتعيين ، وما يتعلق بتنظيم أمور الدولة وتسيير شؤون الحكم من خلال الوظائف الادارية والقضائية التي عرفتها امارات الطوائف.

ونجد مثالا على ذلك فيما كتبه بلكين بن باديس بخط يده، الى القاضي أبي عبدالله بن الحسن الجذامي يوليه الوزارة والقضاء ، وقد أشار في مطلع رسالته الى أمر التكليف ، وحدد الوظيفة المنوطة به وهي " اقراره على خطة الوزارة والقضاء في جميع كُوَره ، وأن يجري من الترفيع والاكرام له الى أقصى غاية ، وأن يحمل على الجِرَايةِ في جميع أملاكه بالكُوَرِ المذكورة ... وأن يجري في قرابته وخَوله(٢) وحاشيته وعامري صنيعته على المحافظة على البر والحرية "(٣) .

وتدل هذه الرسالة على أن رسائل التولية والتعيين كانت تصدر للوزراء والقضاة والولاة وغيرهم مبصرة بشؤون التنظيم الداخلي الذي تقتضيه سياسة الدولة ، حيث ترسم السياسة العامة التي يجب أن يسلكها الوزير والقاضي والوالي في ادارة شؤون الرعية ، وهي هنا تقوم على البر والحرية .

ومن الرسائل التي جاءت ترسم خطوط السياسة العامة الداخلية للحاكم في التعامل مع الرعية وسياستها ومداخلتها ، ما كتبه ابن طاهر في تولية حاكم على احدى جهاته ، وقد افتتحها بالاشارة الى أمر التكليف كما مر بنا في الرسالة السابقة ، ثم بين له أنه قد اختاره

---

(١) انظر : الخريدة : ج٣ ، ص٣٧ ، المغرب : ج١ ، ص ٣٦٥ ، الاحاطة : ج١ ، ص ٤٣٣ .
(٢) الخول : العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية (اللسان : مادة خول) .
(٣) الاحاطة : ج١ ، ص ٤٣٣ .

لمعرفته به ، وثقته بدينه ، وخبرته في الادارة ، يقول : " قلدت فلانا سلّمَهُ اللهُ النظر في أحكام فلانه ، وتخيّرته لها بعد ما خَبَرته واستخلفته . وقد عرفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصينه ، لأنه إن احتاط سَلِمَ ، وإن أضاع أثِمَ "(١) .

ثم يحدد له بايجاز الاحكام والقواعد العامة التي يجب أن يسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم ، ولا سيما أن للقضاء مكانة من نظام الدولة ، لما يحققه من عدالة لا تستتب الامور بدونها ، ولا يتهيأ للرعية استقرار مادي ومعنوي دون أن يتوفر القاضي العادل النزيه ، لهذا فان عليه أن يتحرى الحق في الحكم ، وأن يقيم العدل ، ويسوي بين الخصوم ، وأن يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ، يقول : " فليُقِم الحق على أركانه ، وليضع العدل في ميزانه ، وليسوّ بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، وليقف في الحكم عند اشتباهه "(٢) .

ومن هذه الرسائل التي استوعبت جوانب من ادارة شؤون الرعية ، وتنظيم مرافق حياتها المختلفة ، ما أملاه المتوكل بن الافطس الى كاتبه ابن خيرة(٣) ، بادارة شؤون اشبونة ، حيث رسم له " من وجوه الذبّ والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما التزم الاستيفاءُ بعهده والوقفُ عند حده "(٤) . ثم يحدد مسؤولياته ، وواجبات الرعية ، وحق كل منهما والحدود التي يجب أن يقف عندها(٥) .

ومن الأغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الديوانية ، الاوامر والتوجيهات والوصايا الادارية المختلفة ، التي كان الامراء يرسلونها الى ولاتهم وعمالهم وكتابهم في مختلف نواحي امراتهم ، وذلك حين يحس الامير بتقصير أو خيانة أو خطأ منهم . ومن ذلك رسالة كتبها أبو بكر القروي(٦) عن بعض الأمراء جوابا عن كتاب ورد من بعض العمال الجهال ، يهول فيه ، وقد وضح فيها خطأ الوالي ، ولفت انتباهه الى الطريقة السليمة التي يجب عليه أن يتبعها في مخاطبة من هم أعلى منه رتبة ، وذلك في اطار من اللوم والتقريع ، حيث يقول " وقفنا على كتابك الذي طال فَقَصَرَ ، وكبُر حَجْمُهُ فَصَغُرَ . صدّرْتَه بنون التعظيم ، وسطّرْتَه بمجدك الحديث القديم ، وخاطبتنا فيه بالالفاظ الحجّابية ، التي تخاطب بها غوغاءُ الرعية ، ارجع - اصلحك الله - عن هذا الأدب ، وتأدب في خطابك لذوي الرُّتَب ..."(٧) .

---

(١) الخريدة : ج٣ ، ص ٢٧٠ . (٢) المصدر السابق نفسه : ج٣، ص ٢٧ .
(٣) هو أبو عبدالله بن خيرة ، وزير قائد من وزراء وقواد وكتاب المتوكل بن الافطس (انظر : القلائد : ص ٤٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه : ص ٤٥-٤٦ . (٥) انظر القلائد : ص ٤٥-٤٦ .
(٦) هو أبو بكر بن الحسن المرادي القروي ، من كبار الفقهاء والادباء الوافدين على الاندلس في القرن الخامس الهجري (انظر : الذخيرة : ق٤م١، ص ٣٦٤) .
(٧) المصدر السابق نفسه : ق٤ م١ ، ص ٣٦٥ .

ومن الرسائل الديوانية التي تبصر قضاة الدولة ، بشؤون القضاء عندما تعترضهم صعوبات ، أو تواجههم مشكلات ، ما كتبه ابو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبدالله بن حمدين[١] ، وهي تعتبر وثيقة هامة ، ودستورا للقضاء الاندلسي ، بما حوته في ثناياها من تلك الاصول القضائية والفقهية العامة التي تتعلق بشؤون القضاء وأحوال القائمين بأعبائه .

وقد عني بتحديد الاصول الشرعية التي يجب عليه أن يستقي منها أصول الحكم ، ويسير في ضوئها في ممارسته لمهمة القضاء ، وما يجب ان يتحلى به من صفات وأمور كثيرة ، حيث يقول : " فاستهد الله يُهْدِك ، واستعنْ بالله يُعِنْك في صدرِك وَوِرْدِك ، وتولَّ القضاء الذي ولّاكَهُ الله بجدٍّ وحزم ، وجَلَدٍ وعَزْمٍ ، وامضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ، ولا تبالِ برغْم راغمٍ ، ولا تُشْفِقْ من ملامة لائم"[٢] .

ثم أسدى اليه عددا من النصائح ، وأوضح له كثيرا من الامور التي يجب أن يلتزم بها في مجلس القضاء ، كالمساواة بين المتخاصمين ، في الوجه والمجلس ، والعدل ، والنظر الى الضعيف بعين القوة والعزة والمنعة حتى يحصل على حقه ، والنصح لله ولرسوله ولجماعة المسلمين ، حيث يقول : " وآسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمعُ قوي في حَيْفِكَ، ولا ييأسُ ضعيفٌ من عَدْلِكَ ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذَ الحقَّ له ، ولا أضعف من القوي حتى تأخذَ الحقَّ منه ، وانصحْ لله تعالى ولرسوله عليه السلام ، ولنا ولجماعة المسلمين "[٣].

ويحدد واجبات الرعية تجاه القاضي ، ويدعوهم الى طاعته والالتزام بأحكامه ، ويدعو القاضي نفسه الى محاسبة العمال والولاة ، وحل المشكلات التي تحصل بينهم وبين الرعية بالحكمة والحق ، واعتماد الدليل الواضح والحجة القاطعة ، حيث عهد الى الرعية أن " يسلموا لك في كل حق تُمضيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاءٍ تقضيه ، ونحن أولا ، وكلهم آخرا مذ صُرْتَ قاضيا ، سامعون منك ، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق ، فان شكت اليك بعاملٍ ، وصحّ عندك ظلمُهُ لها ، ولا يتّجِهُ في ذلك عمل غير عزله فاعزله ، وان شكا العامل من رعيته خلافا في الواجب فاشكه منها ، وقوّمها له"[٤].

---

(١) هو محمد بن علي بن عبدالعزيز بن حمدين ، كان من أهل التفنن في العلوم ، حافظا ذكيا تولى القضاء بقرطبة، وتوفي سنة ٥٠٨هـ (انظر: الصلة : ج١ ،ص ٤٣٩ - ٤٤٠) . (٢) الذخيرة : ق ٢ م١ ،ص ٢٦١ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق ٢ م١ ،ص ٢٦١ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٢ م١ ،ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

والمتأمل في نص هذه الرسالة يلاحظ بوضوح أن الكاتب قد اقتبس خطوطها العامة وقواعدها الرئيسية من رسالة عمر بن الخطاب الى أبي موسى الاشعري في القضاء ، وهي رسالة مشهورة تعد من الدساتير الدقيقة الواضحة في القضاء وما يتعلق به من واجبات وحقوق كل من القاضي والمتقاضين أمامه [١].

ومن الاغراض التي طرقتها الرسائل الديوانية العزل عن الولاية عندما يحس الامير بخيانة أحد ولاته ، أو تقصيره في أداء واجب من واجباته المنوطة به ، ومن الامثلة على ذلك رسالة المتوكل بن الافطس الى وزيره أبي الوليد بن الحضرمي ، وقد صرفه عن الولاية لاساءته التصرف . وقد أشار فيها الى علاقته السابقة بوزيره وثقته العظيمة فيه ، ولكنه أساء التصرف وقصر في واجبه مما كان له أثر غير حسن سبب ضعف الدولة ، وقلة احترام الناس لها ، يقول مخاطبا اياه : " لكنك كنت كالمثل السائر (شوى أخوك حتى اذا أنضج رقد) [٣] حتى أطمعت فيَّ العدو ، ولبستَ لأهل حضرتي الاستكبارَ والعُتُوّ ، واستهنتَ بجيرانِك ، وتوهّمتَ أن المروءةَ التزامُ زهوِك ، وتعظيمُ شأنِك ، حتى أخرجتَ النفوسَ عليَّ وعليك" [٤] .

ومن ألوان الرسائل الديوانية ايضا ما كان يصدر على شكل منشورات أو بيانات عامة ، توجه باسم الامير الى العمال ، وتتعلق بشأن من شؤون الرعية . ومن ذلك ما أورده ابن بسام من اشارات الى عدد من الرقاع التي كانت تكتب على ألسنة ملوك الطوائف ، وتوجه الى العمال في استعجال قبض الضرائب ، وذلك لدفع الاتاوة السنوية التي يتقاضاها الأذفونش [٥].

وفي مقدمة هذه الرسائل ما كتبه الى قواد البلاد على لسان المعتمد ابن عباد ، حيث يقول : " الحال مع العدو – قصمه الله – بيِّنة لا تخفى ، ومداراته – ما لم تكن مضاهاته – أولى وأحرى – والتزم له في الصلح المتفق عليه جملةَ مالٍ رُسِمَ عليك منه ... فعجِّل النظر فيه ، وابعث بكتاب تجاوبُ على ظهره بوصوله ..." [٦].

ان هذا اللون من الرسائل يكشف لنا عن عدم قدرة ملوك الطوائف على مواجهة الاذفونش وتلبية مطالبه ، مما اضطرهم الى مسايرته ، والاذعان اليه ، ودفع مبالغ طائله له . وقد أدى ذلك الى فرض ضرائب باهظة اثقلوا بها كواهل رعاياهم .

ويلاحظ مما سبق أن الرسائل الديوانية بجانب قيمتها الادبية ، تعتبر وثائق مهمة تكشف لنا عن بعض مظاهر التنظيم الاداري والقضائي والمالي، وأدب الراعي والرعية ، ودستور الحاكم والمحكومين في الاندلس في القرن الخامس الهجري .

---

(١) انظر نص الرسالة في : عيون الاخبار : ج١، ص ٦٦، العقد الفريد : ج١، ص ١٦.
(٢) هو أبو الوليد بن الحضرمي ، وزر للمتوكل بن الافطس ، فداخله تيه وعجب وتجبر كرهه من أجلها أصحاب الدولة فعزله المتوكل (انظر : المغرب: ج١، ص ٣٦٥ ، النفح : ج٣ ، ص ٤٥٠). (٣) يضرب لمن يفسد اصطناعه بالمن (انظر : مجمع الامثال : ج٢ ، ص٤٤٣). (٤) الذخيرة : ق٢م٢، ص ٦٤٦ – ٦٤٧. (٥) انظر المصدر السابق نفسه : ق٢م١، ص ٢٥٢. (٦) المصدر السابق نفسه : ق٢م١، ص٢٥٢.

الرسائـــــــل الاخوانيـــــــة

ذكرنا فيما تقدم أن موضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعـــددة، وهي على كثرتها تندرج في مجموعتين ، أولهما : الرسائل الاخوانية شبـــه الرسمية ، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب، أي انها تلك الرسائل التي يتبادلها الامير او الوزير مع من هم دونه فـــي المرتبة الاجتماعية في أمور خاصة ، وثانيهما الرسائل الاخوانية الذاتيـــة ، وهي التي تتناول ما يدور بين الاصدقاء من عتاب وشوق وعزاء ، وما الـــى ذلك من العواطف .

لقد أخذت الرسائل الاخوانية في القرن الخامس الهجري تزاحم الشعـــــر وتطرق أبوابه ، وليس ذلك غريبا ، اذ أن معظم كبار الشعراء هم كبـــار المترسلين ، من أمثال ابن برد الاصغر ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابـــن طاهر ، وابن القصيرة ، وابن أبي الخصال وغيرهم .

ولعل من المناسب أن نشير الى أن هذا اللون من الرسائل يشكل جـــزءا كبيرا مما انتهى الينا . ولقد استطاعت هذه الرسائل أن تتناول جانبـــا كبيرا من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع الاندلسي ، والتي غالبا ما تقوم على المودة والحب والصدق والوفاء ، مما يعد جانبا مشرقـــا من حياة المجتمع الاندلسي . وفي موضوعات الهجاء والذم والاعتذار التـــي تعبر عن الجانب السلبي في العلاقات الاجتماعية ، وهو أمر طبيعي كائـــن في كل مجتمع .

رسائـــــل المديـــــح :

احتل موضوع المديح مكانة عظمى في أدب الرسائل في الاندلس في القـــرن الخامس الهجري . ويندرج في مجموعتين ، أولهما مديح الاخاء والمـــودة والصداقة وما يتعلق بهما ، والتعبير عن المشاعر الصادقة والعواطف النبيلـــة التي تجمع بين الاصدقاء . اذ ان مكاتبة الصديق كما يقول أبو محمد بـــن عبد البر " عِوَضٌ من لقائه ، اذا امتنع اللقاء ، واستدعاءٌ لأنبائـــه اذا انقطعت الأنباء ، وفيهما أُنْسٌ تَلَذّ به النفس ، وارتياحٌ تُنْعَشُ به الارواح، وارتباطٌ يتصل فيه الاغتباط "(١) .

أما النوع الثاني فيتمثل في مدح الامراء والوزراء والتودد اليهم على غرار ما كان يفعل الشعراء . ولقد دارت مدائح الكتاب حول الصفات التـــي كانت تعتبر في ذلك القرن امهات الفضائل ، وهي الكرم والجود والصدق والحمية

---

(١) الخريدة : ج٣ ، ص ٤٦٠ .

والشجاعة والاباء ، وقد يضاف اليها فصاحة اللسان وقوة البيان .

ومما جاء في مدح الاصدقاء والتودد اليهم [(١)] ، ما كتبه أبو القاسم ابن الجد ، حيث ركز على الاخلاق الفاضلة والشمائل الرفيعة التي تحلى بها صديقه ، فهو " حاملُ آدابٍ ومعارفٍ ، ولابسٌ من خِلَعِ الفضلِ مطارقَ ، ومتميزٌ بفضول محاسنَ مُنِحَتْ جمالَها ، ومتفردٌ بخواصِ فضائلَ جَمَعَتْ كمالَها " [(٢)] .

كذلك فقد تكشف رسائل المديح عن مشاعر الشوق والحنين الى الاخوة والاصدقاء ، وعما يعانونه من غربة وفراق ، وتبين أن بعد المسافة لا يحول دون اللقاء ، وأن الزمان مهما طال فانه لابد من أن يجمع الله شمل الاصدقاء ، ومع ذلك فان القلوب مجتمعة متآلفة متلاقية ، ومن ذلك ما كتبه أبو جعفر بن أحمد ، حيث يقول مخاطبا أحد أصدقائه : " كيف لا أراقبُ مَرَاقي النجوم ، وأطالبُ مآقي العينِ بالسُّجومِ ، وقد أنذرَ بالفراقِ مُنْذِرٌ ، وحَذّرَ من لحاق البينِ مُحَذِّرٌ ، ويا ليت ليلنا غيرَ محجوب ، وشمسنا لا تطلع بعد وجوب ، فلا نروع بالصداع ولا نفجع بوداع " [(٣)] .

ومما جاء في تصوير المشاعر والاحاسيس التي يعاني منها الكاتب نتيجة بعده عن أحبائه وأصدقائه ، ما كتبه أبو بكر بن سعيد البطليوسي مخاطبا أبا الحسين بن سراج ، وفيها تصوير دقيق لمعاني المودة والصداقة ، وهي تنم عن شوق ولهفة عظيمة الى اللقاء ، وفعل المعجزات لولا عوائق الزمان ، يقول : " لولا أن عوائقَ الزمان - أدام الله عزك - تعوقُ لساعدت اليك نزاعي ، وانقدت في حبل شوقي واطلاعي ، ولاستبطأت السلاهب [(٤)] ، واستهجنت الجُرْد [(٥)] اليعابيب [(٦)] ، واتخذت المجرة سبيلا ، وسهيلا دليلا ، ولامتطيت الافلاك ، وتترست بالثريا ... هذا لو أردت البر ومقاساة السهل منا والوعر ... " [(٧)] .

وامتدح الكتاب غيرهم من الادباء والكتاب والعلماء ، ويدل ذلك على مبلغ اعجابهم بالادب والعلم وصناعة الكتابة وفضل العلماء ، فلقد امتدحوا العلماء والمفكرين ، وبينوا قوة بيانهم ، وعذوبة ألسنتهم وروعة أقلامهم ، فهذا أبو محمد بن غانم [(٨)] يمدح صديقه أبا الحسن الحصري برسالة فيها كثير من التقدير لأدبه وعلمه ، فقد وصفه بالبلاغة وفصاحة اللسان ، ووضوح البيان ، يقول : " ما أفصحَ لسانَك ، وأفسحَ ميدانَك ، وأوضحَ بيانَك ، وأرجحَ ميزانَك ... ايها السابقُ المتمهلُ في

---

(١) انظر رسالة ابي المطرف بن الدباغ في هذا الموضوع في : الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٩٧ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢٩٩ . (٣) القلائد : ص ١٦٤-١٦٥ .
(٤) السلاهب : جمع السلهب والسلهب من الخيل : الطويل على وجه الارض (اللسان : مادة سلهب) . (٥) الجرد : جمع أجرد : وهو الجواد قصير الشعر (اللسان : مادة جرد) . (٦) اليعابب : جمع اليعبوب : وهو الفرس الطويل السريع ، أو الجواد البعيد القدر في الجري (اللسان : مادة عبب) . (٧) احكام صنعة الكلام : ص ١٣٦ .
(٨) هو غانم بن وليد بن محمد المخزومي ، من أهل مالقة ، توفي سنة ٤٧٠ هـ (انظر : ترجمته في : الجذوة : ص ٣٢٥-٣٢٦ ، المطمح : ص ٢٩٣-٢٩٤ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٨٥٣ .

ميدانِ النُّبلِ ، والسامعُ المُتَطَوِّلُ بفضائلِ الذكاءِ والفضلِ ...أنت واحد البلاغة الذي لا يُجارى ، وفارسُ الفصاحةِ الذي لا يُبارى "(١) .

ولأبي محمد بن عبدالبر عن المعتضد الى أبي عمر أبيه من رسالة يشير فيها الى مكانته بين أهل عصره ، وانتشار علمه ، وينعته بأنه واحد عصره ، يقول : " فضلُكَ في كل قطر كالمشاهد ، وشخصُكَ في كل نَفْس غيرُ متباعد ، فأنت واحدُ عصرِكَ ، وقريعُ دهرِك ، علماً بيدك لواؤه ، وفضلاً اليك اعتزاؤه ، وكنت كذلك والناس موفورون ، والشيوخ أحياء يُرزقون ، فكيف وقد دَرَسَ الاعلام ، والكُدَى(٢) ، وانتُزِعَ العلمُ بقبض العلماء فانقضى ... "(٣) .

ثم يشير الى مكانته الرفيعة في نفس المعتضد ، والى ظمأ الناس الى علمه ومعرفته ، يقول : " ولم تزل نفسي اليك جانحةً ، وعيني نحوك طامحةً ، انجذاباً الى العلم ورغبةً فيه ، ومنافسةً في قضاء حقوقِ حامليه ، والناسُ عندنا الى ما عندك ظماء ، ولدينا الداء ، وأنت الشفاء ، فاجعلْ بفضلك للغرب منك نصيبَ الشرق "(٤) .

ومهما يكن من أمر فان هذه الرسائل تدل على المكانة الرفيعة التي كان العلماء والمفكرون والكتاب يحتلونها في المجتمع الاندلسي آنذاك، كما تدل على ازدهار الحركة الثقافية والعلمية ، واهتمام الامراء بها.

- وقد احتل مدح الامراء والوزراء منزلة رفيعة في رسائل المديح، حيث رسموا لهم صورة مثالية كتلك الصورة التي رسمها الشعراء ، فهذا ابن خفاجة يمدح أحد الامراء ، وينعته بصفاته وشمائله الحميدة، المتمثلة في المجد والبأس والفهم والحلم والكرم والسؤدد والعزم والحزم والاقدام ، حيث يقول : " مثلَ الامير - مِمَّنْ المجدُ من أعدادهِ، والبأسَ من أجنادِهِ ، والفهمُ من طلائعِهِ ، والحلمُ من طبائعِهِ ، والكرمُ من حلاه ، والسؤدد من علاه ، والعزم من خدمه ، والحزم من شيمه ، والاقدامُ والاكرامُ والإنعامُ من صفاتِهِ ، والرياسةُ والنفاسةُ والسياسةُ من سمائِهِ ، والفضلُ من أخلاقِهِ ، والشرفُ من أعراقِهِ "(٥) .

لقد كشف ابن خفاجة في نهاية رسالته عن هدفه من هذا المديح، فهو يسعى الى الحصول على صك من الامير ليبقى في ظله ، حيث يقول : وأنا أرغب من فضله ... أن يخصني بصك كريم أُحيي به معالمَ شرفي، وأُباهي بمحاسنِهِ فارطَ سلفي "(٦) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م٢،ص٨٥٦-٨٥٧ . وانظر ايضا رسالة ابي الحسن صالح بن صالح الشنتمري الى الوزير الفقيه أبي الحسين ابن سراج: الذخيرة : ق٣م٢، ص٥٧٦ . (٢) الكدى : جمع كدية ، وهي الارض المرتفعة (اللسان: مادة كدا)
(٣) الذخيرة : ق٣م١،ص ١٣٤ . (٤) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ١٣٤.
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢،ص٥٦٠. (٦) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢،ص٥٦٠.

ومدح ابن شرف القيرواني في رسالة باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وتغنى بصفاته ومناقبه الحميدة المتمثلة في الكرم والحزم، وقوة البأس، ومضاء العزيمة ، وسداد الرأي ، ويبالغ في اثبات هذه الصفات لباديس، فيجعله يفوق على الذين عرفوا بهذه الصفات . ويشير الى أنه صاحب علم واسع ، وأنه متعلق بطلب العلم والادب تعلقا عظيما ، فهو أمير قد سخر ماله وثروته لذلك ، يقول : " مُغْرًى بالادب المهجور بل المطرود، ساليًا عن المال المعشوق ، بل المعبودِ ، منفقاً للحمدِ الدفينِ المرسوس الى صنوفٍ من الفضائل ، وأنواعٍ من الجلائلِ ، لا يُحيطُ بها الوصفُ، ولا يجمعُها الرَّصْفُ ، يُغْني النقلَ الكافي ، والتواتُرُ الاجماعي عن تأتيها على ألسنة الاقلام الى أفهامِ الأنامِ "(١) .

ولأبي المطرف بن مثنى رسالة في مدح المأمون بن ذي النون ، وذكر محاسنه " التي هي كالنجوم اعتلاءً ، والصباحِ انجلاءً ، والروض بهاءً" .

ويصوره وقد حاز أعظم الفخار ، ويثني على نسبه وحسبه وحلمه ومضائه وشجاعته وفضله وعدله ، وما الى ذلك من بديع الصفات والمحاسن ، فهو " بحرُ المَنَنِ ، وفخرُ الزمنِ ، وزعيمُ الانامِ ، وكريمُ الاخوالِ والأعمامِ ... وأحلمُ من فرخِ الطائرِ ، وأمضى من الحسامِ الباترِ، ومن سجيته الفضلُ ، وسيرتُه العدلُ ، وقولُه الفصلُ ،..."(٢) .

كذلك فقد مدح الكتاب الوزراء مدحا يماثل مدحهم الامراء، فهذا ابو جعفر بن أحمد يمدح أحد الوزراء ، ويصفه ببعد الهمة ، والسعي الى العلا ، وبناء المجد ، يقول : " فانك اتخذتَ الى العلا طريقاً مختصراً، خَفِيَ عن غيرِك ، فلا يرى له أثرا ، فكلٌّ يرى أساسَ المجدِ سَعْيَه لنفسِهِ، واستنفادَ وُسْعِهِ للذاته ...وأنت - أعزك الله - انما تشيد مَجْدَكَ ، بأن تبذلَ لغيرِك جهدَكَ ، وتُنفقُ في ذلك ما عندك ، وهو طريقٌ لا يهتدي اليه الا عيونُ آرائِكَ ، وغرضٌ بعيدٌ لا تصميه الا سهامُ انحائك..."(٣) .

انه يجعله مفردا في صفاته وأفعاله ، واماما لأهل الفضائل .

ان هذا اللون من الرسائل يدل على أن النثر قد دخل ميدان المديح الذي كان بصورة عامة وقفا على الشعر .

---

(١) الذخيرة : ق٤ م١ ،ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤١٧.

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢ ،ص ٧٦٧ .

رسائل العتاب والاعتذار :

يمثل العتاب والاعتذار صورة من صورة المودة والصداقة ، وآية من آيات الوفاء بين الناس ، وتتمثل رسائل العتاب في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب لمخاطب في أمر ساءه منه ، فأوجب عتابه له . أما رسائل الاعتذار فيدبجها الكاتب عندما يقترف ذنبا ، أو يرتكب جريرة ، ثم يعتذر عنها .

وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة والشدة ، وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي استثاره ، فدبج رسالته فيه ، وقد كانت بعض الرسائل تبدأ بالحديث عن العلاقة التي تربط الكاتب بالمخاطب ، وما فيها من معاني الصداقة والمودة والالفة ، ومن ذلك ما جاء في رسالة لابن برد الاصغر ، حيث يقول معاتبا صديقه : " اظلمَ لي جوُّ صفائك ، وتوعرّت علي أرضُ اخائك ، واراك جَلَدَ الضميرِ على العتاب ، غيرَ ناقعِ الغلة من الجفاء ، فليت شعري ما الذي أقسى مهجةَ ذلك الودّ ، وأذوَى زهرةَ ذلك العهدِ ، عهدي بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة ، ومودتنا تسمو على صفةِ العتاب ، ونسبةِ الجفاء ، واليوم هي آنسُ بذلك من الرضيع بالثدي"(١) .

ومن رسائل العتاب التي تركز على المودة والالفة والصداقة ايضا ، تلك الرسالة التي كتبها ابن شهيد الى مجاهد العامري ، يعاتبه فيها على اهماله للصداقة التي كانت بينهما ، بسبب انشغاله بالسياسة وتصريف أمور الدولة . وقد افتتح رسالته بتذكير مجاهد بأيام الشباب ، والصلات التي كانت تربط بينهما آنذاك ، وما كان من اشتغالهما بالاداب والعلوم قبل أن يفرق الزمان صحبتهما ، ويحتفظ لمجاهد بمستقبل لامع ، يقول : " كنا قبل أن تَرْمي بنا النوى مراميها ، وتُلقي الخطوبُ علينا مراسيها ... تَرِبَيْ صحبةٍ ، وخليفي صَبْوَةٍ ، قد تخلَّيْنا عن الانساب ، وانتسبنا الى الاداب ، والدارُ اذ ذاك صِقْبٌ(٢) ، والملتقى كثبٌ(٣) ، فاذا شمخَ بأحدنا مارِن(٤) ، وثار به كمدٌ(٥) ساكنٌ ، بِعَتْبٍ على زمن ، وتقصيرٍ بارادة عن سَكَنٍ ، تعاطينا كأسَ الشكوى ، وتجاذبنا حبلَ البلوى ... ثم ألقت الايامُ علينا بكَلْكَلٍ ، وأناخت من فوقنا بجران ، فنثرتنا بكل فجٍّ عميقٍ وأفقٍ سحيقٍ ، نثرَ الدُّرَرِ ، شَذَرَ مَذَرَ ، ونفحت عليك رياحُ السعد ..."(٦) .

ثم يعاتبه على اهماله الصداقة التي كانت بينهما ، حيث لم يعد يكتب له خشية أن يستفيد ابن شهيد من منصبه السامي ، يقول : " فكان أولُ حَيْصتِكِ عن الوفاء ، وحَيْدَتِك عن رعاية قديم الاخاء ، أنْ تركت

(١) الذخيرة : ق١م١،ص ٥٠١ . (٢) صقب : يقال أصقبت الدار : أي دنت وقربت(اللسان: مادة صقب) . (٣) كثب: القرب(اللسان: مادة كثب).
(٤) المارن: طرف الانف(اللسان : مادة مرن). (٥) الكمد: الحزن المكتوم (اللسان: مادة كمد). (٦) الذخيرة : ق١م١،ص ٢٢٨ .

المخاطبة ، وأضربتَ عن المكاتبة ، خَشيةَ أن يكون كلنا عليك ، ورغبتنا في ما لديك " .

ويبعد عن ذهنه الظن بأنه يريد أن يستفيد من منصبه السامي ، اذ "يأبى ذلك كرم محض ، وهمة عليناء مالها خفض "(١) . ومع ذلك فهو ما يزال محافظا على معاني الود والوفاء له " وانما الوصلُ بالفؤاد لا بالمداد ، والالتقاء بالحُلُوم لا بالجسوم ، فانطويتُ على وُدٍّ ، وثبتُّ على صحة عَقْدٍ "(٢) .

ويشير الى فعل الواشين الذين أرادوا قطع ما بينهما من صحبة وصداقة ، ويدافع عن نفسه ، ويذكر أنه سوف يأتي اليوم الذي ينصفه فيه مجاهد ، ويعيد الحق الى نصابه ، ويرجع ما كان بينهما من مودة واخاء ، حيث يقول : " ولقيتُ اخوانا لقنوك ، فوالذي جعل الغدر من شعارهم ، والحذر من دثارهم ، ما أجروا في ذكرك فضلا على أن يجروا ذكري لك ، وهم يعلمون أن مرماي غير مرماهم ، ومغزاي سوى مغزاهم ، ويُوقنون أن أبعد آمالي في صديق اذا سما ، وأرفع رغباتي لديه اذا طمى ، انفراجُ بابه ، وانهتاكُ حجابه ، يمتعني باشراق وجهه ، ويوردُني غديرَ بِشْره ... ويضربني بسواي من أهل زمانه ، ولا يقلّل من حظي من اكرامه ، ولا يهجر قسطي من لطيف اهتمامه ، بعد أن يعدلَ القسطاسَ ، ويميزَ الذهبَ من النحاسِ ... لابد أن تُوفى الرجال مقاديرَها في أزمانها "(٣) .

ومن رسائل العتاب التي نلمس فيها شيئا من القوة والعنف ما كتبه ابن قزمان(٤) الى بعض اخوانه ، وقد افتتحها بالحديث عن تلك الصلات الوثيقة التي كانت تربط بينهما من صداقة ومودة وأدب ، حيث يقول : " ما أكثر الاشياءَ الجامعةَ لنا : أدبٌ كَرَوْضِ الحَزْنِ ، وَوُدٌّ كصَوْبِ المُزْنِ ، وأوليَّةٌ كَرُمٌ تاريخُها ، واتصلتْ أسانيدُها ، لا يُنْكَرُ فضلُها ، ولا تُذَمُّ عهودُها ، وأسلافٌ سلفتْ بينهم صحبةٌ حميدةٌ ، وأذِمّةٌ وكيدةٌ ... "(٥) .

ويبين له أنه ما يزال محافظا على وده له ، ويكشف له عن شوقه لرؤيته ، فهو ما زال " على تراخي المَزَارِ ، وتنازحِ الاقطارِ ، أوُدُّك كلَّ الوداد ، وأعتقدك أصحَّ الاعتقاد ، وألحظك بعين الاعظام ، وأقترح لقاءَك على الايام ، معرفةً بسبقِك ، وتوفيةً لحقِك ، وتَوْقاً الى مطالعةِ تلك الطباع الرقيقة "(٦) .

---

(١) الذخيرة :ق٣م١،ص٢٢٨. (٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٢٢٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص٢٢٩-٢٣٠ ، وانظر : رسالة المتوكل بن الافطس الى اخيه يحيى يعاتبه برقة ولين عندما اتصل به أنه قدح بمجلس المنصور : الذخيرة : ق٢م٢، ص٦٤٩.
(٤) هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن قزمان ، كان أديبا لبقا ، راوية للغة والادب ، اتخذه المتوكل صاحب بطليوس كاتبا ومشيرا ،توفي سنة ٥٠٨هـ (انظر ترجمته في : الخريدة : ج٢،ص ٤٦٥ ،المغرب:ج١ ، ص ٩٩) .
(٥) الذخيرة : ق٢م٢،ص٧٧٤. (٦)المصدر السابق نفسه : ق٢م٢،ص ٧٧٤-٧٧٥ .

ويعاتبه بعد ذلك ويلومه على ما لمسه من تغير في معاملته لـه ، وانصراف عن مقابلته له عندما قدر لهما أن يكونا في مجلس واحد ، حيث يقول : " الى أن دخلتَ على فلان ومعه فلان ، وأنت حاضرهما ، فحين لمحتُك عرفتُك ، بما كان ثبت عندي من صفتِكَ ... وعند أخذي لمقعدي رأيتُك قد وَجَّهْتَ الى من كان يَليك وَوَحَى اليك ، فانْثَنَيْتَ وقد زَوَيْتَ ما بين عينيك ، وشَمَّرْتَ أنفك ، وقعَّرت وجهَكَ ، وضَمَمْتَ اليك ثيابَك، وقاربت بين أجزائك ، فقلت : أراه ازدرى طَلْعَتِي ، وتَقَذَّر هَيْأَتِي، وخَشِيَ أن أعْدِيه بسوء حالتي ... شيء " خرقت به عادةَ أمثالِكَ، وخالفت فيه سيرةَ نظرائِكَ"(١) .

ومن رسائل العتاب الشديد رسالة لأبي عبدالله البزلياني ، يخاطب بها صديقا له ، وقد زاره ولم يوفه حقه ، مما أثار غضبه اذ عد ذلك اهانة وتصغيرا لشأنه وتحقيرا لشخصه ، فوجه اليه اللوم والعتاب الشديد ، يقول : " وجئتُك زائراً ، فكأني جئتُك آملا ، وأردتُ مصافحتَكَ فما مددتَ يداً ، وطلبتُ معانقتَكَ فخلتُكَ مُقْعَداً ، وبعد أن هممتَ بالنهوض أقعدَكَ الكسلُ ، كأنك خُمْصَانَةٌ(٢) أثقلها الكَفَلُ ،... فما كان ضَرَّك حين أخللتَ لو أجللتَ ، وما كان يسوؤك حين ناظرتَ لو أجملتَ ، وما كان ينقصُكَ حين حكمتَ لو عدلتَ ؟"(٣) .

ويرد عليه بعض التهم التي رماه بها ، ويجعلها مردودة عليه ، منسوبة اليه ، وهو في أثناء ذلك يثأر لنفسه ، ويقلل من شأن مخاطبه ، حيث يقول : " ومن العجب أن تَنْسِبَني الى الشعوذةِ ، وهي حصنُكَ اذا غلبتَ ، وتُلَحِّنني في النطقِ وهي عادتُك اذا كتبتَ . ولعمري لقد قلتها ولقد جهلتَها ، وتركتَها وما عرفتَها ، وكما أنَّ بركةَ الاشجار في الانوار ، فكذلك بركةُ الادب في الرسائل والاشعار ، فأين رسائلُكَ وأشعارُكَ ، ومؤلفاتُكَ وآثارُك ؟ هيهاتَ هيهاتَ : غلبك على الحق أهلُهُ ، ونفاك عنه جهلُكَ"(٤) .

ومن رسائل الاعتذار التي نحت منحى الرقة واللين تلك الرسالة التي وجهها ابن شهيد الى المؤتمن بن أبي عامر يعتذر اليه عن عدم اللحاق به ، وذلك أن تعلقه بقرطبة وحبه لها ، قد حال دون ذلك ، حيث يقول : " وقد كان أقلَّ حقوق مولاي أن أقفَ ببابه ، وأخيِّمَ بفنائه ، وأهدي اليه الشكرَ غَضّاً ، وأنثر عليه المدح نَضّاً ، ولكني ممنوعٌ ، وعن ارادتي مَقْمُوعٌ(٥) ، يَمْلِكُني سلطانٌ قديرٌ ، وأميرٌ ليس كمثله أميرٌ ،

---

(١) الذخيرة : ق١م٢،ص ٧٧٥- ٧٧٦ . (٢) الخمصانة : المرأة الجائعة الضامرة البطن (اللسان : مادة خمص) . (٣) الذخيرة : ق١م٢ ،ص٦٣٤ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق١م٢،ص٦٣٤-٦٣٥ . (٥) القمع : الردع والكف (اللسان : مادة قمع) .

شيء غلبَ صَبْرَ الاتقياءِ ، واستولى على عزم الانبياء ، وهو العشق ... لعجوز بَخْراءَ(١) ، سَهِكَةٍ(٢) درداءَ(٣) ، تُدْعى قرطبة"(٤) .

ولابن زيدون رسالة مزج فيها بين العتاب والاعتذار ، ويبدو أنه كتبها وهو مختف بقرطبة بعد هروبه من السجن ، قد افتتحها بمعاتبة مخاطبه ، لأنه أشفق من اتهامه ، وتنصل من مشاركته في محنته ، ثم انه قد أصغى الى من يعيب على ابن زيدون فراره من السجن ، يقول: " أبدأ من كتابي اليك بشرحِ الضرورةِ الحافزةِ الى ما صنعت ، مما بلغني أنك صدرُ اللائمين لي عليه ، وأولُ المُسفِّهين لرأيي فيه ... وأُوَسِّطُهُ بمعاتبتك على ما كان من انفصالك عني ، وبراءتك أمَدَ المِحْنَةِ مني..."(٥).

ثم يأخذ ابن زيدون بتبرير هروبه من السجن بأدلة وحجج وبراهين ، ويرد العتب عنه ، ذلك أن الظروف القاسية التي عاشها في السجن هي التي دفعته الى ذلك ، فلقد نقل من أحد السجون الى " حيث الجناةُ المفسدون، واللصوصُ المقيدون .. فلم أستطع صبراً ، وعلمت أني قد أُبليت عذرا ، ولم يبق لي الا أن يعذرني لبيد وكاد(٦) ، ورأيت أن العاجزَ من لا يستبدُّ ... وذكرت أن الفرارَ من الظلمِ ، والهربَ مما لا يُطاق من سنن المرسلين"(٧) .

ولا يقف ابن زيدون في رسالته هذه عند حدود العتاب والاعتذار، فحسب ، بل يتعداهما الى استعطاف المخاطب ، وطلب يد العون والمساعدة منه(٨) .

رسائل التهنئة :

لقد كان كثير من الكتاب الاندلسيين محافظين على معاني الصداقة والمودة بينهم . فاذا ما أصاب أحد الامراء أو الوزراء أو الاصدقاء خير من اعتلائه منصبا ، أو اختياره لعمل جليل ، أو خلاصه من نكبة ، أو وهبه الله تعالى مولودا ، هنأه أصحابه من الكتاب وشاركوه في أفراحه .

ومن ذلك رسالة لابن خفاجة في التهنئة بالقضاء وتثنية الوزارة ، وقد افتتحها بالحديث عن طبيعة التدرج في الاشياء ، ليكشف لنا عن تدرج صاحبه في اعتلاء المناصب الكريمة الى أن انتهى به الامر الى تولي القضاء ، وتثنية الوزارة ، يقول : " ومثلك من شهدتْ له مخايلُ الولاية باكتهال السيادةِ ، واكتمالِ السعادةِ ، وان القضاءَ وان شَرُفَ مرتبةً ، وكَرُمَ

---

(١)بخراء : البخر: النتن يكون في الفم وغيره ، يقال : بخر بخرا وهو أبخر وهي بخراء . (٢)سهكة : السهك : ريح كريهة تجدها من الانسان اذا عرق ،تقول : انه لسهك الريح ،وهو سهك ، وهي سهكة . (اللسان:مادة سهك) .
(٣)درداء : يقال انثى درداء ، ليس في فمها سن(اللسان: مادة درد) .
(٤)الذخيرة : ق١م١،ص ٢٠٧ -٢٠٨ . (٥)المصدرالسابق نفسه :ق١م١،ص ٤٠٨ .
(٦)اشارة الى قول لبيد (ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر)،أي انه أدى كل ما في طوقه ، ولم يبق الا أن ينجو فارا من السجن. (٧)الذخيرة :ق١م١، ص ٤١٢ . (٨)انظر بقية الرسالة في :المصدر السابق نفسه :ق١م١،ص ٤١٣-٤١٧ .

مآثرةً ومنقبةً ، ليضيقُ عن نصل فضلِك غِمْدُهُ ، ويَغْرَقَ في بحر فخرك مَدُّهُ ... وليهنيء الوزارة أن شُدَّتْ بجيدك عُراها ، ونيطتْ ببحرك حُلاها ... وانهما في تضافرهما لك وحُسْنهما بك لَعِقْدٌ ثُنِّيَ بعقدٍ ، وعَلَمان رُقِمَا في بُرْدٍ "(١) .

ويبين بعد ذلك أثر اعتلائه القضاء وتثنيته الوزارة على الدين، حيث يقول : " وان الدين لمُشْتَدٌّ بك أَزْرُه ، فعنانُه على الرائِضِ صعبٌ، وعُودُهُ على الغامِزِ صُلْبٌ "(٢) .

ويختتم رسالته بمدح صديقه ، وبالاشارة الى فضائله وصفاته التي جعلته أهلا لاعتلاء هذين المنصبين الكريمين ، يقول : " وقد ساقت الليالي ذاتَك تجريباً وتهذيباً ، وقوَّمَتْ قناتَك أنبوباً فأنبوبْ ، حتى خَلُصْتَ خُلُوصَ الذهبِ على اللهبِ ، والدينارِ على النارِ .. وان أفقاً أنت بدرُ تمامه لينطح السماءَ منكبُهُ ، ويزحفُ تحت رايةِ الفتحِ والفَلَجِ(٣) "(٤) .

ولابن طاهر رسالة يهنيء بها أحد أصدقائه ، وقد ثنيت له الوزارة ، وقد افتتحها بالاشارة الى فرحه وسروره بهذه المناسبة ، يقول : " وان بشراي تتابعت أن هِلالَكَ في الوزارة طَلَعَ بدراً ، وأن نداءك بها صار شِفْعاً وكان وِتْراً "(٥) .

ثم هو يهنئه ويمدحه ويشير الى صفاته وفضائله العظيمة التي تشرفت الوزارة باعتلائه اياها ، يقول : " وانك مُقَلَّدُها من خلالك فذاً وتوْأما ، وملبسُها من صفاتِك طرزا وأعلاما ، حُسْنَ يقين ، ومتانةَ دينٍ ، وطيبَ جذم(٦) ، ورسوخَ وَرَعٍ وعِلْمٍ ، وأدباً كالروض نبهه الصبا ، وكرماً كالغيث غَمَرَ الرُّبى "(٧) .

ومما كتب في التهنئة بمولود ، تلك الرسالة التي كتبها أبو القاسم بن الجد يهنيء فيها أحد أصدقائه بمولود وهبه الله له بعد طول انتظار، يقول : " ان أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسانٌ ، وتشرفَ في ميادين معانيه بيانٌ وبنانٌ ، أَمَلٌ رُجِّيَ فتأبّى زمانا ، واستُدعي فَلَوَى عِنانا ، وطاردته المُنى فأتبعها حينا ، وغازلتْه الهممُ فاسعرها حينا ، ثم طلع غيرَ مُرتقبٍ ، وورد من صحبة المباهج في عسكرٍ لُجُبٍ ، فكان كالمشير الى ما بعده من مواكبِ الامال "(٨) .

ويمتدح مقدم هذا المولود السعيد ، ويبين أثر مقدمه في نفوس الناس ، وما بعثه فيها من سرور وسعادة ، فيا له نجم سعادة تطلع في أفق سيادة ، وغصن سناء ، تفرع من دوحة علاء ، لقد تهللت وجوه

(١) الذخيرة :ق٣م٢،ص ٥٥٥–٥٥٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢،ص٥٥٦ .
(٣) الفلج : الظفر الفوز (اللسان: مادة فلج) . (٤) الذخيرة : ق٣م٢،ص ٥٥٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٦٤ . (٦) الجذم : أصل الشيء (اللسان: مادة جذم) . (٧) الذخيرة : ق٣م١،ص ٦٤ . (٨) الذخيرة :ق٢م١،ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

المحاسن باستهلاله ، وأقبلتْ وفودُ الميامنِ باستقباله ، ونُظمتْ له قلائدُ التمائمِ من جوهرِ المكارم "(١) .

ثم يعقد مقابلة بين حال أهل المولود قبل أن يهبه الله لهم وحالهم بعده ، ويبالغ في الثناء والاطراء عليهم ، حيث يقول: " وما كان منبتُ الشرفِ بانفرادِ تلك الارومةِ الكريمةِ الا مقشعرَّ الربى ، مُغبرَّ الثرى ، متهافتَ أغصان الرضى ، فأما وقد اهتزَّ في أيكة السيادة قضيبٌ ، ونشأ من بيتِ النجابةِ نجيبٌ ، فأخْلِقْ بذلك المنبتِ أن تُعاوِدَه نضرتُه ، وترف عليه حبرتُه ، ويراجِعَه رونقُه وبهاؤُه .."(٢) .

ويختتم رسالته بحمد الله على عظيم هبته ، و " على ما أتاحه من انتشاءِ الاملِ بعد جِمَاحِه ، واختيال الجِذْلِ (٣) في حِلْيةِ غُررِه وأوضاحِه "(٤) .

ومن التهنئة بمولود ما جاء في رسالة لأبي محمد بن غانم يخاطب بها بعض اخوانه بغرناطة يهنئه " بالفارسِ المولودِ ، والفرعِ المودودِ ، والنجم السعيد ، الذي تطلّعَ بأفُقِ سمائِك ، وتلفّعَ بلفاعِ ضيائِك ، مُلّيته ولداً بَرّاً ، ووفياً حرّاً "(٥) .

ومما جاء في التهنئة بخلاص من نكبة ، رسالة لأبي مروان بن حيان يهنيء بها بعض العمال بخلاصه من نكبة ، ويكشف عن سروره العظيم وارتياحه الكبير بهذه المناسبة ، فكتابة عن " نفس قد أشرقَ صاحبُها ، وهبّت رياحُ ارتياحِها ، وسرى نفس السرورِ فيها ، بما طلع علينا من البشائرِ السارةِ بخلاصك ، وجميل انفكاكك ومناصك "(٦) .

ثم يصور حالي المخاطب في النكبة وبعدها ، ويبين أثر هاتين الحالتين على مخاطبه ، وعلى الناس من أهل الفضائل ، اذ بلغت قلوب الأوِدّاءِ (٧) الحناجرَ ، وكادت مواردُ الحزن لا تكون لها مصادرُ ، فانّ الايامَ عمّتْ فيك باساءَتِها اليكَ ، كل منتسبٍ الى فضل، متّسم باسم نبل"(٨) .

رسائل الشكوى :

لقد تناول الكتاب الاندلسيون الشكوى في أغراضها المختلفة، فقد شكوا الزمان وأهله ، وقلة الوفاء ، وندرة الاخوان ، وكثرة الفساد، وشكوا الفقر الذي لازم بعضهم ، والمرض الذي ألم بهم .

---

(١) الذخيرة : ق٢م١، ص ٢٩٢ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٢م١، ص ٢٩٣.
(٣) الجذل : أصل الشيء الباقي (اللسان : مادة جذل) . (٤) الذخيرة : ق٢م١، ص ٢٩٣ . (٥) المصدر السابق نفسه : ق٢م٢، ص ٢٩٥. (٦) المصدر السابق نفسه : ق١م٢، ص ٥٨٤. (٧) الأوداء : جمع وديد وهو المحب(اللسان : مادة ودد).
(٨) الذخيرة : ق١م١، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥ .

وممن شكا الزمان وأحواله ابن التاكرني الذي كتب رسالة خاطب بها أبا جعفر بن عباس، يشكو اليه تقلب الزمان، وفساد الاحوال، وتنكر الاخوان، وكثرة المفسدين والواشين، ولقد كتب كتابه عن " نفس تَفيضُ بمائها، وتَجيشُ بذمائها، وتشكو الى اللهِ عظيمٌ أدوائِها، غَيْظاً على تقلّب الزمانِ، وعجباً من تَنَكّرِ الاخوانِ، لا يلفظني عجبٌ الاّ الى مثلِه، ولا انتقلَ من مُستَغرَبٍ الا الى شكلِه، إنْ أبرمتَ حبلاً من الاخاءِ، نقضَ المفسدونَ مريرَتَهُ، أو ملأتُ يدي بمن اعتدّ به للشدةِ والرخاءِ، أفسدَ الواشونَ سريرَتَهُ " (١) .

ولابن خفاجة رسالة يشكو فيها فساد الاحوال، وفعل الزمان، ويعبر عن لوعته وحزنه الشديد لانتشار عقد الاحباب، وذهاب ايام صفائهم، يقول: " وما تذكّرتُ عَطَلَ نَحْرِ الزمان، من قلائد الاخوان، وكيف كرّ الدهرُ فَمَحَا محاسنَ تلك الصحيفة، وطوى طواميرَ تلك الشبيبةَ، الاّ انقدَحَتْ بصدري لَوْعَةٌ، لو أنها بالحَجَر لانْفَطَرَ فانْفَجَرَ، أو بالنجم لانْكَدَرَ فانْتَثَرَ.. وصِرْنَا لا نتلاقى الا بالذِّكر، ولا نتراءى الا بالفكر.. "(٢).

كذلك فقد شكا بعض الكتاب سوء أحوالهم النفسية والصحية، وذهاب بعض أجزائهم، ومن ذلك ما كتبه أبو المغيرة بن حزم يشكو فساد حاله، وضعف بنيته، حيث يقول: " وحالي حالٌ للسقام، بها اتصالٌ، وللصحة عنها انفصالٌ، يُعينُ على ذلك ضعف البنية، وفَسَادُ الأهوية، والتخليطُ في الأغذيةِ "(٣).

وكتب أبو الفضل بن حسداي رسالة على لسان المنجم ب" لاردة"(٤) يشكو فيها سوء حاله، وقد ذهبت احدى عينيه: " وجَرّعتني أحداثُ الدهر غُصَصاً، وعدتُ مثلوماً مُنْتقصاً، مشوّهاً بعد اقتبال الجمال، مؤنسُ اليمين مُوحشُ الشمال، كأني شقّ في قفر، أو حوتُ موسى في بحر، وقد صُنْتها برقعةِ خمارٍ أسودَ، وأدّعي أني أشكو الرّمَدَ، وربما سقط فأُتْبِعُهُ باليد"(٥) .

انه يصور حاله ولواعج نفسه المتصدعة بوقع المصيبة تصويرا دقيقا، يبعث الاسى والحزن في النفس.

---

(١) الذخيرة ق٣ م١ ،ص ٢٢٩ .
(٢) الذخيرة : ق٣م٢،ص ٥٥٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١، ص ١٥٤ .
(٤) لاردة : مدينة في ثغر الاندلس الشرقي ،ابتنيت على نهر يخرج من أرض جليقية يعرف بشيقر (انظر : الروض المعطار : ص ٥٠٨).
(٥) الذخيرة : ق ٣ م١ ،ص ٤٧٥ .

رسائل الرثاء والتعازي :

تحتل رسائل الرثاء والتعازي منزلة رفيعة في الرسائل الاخوانية ، فهي تنم عن احساس صادق بالمصاب ، وتصور لواعج النفس المتصدّعة بوقع الفجيعة تصويرا دقيقا ، ومن الملاحظ أن أغلب رسائل الرثاء والتعازي التي انتهت الينا تأتي في ثلاثة فواصل، هي الندب والرثاء والتعزية ، ولا يخلو بعضها من مقدمة وعظية تصور الدنيا التافهة . فقد كان كثير من كتاب الرسائل يفتتحونها بالحديث عن الدنيا وتفاهتها ، حيث يتخذ الكاتب من حادثة الموت التي يتحدث عنها مجالا للتفكير في حقيقة الحياة وصروفها ، وقد ينتهي به هذا الى التفكير في معان فلسفية عميقة ، فاذا هو يؤكد حقيقة أن الحياة زائلة تافهة ، وبعد هذه المقدمة ينتقل الكاتب الى اظهار التفجع على الميت ، وذكر مناقبه وخصائله ، ثم ينتقل الى العزاء والترحم والدعاء للميت والمخاطب .

ومن الامثلة على هذا اللون من الرسائل رسالة لابن طاهر ، افتتحها بالاشارة الى أن الدنيا مبنية على المصائب والمحن ، وأن العاقل من أعد نفسه لذلك ، بصدر رحب وقلب صلب ، فلا يصيبه خور ولا ضعف ، وفي ذلك وعظ ودعوة الى الصبر على شدائد الحياة ومكارهها ، حيث يقول : " الدنيا - صَرَفَ اللهُ عنك صروفَها - على الفجائع مبنيّة ، وان الحازم من وطّنَ لاحداثها ، وأيقن بانتكاساتها ، فأوسعها صدراً رحيباً ، وقلباً صليباً "(١) .

ثم يشير الى المتوفى ، ويعبر عن تفجعه وأسفه عليه ، وحزنه الشديد لهذا المصاب الاليم ، حيث كتب رسالته " والدمعُ محدورٌ ، وقد حُمَّ قضاءٌ ، ونَفَذَ مقدورٌ ، بوفاةِ الولدِ الطيبِ المباركِ أبي عبد الله ابننا ، وقرة أعيننا "(٢) .

وينتقل بعد ذلك الى تأبينه ، فيصف مآثره ويعدد محامده ، فيقول بأنه " كان مرجوا في الابناء ، معدوداً في النجباء ، للسيادة مُرشَّحاً ، وبالفضائل موشّحاً ، ينهل الخيرُ من أعطافه ، ويعجب الدهر من أوصافه ، أكرِمْ به من سليل "(٣) .

ويحاول أن يخفف من مصيبة مخاطبه ولوعته ، فيختتم رسالته بالاشارة الى قضاء الله وارادته التي قضت بفناء الناس ، يقول : " ولكن يأبى الله الا ما يريد ، فأسعد بجواره ، ونعم السعيد "(٤) .

ولأبي عمر الباجي رسالة بعث بها الى ابن أبي عامر يعزيه في ابنه المعتز ، وقد افتتحها بتصوير الفاجعة وفداحة المصاب ، وجلال الرزء ،

(١) الذخيرة : ق٣م١، ص ٧٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص ٧٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص٧٨ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ٧٨-٧٩ .

ويشير الى مشاركته والد المتوفى حالة الحزن والمأساة ، يقول:" أذهلتني فجأة الخطب ، وتركتني طائرَ القلب واللبِّ ، وقد رماني ساعدُ الزمانِ حين رماك ، وأصماني سهمُهُ كما أصمَاكَ ، وثارتْ اليَّ فجائعُهُ من حيث ثارت اليك ... أيُّ رُزْءٍ ما أفظعَهُ في القلوب ، وأيُّ خطب ما أشنعَهُ في الخطوب ، وأيَّ مصابٍ ما أحقَّهُ بالأسى "(١) .

ثم يلجأ الى التخفيف من لوعة مخاطبه وشجونه ، ويدعوه الى التسليم لله والرضا بقضائه ، والصبر على امتحانه احتسابا للاجر فلقد " أنْعَمَ الله عليك بنُعْمى متّعك بها ماشاء ،ثم صنع في بعض ما شاء ، فان تقابل بالاحتسابِ قَدَرَهُ النازلَ ، وبالتعويضِ قضاءَهُ العادلَ ، فأحرى بحزنك أن يعودَ سرورا ، وبِصَدْعِكَ أن يكونَ بثواب اللهِ مجبوراً "(٢) .

ويلاحظ الباحث أن رسائل الرثاء والتعزية التي كان يصوغها الكتاب على ألسنة الامراء ، كانت تجمع بين المديح والرثاء ، فتصور المخاطب صاحب عزيمة قوية ، وقلب ثابت وعلم واسع ، وما الى ذلك من الفضائل والصفات. ومن ذلك رسالة لأبي محمد بن عبدالبر عن علي بن مجاهد العامري الى ابن أبي عامر في التعزية بوفاة أحد أبنائه . وقد افتتحها بمدحه والثناء عليه ، مبينا أن رجلاً مثله يتصف بأصالة الرأي ، وسعة العلم وجلال القدر، حري به أن لا يتأثر بهذا المصاب ، حيث يقول : " لو استغنى - أعزك الله بالصبر و أيّدك بالنصر - أحدٌ عن التعزيةِ ، واكتفى مصابٌ عن التسليةِ لأصالةِ رأيٍ وسَعَةِ علمٍ ، وجلالةِ قَدْرٍ ، وجزالةِ نفسٍ ، وشدةِ كَظْمٍ ، لكنتَ أنت الغني عن ذلك ، لاحاطةِ علمِك بتقلّبِ الايامِ ، وتصرُّفِ الاحوالِ ، وارتفاعِ قَدْرِك عن أن يملأ الزمانُ صدرَك ، وتبلغ المحن صبْرَك ، فأنت أصلبُ عوداً من أن تروِّعَكَ المصائبُ ، وأشدُّ من أن تضعضِعَكَ النوائبُ "(٣) .

ثم يخفف عنه ويدعوه الى الصبر احتسابا للأجر ، حيث يقول : " لئن جلَّ الخَطْبُ ، وعظُمَ الكَرْبُ ، فالثوابُ بقدرِ المصابِ ، والعطيةُ بحسبِ الرَّزيةِ وانما الاجرُ بالصبر ، والجزاءُ مع العزاءِ "(٤) . ويختتم رسالته بقوله : " ان كلَّ خطبٍ ما عداك يسيرُ ، وكلَّ رُزْءٍ اذا تخطّاك حقيرُ "(٥) .

ومما يلاحظ أن هناك نوعا آخر من رسائل الرثاء التي ازدهرت في الاندلس ، وهو العزاء في المحارم . ويشكل رثاء المرأة سلسلة متواصلة الحلقات في الادب الاندلسي ، من هنا فاننا نجد عددا من الكتاب

---

(١) الذخيرة : ق ٢ م١ ،ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ،ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ٢٢١ - ٢٢٢.
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ٢٢٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣ م١ ،ص ٢٢٢ .

الاندلسيين يعزون في الامهات والزوجات والاخوات (١).

ومن الامثلة على ذلك رسالة لابي محمد بن عبدالبر الى بعض أصدقائه يعزيه في والدته ، وقد افتتحها بالحديث عن الدهر وتقلباته ، والايام وتصرفاتها ، فهي " تُحْلي وتُمِرُّ ، والاقدارُ تسوءُ وتُسِرُّ ، والرزايا تتطرَّفُ وتتحيَّفُ، والمنايا تستدرجُ وتتخطَّفُ "(٢) .

ويذكر بعد ذلك المتوفية ، ويعبر عن حزنه وتفجعه مشاركة لصديقه ، حيث يقول : " واتصل بي وفاةُ الوالدةِ ، المرجوة لك دعوتُها ، المبلوَّة بركتُها ، فساءني،يعلم الله، أن يطرقَ خطبُ حِماكَ ، ويطأ رُزْءٌ ذُراك، مشاركةً لك في المهم ، ووقوعاً معك تحت الحادثِ المُلِمّ "(٣) .

ثم هو يعزيه ، ويدعوه الى الصبر واحتمال المصاب ، اذ أن الموت حق يشمل الناس جميعا ، لهذا فهو يرجو " أن تشدَّ له عزائمَ عزائِك، وتحملَهُ على كبد احتمالك ، وتقليبَ اليه مِجَنَّ اصطبارِك ، وتُذكي عليه قَبَسَ اعتبارِك ، فتعلم كثرَتَهُ وجموحَهُ ، وتذكر شمولَهُ وعمومَهُ ، وتستشعر أنه عُرْفٌ لا نُكر ، وعَوَانٌ لا بِكْر، فتتأسّى بكثرة الباكين على الهالكين، وتتعزّى بسرعة اللاحقين على السابقين "(٤) .

ومن رسائل الرثاء الطريفة تلك الرسائل التي تجمع بين التعزية والتهنئة ، وهي على غرار ما كان يفعله الشعراء ، والرسائل في هذا الميدان نادرة ، ولعل ذلك يعود الى أن الاجادة في هذا الميدان ، مما لا يتاح لكل كاتب ، كما لا يتاح لكل شاعر(٥) . ومن أشهر الرسائل الاندلسية في ذلك ما كتبه أبو محمد ابن عبدالبر . ويلاحظ انه قسم رسالته الى قسمين ، أولهما في الرثاء ، وثانيهما في التهنئة . وقد افتتح رسالته بالحديث عن تقلب أحوال الدهر ، وتناوب مساءته ومسراته " فمن عبرة تفضي الى عبرة ، ومن مساءة تُعقَب بمسرة ، ومن محنةٍ تَفْتَرُّ عن منحةٍ ، ومن تَرْحَةٍ تُقْلِعُ عن فرحةٍ "(٦) .

ولهذا فان على الكتاب المختصين المشاركة " في كل ما نابَ من حَزَن ، وشاب من حُسْن ، قد جرت بها العوائدُ ، واستوى فيها الغائبُ والشاهدُ ، فتلك ترعى بالدعاءِ والتهنئةِ ، وهذه تتلقى بالاطراءِ والتعزية "(٧) .

ويدعو بعد ذلك لمخاطبه بأن يجعل الله " أيامَ مسراتِك الاكثرَ اسعاداً ، وأوقات تهنئاتِك الاوفرَ اعداداً "(٨) .

---

(١) انظر ابن عميرة : ص٢٣٣ . (٢) الذخيرة : ق٣م١، ص٢١٨ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص٢٠٨ . (٤) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص٢١٨ - ٢١٩ ، ويجد الباحث أمثلة اخرى من رسائل التعزية في المحارم ، انظر رسالة لابي القاسم بن الجد يعزي بها أحد اصدقائه بوفاة زوجته في : الذخيرة : ق٢م١، ص ٣١٧ . (٥) العمدة : ج٢،ص ١٥٥ . (٦) الذخيرة : ق٣م١،ص ٢١٦ .
(٧) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٢١٦ . (٨) المصدر السابق نفسه : ق ٣ م١ ،ص ٢١٦ .

انه يتخذ من هذا الدعاء وسيلة للانتقال الى المديح والتهنئة بتقلد أحد الامراء مقاليد الامور ببلنسية بعد وفاة صاحبها ، وما الامر الا " مُلْكٌ تردَّدَ في عنصر ، وخاتمٌ تنقّلَ من خِنْصِرٍ الى خنصر ، وقد سَدَدْتَ - أيّدك الله - ثَلْماً ، وشفيتَ كَلْماً ، وسُمتَ الخطوبَ رَغْماً ، وأوسعتَها هَمّاً "(١) .

رسائل الشفاعة والوصايا :

وهي تلك الرسائل التي تكتب الى الرؤساء والوجهاء في حق الكتاب والشعراء والقواد وغيرهم من مختلف الطبقات والاصناف ، يدعونهم فيها الى معونتهم ومساعدتهم والاخذ بيدهم . لقد استخدم كثير من الكتاب المشهورين مكانتهم وقدرهم وأقلامهم في اعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم فكثرت الوصايا والشفاعات التي كانوا يوجهونها الى الامراء والوزراء وغيرهم .

ومن الملاحظ أن هذه الرسائل غالبا ما كانت تبدأ بمقدمة في مدح الاخاء والمودة ، ثم الاشارة الى الاحترام المتبادل والصلات القوية التي تربط بين الكاتب والمخاطب ، والانتقال بعد ذلك الى موضوع الشفاعة او التوصية . وتختتم الرسالة بتوجيه الحمد والشكر الى المخاطب .

وفي مقدمة رسائل الشفاعة تلك التي كتبها ابن شرف القيرواني الى المظفر بن الافطس ، يشفع بها لرجل كان قد أخذ بوشاية عنده . وقد افتتحها بالتعبير عن شوقه لرؤيته وحنينه للالتقاء به ، وعن معاني المودة التي تربطه به ، يقول : " كتبتُ وشوقي الى شَرَفِ لُقياه ، وشِبَمِ سُقياه ، شوق القارظين(٢) الى سكون وسكنى ... واعتلاقي(٣) بذكره اعتلاقَ مالكٍ وعقيل (٤) ، وقفا نبكِ بالمَلِكِ الضليل ... لي رَغْبَةٌ الى مفاخِره وتَطَارُحٌ بين يدي مآثره ، وادلالٌ على سماحةِ سجايا "(٥) .

ويكشف بعد ذلك عن السبب الذي من أجله أنشأ هذه الرسالة ، فقد طلب اليه شيخ من أهل بلده أن يشفع له لدى الامير ، ذلك أنه أخذ بوشاية عنده ، فأبعده عن وطنه وأهله ، يقول : " وذلك أن شيخا يَفِناً(٦) قصدَ فَنَائي ، فبكى حتى بلّ بفضل دموعه ردائي ، ومَنَعَهُ الشوق بشجاه ، من الكلام

(١) الذخيرة : ق٣م١،ص٢١٦-٢١٧ . (٢) القارظان : مثنى القرظ : وهو شجر يدبغ به ، وقيل هو ورق السلم يدبغ به الادم ، والقارظ الذي يجمع القرظ ،ومن أمثال العرب (لا يكون ذلك حتى يؤوب القارظان)وهما رجلان أحدهما من عنزة ،والاخر عامر بن تميم، خرجا ينحيان القرظ ويجتنيانه - فلم يرجعا ،فضرب بهما المثل(انظر اللسان مادة قرظ) . (٣) يقال : علق الشيء علقا وعلق به علاقة وعلوقا أي لزمه (اللسان : مادة علق) . (٤) مالك وعقيل : نديما جذيمة (اللسان : مادة ردف) . (٥) الذخيرة : ق٤م١،ص ١٩٦ . (٦) اليفن : الشيخ الكبير (اللسان : مادة يفن) .

على ما ارتجاه ، ثم ذكر أنه كاسبُ نُسَيّات ، وأبو بنين وبنات ... ووصف أن بغاةً بغُوهُ ، وحسدةً آذوه ، وتنصّلَ من ذنوبٍ قرفوه بها ، ومولاي أعلمُ بصدقها من كِذْبِها"(١) .

ويشير ابن شرف الى أنه قد رق لذلك الشيخ الذي تاب عن ذنوبه ، وندم عليها ، وأظهر حرصا شديدا ، وتعلقا كبيرا بأهله ووطنه ، فيصور لنا نفسيته تصويرا مؤثرا ، انه يعاني من الغربة والتشرد ، ولعل ذلك مما كان يعاني منه ابن شرف أيضا ، يقول : " ولم يُظهرْ جرصاً الا في الميتةِ الاهليّةِ والتربيةِ الوطنيةِ ، فبكى ـ علم الله ـ مع باك ، وشكا مني الى شاكٍ ،وذو الشكوى يرحمُ الشكوى ، لعلمه بمرارةِ البَلْوَى"(٢) .

ولهذا فان ابن شرف يعبر عن أمله في تحقيق رغبته بالعفو عن هذا الشيخ ، هذا مع ايمانه بعدل المظفر ، يقول : " ولا شك أنه سيبلغه تفضلُ المظفر بالالتفات الى ذكري ، والعناية ببعض أمري ... وبودي لو تكلفت بآماله ، وجمعتُ بينَه وبينَ أطفالِه ... الا أني ـ أيده الله ـ لا أُوثِرُ مُرادي على مُرادِه ، ولا أُشارِكُهُ في العلم بأهلِ بلادِه ، الا أن يتفضلَ بالاحسنِ الاجملِ عليّ وعلى أبي جعدةَ نهشلٍ(٣) فيعودُ ـ أيده الله ـ بفضيلةِ الايثار ، ويُكسبني في الناس أطيب الاخبار والآثار"(٤) .

ومن الرسائل في هذا الباب أيضا رسالة كتبها ابو محمد بن عبد البر شافعا وراغبا في " اقالةِ عثرةِ عبدٍ من عبيدِ الدولةِ ، باخعٍ(٥) بحقِّ الطاعةِ ، خاضعٍ لعزِّ القدرة ، مات بسبب القرابةِ واللُّحْمَةِ"(٦) .

ويشير الى أن ذلك القائد قد علم بمكانة أبي محمد ومنزلته الرفيعة التي يحظى بها لدى الامير ، ولهذا فقد اتخذه شفيعا له ، حيث يقول : " وقد اتخذني سبباً الى عُلائِهِ ، وسُلَّماً الى سمائِه ، إذ عَلِمَ أني لدولتهِ ـ خلّدها الله ـ وليّ ، وبِذْرُ نعمتِه غَذِيٌّ ، وفي كَنَفِها رَبِيٌّ ، ووثق أن مثلي من دُعاته في القطر الشاسع ، وأشياعه في البلد النازح ، لا يُرَدُّ اذا رَغِبَ ، ولا يُصدُّ اذا طلب ، ولا يُحْرَمُ اذا شفع"(٧) .

ويشير بعد ذلك الى أنه لا يعترض على الحكم الذي اتخذه الامير ضد هذا القائد ، بل هو يسلم بسياسة الامير ، ويقر بعدالة الحكم الذي اتخذه ، ومع ذلك فهو لا ييأس من صفح الامير ، حيث يقول : " سلّمتُ بسياسة الدولة التي منها يستملي الدهرُ اذا أملى حُكْماً ، وعنها يقتبس الزمانُ اذا ارتأى عزماً ، وعلمت أن لكلِّ أجلٍ كتاباً ، ولكل أَمَدٍ حساباً ، ثم لم أيأس من عطفات الملك الأَجَلِّ اذا كان كرمُهُ أكرمَ شافع اليه ،

(١) الذخيرة : ق ٤م١ ،ص ١٩٥ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٤م١،ص ١٩٥ .
(٣) كنية الرجل المشفوع له . (٤) الذخيرة : ق٤م١،ص ١٩٥ . (٥) اي بالغ في قهر نفسه واذلالها بالطاعة (اللسان : مادة نجع) . (٦) الذخيرة : ق٣م١، ص ٢٠٨ . (٧) الذخيرة : ق٣ م١ ،ص ٢٠٨ .

وأنجحَ وسيلة لديه ، يُناجيه بلسانِ الشفاعةِ ، ويَلثُمُ بين يديه بِساطَ الضراعةِ "(١) .

وحتى يستدر عطف الامير فيقبل شفاعته ، يشير الى الاعمال الكثيرة والخدمات الجليلة التي أداها القائد للدولة ، وتفانيه واخلاصه في الدفاع عنها ، ومقارعة خصومها ، فهو " سَهْمٌ من سهام تلك الدولةِ ، على أعدائِها ، وسيفٌ مسلولٌ دونَ من يليها من نواحيها وأرجائها ، ويُقارِعُ من صادَّها ، ويعاندُ من حادَّها "(٢) .

ويختتم رسالته بالتعبير عن أمله في أن يقبل الامير شفاعته في هذا القائد ، فيحقق رغبته في العفو عنه ، " فالعيونُ ناظرةٌ ، والآذانُ مُصيخةٌ ، والأعناقُ متطلعةٌ ، والنفوسُ متشوقةٌ ، الى ما يكون من الملكِ الجليلِ من مقابلةِ شفاعتي - ان شاء الله - بالقبولِ "(٣) .

وهناك رسالة كتبها ابن الجبير(٤) الى قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن حمدين يشفع في قريب له سجن من غير ذنب . وهي لا تخرج عن هذه الخطوط العامة التي تحدثنا عنها وأوردنا الامثلة لها(٥) .

ومن رسائل الوصايا التي كتبت بحق كبار الادباء الاندلسيين تلك الرسالة التي كتبها أبو الفضل بن حسداي الى ابن عمار عناية بابن الحداد ، وقد ابتدأها بمدح ابن عمار ، وذكر فضائله وما يتصف به من علو الهمة وسماحة وسعة صدر وكرم مما جعله مقصد العلماء والادباء ، يقول : " وقد أصبحتَ بفضلِ الله ، حليةَ الزمانِ ، ومفخرَ الاوانِ ، ومَسْمَى عيونِ الافاضلِ والاعيانِ ، بما نَزَعْتَ به من كرمِ الخلائقِ ، وسمو الهممِ السوابقِ ، وما زلت - أدام الله عزك - تجلو على المتوسلين اليك صفحاتِ البشر ، وتُنزلُهم في دراك عرصاتِ الإجمال والبرِ ، فتجني ثمراتِ المجد ، وتنشق نفحاتِ الشكرِ والحمدِ "(٦) .

وينتقل بعد ذلك الى موضوعه الاصيل ، وهو العناية بابن الحداد الذي كان واحداً من اولئك الادباء الذين أرادوا أن يقصدوا بلاط الامير لفضائله ومكارمه العظيمة ، ومع أنه يدرك أن ابن عمار " أعلى ملحظا ، وأزكى تيقظا " من أن يغيبَ عليه مكانَ ابن الحداد ، فانه يعددُ مناقبَهُ ومحاسنَهُ ، اذ لم يعاشر ابن عمار " أكبر منه في البر ، والصلة ، ولا أقوم بحقيقة الود والخلة ، ولا ناسمت أطيب منه نفسا ، ولا أمتع أنسا ، نفاسة خيم(٧) ، صادرة عن شرف أروم "(٨) .

---

(١) الذخيرة :ق٣م١،ص ٢٠٨-٢٠٩. (٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص٢١٠. (٤) هو أبو محمد بن حسن المعروف بابن الجبير ، ذكر ابن خاقان أنه كان معاصرا له ، وأن حرفة الادب نالته (انظر : القلائد : ص ١٥٤، الخريدة :ج٢،ص٢٩٢). (٥) انظر الرسالة كاملة في : القلائد ص ١٥٨-١٥٩. (٦) الذخيرة :ق٣م١،ص ٤٦٨. (٧) الخيم: الشيمة والطبيعة والخلق والسجية (اللسان : مادة خيم). (٨) الذخيرة :ق٣م١،ص ٤٦٨.

ولهذا فهو يرغب ابن عمار في أن يقربه منه ويحسن اليه ويعتني به ، يقول : " وأنت خليق بالاستكثار من جانبه والاجمال في معونة مطالبه "(١) .

ولابي المطرف بن الدباغ رسالة يوصي فيها برجل ركبه دين ، اذ انه كان قد وقع في أسر النصارى ، فدفع في الفداء جميع ما في يديه .
وقد افتتح ابن الدباغ رسالته بمدح المخاطب والثناء عليه ، وذكر جميل فضائله ، حيث يقول : " فقد عقد الله على الخير سريرتك ، وصحح في ابتغاء الاجر بصيرتك ، فما تدعى الى حسنة الا وأنت سابق اليها ، وموف بسعدك عليها "(٢) .

ويبين له حال هذا الرجل الذي يوصيه به فهو "رجل من الثغر ووجوه الاطراف ، امتحنته الايام في النعم ، أوان الشيخ والهرم ، وابتلته بذل الاسر ، وطول الشقاء في دار الكفر ، وبحسب حاله في الثروة ومكانه من النجدة ، اشتط عليه ، وآخذ منه في الفداء جميع ما في يديه ، وارتهن أولاده في بقايا بقيت عليه "(٣) .
ولهذا فهو يستثير نوازع الخير في نفس مخاطبه ليمدَّ يد العون والمساعدة لهذا الرجل احتساباً للأجر، وتفرداً بجمال الذكر ، ، يقول: " وأنت بفضلك تحملها في مالك ، ولا يضيق عنها حالك ، حتى تفوز وحدها بأجرها ، ولا يسهم لغيرك في ذخرها ، وتنفرد بجمال الذكر في خبره "(٤) .
وهناك نماذج كثيرة من الوصايا وهي لا تخرج عن هذه الخطوط العامة التي تحدثنا عنها ، وأوردنا الامثلة لها(٥) .

رسائل الهجاء :

تعبِّر رسائل الهجاء عن تلك العداوة القوية وعاطفة السخط والغضب والحقد والعداوة تجاه شخص أو جماعة يبغضها الكاتب ، أي أن الهجاء يتخذ شكلين هما : هجاء فردي ، عندما يكون المهجو فرداً ، وهجاء جماعي عندما يكون المهجو جماعة .

ويجد الباحث في رسائل الهجاء أن الكتاب الاندلسيين سلكوا ثلاثة أساليب تختلط احيانا وتتمايز أحياناً أخرى ، فمنهم من يركِّز على الصفات الحسية للمهجو كالشكل وأعضاء البدن والحركات والنطق ، فيرسم له صورة ساخرة مضحكة تنتقص من قدره وتحطُّ من شأنه . ومن الكتّاب من يتناول الصفات المعنوية للمهجو والتي تخل بكرامته ، وتشكِّل المطاعن والنقائض في شخصيته ، فهو ينكر عليه فخره ، ويسلبه كل مكرمة

(١) الذخيرة :ق٣م١،ص ٤٦٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٤٦٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٣١١ . (٤) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٣١١ .
(٥) انظر المصدر السابق نفسه : ق١م٢،ص ٥٠٦ ،ق٣م١،ص ٦٠ ،ق٣م١،ص ٣١٢ .

فينعته بالغدر والخيانة والجبن ، والقصور عن مكارم الاخلاق ، وما الى ذلك من الصفات التي يعتبرها العربي عاراً كبيراً . ومنهم من يتناول الصفات العلمية والثقافية ، فيتجاهل معرفة المهجو ، ويحطُّ من ثقافته ، وينكر عليه علمه .

ومهما يكن من أمر فان رسائل الهجاء ترتبط ارتباطا وثيقا برسائل السخرية والتهكم ، وبرسائل النقد الاجتماعي والسياسي ، فهي تعرض لكثير من معاني الهجاء ، وقد أشرنا الى ذلك سابقا .

ومن رسائل الهجاء الجماعي التي تركز على الصفات المعنوية رسالة لابي عامر بن الاصيلي كتب بها الى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج ، يعرفه ما لقيه من روّساء أهل شَنْتَمَرِيَّة ويذمهم ، حيث يصفهم بأنهم قد فاقوا الناس في الحمق وضعف العقل ، وقلة القدر والخسة والحقارة والجبن والبخل ، ويشتد في هجائهم والسخرية من صفاتهم ، فيتهمهم بأنهم قد ناموا عن المكارم والمثل العليا ، يقول : " والله لقد جُبْتُ البلاد ، وبلوتُ العباد ، فلا شك عندي ولا مرية ، أن أرذل الناس أهل شَنْتَمَرِيَّة ، الأوغاد الحثالة ، معادن الخساسة والنَّذالة ، أخلاق اللوم ، وروايح الثوم ، أحلام البغال ، وأقفاء النعال ، قوم شغلتهم الوراعة والطماعة عن التحلي بالجود والشجاعة ، ناموا عن المكارم ، وتجنَّبوا أخلاق الاكارم "(١) .

ومن ذلك أيضا رسالة لأبي عبدالله بن شرف يهجو فيها جماعة ويحطُّ من صفاتهم المعنوية ويسلبهم كل مكرمة ، فينعتهم بالغدر والخيانة ، وعدم الوفاء ، انهم " إخوان أَخْوَنُ من السَّراب للعين ... وأشدُّ من طالب دَيْن ، على صِفْر اليَدَين ، ليس فيهم نَفْع ، ولا دَفْع ، وإن اسْتَنْصرتَهم خَذَلوك ، وإن سُئِلوا اسلامك بَذلوك "(٢) .

أما رسائل الهجاء الفردي فجاء كثير منها يركز على الصفات العلمية والفكرية التي تنتقص من قدرة الانسان ، وتحط من شأنه ، حيث ينعت الكاتب المهجو بالجهل في أمور الكتابة واصولها ، وأسس البلاغة والبيان ، والضعف في اللغة ، ومن ذلك رسالة الحصري التي خاطب بها ابن الطراوة النحوي ، وهي رسالة فظيعة الهجاء ، مركَّزة الهجوم ، تنمُّ عن عداوة شديدة ، كانت بعد صداقة متينة ، ويتهمه فيها بالجهل وادعاء العلم ، حيث يقول : " ومما أضحكني ملءَ فيّ ، وأطاشني وليس الطيش فيّ ، هذا المنتحوي المنتخوي ، سقط الى دانية ، وَطَمعَ في الأجادل ، وإن كان أضْعَفَ من العَنادل ، فعاد ذَمْرا(٣) وان كان زَمْرا(٤) ... أيها المموّه بجهله

(١) الخريدة : ج٢ ، ص ٢١٠ .
(٢) الذخيرة : ق٤م١ ، ص ١٩٣ .
(٣) الذمر : اللوم (اللسان : مادة ذمر) .
(٤) الزمر : يقال رجل زمر : قليل المروءة (اللسان : مادة زمر) .

والمدعي العلم وليس من أهله ، سكرت فصحوك لا يجديك ، اعترف بذنبك قبل صرعك على جنبك .. وزعم هذا الاهوج الاعوج أنه لم يعرف رسمي ، ولا سمع باسمي ، كأنما ولد بالأمس ، أو بُعِثَ من الرَّمسِ ، أو عَمي عن الشمس ، لو عَلِمَ قدرَ نَفْسِهِ لم يَجْهَل العَلَم ، ولو أراد السلامة لألقى السَّلم "(١) .

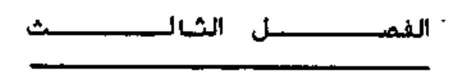
ومن الرسائل التي تركز على الانتقاص من مقدرة المهجو الفكرية والبيانية ، ما كتبه ابن شرف القيرواني في هجاء أحد الكتاب ، حيث يتهمه بالنقص في آلة العلم والكتابة والعجز عن اللحاق بالكتاب المبرزين، فهو " ما عَرفَ قَطُّ ، كيف البَرْيَة والقَطّ(٢) ، ولا نَسَخَ قطُّ سطراً الا مسخ منه شَطْراً ، ألفاظهُ مَلْحونة ، ومَعانيه مَلْقونَة ، ومقاصِدهُ خَفيَّة مكنونة ... يخاطِبُ العدو مُخَاطبَةَ الوَليِّ ، وتُقِرُّ كتُبُهُ بما فيها من الفَساد ، بأنَّه قُرَّةُ عُيونِ الأعداء والحُسَّاد "(٣).

ومن الرسائل التي جاءت تركز على الصفات الحسية للمهجو ما كتبه أبوعامر بن الاصيلي في ذم رؤساء جزيرة شقر ، حيث رسم لهم صورة ساخرة تثير الضحك والاستهزاء ، ومن ذلك وصفه لأحدهم بأنه " تقعدد في مرتبة الحجاج(٤) ، لا ينقصه من الخلافة الا التاج ، يختال اختيالَ ذي الرعين (٥) ، ويتوهم أنه ولي الحرمين ، بذلك اذ يحترم ،ولا يتكلّم الا حين يبتسِم .."(٦) .

ويشتد في هجاء هذا الوزير حتى يقول ان الاقلام قد اتفقت على النيل منه وذمه ، وأنها من حقارته تكتب هجاءه في الجلود المسلوخة ، وقشر البطيخ ، يقول : " وتحالفت الرِّقاعُ في جَرْحِهِ ، فواحدةٌ من بَدَنةٍ(٧) مسلخة ، واخرى من جِلْدةِ بطيخة " (٨) .

---

(١) الذخيرة : ق ٤م١،ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٢) القط : القطع (اللسان : مادة قطط).
(٣) الذخيرة : ق٤م١،ص ١٩٢ .
(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي .
(٥) ذو الرعين : ملك من ملوك حمير (انظر جمهرة أنساب العرب : ص ٤٣٣).
(٦) الخريدة : ج٢ ،ص ٣١٠ - ٣١١ .
(٧) البدن ، الوعل المسن ، وهو يريد هنا جلد الوعل المسن (انظر : اللسان : مادة بدن) .
(٨) الخريدة : ج٢ ، ص ٣١١ .



الفصل الثالث

الخصائص الفنية واللغوية لأدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري

كما تطوّر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري من حيث الموضوعات والأغراض، فقد تطوّر من الناحية الفنية أيضاً . ولعل أهم مظهر من مظاهر هذا التطور التأثر بأساليب النثر المشرقي ومذاهبه الفنية المختلفة . فقد وجدت طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وبديع الزمان الهمذاني، ورسائل أبي العلاء المعري، ومقامات الحريري، وغيرهم من كتاب القرن الرابع الهجري طريقها إلى كتّاب الأندلس، حتى لقد كانت نماذج أدب الرسائل الأندلسية لا تكاد تختلف اختلافاً واسعاً عن النماذج الأصيلة التي تكوّنت لهذا الأدب في المشرق(1) .

وقد لاحظ النقاد الأندلسيون هذا التنوع في أساليب الكتابة الأندلسية وتراوحها بين عدة مذاهب فنية مشرقية، فرصدوا ذلك، وبينوا أصوله وطرائقه وأساليبه ، بخبرة ودراية، ووضعوا مصنفات قائمة بذاتها عالجت " صنعة الكلام " ، وكشفت مظاهر هذا التطور الفني الذي أصاب النثر الأندلسي ككتاب " احكام صنعة الكلام " للكلاعي(2) الذي يعتبر من كبار نقاد الأندلس في القرن السادس الهجري .

وقد ظهر في القرن الخامس الهجري عدد من النقاد الأندلسيين الذين وضحوا آراءهم في أصول الكتابة وطرائقها . وكان في مقدمتهم ابن شهيد الذي أفصح عن منهج نقدي قويم في تبين أصول الكتابة الفنية وتطورها من عصورها الاولى الى عصره، حيث قال : " لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطاب، وضرب من البلاغة ... ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الاول في هذا الفن الى طريقة عبدالحميد وابن المقفع، وسهل بن هارون، وغيرهم من أهل البيان، فالصنعة معهم أفسح باعا .. ثم دار الزمان دوراناً، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس(3)، ومحمد بن الزيّات(4) ، وابني وهب(5) ونظرائهم، فرقت الطباع، وخف ثقل النفوس، ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف، وبرقة الكلام كلف، فكانت احالة اخرى الى

---

(1) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص ٣١٨ ، ٣٢٠ .

(2) أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي الاشبيلي (انظر ترجمته وأخباره في : التكملة : ج٢ ،ص ٤٦٨ ،المغرب : ج١ ،ص ٣٤٢ ،النفح : ج٣ ،ص ٥٥١) .

(3) هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول (١٧٦ – ٢٤٣ هـ)، كان أحد الشعراء المجيدين، والكتاب المبدعين، له ديوان شعر، وديوان رسائل، وكتاب الدولة، وكتاب العطر (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ج١ ،ص ٤٤ ،معجم الأدباء : ج١ ،ص ١٦٤) .

(4) هو محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات ،وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، وكان من بلغاء الكتاب والشعراء، توفى سنة ٢٣٣ هـ (انظر ترجمته في : وفيات الاعيان :ج٥، ص ١٩٤ – ٢٠٣ ، النجوم الزاهرة : ج١، ص ٣٢٣ .

(5) هما : أبو الفضل احمد بن سليمان بن وهب، كاتب شاعر، من أهل بغداد، ومن بيت وزارة وفضل، له ديوان شعر، وديوان رسائل، توفي سنة ٢٨٥ هـ، وأبو القاسم بن سليمان بن وهب، وزير من أكابر الكتاب استوزره المعتمد العباسي، وأقره بعد المعتضد، توفي سنة ٢٨٨ هـ (انظر ترجمتهما في : معجم الأدباء : ج١ ،ص ١٣٦ ، وفيات الأعيان : ج٢ ،ص ١٢١– ١٢٢، فوات الوفيات : ج٢ ،ص ٤٣٤) .

طريقة البديع ، وشمس المعالي[١] وأصحابهما " [٢] .

كذلك قد أفصح بعض النقاد عن آرائهم حول تميز بعض الكتّاب بطرائق فنية خاصة بهم . فهذا ابن حزم يوضح رأيه في ابن شهيد وابن دراج القسطلي اللذين تميزا بطرائق ابتدعاها لنفسيهما عن كتّاب الأندلس ، حيث يقول في ابن شهيد : " وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها ، مقدار يكاد ينطق بلسان مركب من لساني عمرو وسهل[٣] "[٤] . ويقول في ابن دراج القسطلي : " وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل"[٥] .

وذهب الحميدي الى القول بأن لابن دراج القسطلي " طريقة في البلاغة والرسائل ، تدل على اتساعه وقوته " [٦] .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الكلاعي أن يقف على حقيقة التطور الفني الذي أصاب النثر الأندلسي الى عصره بصورة عامة ، وأن يميز بين مذهبين سادا النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري بصورة خاصة . أولهما المَصْنُوع ، وسماه بذلك " لأنه نُمّق بالتَّصنيع ، ووشّح بأنواعِ البديع ، وحُلِّي بكثرةِ الفواصل والأسجاع "[٧] ، ومن أعلام هذا المذهب من المشارقة في القرن الرابع الهجري الصاحب بن عباد[٨] ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبو بكر الخوارزمي [٩] ، وأبو الفتح البستي[١٠] ، وأبو الفضل الميكالي[١١] .

وممن سار على مذهبهم من أهل الأندلس في القرن الخامس الهجري أبو عامر بن شهيد ، وأبو بكر بن القصيرة ، وأبو محمد بن عبد الغفور ، وأبو القاسم بن الجد ، وأبو محمد بن عبدون [١٢] .

---

(١)هو أبو الحسن قابوس بن وشمكير ، الملقب شمس المعالي ، أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان ، كان نابغة في الأدب والانشاء ، توفي سنة ٤٠٣هـ ، (انظر ترجمته في : اليتيمة : ج٤ ،ص ٦٧ ،الوفيات : ج٤ ،ص ٧٩) .
(٢)الذخيرة : ق١م١ ،ص ٢٣٧ . (٣)يريد عمرو بن بحر الجاحظ ، وسهل ابن هارون (٤) النفح : ج٣ ،ص ١٧٨ . (٥)التقريب لحد المنطق : ص ٢٠٥ .
(٦)الجذوة : ص ١١٠ . (٧)احكام صنعة الكلام : ص ١٢١ .
(٨)هو اسماعيل بن عبّاد (٣٥٦ – ٣٨٥ هـ) ، وزير غلب عليه الأدب ، وزر لمؤيد الدولة البويهي ، وسمي بالصاحب لطول صحبته اياه ، له رسائل وعدد من التصانيف (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ج١ ،ص ٢٣١ ، معجم الادباء : ج٦ ،ص ١٦٨) . (٩) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي (٣٢٣–٣٨٣هـ) ،من أئمة الكتاب ، اتصل بالصاحب بن عباد ، وكان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، وله رسائل مشهورة (انظر ترجمته في اليتيمة : ج٤ ،ص ٢٢٣ ،وفيات الأعيان : ج٤ ،ص ٤٠٠ ،الوافي بالوفيات ، ج٣ ،ص١٩١) . (١٠)هو أبو الفتح علي بن محمد البستي ،شاعر كاتب من شعراء اليتيمة ، توفي في بلد قرب بخارى سنة ٤٠٠ هـ (انظر ترجمته في : اليتيمة : ج٤ ،ص ٣٤٥ ،وفيات الأعيان : ج٣ ،ص ٣٧٦) .
(١١)هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي ، أمير من أهل خراسان ، كان من الكتاب الشعراء ، توفي سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في : اليتيمة : ج٤ ،ص ٤٠٧ ،فوات الوفيات : ج ٢ ،ص ٤٢٨) .
(١٢)انظر : ابن بسام وذخيرته : ص ١٩٥ .

أمّا المذهب الثاني فهو المرصّع ،وسمّاه بذلك " لأنه رُصّع بالأخبار والأمثال والأشعار وآيات [١] القرآن الكريم ، وأحاديث النبي عليه السلام ، الى غير ذلك من النحو والعروض ، وحل أبيات القريض "[٢] .

ومن أعلام هذا المذهب من المشارقة أبو العلاء المعرّي[٣] ، وممن جمع هذا المذهب بين لُدونة الفرع ومتانة الأصل ابن خَفاجة ، وممن أربى في هذا المذهب على كثير من أعلام الكتابة وفرسانها في الأندلس أيضا أبو بكر سعيد البطليوسي[٤] .

ويظهر للباحث من آراء النقاد المتقدمين ، ومن نصوص أدب الرسائل في الأندلس أن الكتّاب الأندلسيين لم يبتدعوا لأنفسهم مذهبا فنيا جديدا في النثر العربي يمكن أن يضاف الى المذاهب الفنية المختلفة التي عرفها النثر في المشرق [٥] . بل لقد كان الكاتب منهم يجمع في رسالته بين المذاهب الفنية المختلفة ، اذ لم يكن يلتزم بأسلوب معين، وانما كان يعجب بكل جيد من كل مذهب ، ويختار ما يراه مناسبا من كل مذهب فني شاع في عصره أو قبله .

ومهما يكن فقد اهتم أعلام الكتابة في الأندلس بمحاكاة كتّاب المشرق ومضاهاتهم في أدب الرسائل ، فهذا ابن زيدون قد احتذى في رسالته الهزلية حذو الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير ، كما اقتفى ابن برد الأصغر أثر سهل بن هارون في رسالته في تفضيل أهُب الشاء على ما يفترش من الوطاء ، حيث حاكى فيها رسالة سهل الى أبناء عمه التي يحتج فيها للبخل احتجاجا قويا ، ويذم فيها الكرم ويمدح البخل ويثني عليه[٦].
وعارض أبو المغيرة بن حزم رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خَطَب وُدّه، بعد أنْ عَذّر ، وبَقَلَ وَجْهُهُ وأزْهَر[٧] . وعارض البديع أيضا أبو محمد ابن عبدون في احدى رسائله ، والاديب أبو مروان عبدالملك بن شمّاخ[٨] في رسالة موشحة له عارضه بها في طريقته ، وضربها على قالب سبيكته[٩] .

وكان من مظاهر اهتمام الأندلسيين بأعلام الكتابة في المشرق أن نظروا الى كتّابهم على نحو ما نظر المشارقة الى كتّابهم أيضا . فقد نقل أن الصاحب بن عبّاد كان يقول : " كتّابُ الدنيا وبلغاءُ العصر أربعة :

---

(١)وردت في النص المنقول (وروايات) . (٢)احكام صنعة الكلام: ص ١٣٥ .
(٣)انظر : المصدر السابق نفسه : ص ١٣٤ . (٤)انظر : المصدر السابق نفسه : ص ١٣٧ ، ١٤٠ . (٥)انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص ٣٢٠ .
(٦)انظر الرسالة في : البخلاء : ج١ ،ص ٣٣ . (٧)انظر الذخيرة : ق١م١،ص ١٤٠.
(٨)هو أبو مروان عبدالملك بن محمد بن شماخ ، كان ممن لقيه ابن بسام ، ونقل عنه في كتاب الذخيرة (انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٢٧) .
(٩)انظر المصدر السابق نفسه : ق١م٢ ،ص ٦٩٦ .

الأستاذ ابن العميد[1] ، وأبو القاسم بن يوسف[2] ، وأبو اسحق الصابي ، ولو شئت لقلت الرابع ، يعني نفسه !!"[3] . وقد جرى ابن بسام مجراه في الحديث عن كتّاب الأندلس حيث نُقِلَ عنه أنه قال : " كُتّاب العصر ورؤساءُ النثر أربعة : كلاعيّان وفِهْريّان . أما الكلاعيّان : فأبو بكر بن القصيرة ، وأبو محمد بن عبد الغفور ، وأمّا الفِهْريّان : فأبو القاسم بن الجد ، وأبو محمد بنُ عَبْدون "[4] .

وعلى الرغم من أن الأندلسيين قد حاكوا المشارقة في أدب الرسائل، الا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هناك جوانب ابتكار سبق الأندلسيون المشارقة اليها ، ووسّعوا بها ميادين أدب الرسائل ، وقد وضحنا ذلك في حديثنا عن اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته . كما أن هناك خصائص فنية ميّزت رسائلهم عن رسائل المشارقة ، حيث استطاعوا أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم ، وأن يفتنّوا بها بما أوتوه من موهبة فذة ، وذوق جميل وأصيل ، حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور لا ينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعراً . وسيظهر ذلك واضحاً في حديث الباحث عن السّمات والخصائص الفنيّة واللغوية لأدب الرسائل من حيث البناء الفني ، والألفاظ وزخرفتها والمعاني والتعبير عنها .

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد ، وزير ، من أئمة الكتّاب ، كان متوسّعا في علوم الفلسفة والنجوم ، قال عنه الثعالبي: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، توفي سنة ٣٦٠هـ (انظر ترجمته في : اليتيمة : ج٢ ،ص ١٨٣ ، الوفيات : ج٥ ، ص ١٠٣) .

(٢) هو أبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، وزير من الكتّاب الشعراء ، خدم في دولة عضد الدولة البويهي ، ولدى بعض أولاده ، توفي سنة ٣٨٨ هـ (انظر اليتيمة : ج ٢ ،ص ٣٦٩ ، الكامل : ج٩ ، ص ١٤٤) .

(٣) اليتيمة : ج ٢ ،ص٢٩٢ .

(٤) احكام صنعة الكلام : ص ١١٧ .

البنـــاء الفنـــي

البدء والعرض والختـام :

لم يحفل الكتّاب الأندلسيّون احتفال المشارقة بمطالع الرسائل وخواتيمها ، ولهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلا فنيّا جديدا ، يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة ، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم (١) . فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف ، وتبدأ بالدعاء للمرسل اليه (٢) ، أو بالمنظوم (٣) ، أو بالدخول في الموضوع مباشرة (٤) ، أو بتمهيد يتفاوت بين الاسهاب والتطويل والايجاز والاختصار (٥) تبعا لتنوع مقامات المرسل اليهم ، واستخدام الألقاب التي تتناسب ومن يكتب اليه أميرا أو وزيرا أو صديقا .

ومن الأمثلة التي تبدأ بالدعاء الى المرسل اليه، قول أبي عبيد البكري مهنئا المعتمد بن عباد بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة " أطال الله بقاء سيدي ، ومولاي الجليل القدر ، الجميل الذكر ، وهنأ ما منحه من فتح ونصر واعتلاء وقهر "(٦) . وقول أبي الفضل جعفر ابن شرف القيرواني : " أَطَالَ الله بقاءَ الوزير الجليل الأمْجدِ الأوحد، أَعْلَى مُرْتَقَاه في العز "(٧) .

وكانت بعض الرسائل تخلو من المقدمات ، وتبدأ بالموضوع مباشرة (٨) . ومن ذلك قول أبي محمد بن عبد البر مخاطبا أحد اخوانه : " وقفتُ على ما حدّدتَهُ من مقابلة النّفرين المشتملين على فنون الآداب وصناعة الكتاب ، وطرقِ الخطاب ..." (٩) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الأمر لا يعني خلو الرسائل تماما من مقدمات الاستفتاح ، ذلك أن الباحث يجد أن هناك عددا من الرسائل لا تخلو من البسملة ومقدمات الاستفتاح ، حيث تبدأ بالبسملة ، والصلاة على الرسول الكريم ، كبعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، وخاصة رسائل الاستنجاد بالمرابطين ، كقول المعتمد بن عبّاد في رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين ، ويستميله لنجدة الأندلس : " بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .. الى حضرة الامام أمير المسلمين وناصر الدين .."(١٠) .

---

(١) انظر: البيان والتبيين : ج٢ ،ص ٦ ، ٦٢ ،زهر الآداب : ج١ ،ص١٩٧،صبح الاعشى : ج٦ ،ص ٢٧٥ ،النثر الأندلسي : ص ٣٥٩. (٢) انظر: القلائد: ص ١٩٠، الذخيرة ،ق٢م١ ،ص ٣٤٨ ، ٣٦٤،ق٣م٢ ،ص ٥٤٦ ، ٨٠٠ ،الخريدة: ج٢ ،ص ٧٥ ،ج٣، ص ٥٥١ . (٣) انظر: الذخيرة: ق١م٢ ،ص ٦٩٣ ،ق٢م١ ،ص ٨٢٧ ،ق٣م٢ ،ص ٥٦١، ٧٢٣ ، ٨٠١ ، ٨٠٨،الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٢ ، ٣٠٨. (٤) انظر: القلائد: ق١م١،ص٣٠٩، ق٢م١،ص ٣٤٢ ،ق٣م١،ص ٢٠١ ، ٢٧٩،ق٣م٢ ، ص٥٥٠ . (٥) انظر: الذخيرة :ق٢م١ ، ص ٩٦ ، ٢٨٦،ق٣م١،ص ٢٧٨،أزهار الرياض : ج٤ ،ص٢ ، ٢٩ ،الحلل الموشية :ص ٤٥. (٦) الذخيرة : ق٢م١،ص ٢٣٥. (٧) المصدر السابق نفسه :ق٣م٢،ص٨٨٢. (٨) انظر الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٧٧، ق٣م٢،ص٧٥٤. (٩) الذخيرة :ق٣م١،ص٢٠. (١٠) الحلل الموشية : ص ٤٥.

ويظهر ذلك أيضا في بعض رسائل الشوق والوجد الديني ، كقول ابن أبي الخصال في احدى رسائله الى المقام النبوي والحجرة الشريفة ، وقد افتتحها بالبسملة والصلاة على الرسول الكريم قائلا : " بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ... الى الرؤوف الرحيم الرسول الكريم ..."(١) .

ولا يجد الباحث لبعض الرسائل مقدمة أو تمهيدا ، وخاصة في المراسلات بين المسلمين والصليبيين ، وانما تقتصر المقدمة على عبارة من فلان الى فلان ، كما جاء في رسالة رد بها المعتمد بن عباد على الأذفونش عندما هدده وتوعده ، يقول : " من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله الى الطاغية الباغية أذفونش ..."(٢) .

أمّا التخلّص من المقدمات الى الغرض ، فكان على وجهين ، الأول هو ابتداء الخطاب ، أي أن يبدأ الكاتب بذكر ألفاظ ، أو عبارات تدل على ابتدائه بالخطاب ، كقوله : كتبت ، وكتابي ، وكتابنا ، وخطابي ، وأما بعد (٣) . ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها أبو المطرف بن الدباغ مخاطبا بها بعض اخوانه ، واصفا روضة غناء من تلك الرياض التي كان يتردد عليها ، يقول : " كتابي هذا من وادي الزيتون ، ونحن مختلفون ببقعة اكتست من السندس الأخضر "(٤) . ومن ذلك أيضا قول أبي عبدالرحمن بن طاهر مخبرا الوزير أبا عبدالملك بن عبد العزيز بسقوط أحد المعاقل الاسلامية بقونكة ، " كتبت - أعزك الله - والحد فليل ، والذهن كليل ... بما حدث من عظيم الخرق "(٥) .

وهناك رسائل أخرى مشابهة لما أوردناه(٦) ، كقول أبي بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين الى أهل مكناسة : " أمّا بعد ، أَصْلَحَ الله من أعمالكم ما اختلّ ، وأصح من وجوه صلاحكم ما اعتلّ "(٧) .

أما الوجه الثاني للتخلص من المقدمات الى الغرض المقصود ، فهو رد الجواب ، أي أن يذكر الكاتب أنه يرد على كتاب المرسل اليه ، كقوله : ألقي ، وورد ، ووصل ، ووافاني (٨) . ومن الامثلة على ذلك قول أبي عامر بن مسلمة في رسالة كتبها عن المعتضد بن عباد الى الوزير أبي حفص الهوزني ، يرد فيها على رسالته التي يصف فيها نكبة المسلمين في بربشتر ، ويحضه فيها على الجهاد لانقاذ الأندلس : " وردني كتابك الأثير المقابل بين النثر البليغ والنظم البديع "(٩) . وقول أبي المطرف

---

(١) أزهار الرياض : ج٤ ، ص ٢١ ، وانظر أيضا في : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٨٦ ، أزهار الرياض : ص ٢٩ . (٢) الحلل الموشية : ص ٤٠ . (٣) انظر : احكام صنعة الكلام : ص ٧٨ . (٤) النفح : ج١ ، ص ٥٣٤ . (٥) القلائد : ص ٦٥ . (٦) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ٥٨ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٣٧ ، ق٣م١ ، ص ١٧٣ ، الخريدة : ج٣ ، ص ٣٧٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٦٠ ، ٤٨٢ . (٧) القلائد : ص ١٠٥ - ١٠٦ .
(٨) انظر : احكام صنعة الكلام : ص ٧٩ . (٩) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ١١٨ .

ابن الدباغ مخاطبا بعض اخوانه " ورد لك كتاب خلته للطفه سماء ، وتوهمته من خفته هباء "(١) .

وقد يداخل الكاتب بين ابتداء الخطاب ، ورد الجواب ، كقول أبي بكر ابن القصيرة في رسالة كتبها الى أبي القاسم بن الجد يعتذر فيها عن عدم التقائه به ، وقد قربت المسافة بينهما : " كتبتُ ولسانُ القلم يتلعثم ، وقدمُ الكلم يتأخر أكثرَ مما يتقدم ، هيبةً لانتقادك .. ووصل اليّ - وصل الله اعتلاءك ، وأثّل مَجْدَك وسناءَك - خطابُكَ الكريم ... "(٢) .

وقد يحدد الكاتب تاريخ كتابة رسالته ، فيقول يوم كذا ، أو وافق يوم كذا ، ويبدو ذلك واضحا في بعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، وخاصة في الرسائل التي تصف المعارك ، وتتغنى بانتصارات المسلمين فيها .
ومن الامثلة على ذلك ما كتبه أبو بكر بن القصيرة مخبرا بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة ، حيث يقول : " كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعزَّ الله الدينَ ، وأَظْهَرَ المسلمين ... "(٣) .

ومن ذلك أيضا ما كتبه المعتمد بن عباد مخبرا بهذا النصر " كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب ، وقد أعزَّ الله الدين .. وفتح (للمسلمين) الفتحَ المُبينَ ... "(٤) .

وقد لا نجد هذا التحديد في بعض الرسائل التي تصف المعارك ، وتتغنى بانتصارات المسلمين ، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عبدالرحمن بن طاهر في رسالة بعث بها عندما أسر في أحداث بلنسية " كتبت منتصف صفر وقد حصلنا في قبضة الأسر .. "(٥) .

ونجد ذلك أيضا في بعض الرسائل الوصفية ، كقول أبي المطرف بن الدباغ يصف يوما ممطرا : " يومُنا يومٌ تَجهَّمَ محيَّاهُ ، ودمعَتْ عيناه ... "(٦) ، ومثال ذلك أيضا قول ابن برد الاصغر في وصف يوم ممطر أيضا : " اليومَ يَوْمٌ بَكَتْ أمطارُهُ ، وضحكتْ أَزْهَارُهُ .. "(٧) .

---

(١) القلائد : ص ١٠٧ ، وانظر أمثلة أخرى في : القلائد : ص ٥٧ ، ١٠٥ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٤٨ ، ٨٥٥ ، ق٣م١ ، ص ٢١٦ ، الحلل الموشية : ص ٣٦ ، ٥٠ .
(٢) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٩٦ .
(٣) الذخيرة : ق ٢م ١ ، ص ٢٤١ .
(٤) النفح : ج ٤ ، ص ٣٦٩ .
(٥) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٩١ . وانظر أمثلة أخرى في : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٦) القلائد : ص ١٠٨ .
(٧) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٠٢ .

وكان بعض الكتاب الأندلسيين يختتمون رسائلهم بالدعاء للمرسل اليه والسلام عليه . ومن ذلك قول ابن الحنّاط في ختام رسالة كتبها على لسان البهار الى المقتدر بن هود : " والله يُمتّعك برياض الآداب تجتني أزهارَها ، وتنتقي جناها ... "[1] . ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة كتبها أبو القاسم بن الجد في العناية بأحد الأدباء " والله يُبْقيك لهذا الشأن ، تُذيعُ أسراره ، وترفعُ مَنَارَهُ بعزّته .. "[2] . وقول المعتمد ابن عبّاد في ختام رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين في الأندلس : " والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته "[3].

الجمل الدعائية والمعترضة :

لقد أكثر الكتّاب الأندلسيون من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامة ، ذلك أن هذا اللون من الجمل يعتبر أصلا من أصول التعبير الأدبي لدى الكتّاب في المشرق والأندلس ، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها[4] .

ويقصد الباحث بالجمل الدعائية الجمل والعبارات التي تعبر عن التعظيم لله تعالى ، أو المتضمنة دعاء للمرسل اليه بالعز والسعادة وامتداد السلطان وطول البقاء والتوفيق[5] ، أو التي تدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ المسلمين ، ويصون معاقلهم من الأعداء ، أو تدعو على العدو بالهزيمة والفناء ، وما الى ذلك من المعاني[6] . أما الجمل المعترضة فيقصد بها تلك الجمل والعبارات التي ترد بين الكلام ، وغالبا ما تكون دعائية .

وتبدو ظاهرة الجمل الدعائية بوضوح في معظم اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته ، وخاصة في الرسائل الاخوانية[7] . ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة مخاطبا أحد اخوانه : " أطال أيها السيد بقاءك ، كما وصل عزتك وارتقاءك ، وأسنى مرتبتك .. وأعلاك ، كما أسنى مناقبك وجلالك.. "[8] ، وقول أبي عبيد البكري مهنئا الوزير أبا بكر بن زيدون بتوليه الوزارة : " أسعد الله بوزارة سيدي الدنيا والدين ، وأجرى لهما الطير الميامين ، ووصل بها التأييد والتمكين ، والحمد لله على أمل بلغه ... "[9].

---

(١) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ١٩٦ .   (٢) المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ، ص ٣١١ .
(٣) الحلل الموشية : ص ٤٦ .   (٤) انظر احكام صنعة الكلام : ص ٨١ .
(٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ٨٢ - ٨٧ .
(٦) انظر القلائد : ص ٥٨ ، الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٥٤ - ٦٥٥ .
(٧) انظر القلائد : ص ٦٦ ، ٦٨ ، ١٠٩ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٩٣ ، ٨٢٨ ، ق٢م١ ، ص ٢٩٦ ، ق٣م١ ، ص ٢٨٣ ، ٣١٠ ، الخريدة : ج٣ ، ص ٥٤٥ .
(٨) الخريدة : ج٣ ، ص ٥٥١ .   (٩) القلائد : ص ١٩١ .

ولعل من أبرز موضوعات الرسائل الاخوانية التي تكثر فيها الجمل الدعائية التعازي والمراثي ، حيث تتضمن عبارات دعائية كثيرة تدعو الى الصبر والجلد واحتمال المصاب[1] ، احتسابا للأجر والثواب ، ولعلهم أرادوا من وراء ذلك التخفيف من وقع المصاب على المخاطب ، وادخال الطمأنينة الى قلبه .

ويلاحظ الباحث أن رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين تزخر بالجمل الدعائية كدعوة الله أن يحفظ بلاد المسلمين ، وأن يصونها من الاعداء ، وأن يعيد ما اغتصب منها ، أو أن يؤيد الله قادة الاسلام وينصرهم . كذلك تزخر بالجمل الدعائية التي تدعو على العدو بالهزيمة والفناء[2] . ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة أبي عبد الله بن أيمن التي يستصرخ فيها يوسف بن تاشفين لانقاذ الأندلس : " ولما كان نور الهدى - أيَّدك الله دليلَكَ ، وسبيلُ الخير سبيلَكَ ، وَوَضَحَتْ في الصَّلاح معالِمُك وَجَبَ أن تُسْتَدْعَى لما أُعْضِلَ من الداءِ ... فقد كانت طوائف العدو المطبقة بها - أهلكهم الله - عند افراط تسلُّطها واعتدائها ، تُلاطَفُ بالاحتيال .. ومن قبل هذا كنت خاطبتك - أيَّدك الله - بالنازلة في مدينة قورية - أعادها الله - وأنها مؤذنةٌ الجزيرةَ بالخلاء ، ومن فيها بالجلاء... ثم ما زال ذلك التخاذلُ يتزايدُ ... حتى حصلت في يد العدو - قصمه الله - مدينة سُرْتَةَ[3]"[4] .

ويلاحظ الباحث أن صيغ الجمل الدعائية تقل في كثير من الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، وخاصة في رسائل الشكوى من الزمان وفساد الاحوال ، وفي وصف الترف والمجون ، والنقد الاجتماعي[5] . وكذلك الحال في الرسائل الدينية ، ولعل مرد ذلك أن أسلوب هذه الألوان من الرسائل يميل الى تقرير الأشياء ، وايراد الحقائق والقواعد والأصول في الموضوعات والمعاني المختلفة .

وتكاد تخلو الرسائل الديوانية على اختلاف موضوعاتها وأغراضها من الجمل الدعائية[6] ، باستثناء الرسائل التي كانت تصدر على شكل منشورات وبيانات عامة ، حيث تضمنت بعض الجمل الدعائية . ومن ذلك ما ورد في احدى الرسائل التي كتبت على لسان المعتمد بن عباد الى قواد البلاد لجمع الضرائب ، حيث يقول : " الحال مع العدو - قصمه الله - بيِّنةٌ لا تحتاجُ الى جلاءٍ .. وكان - فلَّ الله حدَّه ، وفضَّ جنده - قد اعتقد الخروجَ في هذا العام الى بلادنا - عصمها الله - بأكثفَ من جموعِهِ في العام الفارطِ "[7] .

(١) انظر الذخيرة : ق٢م١ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢١٨ ، ق٣م١ ، ص ٧٩ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٣١٤ .
(٢) انظر : القلائد : ص ٥٨ ، الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٥٤ . (٣) سرتة : مدينة متوسطة القدر ، حسنة البقعة ، كثيرة الخصب ، بينها وبين شقورة مرحلتان كبيرتان (انظر : نزهة المشتاق : ١٧٥ ، ١٩٦) . (٤) الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٥٤ - ٦٥٥ . (٥) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ق٤م١ ، ص ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٢٥ .
(٦) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٥٢ .

وكما يلاحظ فان صيغ الجمل الدعائية التي وردت في هذا اللون من المنشورات تشبه ما ورد في رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين .

التنويع بين الشعر والنثر :

لقد كان الكتاب الأندلسيون يضمنون رسائلهم أبياتا وقصائد شعرية ، وذلك حسب ما يقتضيه حال الخطاب ، وما يلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص . وقد أبدعوا في ذلك حتى لو نثر شعرهم لكان قريبا من نثرهم ، ولو نظم نثرهم لكان شبيها من شعرهم . وكانوا يفعلون ذلك للتدليل على ما يسوقونه من معان ، أو للتأكيد على ما يبسطونه من أفكار ، ولم يحظ بهذه الميزة الا الكتاب المبرزون والمبدعون ، كما يشير الى ذلك الكلاعي بقوله : " كان المجيدُ (منهم) كثيراً ما يُضمِّنُ رسائله أشعارَهُ وأشعارَ غيْرِه "(١) .

ويظهر من قول الكلاعي أن تضمين الشعر والتمثل به كان على صورتين ، أولاهما الاستشهاد أو استفتاح الرسائل بأبيات شعرية لشعراء آخرين ، كانوا في الغالب من المشارقة . وكان الكاتب يخالف بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليعلم بذلك أن الشعر ليس له (٢) . وثانيتهما تضمين رسائلهم أبياتا أو قصائد شعرية من نظمهم . وكان الكاتب يوافق بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليعلم بذلك أن الشعر له (٣) .

وتتفاوت اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته في احتوائها لظاهرة التنويع بين الشعر والنثر . وأكثر ما تتضح هذه الظاهرة في موضوعات رسائل المفاضلات والمفاخرات ، وفي موضوعات الرسائل الاخوانية .

ومن الامثلة على ذلك قول أبي المطرف بن الدباغ في رسالة مدح فيها أبا محمد بن عبد البر ، ووصفه بعلو الشأن في الشعر والنثر ، وبنبل الاخلاق ، وقد ضمنها أبياتا من شعره في الموضوع ذاته ، فجاءت ملائمة لسياق الرسالة وظرفها الخاص ، يقول (٤) :

---

(١) احكام صنعة الكلام : ص ٧١ .
(٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ٧١ ، ويجد الباحث أمثلة على ذلك في : الذخيرة : ق١ م١، ص ٤١٤ ، ٥٣١ ، ق١م٢ ، ص ٨٣٣ ، ق٣م١، ص ٢٢٣، ص٢٥٨ .
(٣) انظر : احكام صنعة الكلام : ص ٧١ ، ويجد الباحث أمثلة على ذلك في : البديع : ص ٥٧ ، ٦٥ - ٦٧ ، القلائد : ص ٦٥ ، الذخيرة : ق١م١، ص ٣١١ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٢ ، ج٣ ، ص ٥٥٢ .
(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣١٧ .

طلق الجبين وفيه فضل مهابـــة يغضي لها ذو المقلة الشوساء
واذا تناولت الرقاع بنانـــه أنستك طرز الوشي في صنعاء
وله اذا شاء النظام غرائـــب لا تدعيها فطنة الشعـــراء

وقد اتسمت الرسائل الشعوبية (١) بظاهرة تضمين الشعر والتمثل به ،وخاصة أشعار المشارقة (٢) ، وذلك لزيادة قيمتها الادبية ،وللتدليل على مـــا يذهبون اليه من معان ، ولتأكيد ما يطرحونه من أفكار . وقد استغـــل كثير من الكتاب قوة الشعر في تكثيف المعنى وتركيزه في جمل قليلة قـــد تغني عن تفصيل النثر ، حيث كانوا يجمعون أفكارهم ومعانيهم ويركزونهـــا في بيت أو بيتين . فبعض فصول رسالة أبي الطيب القروي تركز على معنـــى واحد هو الافتخار بما يتمتع به العرب من قوة وبأس ، وساق على ذلـــك شواهد وأمثلة كثيرة ، وذكر مخاطبه ابن غرسية بماضي فتوحات المسلميـــن وانتصاراتهم على القياصرة والأكاسرة ، وقد لخص افتخاره وركزه بقوله (٣) :

انا اذا ما فئة نلقاهـــا نرد أولاها على أخراهـــا
نردها دامية كلاهـــــا قد انصف القارة (٤) من راماها

ومثل هذا الامر نجده في فصول كثيرة من فصول الرسائل الشعوبية (٥) .

وتظهر سمة التنويع بين الشعر والنثر أيضا في بعض رسائل النقـــد الأدبي ، وخاصة في رسالة التوابع والزوابع التي حرص صاحبها على أن يضمنها نماذج من أشعار المشارقة ليدلل على رأيه في عدد من الكتاب والشعـــراء المشارقة والأندلسييـــن (٦) .

كما تتضح هذه الظاهـرة الفنية في بعض موضوعات الرسائل الوصفيـــة كالربيعيات والروضيات والزهريات والثمريات ، ووصف مطر بعد قحط ، ووصـــف الرحلات والطرديـــات (٧) .

---

(١) انظر :ص ١٤١–١٤٦ من سياق هذه الدراسة .
(٢) انظر : الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٢٦ ، ٧٤١ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م٢ ،ص ٧٢٣ .
(٤) القارة : هم بنو الهون بن خزيمة ، وهم بطن معروف من العرب ،سمـــوا قارة لاجتماعهم والتفافهم ، لما أراد الشداخ أن يفرقهم في بنـــي كنانـــة ، وهم رماة الحدق في الجاهلية ، وفي اشتهارهم بالرمي والاصابـــة ضرب المثل :" قد أنصف القارة من راماها " . (انظر :مجمع الامثال :ج٢ص١٠٠، جمهرة أنساب العرب : ص ١٨٨ – ١٩٠) .
(٥) انظر : الذخيرة :ق٣م٢ ،ص ٧٠٧ ، ٧١٢ ، ٧١٨ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠ ، ٧٣٢ ، ٧٣٧ .
(٦) انظر : رسالة التوابع والزوابع : ص ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٧) انظر : البديع : ص ٣٩ ،الذخيرة : ق١م١ ،ص ١٥٤ ،ق١م٢ ،ص ٤٤٤، الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٨ ، ٣٠٨ .

وتكـــاد الرسائل ذات الاتجاه السياسي ، وبعض الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، والرسائل الديوانية تخلو من ظاهرة التنويع بين الشعر والنثر[1] . وكذلك الحال في الرسائل الدينية باستثناء رسائل الشوق والوجد الديني التي تتضمن في الغالب أبياتا شعرية كثيرة ، أو تختتم بقصائد طويلة في نفس المعنى[2] .

ولعل عدم التنويع بين الشعر والنثر في هذه الموضوعات يعود الى أنها لا تحتاج الى الشعر ، أو أن الحاجة الى الشعر فيها قليلة .

ولم يقف الأمر عند التنويع بين الشعر والنثر ، بل عمد بعض الكتاب الى حل معقود الشعر وادخاله في منثور عباراتهم ببراعة واتقان وبصياغة مقاربة للمنظوم[3] .

فقد نثر الكاتب أبو المغيرة بن حزم كثيرا من معقود الشعراء ، وضمنه احدى رسائله الاخوانية قائلا : " ومن بني ساسانَ كسرى حُفَّتْ به مرازبُها ، لكنَّهُ أميرٌ من وراءِ سُجُف ، يسعى بلا رِجلٍ ويصولُ بلا كفّ "[4] .
وهذا محلول من قول أبي الطيب المتنبي، حيث يقول[5] :

وما الموتُ إلاَّ سارقٌ دقَّ شَخصُهُ   يصولُ بلا كفٍ ويسعى بلا رجلِ

وهو معنى متداول مشهور ، وهو في نثر الأندلسيين ونظمهم كثير[6] .

ونثر الكاتب أبو بكر عبدالعزيز بن سعيد البطليوسي شعرا ضمنه احدى رسائله الى الوزير أبي الحسين بن سراج ، يصف فيها شوقه وحنينه اليه ، حيث يقول : " سلام حبيبٍ على الحسن بن وهب والعراق ، وان بكيتَ عني مع اخواني فطالما كنتُ أعير الدموعَ للعشاق "[7] .

وفي هذا القول ألفاظ محلولة من معقود قول أبي تمام[8] :

سلامٌ ترجفُ الاحشاء منه   على الحسن بن وهب والعراق
على البلد الحبيب اليَّ غوراً   ونجداً والفتى الحلو المذاق

---

(١) انظر : القلائد : ص ٥٨ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٥٧٩ ، ٦٣٦ ، ق٢م١ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ق ٢م٢ ، ص ٦٥٤ ، ق٣م١ ، ص ٤١١ ، ق٤م١ ، ص ١٨٩ ، ١٩١ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٢٥ ، الحلل الموشية : ص ٣٦ ، ٤٥ .
(٢) انظر : أزهار الرياض : ج٤ ، ص ٢٩-٣٠ .
(٣) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٦٢ ، ق٢م١ ، ص ٣٤٩ ، ق٢م٢ ، ص ٦٨٣ ، ٩٠ ، ٧٧ ، ق٣م١ ، ص ١٦٥ ، ٢٤٣ .
(٤) الذخيرة : ق١م١ ، ص ١٥٧ .
(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي : ج٣ ، ص ١٧٥ .
(٦) انظر : الذخيرة : ق١م١ ، ص ١٥٨ .
(٧) المصدر السابق نفسه : ق٢م٢ ، ص ٧٥٥ - ٧٥٦ .
(٨) ديوان أبي تمام : ج٢ ، ص ٤٢٥ .

ومن قول الشريف الرضي [١]:

وَابكِ عَنّي فطالما كُنْتُ مِنْ قَبْلٍ أُعِيرُ الدّموعَ للعُشّاقِ

ونثر الكاتب أبو الحسن صالح الشنتمري بيتا من الشعر وضمنه رسالة بعث بها الى أحد أصدقائه ، يقول : " انا لله ، لقد غرقت من غشك في بحر عميق ، وامتحنت منك بعدو في ثياب صديق " [٢] . وهذا القول لفظ محلول من بيت لأبي نواس [٣]:

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍ في ثياب صديق

ومهما يكن من آمر فان الباحث يرى أن هذا التنويع بين الشعر والنثر دليل من الكتاب الاندلسيين على قدرتهم على الجمع بين المنظوم والمنثور، ولا غرو في ذلك إذ كان كبار كُتّاب الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين من أمثال ابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن عبدون ، وابن حزم، وابن برد الأصغر ، وابن طاهر وغيرهم .

كما يعدُّ الجمع بين المنثور والمنظوم في الرسالة محاولة لجلب انتباه القارئ ، ودفع السأم والملل عنه . ويظهر للباحث أن تضمين الرسائل أشعار المشارقة يجعل للرسالة قيمة كبيرة في نظر الأندلسيين من جهة ، ويكشف عن مدى تقديرهم واعجابهم للمبرزين من شعرائهم [٤].

وهناك ميزة اخرى كان الباحث قد أشار اليها فيما تقدم وهي قدرة الشعر على تكثيف العاطفة وتركيزها ، فهو خلاصة الانفعال ، وتعبير عن الاحساس الصادق الذي قد يتلاشى في بعض جوانب النثر .

الاقتباس والتضمين :

لقد حرص الكتاب الاندلسيون على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما حرصوا على تضمين رسائلهم الاخبار والأمثال والحكم الى غير ذلك من مصطلحات اللغة والنحو .

وقد كان للقرآن الكريم والحديث الشريف أثر كبير في أساليبهم، فهما مثال البيان والفصاحة لدى الكتاب عامة . وقد شملت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف معظم موضوعات أدب الرسائل

---

(١) ديوان الشريف الرضي : ج٢ ،ص ٧٩ .
(٢) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٥٧٨ .
(٣) ديوان أبي نواس : ص ٩٨٣ .
(٤) انظر:النثر الأندلسي : ص ٣٧٥ .

وأغراضه ، اذ لم يقتصر الأمر على الرسائل الدينية وغيرها من الرسائل ذات الطابع الديني كرسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، بل تعدى ذلك الى موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي ، وموضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، والمفاخرة بين السيف والقلم ، والرسائل الوصفية ، والرسائل الاخوانية والديوانية ، إلى جانب موضوعات الهجاء والفكاهة .

وقد كان اقتباسهم من القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهين: أولهما إيراد الآيات والاحاديث الشريفة بصيغتها ولفظها وثانيهما إيرادها دون النص عليها بصيغتها .

ويبدو الوجه الأول اكثر وضوحاً ووجودا في رسائل الشوق والوجد الديني ، وفي رسائل الزهد والوعظ[1] ، وفي موضوع الخصومات والاضطرابات السياسية[2] ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين[3] ، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة أبي الحسن الهوزني التي وجهها الى المعتضد ابن عباد يحثه فيها على الجهاد لانقاذ الاسلام من الخطر الذي يتهدده في بربشتر ، حيث يقول : " كأن الجمع في رقدة أهل الكهف ، أو على وعد صادق من الصرف والكشف ، وأنى لمثلها بالدفاع عن الحريم ، ولما نتمثل أدب العزيز الحكيم في قوله : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ)[4] ، وقوله تعالى :(لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ ، وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ ومساجدُ ، يذكر فيها اسمُ الله كثيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ الله من ينصره)[5] ، ومن أين لنا دفعهم بالكفاية أو كيف ، ولم نمتطِ إليهم الخوفة ونساجلْهُم السيفَ "[6] .

كذلك يكثر استخدام هذا اللون من الاقتباس في الرسائل التي تتسم بالطابع السياسي كرسائل الخصومات والاضطرابات السياسية ، ورسائل النقد السياسي والدعوة الى وحدة الصف . ومن الأمثلة على ذلك قول البزلياني في رسالة كتبها عن أحد الأمراء إلى صاحبي شاطبة يدعوهما فيه الى نبذ الفرقة وتوحيد الجهد لمواجهة الخطر الصليبي ، يقول: " ولم يخفَ عليكما في صلاح ذات البين من الفوز بخير الدَّارَيْن، والانتهاء الى حدود الله ، والتأدب بأدبه ، والائتمار بأمره ، فانه يقول عز من قائل : (وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين)[7] ،

---

(١) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٥٢ ،رسائل سياسية اخوانية أندلسية ، الاسكوريال (٤٨٨) ، ورقة ٦٥ – ٦٦ . (٢) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٣٧ – ٦٣٩ ، ق٣م١ ،ص ١٤٢ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ٣٣٧–٣٦٦. (٣) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٧٤ ، ١٧٦، الحلل الموشية : ص ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ . (٤) سورة البقرة ،آية ٢٥١. (٥)سورة الحج،آية ٤٠.
(٦)الذخيرة ق٢م١ ،ص ٨٤. (٧)سورة الانفال : آية ١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى طاعته أعوانا[١]..)[٢] .

أما الوجه الثاني للاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فيقوم على اقتباس معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وايرادها ضمن نصوص الرسائل . ويظهر ذلك بوضوح في مختلف موضوعات الرسائل الدينية [٣] .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن أبي الخصال في رسالة كتبها الى المقام النبوي والحجرة الشريفة ، وقد أورد فيها كثيرا من الايات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة بمعانيها دون لفظها ، كقوله : " الى الرؤوف الرحيم ، الرسول الكريم ، خطيب الأنبياء ، وامامهم في اليوم المشهود ... الذي ليس على الغيب بضنين ... الذي جعلت له الأرض مسجدا وطهورا ، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا "[٤] .

ففي قوله خطيب الأنبياء ، وامامهم في اليوم المشهود اقتباس من قول الرسول الكريم : " أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ، وأنا خطيبهم اذا وفدوا "[٥] ، وفي قوله : " ليس على الغيب بضنين " اقتباس من قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين)[٦] ، وفي قوله : " جعلت له الأرض مسجدا وطهورا " اقتباس من الحديث الشريف (وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)[٧] ، وفي قوله : " أنزل عليه القرآن هدى ونورا " ، اقتباس من قوله تعالى : (وأنزلنا اليكم نورا مبينا)[٨] .

وكما ضمّن الكتاب الشعر في رسائلهم ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فقد ضمنوها الأمثال والحكم والأخبار السابقة ومصطلحات النحو والعروض . وتكاد تظهر هذه السمة في معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه . ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عامر الناكرني في رسالة منتقدا فيها سياسة أحد الأمراء وداعيا الى الوحدة ونبذ الخلاف :
" ومن العجب قولك : أقدحْ لي أضيءْ لك[٩] ، ولقد قَدَحْنا لكم فأظلمتم ... فيا للمسلمين تَعَالَوْا إلى التعاونِ ، واتفقوا ولا تفرّقوا ... وقد ناديتُ إن أسمعتُ ، ونصحتُ بقدرِ ما استطعت ، فان وافقت قبولاً ولقيت تأويلاً جميلاً ، فان الخيرَ عتيد ... وان كان للهوى سلطان ، وللتعسف عدوان ، فأَخْلِقْ بالامة العزم أن يتدرعها مُدْرِكٌ لا يضام ، ومِحْرَبٌ لا ينام ... "[١٠] .

---

(١) وردت صيغة هذا الحديث في الفتح الكبير على النحو التالي : (لا تَحَاسَدُوا ، ولا تَنَاجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يَبعْ بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا .." ص ٣١٦ — ٣١٧ . (٢) الذخيرة : ق ١م٢ ، ص ٦٣٨ . (٣) انظر : الذخيرة : ق ١م١ ، ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، ق ٢م١ ، ص ٢٨٦ ، رسائل سياسية اخوانية أندلسية / الاسكوريال (٤٨٨) ، ورقة ٦٥—٦٦ . (٤) أزهار الرياض : ج٤ ، ص ٢٢-٢٢٢ . (٥) انظر : شرح القاري : ج١ ، ص ٤٣٩ ، المواهب اللدنية : ج١ ، ص ١٤٠ . (٦) سورة التكوير ، الاية ٢٤ . (٧) الجامع الصغير : ج١ ، ص ٢٢٧ . (٨) سورة النساء ، الاية ١٧٤ .
(٩) انظر : مجمع الامثال : ج١ ، ص ٢٠٥ . (١٠) الذخيرة ق ٣م١ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

ويلاحظ أن الأمثلة في هذا النص نوعان ، أولهما أمثال نثرية كقوله : " اقدحْ لي أضيءْ لك " ، وهو عكس للمثل " أضئْ لي أقدحْ لك"[1]، وقوله : "قد ناديتُ إن أسمعتُ" وهو من المثل " قد أسمعت لو ناديت حياً "[2] . وثانيهما أمثال شعرية نثرها الكاتب كقوله : " فأخْلِقْ بالامة العزم أن يتدرعها مُدْرِكٌ لا يضام ، وَمحرَبٌ لا ينامُ " وهو من قول أبي الطيب المتنبي[3] :

لا افْتِخَارَ إلاّ لِمَنْ لا يُضَامُ   مُدْرِكٍ أو مُحَارِبٍ لا ينامُ

ومن الأمثلة على احتفال الكتاب بذكر الأمثال والحكم وأخبار السابقين ، قول ابن شرف القيرواني في رسالة بعث بها إلى المظفر بن الأفطس معبراً فيها عن شوقه وحنينه إليه : " كتبتُ وشوقي إلى شرف لُقْياه ، وشيم سُقْياه ، شوقُ القارظين[4] الى سكون وسكنى ، والقَيْسَيْن[5] ، الى ليلى ولبنى[6] ، واعتلاقي بذكْرِه اعتلاقُ مالكٍ بعقيل[7] ،

---

(١)مجمع الأمثال : ج١ ،ص٢٠٩ .

(٢)المصدر السابق نفسه : ج٢، ص ١٠٦ .

(٣)ديوان المتنبي : ج٤ ،ص ٢١٥ .

(٤)هما : قارظان كلاهما من عنزة ، الأكبر منهما يذكر بن عنزة ، والاصغر هو رهم بن عامر بن عنزة ، كل منهما خرج يطلب القرظ ، ولم يعد ، وفيهما يضرب المثل : " حتى يؤوب القارظان " (انظر : مجمع الأمثال : ج١ ،ص٢١، فصل المقال : ص ٤٧٣ – ٤٧٤) .

(٥)هما قيس بن الملوح صاحب ليلى ، يضرب به المثل في الحب ، (انظر: ثمار القلوب : ص ٨٦ ،فوات الوفيات : ج٣ ،ص ٢٠٨ ، الاغاني : ج٢ ،ص ٥) وقيس ابن ذريح صاحب لبنى (انظر : الأغاني : ج١ ، ص ١٧٤ ،فوات الوفيات : ج٣ ،ص ٢٠٤) .

(٦)هما ليلى بنت المهدي بن سعيد أم مالك من بني كعب بن ربيعة صاحبة المجنون " قيس بن الملوح " (انظر : الاغاني : ج٢ ،ص ١٢ ،النجوم الزاهرة ج١ ،ص ١٧٠ ، أعلام النساء : ج٤ ،ص ٣٠٨) وليلى بنت الحباب الكعبية صاحبة قيس بن ذريح ثم زوجته فطلقته ، قيل أنها ماتت قبل قيس فرثاها ومات بعدها بأيام (انظر : الاغاني : ج٩ ، ص ١٩٧٥ ،فوات الوفيات : ج٣ ،ص ٣٠٤ ،أعلام النساء : ج٤ ، ص ٢٧٦) .

(٧)هما مالك بن فارج بن مالك من بني القين من أسد نديم جاهلي ، كان هو وأخ له اسمه عقيل من خاصة جذيمة الأبرش الأزدي ملك العراق ، نادماه أربعين سنة ، قيل لم يعيدا عليه فيها حديثا (انظر : ثمار القلوب : ص ٢٤ ، الأعلام : ج٦ ،ص ١٤١) .

وبلالٌ بِشامةَ وطَفيل (١)... والله ببُلوغِ الأَمَلِ خَيْرُ كَفيل "(٢) .

كذلك فقد حفلت الرسائل الشعوبية بالاقتباس من الحكم والأمثال، وبالاشارة الى الاحداث الماضية ، ففي رسالة ابن غرسية تكثر الاشارة الى ما نسب الى العرب من أوهام ومفاهيم ، كقوله : " ليس بالشّفاف كفعل نائلة وإساف (٣) ، أَصْغِرْ بشانكم ، اذ بزق خمرٍ بساع الكعبةَ أبو غبشانكم(٤) ، واذ آبو رغالكم (٥) ، قادَ فيلَ الحبشة الى حَرَم الله ..."(٦) .

وحفلت رسائل الفكاهة بالأمثال والحكم وأخبار السابقين، وأقوال الصالحين ، الى جانب الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ويظهر ذلك واضحا في رسالة ابن زيدون في التهكم بابن عبدوس ، وفي رسالتي ابن برد ، رسالة النخلة ورسالة تفضيل أهُب الشاء على ما يفترش من الوطاء (٧) .

ويكثر اقتباس الكتاب من التراث الثقافي الاسلامي في مختلف موضوعات أدب الرسائل وأغراضه . ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة أبي بكر بن القصيرة التي وجهها على لسان يوسف بن تاشفين الى قاضي الجماعة أبي عبدالله بن حمدين ، وهي من الرسائل الديوانية التي ترسم دستور القضاء في الاندلس ، وقد استمد الكاتب خطوطها العامة وقواعدها الأساسية من أصول مشرقية ، ففي قوله : " وآس بين الناس في وجهك وعدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه .."(٨) ، اقتباس من رسالة عمر بن الخطاب

---

(١)هما جبلان مشرفان على مجنة وهي بريد من مكة ، عندما هاجر المسلمون الى المدينة كان بلال يحن اليهما (انظر : معجم ما استعجم: ج٣ ،ص ٨٩٢ ،الروض المعطار : ص ٣٩٦) . (٢)الذخيرة : ق٤م١،ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣)يزعمون أن نائلة بنت سهل واساف بن عمرو، فجرا في الكعبة، فمسخا حجرين ثم عبدتهما قريش (انظر : شروح سقط الزند: ق٤ ،ص ١٣١٥).

(٤)أبو غبشان هو المحترش من بني حليل بن حبشية ،باع الكعبة بزق خمر من قصي بن كلاب (انظر : جمهرة أنساب العرب : ص ٢٣٦). (٥)كان أبرهة عامل النجاشي على اليمن قد عزم على أن يهدم البيت ،ومر في طريقه على ثقيف بالطائف ،فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق الى مكة (انظر شروح سقط الزند : ق ٥ ،ص ١٩٧٩) . (٦) الذخيرة :ق٣م٢ ،ص ٧٢٧ .

(٧)انظر: الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٢٨ —٥٣٥ . (٨)المصدرالسابقنفسه : ق٢م١، ص ٢٦٢ .

الى أبي موسى الاشعري في القضاء[١] ، واقتباس من خطبة أبي بكر الصديق في المسلمين عند توليه الخلافة[٢] .

كذلك فقد استوحى ابن برد الأصغر رسالته الهزلية الفكاهية في النخلة من قصة عرقوب ، وقد وضحنا ذلك في حديثنا عن موضوعات أدب الرسائل .

ومن أمثلة الرسائل التي ضمنها الكتاب بعض مصطلحات النحو واللغة قول ابن خفاجة في رسالة بعث بها الى أحد اخوانه ، وقد كانت بينهما مقاطعة فاتفق أن ولي ذلك الصديق حصنا ، فخاطبه ابن خفاجة قائلا : " أطال الله بقاء سيدي ، النبيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة امارته الكريمة بالابتداء ، ما احتذفت (يرمي) للجزم ، واعتلت واو (يعزو) لموضع الضم ، كتبت عن ود قدم هو الحال لم يلحقها انتقال ... "[٣] . فقد حفل هذا النص على قصره بعدد كبير من المصطلحات النحوية واللغوية .

ومهما يكن من أمر فان الباحث يستطيع القول بأن النثر العربي في الأندلس في القرن الخامس الهجري قد استوعب ظاهرة الاقتباس والتضمين التي تعد سمة أصيلة في النثر العربي في مختلف مراحله ، وهي تدل على سعة ثقافة الكتاب الأندلسيين ، ولا غرو في ذلك اذ ان أغلبهم كانوا من الفقهاء والعلماء .

الايجاز والاطناب :

لم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الايجاز والاطناب فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل ، وعلى الرغم من ذلك فان سمة الاطناب تظهر في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها في الأندلس في هذا القرن . ومردّ ذلك أن هذه

---

(١) انظر الرسالة في : البيان والتبيين : ج٢ ،ص ٤٨ - ٥٠ ، عيون الاخبار : ج١ ،ص ٦٦ ، العقد الفريد : ج١ ،ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) انظر الخطبة في : تاريخ الرسل والملوك : ج٣ ،ص ٢٢٤ ،سيرة ابن هشام : ج٤ ،ص ٣٤٦ - ٣٤١ .

(٣) ديوان ابن خفاجة : ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

السمة تتيح لمنشىء الرسالة أن يظهر مهارته الفنية وثروته الفكرية والثقافية ، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها ، لاسيما أن الاطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة تهدف الى تأكيد الفكرة وتوضيحها .

ولعل ميل الكتاب الأندلسيين الى السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد ، وحرصهم على التنويع بين الشعر والنثر ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتضمين رسائلهم الأمثال والحكم ، وحل المنظوم ، قد دفعهم الى الاسهاب والاطناب ، لأن عناصر هذا الترصيع تتطلب التمهيد لها بما يناسبها من المعاني المنثورة ، كما تتطلب التعليق المناسب عليها[١] .

ويجد الباحث الاطناب واضحا في كثير من موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي [٢] كرسالة أبي محمد بن عبد البر التي كتبها عن المعتضد بن عباد الى رؤساء الأندلس حول بطشه بولده ، وقتله ، لأنه تطلع الى انتزاع الملك من يد والده.[٣] ، ورسالة البزلياني في دعوة صاحبي شاطبة الى التعاون وتوحيد الصف لمواجهة خطر الصليبيين[٤] .

كذلك تظهر سمة الاطناب في بعض موضوعات الرسائل الاجتماعية كوصف الترف والمجون [٥] ، والشكوى من الزمان وفساد الاحوال[٦] . ومن ذلك قول أبي الفضل البغدادي : " وكنتُ مررتُ ببلادٍ ... نَبَعَتْ بين أهلها عيونُ الخيانةِ والبهتان ، وضَعُفَ حَبْلُ الديانةِ فيهم والإيمان ، فجنحوا الى جحودِ النعم والكُفْرانِ ، وتوسّعوا في مطاوعةِ الظلم والعدوان..."[٧] .

---

(١) النثر الاندلسي : ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) يجد الباحث أمثلة لرسائل مختلفة في : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٢٧٢ ، ٦٣٧، ق١م٢ ،ص٥٤٩ ،ق٣م١ ،ص ١٦٩ ، ٢٣٦ ،رسائل سياسية واخوانية أندلسية / الاسكوريال (مخطوط ٥٣٨) ، ورقة ١١٨ .

(٣) انظر الرسالة في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٣٧ - ١٤٣ .

(٤) انظر الرسالة في : المصدر السابق نفسه : ق١م٢ ،ص ٦٣٧ - ٦٤١ .

(٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤٣٢ - ٤٣٤ ،ق٤م١ ،ص ١٢٨ .

(٦) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص٤١٠ - ٤١٨ .

(٧) المصدر السابق نفسه : ق ٣م١ ،ص ٤١١ .

فهو يريد أن يصور فساد الاحوال واختلال الامور في بعض جوانب المجتمع الاندلسي ، فساق المعنى مكررا بعبارات مختلفة .

كما تظهر سمة الاطناب في موضوعات رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، فوصف النكبات والحض على الجهاد والاستنجاد بالمرابطين لانقاذ الأندلس ، يتطلب الاطناب وزيادة التوضيح لاستثارة نخوة المخاطب وعزيمته ، وتحريك نوازع الخير والجهاد في نفسه لتدبر الأمر ، ودفع العدو ، والثأر للمسلمين والدفاع عن حوزة الدين[(١)] .

كما أن التهديد والوعيد يصدر غالبا عن عاطفة قوية ثائرة ، تكشف عما يحس به المسلمون من قوة وبأس واعتداد ، مما يستدعي حشد كثير من المعاني التي تقود الى الاسهاب والاطناب [(٢)] .

ونلاحظ ذلك أيضا في رسائل وصف المعارك والتغني بالانتصارات حيث تصدر عن عاطفة قوية نتيجة الفرح والسرور بالانتصارات .

ومن الامثلة على ذلك قول أبي عبيد البكري في رسالة بعث بها الى المعتمد بن عباد يهنئه فيها بانتصار المسلمين بالزلاقة : " فتوحٌ أضحكتْ مبسمَ الدَّهْرِ ... فغدا الدينُ جديداً ، والإسلامُ سعيداً ، والزَّمَانُ حميداً ، وعمود الدين قائماً ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصورة ..."[(٣)] .

فهو يريد أن يبين عظم هذا الفتح وصداه في نفوس المسلمين ، وما جلبه من فوائد جمة عادت بالخير على الاسلام والمسلمين ، وقد ساق لذلك معاني مكررة بألفاظ مختلفة .

وتظهر سمة الاطناب أيضا في بعض رسائل الشوق والوجد الديني كرسالة ابن أبي الخصال [(٤)] ، ورسالة ابن السيد البطليوسي [(٥)] الى المقام النبوي والحجرة الشريفة .

---

(١) انظر الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٨٤ -٨٦ ،ق٣م١ ،ص١٧٩ - ١٧٨ ،الحلل الموشية : ص : ٤٥ - ٤٧ . (٢) انظر الحلل الموشية : ص ٣٨ - ٣٩ ، ٤٠ - ٤١ ، رسائل سياسية واخوانية اندلسية : الاسكوريال (مخطوط ٤٨٨) ، ورقة ٤٩ - ٥٣ .
(٣) الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٣٥ - ٢٣٧ . (٤) انظر الرسالة في : أزهار الرياض : ج٤ ،ص ٢١ -٢٢. (٥) انظر الرسالة في : رسائل سياسية واخوانية أندلسية / الاسكوريال (مخطوط ٤٨٨)،ورقة ٦٥- ٦٦ .

كما تظهر في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بين الأزهار والورود كرسالة ابن برد الأصغر في وصف خمسة من الازهار وتفضيل الورد عليها، ورسالة أبي الوليد الحميري في الرّدّ على ابن برد الأصغر في تفضيل الورد على سائر الأزهار(١) . وفي المفاخرة بين السيف والقلم(٢) ، وفضائل البلدان(٣) ، وفي الرسائل الشعوبية(٤) ، وفي رسائل النقد الادبي(٥) .

ومثل هذا الاطناب نجده أيضا في رسائل الفكاهة كرسالتي ابن برد الاصغر رسالة البديعة في تفضيل أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء، ورسالة النخلة(٦) ، ورسالة ابن زيدون في السخرية بابن عبدوس التي تزخر باستعمال المترادفات وتكرار المعاني ، كقوله : " أيّها المُصَاب بعقله ، المورّطُ بجَهْلِهِ ، البيِّنُ سَقَطُهُ ، الفاحِشُ غَلَطُهُ ، العاثِرُ في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، السَّاقطُ سقوطَ الذُّباب على الشراب ، المتهافتُ تهافتَ الفراش في الشّهاب ..."(٧) .

وكذلك الحال في عدد من موضوعات الرسائل الوصفية كالزرزوريات(٨)، ووصف الرحلات(٩) ، والطرديات(١٠) وما يجري مجراها من الرسائل الوصفية .

ويظهر الاطناب في عدد كبير من موضوعات الرسائل الاخوانية كالمديح والمودة(١١) ، والعتاب والاعتذار(١٢)، والتهنئة(١٣)والشكوى(١٤)، والشفاعات والوصايا(١٥) وغيرها .

---

(١) انظر الرسالتان في : البديع : ص ٥٢ – ٦٧ . (٢) انظر: الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٢٣ –٥٢٨ . (٣) انظر : رسائل ابن حزم : ج٢ ،ص ١٧١ – ١٨٢ .

(٤) انظر رسالة ابن غرسية والردود عليها في : الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٥ – ٧٥٥ .

(٥) انظر : رسالة التوابع والزوابع ، ترسل الفقيه الكاتب : ورقة ٢٨–٣١.

(٦) انظر الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٢٨ – ٥٣٥ .

(٧) سرح العيون : ص ٣ .

(٨) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ،ص٣٤٧–٣٤٩، ق٢م٢ ،ص ٧٥٨ – ٧٦٠ .

(٩) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤٢٧ – ٤٣٧ ،الخريدة : ج٢ ، ص ٣٠٨ – ٣١٢ .

(١٠) انظر : الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٧–٣٠٨ ،ج٣ ،ص ٥٣٨ –٥٤٠ .

(١١) انظر الذخيرة : ق١م١ ،ص ٢٠٧ – ٢٠٨ ، ٤١٣–٤١٨ ،ق٣م١،ص٣١٦ – ٣١٧ ، ٤١٠ – ٤١٣ ،الخريدة : ج٢ ،ص٢٩ .

(١٢) انظر الذخيرة : ق١م١ ،ص ٢٢٨– ٢٣٠ ،ق٢م٢ ،ص٧٧٤–٧٧٦ ،تمام المتون: ص ٢٢–٢٩ .

(١٣) انظر الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(١٤) انظر المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ،ص ٣٠٠ ، ق٣م١ ،ص ٤٧٥ – ٤٨٥.

(١٥) انظر : القلائد : ص ١٥٨ – ١٥٩ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ، الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٢ –٢٩٦ .

وتميل بعض الرسائل الديوانية الى الاطناب ، وخاصة الرسائل التي تبصر ولاة الأقاليم وقضاة الدولة وكتّابها بشؤون التنظيم الاداري الذي تقتضيه سياسة الدولة الداخلية ، كرسالة أبي بكر بن القصيرة التي كتبها على لسان يوسف بن تاشفين الى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله ابن حمدين(١) . وكذلك رسائل اللوم والتقريع والعزل عن الولاية كرسالة المتوكل بن الأفطس الى وزيره أبي الوليد بن الحضرمي ، حين صرفه عن الولاية لاساءته التصرف (٢) .

وتظهر سمة الايجاز في كثير من موضوعات النقد الاجتماعي(٣) ، ورسائل الزهد والوعظ ، والتحميدات والتسبيحات (٤) ، وفي عدد من الرسائل الوصفية كالزهريات والشمريات (٥) ووصف الظواهر الطبيعية العامة كيوم مشمس ، ونهار ممطر(٦) ، ووصف الحيوان(٧) .

وقد تكون بعض الرسائل موجزة لا تتعدى بضع كلمات ، كرد يوسف بن تاشفين على الأذفونش ، حين بعث اليه رسالة يتهدده فيها ، ويتوعده بشر العواقب ، وقد أمر يوسف بن تاشفين أن يكتب له على ظهر كتابه " جوابك يا أذفونش ما تراه لا ما تسمعه ، ان شاء الله "(٨) ، واتبع الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي (٩) :

ولا كُتْبُ إلاّ المَشْرَفيّةُ والقنا
ولا رُسُلٌ إلاّ الخَميسُ العَرَمْرَمُ

لقد كان الأذفونش متغطرسا في رسالته التي بعث بها الى أمير المسلمين(١٠) ، ولم يكن أنسب من الرد عليه بهذه الصيغة المختصرة المعبرة عن ثقة المسلمين بالانتصار على الصليبيين ، والدالة على تصميمه على اللقاء لنصرة الاسلام والمسلمين .

ومهما يكن من أمر فان الكتاب الاندلسيين كانوا يراعون ظروف انشاء الرسائل ، ومناسبة الاطناب والايجاز فيها لمقتضى الحال .

---

(١) انظر الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٦٠ — ٢٦١ .
(٢) انظر : القلائد : ص ٤١ .
(٣) انظر الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٥٧٩ ،ق٤م١ ،ص١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ .
(٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ق١م١ ،ص ٤٩١ — ٤٩٣ ، ٥٤٩ ،ق١م٢ ، ص٨٥٢ ، ق ٣م١ ،ص ٢٢٥ ، ٢٧٧ .
(٥) انظر : البديع : ص ١١٣ ، ١٢٩ ، الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٧٥٥ ،ق٣م٢ ، ص ٧٦١ .
(٦) انظر : القلائد : ص ١٠٦ ، ١٠٨ ،الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٠٢ .
(٧) انظر : مطمح الانفس : ص ٣٠٧ ،اليتيمة : ج٢ ،ص ٥٤ ، الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢١٤ ، ٣٦٤ ،الخريدة : ج٣ ،ص ٤٧٢ .
(٨) الحلل الموشية : ص ٤٣ .
(٩) ديوان المتنبي : ج٤ ،ص ٧٠ ،وقد ورد فيه : ولا كُتُبٌ الا المشرفيّةُ عندي ... (ووزن صدر البيت في الروايتين مختل) .
(١٠) انظر : الحلل الموشية : ص ٤٢ —٤٣ .

الألفاظ وزخرفتها

سهولة الالفاظ وجزالتها :

لقد كان الطابع العام والسّمة الغالبة على ألفاظ أدب الرسائل في الأندلس في هذا القرن السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية وغيرها من الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة ، من تنافر الحروف ، ووحشية الألفاظ ، ومخالفة القياس [(١)] .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الكتاب الأندلسيين استعملوا من ألفاظ المشارقة وتراكيبهم في التعبير عن موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ما يناسب حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية والسياسية وبيئتهم الطبيعية ، فاختفت الألفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستخدمها الكُتّاب المشارقة ، لأنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي[(٢)] .

ويجد الباحث طابع السهولة في الألفاظ في موضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، كالشكوى من الزمان وفساد الأحوال ، ووصف الترف والمجون [(٣)] . ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المطرّف بن الدباغ في وصف مجلس لهو وطرب عقده وصحبه في احدى الرياض و " قد انتظم الشمل ، في مشاهد جمعت اشتاتَ الأُنس ، واحتفلت من منى النفس ، وتناولت الراحَ من يد القمر والشمس ، بين بساتينَ نَشَرَتْ عليها تُسْتَرُ أَلْوِيتُهَا ، وأهدتْ إليها صنعاءُ أَوْشيتَها ... ونحن نوفي كلَّ مكان منها طيباً ، ونشاهدُ منظراً عجيباً ، ولا ندعُ أن

---

(١) انظر : المثل السائر : ج١ ،ص ١٦٨ - ١٩٢ .

(٢) انظر : اشبيلية في القرن الخامس الهجري : ص ٨٥ .

(٣) يجد الباحث أمثلة على ذلك في : القلائد : ص ١٠٨ ،الذخيرة : ق١م٢ ، ص ١٦٠ ،ق١م٢ ،ص ٧٦١ ،ق٢م٢ ،ص ٥٩٤ ، ٧٥٦ ، ق٣م١ ،ص ٤٣١، ق٣م٢ ،ص ٥٤٢ ، ق٤م١ ،ص ١٢٨ ،الخريدة : ج٢ ،ص ٢٢٥ ،٢٩٨ .

نعرِّسَ في كل مَغْنًى ، ونديرَ الكأسَ على كل معنى ، ولا مثلَ يوم الدَّيرِ وصبوحٍ وصلناه ، والنواقيسُ حَوْلَنا تَضْربُ ، ونحن نطوفُ بالصليبِ ونلعب ، وذلك المزفّر يَسعَى وَنَشْرَبُ ، ومغنّياً يغني وَنَطْرَبُ ... "(١) .

فلقد جاءت ألفاظ هذا النص سهلة ومفرداته واضحة معبرة عما يشعر به الكاتب من فرح وسرور ونشوة وطرب .

ونجد مثل هذه السهولة في الألفاظ والوضوح في المفردات في رسالة كتبها ابن شرف القيرواني على لسان محبوس ، حيث يقول : " لان لنا قوم وخشنت ، ورقوا وغلظت ، فأصلحت نقمتك ما أبطرته نعمة سواك ، وأدبت غلظتك من يسحب عن هوى غير هواك ، فاطلاق بامتنان ، وتسريح باحسان ، أو نزل من حميم ،وتصلية جحيم "(٢) .

كذلك تتسم أغلب موضوعات الرسائل الدينية بالسهولة والوضوح ، كالتحميدات والتسبيحات ،والزهد والوعظ(٣) ، ومن الامثلة على ذلك قول الفقيه أبي عمر أحمد بن عيسى الالبيري في رسالة يعظ فيها أبا العباس بن العريف ويحضه على فعل الخير : " أما بعد ، وفّقَكَ اللهُ لما يُرضيه منك عملاً ، ويرضيكَ منه جزاءً ، فإنَّ لدينا حرثاً والناسُ زارعون ، وكلٌّ في معاده، يأكل من حصاده ، وذو الجاه يُسْألُ في الآخِرَةِ عن جاهه ، كما يسأل ذو المال عن ماله ... وقد أحوجتني الى جاهك ، وأغنت القناعة عن مالك ، فاتَّخِذْ عندي اليومَ يداً ، تجدْها عند اللهِ مضاعَفة غداً ... "(٤) .

ونجد مثلَ ذلك أيضاً في فصول التحميدات والتسبيحات لابن برد الأصغر (٥) .

---

(١) الذخيرة : ق ٣م١ ،ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٢) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٢٥ .
(٣) انظر الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٤٩ ،ق١م٢ ،ص ٨٥٢، ق ٣م١ ،ص ٢٧٧ ، المغرب : ج١ ،ص٨٦ - ٨٧ .
(٤) الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٤٨ .
(٥) انظر المصدر السابق نفسه : ق١م١ ،ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

وتتسم موضوعات الرسائل الاخوانية في المديح والمودة والعتاب والاعتذار والتهنئة والشكوى والرثاء والتعازي والشفاعات والوصايا بالسهولة والوضوح وبالابتعاد عن صعب الالفاظ وغريبها (١).

ومن الامثلة على ذلك قول الأعمى التطيلي في رسالة كتبها الى أبي الحسن بن بيّاع (٢) : " يا عمادي الذي شفَّ قدرُهُ على الاقدار ، شفوفَ الضحى على الإبدار ، وسرى ذكره بأطيب الأخبار مسرى النسيم بالأزهار ، وامتزج حَمْدُهُ وشكره بالأسماعِ والابُصار ... كتبتها عن جنانٍ بلقائك صبٍّ ، ولسانٍ بشكر آلائك رطب ، وشاهدٍ سريرةٍ ، وإعلانٍ لأوليائك نهب ... وعندي من القول بإمامتك ، والحرصِ على سلامتك ، والشكرِ لأياديك ، ومنافسة أهل القطر فيك ، ما لا يَسَعهُ نظمٌ ولا نثرٌ ، ولا يحيطُ به عددٌ ولا حصر .." (٣) .

فلقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة كألفاظ غيرها من الرسائل الاخوانية سهلة واضحة معبرة عن العواطف الصادقة ، والمشاعر المخلصة التي تربط بين الاخوان والاصدقاء .

ونجد مثل ذلك أيضا في رسالة كتبها أبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني في العناية برجل نكب : " ومن زكاةِ الجاه التي هي من الفروض ، وأداءِ المفروض ، مشاركةُ موصلِهِ جارِنا القديم ، وصديقِنا الحميم ، له هناك أطلالٌ رَسْمُها داثر ، وَجَدُّها عاثر ، يرجو تجديدَ خرابها وتعميرَ يبابها (٤) ، واليكَ إسنادُهُ ، وعليك اعتمادُهُ ، وَمَنْ كان منك بعينٍ فقد أوى الى ركن ، واعتصمَ بحصن ، فلك الفضلُ في تصديقِ أراجيه ، واظهارِ جميلِ الرأي فيه " (٥) .

---

(١) انظر القلائد : ص ١٥٨ ، ١٦٤ ، الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٥٥ ، ق٢م١ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٣ ،ق٢م٢ ،ص ٧٧٤ ،ق٣م١ ،ص ٧٨ ، ٢٩٧ ، ٤٦٨ ، ق٣م٢ ، ص ٥٥٤ ، الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٢ ،ج٣ ،ص ٤٦٠ .

(٢) هو علي بن بيّاع السبتي ، ورد ذكره عرضاً في الذخيرة : ق١م١ ، ص ٧٦ .

(٣) الذخيرة : ق ٢م٢ ،ص ٧٣٠ – ٧٣١ .

(٤) أرض يباب ، أي خراب (اللسان : مادة يبب) .

(٥) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٨٦٩ .

وتكاد تكون معظم الرسائل الوصفية سهلة الالفاظ واضحة المفردات في الربيعيات والروضيات والزهريات والثمريات ، ووصف هطول المطر بعد القحط ، ووصف الحيوان ، ووصف الرحلات [١] .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الحناط في وصف أحد المتنزهات الجميلة وقت الربيع : " ونحن اذ ذاك بحيث تضاحك الورد والبهار ، وتفاوح النور والأنوار ، وأرضنا بمخضر نبت صاغ النور تاجه ، وحاك القطر ديباجه ، والريح تصفق ، والغصن يتثنى ، والقنبرة تصرصر ، والبلبل يتغنى ..." [٢] .

فلقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة منسجمة مع غرضها ، معبرة عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة ، ودالة على ما كان يحس به الكاتب من فرح وسرور عظيم بسحر الطبيعة .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا قول أبي جعفر بن أحمد ، وقد أهدي اليه ورد : " زارنا الوردُ بأنفاسِكَ ، وسقانا الأنس من كاسك ، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدة وزف الينا من بنان البر خريدة ، فاحمرَّ حتى خلته شفقاً ، وابيضَّ حتى أبصرته من النور فلقاً ، وأرج حتى كأن المسك من ذكائه ، وتضاعَفَ حتَّى قلتُ الورد من حيائه ، فليتصوَّر شكري من مرآه " [٣] .

ولا يجد الباحث في هذا النص وفي أغلب نصوص الرسائل الوصفية صعوبة في الالفاظ أو غرابة في المفردات .

---

(١) انظر أمثلة على سهولة الألفاظ وبعدها عن الغرابة في الرسائل الوصفية في : البديع : ص ٨ ، ٢٢ ، ١١٣ ، القلائد : ص ١٠٣ ، مطمح الأنفس : ص ٣٠٧ ، الذخيرة : ق١م١ ، ص ١٥٤ ، ٥٠٢ ، ق٢م١ ، ص ٢٨٩ ، ق٣م١ ، ص ٢١٤ ، ٣٦٤ ، ق٣م٢ ، ص ٥٤٥ ، ٧٦١ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٨ ، النفح : ج١ ، ص ٥٣٤ .

(٢) الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٨ .

(٣) الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٧٥٦ .

كذلك فقد اتّسَمَتْ الرسائلُ الديوانية بسهولة الألفاظ ووضوحها ، وبالابتعاد عن التعقيد والغرابة في موضوعات التولية والتعيين، والتوجيهات والوصايا الديوانية وغيرها (١) .

ويلاحظ الباحث أنه على الرغم من أن طابع السهولة والوضوح في الألفاظ والمفردات قد شمل معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ، الا أن بعض نصوص الموضوعات يتسم بصعوبة الالفاظ وغرابتها وتوعرها ، وخاصة في عدد من موضوعات الرسائل الروحية كالشوق والوجد الروحي (٢) ،ورسائل الزرزوريات (٣) ، وبعض رسائل الفكاهة كرسالة ابن زيدون الهزلية وغيرها (٤) .

ومن الأمثلة على غرابة الألفاظ وصعوبتها في الرسائل الفكاهية، قول أبي عبدالله بن مسعود في رسالته التي خاطب بها ابنه اذ توجه الى المغرب،وقدبلغه خلع عذاره ، حيث طرح عليه فيها أسئلة يدرك استحالة الإجابة عنها: " كيف كان مَخْلَصُكَ من تلك البلاد الوَبِئة ، وكيف رأيتَ مدينةَ يونس* وجنَّةَ إرَم ، والبُرْكَان المُوْنس ... فأين منك الحَيَّةُ النضناض (٥) ، وسُلَيْكُ بن السُّلَكَة (٦) ، والبَرَّاض (٧) .." (٨) .

---

(١) انظر القلائد : ص ٤٥-٤٦ ، الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٣٦١ ،الخريدة : ج٣ ، ص ٣٧٠ ، الاحاطة : ج١ ،ص ٤٣٣ .

(٢) انظر : أزهار الرياض : ج٤ ،ص ٢١ - ٢٩ .

(٣) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٣٤٧ .

(٤) انظر المصدر السابق نفسه : ق١م١ ،ص ٥٥٠ .

(*) كان الباحث قد عرف بهذه اللفظة وما يليها في موضوع الفكاهة .

(٥) الحية النضناض : هي الحية التي لا تستقرّ في مكان (اللسان: مادة نضنض).

(٦) هو سُلَيْك بن عمرو ،وقيل ابن عمير بن يَثْربي ، والسُّلَكة أمُّه ،وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم العدائين في العصر الجاهلي (انظر أخباره في : الشعروالشعراء : ج١ ،ص ٢٨١ ،الاغاني : ج٢ ، ص ٣٤٦).

(٧) هو البرّاض بن قيس الكناني ، كان يضرب المثل بفتكه، وقد قامت حرب الفجار بين بني كنانة وقيس عيلان لأنه قتل عروة الرحال(انظر أيام العرب في الجاهلية : ص ٣٢٦) .

(٨) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٥٠ - ٥٥١ .

ان هذا النص يتضمن ألفاظا كثيرة تتسم بالغرابة ، وتحتاج الى تفسير وايضاح مما يستدعي مراجعة المصادر وكتب الأدب والتاريخ والمعاجم الجغرافية لمعرفة معانيها ومدلولاتها .

ومن الأمثلة على صعوبة الالفاظ وغرابتها في رسائل الزرزوريات، قول أبي الحسين بن سراج مخاطبا بعض أهل عصره ، يشفع لرجل يعرف بالزريزير : " ويصل بك ـ وصل الله علوك ـ وكبت عدوك، شخص من الطيور يُعْرَفُ بالزُرَيْزيْر ، أقام لدنيا أيام التحسير[١] ، وزمانَ التبلُّغ بالشكير[٢] ، فلما وافى ريشُهُ ، وَنَبَتَتْ بأفراخِه عُشُوشُه ، أَزْمَع عنّا قطوعاً[٣] ، وعلى ذلك الأُفقِ اللدن تدلّياً ووقوعاً[٤]..."[٥]

ان هذا النص على صغره مليء بالالفاظ الغريبة الخاصة بالطيور من تحسير وتشكير وقطوع ووقوع .

واتسمت بعض نصوص موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بالجزالة ، ولا يقصد بالجزالة في الالفاظ أن يكون وحشياً متوعراً ، بل يقصد بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته كما يذكر ابن الأثير[٦] .

ولم تقتصر هذه الصفة على الموضوعات التي تعارف عليها أهل البلاغة من وصف مواقف الحروب والخصومات والاضطرابات السياسية والنقد السياسي ، والدعوة الى وحدة الصف ، والحض على

---

(١) التحسير : القاء الريش الضعيف (اللسان : مادة حسر) .

(٢) الشكير : صغار الريش (اللسان : مادة شكر) .

(٣) القطوع : يقال الطير تقطع قطوعا ، اذا جاءت من بلد الى بلد في وقت حر أو برد (اللسان : مادة قطع) .

(٤) الوقوع : يقال وقع الطير يقع وقوعا نزل عن طيرانه (اللسان: مادة وقع) .

(٥) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٤٧ .

(٦) المثل السائر : ج١ ،ص ٢٦٨ .

الجهاد ، والتهديد والوعيد واللوم والتقريع [١] ، وانما تعدى ذلك الى موضوعات أخرى كالطرديات والمفاضلة بين السيف والقلم ، والرسائل الشعوبية ، وفضائل البلدان ، والنقد الأدبي [٢] .

ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن الحناط في وصف الصيد ومطاردة كلب لقطيع من الحمر الوحشية ، حيث يقول : " وما زلنا في ذلك نتحول على تلك المنازل ، ونتجول في تلك الخمائل ، حتى ثار من حمرها أفراد حران [٣] ، كأنّهنّ أولاد غزلان ، قد جمع الأجلُ منها ما افترقَ ، وأخرجَها من كل نفق ، فأخذت في الهرب ، وأخذنا في الطلب ، إثر كل رواع ينعطف انعطاف البرَّة ، ووثاب يجتمعُ اجتماعَ الكرة ... ثم أَشْلَيْنَا [٤] كلباً حللناه من سَاجُوره [٥] ، وخليناه الى مسروره ... من القبّ [٦] الطامحة العيون ، والهُرْت [٧] اللاحقة البطون ، مُعْرِق في نجابته ، معم مخول في فراهته ، ففشيه كالغيث ، وأخذه كالليث ، ففقر فقاره بشفاره ، وقدَّ قميصه بأظفاره ، وتلاحقنا به وقد أكبَّ على صيده وقعد ، كأنها فريسة بين ساعدي أسدٍ ، فرويناه من دمه ، وحللنا بينه وبين أدمه ... " [٨] .

فألفاظ هذه الرسالة تتميز بالجزالة والمتانة على الرغم مما تتسم به من سهولة ووضوح وبعد عن التعقيد والغرابة . ونجد مثل هذه الجزالة والمتانة في الالفاظ في رسالة كتبها المعتمد بن عباد ردا على رسالة تهديد ووعيد بعث بها الأذفونش ، حيث يقول : " أَمَا تعلمُ أنا في العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وحماة الشجعان ، يوم يلتقي الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر ، وكرهو الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار ... " [٩] .

ومهما يكن من أمر فان الباحث يستطيع القول بأن الفاظ الرسائل الاندلسية كانت منسجمة مع موضوعاتها وأغراضها ومعانيها ، فكانت تتسم بالسهولة والوضوح في الرسائل الدينية والاخوانية والديوانية والوصفية ، وتميل الى المتانة والجزالة في الرسائل ذات الاتجاه السياسي ، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين ، وفي أغلب رسائل المفاضلات والمفاخرات وفي رسائل النقد الادبي ، وتجنح الى الغرابة والتعقيد في رسائل الزرزوريات وبعض رسائل الشوق والوجد الديني ورسائل الفكاهة .

---

(١) انظر : المثل السائر : ج١ ، ص ٢٦٨ . (٢) يجد الباحث امثلة مختلفة على رسائل تتسم ألفاظها بالجزالة والمتانة في الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٢٣ ، ق٢م٢ ، ص ٧٠٥ — ٧٥٥ ، ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال : ورقة ٢٩ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٢٩٧ ، الحلل الموشية : ص ٣٦ — ٤٢ ، رسائل سياسية واخوانية اندلسية ، / الاسكوريال (مخطوط ٤٨٨) ، ورقة ٤٩ — ٥٣ ، رسائل اخوانية اندلسية ، ورقة ٣٩ . (٣) حِرَان : جمع حَرون ، وهي الدابة التي لا تبرح أعلى الجبل من الصيد (اللسان : مادة حرن) . (٤) أشلينا : أَشْلَى دابته أراها المخلاة لتأتيه ، والمراد هنا أرى الصيد لكلبه ليطلبه (اللسان : مادة شلي) .

(٥) الساجُور : القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب (اللسان : مادة سجر) .

(٦) القبُّ : جمع أقب ، يريد أنه في اندفاعه أسرع وأمضى من الخيل الضامرة المقوسة الظهور ، وهي أسرع جرياً (اللسان : مادة قبب) . (٧) الهرت : سعة الشدق (اللسان : مادة هرت) . (٨) الخريدة : ج٢ ، ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٩) الحلل الموشية : ص ٤٠ .

السجـــع :

أخذ الكُتّابُ الأندلسيون بالكتابة المتأنقة ، وأكثروا من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ما كان يفعل الكتاب المشارقة . وقد كان السجع أكثر هذه المحسنات البديعية شيوعا ، وهو سمة زخرفية لفظية تختص باللفظة المركبة في جملة تتوافق فيها بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد[(١)] . وقد حمده الكلاعي إذ لا وجه لذمه إلاّ أن يدل على التكلف[(٢)] ، وعده ابن الاثير ميزة محمودة ، والا لو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم[(٣)].

ولقد أجاد الكتاب الاندلسيون في استعمال السجع ، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيه ، لكنهم لم يتابعوا السجع المشرقي ، ولم يدونوا رسائلهم بأسلوب السجع الذي شاع في المشرق في القرن الخامس الهجري ، بل عنوا باستعمال الأسلوب المترسل من السجع الرشيق ، ولعل مرد ذلك حرصهم على ما يحققه من تنغيم موسيقي ، وايقاع صوتي ، وما يضفيه من رونق لفظي جميل .

وعلى الرغم من أن الكُتّاب الأندلسيين في القرن الخامس الهجري كانوا كلهم يسجعون[(٤)] ، الا أنهم كانوا يتفاوتون بينهم في استعمال السجع وتزيين الكلام به ، ويختلفون في مقدرتهم بين الاجادة والتقصير .
ولعل سبب ذلك تفاوتهم في التكوين الثقافي والكفاءة الفنية ، واختلافهم في الاحوال والظروف النفسية و البيئية ، الى جانب اختلاف الموضوعات التي يعالجونها[(٥)] .

ويلاحظ الباحث أن الكتاب الأندلسيين قد مالوا الى الاعتدال في استخدام السجع ، فلم يسرفوا في استخدامه ، ولم يتفننوا في

---

(١) انظر : المثل السائر : ج١ ،ص ١٩٢ .
(٢) انظر : احكام صنعة الكلام : ص ٢٢٧ .
(٣) انظر : المثل السائر : ج١ ،ص ١٩٣ .
(٤) انظر : الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص ٣٢٥ .
(٥) انظر : النثر الاندلسي : ص ٤٥٤ .

اصطياده ، وقد جروا في هذا المجال مع ما يتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية ، وما لهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة في الصياغة . وفي هذا ما يدل على أن أساليب الكتاب كانت أقرب الى العفو والطبع ، حيث ورد السجع في رسائلهم عفو الخاطر ، غير متكلف ، قصير الفقرات .

ويلاحظ الباحث أن السجع يكثر في الرسائل ذات الاتجاه السياسي على اختلاف موضوعاتها وأغراضها [(١)] .

ومن الامثلة على ذلك قول أبي عمر بن القلاّس[(٢)] في رسالة عن المستعين بن هود الى مجاهد العامري ، يدعوه فيها الى التعاون ، ويحضه على نبذ الفرقة والاختلاف : " كَدَّر نعمتَنا ، وصفوَ المعيشة عندنا .. ما تردُ به الأنباء ، من الوحشةِ الواقعة بينك وبين المنصور[(٣)] - أيَّدكما الله - مما لو يستطيعُ الفداءَ له بكلِّ علِقٍ غالٍ ، ومعالجةَ التياثه بكل نفيسٍ غال ، لما تأخَّرَ عن ذلك أحدٌ ، ولا قرَّ على غيره خَلَدٌ ، رغبةً في الألفة بينكما وحرصاً على تمام النعمة للمسلمين فيكما ، فأنتما فئةُ الإسلام ، وعمدة الأنام ، ومتى اضطرب حَبْلٌ ، وانصرم منكما وصل ، فَشَمْلُ الكلِّ شتيتٌ ، ووصلُ الجميع مبتوت ... فاللهَ اللهَ من الدين أن يألَمَ بكما ، والحرمةِ أن تذهب بينكما ..."[(٤)] .

فلقد ظهر السجع واضحا في جميع عبارات الرسالة ، ونوع الكاتب في فواصله ، ولم يجر فيه على حرف واحد .

كذلك تزخر الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي بألوان السجع وفنونه في مختلف موضوعاتها وأغراضها ، كالشكوى من الزمان وفساد الاحوال

---

(١) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٥٧٨ - ٥٧٩ ، ق٢م٢ ،ص ٥٤٥ - ٥٤٩ ، ق٣م١ ،ص ١٥٤ - ١٦٥ ، ق٤م١ ،ص ١١-١٢ .

(٢) هو أبو عمر بن القلاس ، ناثر مجيد ، ومحسن معدود في كتاب بني هود ، وله ترسيل كثير (انظر : الذخيرة : ق٣م١، ص ٤١٨ - ٤٢٢، ٤٢٤-٤٢٦) .

(٣) هو المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر صاحب بلنسية : المعروف بالمنصور الصغير وقد سبق التعريف به .

(٤) الذخيرة : ق ٣ م١ ،ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

والنقد الاجتماعي ، ووصف الترف والمجون[1] . ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأحد الكُتّاب[2] يشكو فيها الزمان وفساد الأحوال ، حيث يقول : " وأي أمان ، من زمان ، يدبُّ دبيبَ العقربان ، ويثبُ وثوبَ الأفعوان ، ما أمكنها إمكانٌ ، وعنَّ لها مكان ، ويَسْعَى بالنميمة بين الفروع والأرومة ، وهيهاتِ أن تُطْفَئَ حيةٌ رقشاءُ لَيِّنٌ مَسُّها ، قاتلٌ سمها ، يهوي اليها الجاهل ، ويحذرها العاقل ..."(٣)

ويظهر في هذا النص أن التنويع في فواصل السجع قد أضفى عليه صفات الجمال والرقة والوضوح ، مع البعد عن الثقل والتكلف والصنعة .

ونجد مثل هذا السجع القائم على التنويع في الفواصل والبعد عن التكلف في رسالة لابن شرف القيرواني ينتقد فيها أحد القادة ، حيث يقول : " اذا الحَرْبُ دَعَتْ أَبْطَالَها ، وزُلْزِلَتْ الأحشاءُ زلزالها ، نَخَبَ ما بينَ جَنْبَيْهِ ، وغَابَ السوادُ من عَيْنَيْهِ ، مَهزمةٌ لجُنودِه ، مهددة لعُدَّتِهِ وعَديده ، يوسعُ أعذارَ الفِرَار ، ولا يَرى على الجُبَنَاء منْ عار ، بَيْنَاهُ في أوَّلِ الرَّعيلِ ضارِب ، إذا به وَراءَ السَّاقَةِ هارِب ..."(٤)

وتسير رسائل الجهاد والصراع معالصليبيين على نهج الرسائل الاخرى ، من حيث التزام السجع القائم على التنويع في أكثر جملها وعباراتها

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي الأصبغ بن الأرقم في رسالة عن علي ابن مجاهد العامري إلى المعزّ بن باديس ، يصف فيها المصائب والنكبات التي حلت بالمسلمين في الأندلس : " ومما وجب التعريف به ما عم

---

(١) يجد الباحث أمثلة على ذلك مختلفة تزخر بألوان السجع وفنونه في : القلائد : ص ١٠٨ ، الذخيرة : ق١م١ ،ص ١٥٣ ، ق٣م١ ،ص ٤٣٢ ، ٤٣٤ ،ق ٤م١ ،ص ١٨٩ .

(٢) لم يذكر ابن بسام اسم هذا الكاتب ، ولم يعثر الباحث على النص في المصادر الاخرى .

(٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٥٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق ٤م١ ،ص ١٩٠ .

أقطارَ ثغرنا ، وغشيَّ مجامعَ أُفقنا ، من تمالؤ النصارى وتضافرهم من كلِّ أوْبٍ إلينا ، بجمعٍ لا عهدَ بمثله ، ملأَ الفضاءَ ، وطبَّقَ الأرْجَاءَ ، وَشَغَلنا بالفتنةِ بيننا عن تخفيف وطأتهم ، وتضعيف سَوْرَتهم ، فطمسوا الآثارَ ، وَجَاسُوا خلالَ الديار ، موفورين لا مانعَ منهم ، ولا دافعَ لهم ، الا التفاتةَ اللهِ تعالى لأهلِ دينه ، بأنْ أقلَّ فائدتهم ، وخيَّبَ مرامَهُم ، وأطاشَ سهامَهُمْ ..."(١) .

ونجد مثل هذا السجع في رسالة لأبي عبيد البكري يهنيء فيها المعتمد ابن عباد بانتصار المسلمين في الزلاقة ، حيث يقول : " فتوحٌ أضْحَكَتْ مبسمَ الدهر ... فذكرها زاد الراكب ، وراحة اللاغب (٢) ، ومتعة الحاضر ، ونقلة المسافر ، شملت الغمة ، وجبرت الامة ..."(٣) .

فلقد اتسمت هذه الرسالة وغيرها من رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين بالسجع المناسب المعبر بوضوح وجلاء عن صدق العواطف وعمق المشاعر .

كذلك فقد أكثر الكتاب من استخدام السجع في الرسائل الاخوانية ذلك أن طبيعة موضوعاتها تتطلب اهتماما كبيرا بالعبارات وصياغة متقنة للتعبير عن العواطف الجياشة والمشاعر المخلصة .

ومن أمثلة السجع في الرسائل الاخوانية ما ورد في رسالة القاضي أبي عبدالله بن حمدين في مدح أبي مروان بن شماخ(٤) " والشَّفَقِ والغَسَق ، ولوامعِ الفَلَق ، إنك لصَاحِبُ الراية ، ومحرزِ الغاية ، زعيمُ حلبة البيان ، وفارسُ ذروةِ الاحسان ، لِتُعَطَ القوسُ باريها ، وتُمْنَحُ المِنْحَةُ ذويها ، وان للمتعاطي ذلكَ المضمار أن يُبَايعَ بيدِ الصَّغار ، وينبذَ بأزمَّةِ مقاديرِ الأقدار ..."(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٦٣ .

(٢) اللاغب : يقال فلانٌ ساغِبٌ لاغِبٌ أي مُعْيٍ (اللسان : مادة لغب) .

(٣) الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٤) هو الوزير الكاتب أبو مروان عبدالملك بن محمد بن شمَّاخ ، ذكر ابن بسام أنه أحد من شافهه وذاكره وأنشده شعره (انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٨٢٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق١م٢ ،ص ٨٣٦ - ٨٣٧ .

ومن الامثلة على السجع القائم على التنويع في الفواصل وقصر الفقرات في الرسائل الاخوانية أيضا ما ورد في رسالة لابن عبدون بعث بها الى أحد اخوانه ، حيث يقول : " وان كانت القلوبُ تتناجى على البعاد، بألْسُنِ الوداد ، وتتراءى على الفراق ، بأعين الوفاق ، فربَّما أحْوَجَتْ دواعي الأيام إلى المفاوضة بالأقلام ، لضرورةٍ من الايضاح عنها ، والخروج شفاهاً منها .."(١) .

أما ظاهرة السجع في الرسائل الديوانية فانها بارزة ايضا ، ولا تقل عن درجة وجودها في الرسائل الاخوانية ، حيث تظهر في عدد كبير من رسائل التولية والتعيين ، ورسائل الاوامر والتوجيهات والوصايا الديوانية ، ورسائل اللوم والتقريع وغيرها (٢) .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة وجهها المتوكل بن الافطس الى ابنه العباس وكان واليا على يابرة (٣) ، حين فر منه بعض أهلها الى المعتمد بن عباد منافسه ، وفيها يعاتبه ويلومه على ما صدر منه ، حيث يقول : " واتصل بي ما كان من خروج فلان عنك، ولم تَتَثَبَّتْ (٤) في أمره ، ولا تحققتَ صحيحَ خبره ، حين فرَّ عن أهله ووطنه ، والعجلة من النقصان ، وهو الذي أُوجبه إعجابُك بأمرك، وانفرادُك برأيك ، ومتى لم ترجعْ ما عُوِّدتَ به نَفْسَك ، أُرِحْ نفسي من شَغْبك .."(٥) .

ويجد الباحث أمثلة وشواهد كثيرة على انتشار ظاهرة السجع في الرسائل الدينية ، ورسائل المفاضلات والمفاخرات ، ورسائل الفكاهة على اختلاف موضوعاتها وأغراضها (٦) ، مما يصعب ايراده في هذا البحث .

---

(١) الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٦٨١ . (٢) انظر القلائد : ص ٤٥ ،الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٦٠ ،ق٢م٢ ،ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ق٤م١ ،ص ١٦٥ ،الفريدة :ج٣ ،ص ٣٧٠ .

(٣) يابرة : مدينة من كورباجة الاندلس (انظر : الروض المعطار : ص ٦١٥ — ٦١٦) . (٤) وردت في النص المنقول (تثبت) .

(٥) المغرب : ج١ ،ص ٣٦٥ .

(٦) انظر البديع : ص ١١٣ ، ١٢٩ ،القلائد : ص ١٠٣ ، ١٠٨ ،الذخيرة : ق١م١ ، ص ٣٦ ١ ، ٥٢٣ ،ق١م٣ ، ٦٤٥ ،ق٢م١ ،ص ١٩٤ ، ٣٤٧ ،ق٣م١ ، ٤٧١ ،٤٧٢ ، ق٣م٢ ،ص ٥٤٣ ، ٧٠٧ — ٧٥٥ ، أزهار الرياض : ج٤ ،ص ٢١-٢٩ .

وعلى الرغم من أن السجع جاء في أغلب نصوص أدب الرسائل مسايرا للطبع والذوق قائما على التنويع في فواصل الجمل والعبارات ، حيث لم يسر الكاتب على وتيرة واحدة ، ولم يلتزم حرفا واحدا في جميع الفواصل ، وانما كان ينوع بين حرف السجعة . الا أن الباحث لم يعدم نصوص بعض الرسائل التي اختوت سجعا متكلفا ، يجافي الطبع والذوق، ويثقل على اللسان والسمع ، ومن الامثلة على ذلك رسالة ابي بكر بن سعيد البلطليوسي في صفة الزرزور (١) ، ورسالة ابن زيدون الهزلية التي يسخر فيها بابن عبدوس ، حيث يقول : " وكسرى حَمَلَ غاشيتَك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك ، والضَّحاك استدعى مسالمَتَك ، وجذيمة الأبرش تمنَّى منادمتَك ..."(٢) .

فلقد سار ابن زيدون على وتيرة واحدة ، والتزم حرف الكاف في جميع فواصل الكلام . ويظهر للباحث أن ابن زيدون قد قصد اظهار هذا التكلف والتصنع قصدا ، وذلك للمبالغة في الاستهزاء بمنافسه ابن عبدوس .

الازدواج :

لقد كان الازدواج من المحسِّنات اللفظية التي استخدمها الكتاب لتنميق رسائلهم وتحسينها . وقد جاء اهتمامهم به ملازما للاهتمام بالسجع لانه ذو علاقة وثيقة به ، بل هو قسم من أقسامه . اذ لم يكن الكتاب يلتزمون حرفا واحدا في جميع فواصل الجمل والعبارات ، وانما كانوا ينوِّعون بين حروفها ، فاذا اقتصر هذا التنويع على سجعتين اثنتين تكونان على حرف واحد . كان ذلك ازدواجاً ، في حين يكون السجع على فاصلتين أو أكثر (٣) .

---

(١) انظر الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٧٥٨ .

(٢) سرح العيون : ص ٣ .

(٣) انظر التبيان في علم البيان : ص ١٧٢ - ١٧٣ ، حسن التوسل : ص ٢٠٦- ٢١٤ .

وقد عَدَّ أبو هلال العسكري الازدواج من حميد صفات النثر " اذ لا يحسن منثور الكلام ، ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج ، لكان القرآن ، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات ، فضلا عما تزاوج في الفواصل منه .."(١) .

ويبدو للباحث أن سمة الازدواج قد ظهرت في كثير من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ، شأنها في ذلك شأن سمة السجع ، حيث تكثر صور الازدواج في أكثر نصوص الرسائل الاخوانية من مديح ومودة وتهنئة وعتاب واعتذار وتعاز وشفاعات ووصايا وما يجري مجراها (٢).

ومن الامثلة على ذلك قول أبي عمر الباجي في جواب عن كتاب عتاب : " المودَّاتُ - أعزَّك الله - إنَّما تَثْبتُ دلائلُها ، وتصلحُ مخايلُها ، بمضمرات الفؤاد ، لا بمزوَّرات المداد ، وبمعتقدات الحقائق لا بمعهودات البطائق ..."(٣) .

وحيث تظهر سمة الازدواج واضحة في تشابه كل فاصلتين ، بقوله : " بمضمرات وبمزورات ، الفؤاد والمراد ،وبمعتقدات ومعهودات ، الحقائق والبطائق " .

ومثال ذلك نجد أيضا في رسالة لابن عبدون خاطب بها أبا القاسم ابن الجد ، بقوله : " يا حامل يراعي الأعظم ، ومعوّل انقطاعي الأقوم ، ومعقل امتناعي الأعصم ، ومن لا زال جنابهُ للامطار رضيعاً ، وبابه للأوطار شفيعاً ... سلام الله وَرَوْحُ رحماه ، ونفحُ سُقْيَاه ، عليك من روضة نجد ..."(٤) .

حيث يحفل هذا النص على صغره بعدد من صور الازدواج والجمل المتشابهة في فواصلها ، كقوله : " يراعي وانقطاعي ، الأعظم والأقوم ، للامطار وللأوطار ، رضيع وشفيع ، رَوّح ونَفْح ، رحماه وسقياه ...

---

(١) كتاب الصناعيتن : ص ٢٦٠ - ٢٦٣ .
(٢) انظر : الذخيرة : ق١م٢ ،ص ٦٤١، ٦٥٦ ، ق٢م١،ص ١٨٩ ، ٢٠٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ،ص ١٩٢ .
(٤) الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٦٧٥ - ٦٧٦ .

وكما يلاحظ،فان هذا الازدواج قد أعطى العبارات والجمل نغما مؤثرا ، وأضفى عليها ايقاعاً موسيقياً بليغاً يدلّ على قدرة الكاتب على تأليف المفردات المناسبة ، وتحقيق الانسجام بينها ، مما يخدم المعنى المقصود ، ويبرزه في ثوب من الرقة والجمال وقوة التأثير .

وتكثر صور الازدواج في أكثر موضوعات الرسائل الوصفية خاصة في الربيعيات والروضيات والزهريات ، ووصف مطر بعد قحط ، ووصف الحيوان، ووصف الليل والرياح والزرزوريات وغيرها [(١)] .

ومما ورد من الازدواج في الرسائل الوصفية قول أبي القاسم بن السقاط في وصف يوم ممطر : " يومنا ـ أعزك الله ـ قد نقبت شمسه بقناع الغمام ، وذهبت كأسه بشعاع المدام ، ونحن ... من بواسم الزهر، في لطائم العطر ، ومن غر الندمان ، بين زهر البستان ، ومن حركات الاوتار ، خلال نغمات الاطيار.. فرأيك في مصافحة الاقمار ، ومنافحة الانوار ..." [(٢)] .

ان هذه الصورة الجميلة المعبرة بدقة ووضوح عن جمال الطبيعة الصامتة والصائتة ، تزخر بعدد كبير من صور الازدواج المناسب للذوق والطبع ، والمتمثل بقوله : بقناع وبشعاع ، الغمام والمدام ، بواسم ولطائم ، الزهر والعطر ، حركات ونغمات .. وما الى ذلك من الصور المتوالية .

كذلك نجد مثل هذا الازدواج في رسالة لابي القاسم بن الجد عارض فيها رسالة أبي الحسين بن سراج في صفة الزريزير ، حيث يقول : " حسنت لك يا سيدي أبا الحسين ضرائب الايام ، وتسوفت نحوك غرائب الكلام ، واهتزت لمكاتبتك أعطاف الكلام ، وجادت على محلك ألطاف الغمام ..." [(٣)].

لقد تضمنت هذه الرسالة عددا كبيرا من صور الازدواج ، والجمل المتشابهة في فواصلها ، والبعيدة عن التكلف والصنعة .

وتظهر سمة الازدواج في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بين الازهار والورود ، ومن الامثلة على ذلك قول ابن حسداي مخاطبا النرجس على لسان رجل ظريف من خواص الامير : " يا أيها الزهر الفارد ، والنور الشارد،

---

(١) يجد الباحث امثلة على ذلك في : البديع : ص ١١٣ ،القلائد : ص ١٠٣، ١٣٤ ،الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٣٤٧ ،ق٣م١ ، ص ٤٠٥ ،ق٣م٢ ،ص٧٩٢ .

(٢) القلائد : ص ١٧٤.

(٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٤٨ .

الساحر بحدقه وأجفانه ، الناظر بورقه وأغصانه ، الباهر بورقه وعقيانه ... مالي أرى قضبك غير ذابلة..."(١) .

فقد تضمن هذا النص عددا من صور الازدواج التي اعطت الجمل والعبارات نغما موسيقيا جميلا ، وقد تمثل ذلك بقول الكاتب : الزهر والنور ، الفارد والشارد ، بحدقه وبورقه ، أجفانه وأغصانه ...

ومع أن الازدواج ظاهرة فنية واضحة في كثير من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ، الا أن الباحث لم يعدم بعض النصوص التي قل فيها هذا اللون من المحسنات اللفظية وكثر فيها السجع كالرسائل ذات الاتجاه السياسي ، والرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، والرسائل الدينية ، ورسائل النقد الادبي والرسائل الديوانية .

ومهما يكن من أمر، فان صور الازدواج التي ظهرت في أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري وردت موافقة للطبع ومناسبة للذوق ومساهمة في ابراز المعنى بصورة جميلة مؤثرة ، وقد اختلط فن الازدواج بفن السجع في كثير من المواضع حتى طغى الاخير عليه ، وذلك للعلاقة القوية بينهما كما ذكرنا فيما تقدم.

الجناس :

كان الجناس من الالوان الزخرفية(٢) التي استعملها الكتاب الاندلسيون لتزويق كلامهم وتنميقه . ويلاحظ الباحث أن عنايتهم بالجناس كانت أقل من عنايتهم بالسجع . وقد تباين استعماله وتفاوت بحسب الاغراض والموضوعات ، ولعل مرد ذلك حرص الكتاب على الابتعاد عن التكلف ، واكتفاؤهم بالسجع والازدواج ، وما يحدثانه من تنغيم وموسيقى وايقاع يعوض عن استخدام الجناس .

ويظهر فن الجناس بوضوح في بعض موضوعات الرسائل الدينية، كالشوق والوجد الديني والوعظ والزهد ، ومن الامثلة على ذلك قول أبي محمد بن مسعود في مقدمة رسالة زهدية : خاطب بها ابنه : " فازَ يابُنَيَّ مَنْ تَحَصَّنَ بالعفاف ، وتبلغ بالكفاف ... ولشدَّ يا بُنَيَّ ما أوغلْتَ في البلاد ... وتورَّطْتَ مُوحش المجاهِل ، وتورَّدتَ آجن المناهب ..."(٣) . فلقد جانس الكاتب جناسا ناقصا بين لفظي العفاف والكفاف ، وبين لفظي المجاهل والمناهل .

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٤٧١ . (٢) عن الجناس : انظر كتاب الصناعتين : ص ٣٢١ - ٣٣٦، المثل السائر: ج١ ، ص ٢٤٦ - ٢٦٤ ، حسن التوسل ١٨٣-١٨٩.
(٣) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٤٩ .

ومن الامثلة على ذلك أيضا ما ورد في رسالة أبي القاسم بن الجد في الشوق والوجد الديني ، حيث يقول : " صلوات الله على خاتم الرسل ... ومجلّي الظُّلْم والظُّلَم (١) .. "(٢) . حيث جانس جناسا ناقصا بين لفظي ظُلْم وظُلَم .

وكذلك تظهر صور الجناس في بعض الرسائل الديوانية ومن الامثلة على ذلك قول المتوكل بن الافطس مخاطبا أبا الوليد بن الحضرمي ، وقد عزله عن خدمته : " ولما رَأَيْتُ الأمرَ قد ضاع ، والإدبار قد انتشرَ وذاعَ ، أشفقتُ من التَّلَفِ ، وعدلتُ إلى ما يعقبنا إن شاء الله بالخلف .. "(٣) . فقد جانس جناسا ناقصا بين لفظي ضَاعَ وَذَاعَ ، وبين لفظي التَّلف والخَلف .

أما الرسائل الاخوانية ، فقد تضمنت بعض أغراضها مقادير متفاوتة من صور الجناس الناقص ، وخاصة في أغراض المديح والمودة والشفاعة والعتاب والاعتذار (٤) . ومن الامثلة على ذلك قول أبي المطرّف بن الدباغ مخاطبا بعض إخوانه : " يا ليتَ شعري كيف أتغيَّرُ على بعضي ، وأمنحه قطيعتي وبغضي " (٥) . حيث جانس جناساً ناقصاً بين لفظي بعضي وبغضي .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة لابي عبد الله بن خلصة في المديح ، يقول : " أي بِرٍّ - أعزَّك الله - يُعَارَضُ به بِرُّك ، وقد عَرَضَ في المكارم بَرُّك وبَحْرُك .. أم أيّ عُرْفٍ يكون جزاءً عُرْفك ، وقد ر الخافقين ريّا عَرْفك (٦) "(٧) . حيث جانس الكاتب جناسا ناقصا بين الالفاظ: بِرّك وبَرّك ، وعُرْفك وعَرْفك .

وتظهر في عدد من الرسائل الاخوانية صور من الجناس التام ، ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة لابي مروان بن شماخ خاطب فيها الفقيه أبا عبد الله بن حمدين : " واني - أعزّ الله الفقيه - وإن كان أوطأني الله منها أَوطَاني ، وأعْطَاني منها أعْطَاني ... لغريب فيها بين الأحبة والأهل .. "(٨) . فقد جانس الكاتب جناسا ناقصا بين لفظي أوطاني وأوطاني ، وبين لفظي اعطاني وأعطاني .

---

(١) الظُّلْم : الجور ، والظُّلَم جمع ظُلْمة وهو ذهاب النور (اللسان : مادة ظلم) .

(٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٨٨ . (٣) الذخيرة : ق٣م٢ ، ص ٦٤٦ .

(٤) انظر القلائد : ص ١٧١ ، الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٦٩٣ ، الخريدة : ج٣ ، ص ٤٥، ٤٧٧ ، ٥٤٨ .

(٥) الخريدة : ج٣ ، ص ٣٩٢ .

(٦) العُرْف : الجود ، والعَرْف الرائحة . (اللسان : مادة عرف) .

(٧) الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٣٢٤ .

(٨) الذخيرة : ق١م٢ ، ص ٧٢٩ .

وتتفاوت مقادير صور الجناس في الرسائل الوصفية ، وأكثر ما تظهر في الربيعيات والروضيات ، ووصف هطول المطر بعد القحط ، ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي حبيب الحميري يصف فيها خيريا اهدي اليه ، حيث يقول : " لا نِدَّ له إلاّ النَّدُّ(١) ، ولا مَسْكَ له إلاّ المِسْك(٢) . وقد قبضته مشغوفا به ، مُسْتَلَذّاً بقُرْبه متعجباً من حُسن اختياره ، ولاستيثاره باستهتاره ، تحت جَناح الظلام ليَسْلَمَ من الجُناح(٣) ..."(٤). حيث جانس الكاتب بين النِّد والنَّد ، المَسْك والمِسْك ، جَناح وجُناح وغيرها .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة لأبي جعفر بن الأبار(٥) في وصف الربيع ومشاهده الجميلة ، حيث يقول : " وبُرْد الارض خَضِر ، فوق من الزَّهر بمثل الأنْجُم الزُّهر (٦) والرياض راضية من الحيا متبرجة بعد الحياء أهْدَتْ لها المُزن دِرَرَها ، فأبْدَتْ يواقيتها ودُرَرَها(٧) .."(٨) ، حيث جانس الكاتب جناسا ناقصا بين الالفاظ : الزَّهر والزُّهر ، الحيا والحياء، دِرَرها ودُرَرها .

وتظهر صور الجناس في عدد من رسائل المفاضلات والمفاخرات كالرسائل الشعوبية ، والمفاخرة بين السيف والقلم ، وفضائل البلدان ، اذ ان المجال مجال مفاخرة وتنافس وتغن بالمآثر والفضائل ، وانكار لكل عيب أو منقصة ، وفي هذا الموطن يحسن استخدام المحسنات البديعية لتحسين الكلام وتنميقه .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في الرسائل الشعوبية قول ابن غرسية مفتخرا بقومه ، ومقللا من شأن العرب : شُدِهوا برنَّات السيوف عن رَنَّات

---

(١) النِّد : المثل والنظير، والنَّد : ضرب من الطيب (اللسان : مادة ندد).

(٢) المَسْك : الجلد ، والمِسْك : ضرب من الطيب (اللسان : مادة مسك) .

(٣) جَنَاح الظلام : جانبه ، والجُنَاح : الميل الى الاثم (اللسان : مادة جنح) .

(٤) البديع : ص ١١٣.

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الاشبيلي أحد شعراء المعتضد المحسنين المتقنين ، توفي سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في : الجذوة ص ١١٥ ، الذخيرة : ق٢م١،ص ١٣٥ ،المغرب : ج١ ،ص ٢٥٨ .

(٦) الزَّهَر : جمع زَهْرَة ،وهي نَوْر كل نبات ، والزُّهْر : جمع زُهْرة وهو البياض النيّر (اللسان : مادة زهر) .

(٧) الدِّرَر : جمع دِرَّة والدِّرَّة في الامطار : أن يتبع بعضها بعضا،والدُّرَر: جمع دُرَّة : وهي اللؤلؤة العظيمة (اللسان : مادة درر).

(٨) البديع : ص ٦٨.

الشّنوف (١) ، وبالنَّفير عن النَّقير(٢) ... وبالخَبّ عن الخب (٣) ، وبالشَّليل عن السَّليل(٤) ، وبالأمر والذمر(٥) عن معاقرة الخمر والزمر"(٦) .

فهذا النص على قصره يحفل بعدد كبير من صور الجناس الناقص ، حيث جانس الكاتب بين الالفاظ : رَنّات وَرَبّات ، السّيوف والشّنوف ، النَّفير والنَّقير ...

ومما ورد في المفاخرة بين السيف والقلم قول ابن برد الاصغر على لسان السيف : " ان الملوك لتبادر الى دَرْكي وَتُلْحفني (٧) بِخلَل كحُلل(٨) وحمائل كخمائل ..." (٩) . فقد جانس الكاتب جناسا ناقصا بين الالفاظ : خِلل وحُلَل ، حمائل وخمائل ...

ومما ورد في فضائل البلدان قول أبي المغيرة بن حزم في مقدمة رسالته التي رد بها على ابن الربيب القيرواني : " وما زلت أُتَنَسَّمُ ذِكْرَك ، فأترسَّمُ قَدْرَك ، وأسْمَعُ خَبَرَك ، فأرى خُبْرَك(١٠) حتى أرادتِ الايامُ كَشْفَ السّرَ ..."(١١) . حيث جانس الكاتب جناسا ناقصا بين لفظي خَبَرَك وخُبْرَك .

ومهما يكن من أمر فان الباحث يستطيع القول بأن انتشار فن الجناس في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري كان أقل من انتشار فني السجع والازدواج ، وأن معظم صور الجناس كانت من نوع الجناس الناقص .

---

(١) الشنوف : جمع شنف وهو القرط الاعلى (اللسان : مادة شنف) .

(٢) النفير : الخفوف الى الحرب ، والنقير : الوعاء الذي يتخذ فيه النبيذ ويريد هنا النبيذ نفسه (اللسان : مادتا نفر ونقر) .

(٣) الخب : ضرب من العدو ، والخب : الخداع : (اللسان : مادة خبب) .

(٤) الشليل : الدرع : والسليل : سنام البعير (اللسان : مادة شلل وسلل).

(٥) الذمر : الحض والحث (اللسان : مادة ذمر) .

(٦) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٩ .

(٧) تلحفني : تغطيني (اللسان : مادة لحف).

(٨) الخلل : جمع خلة وهي بطانة يغشى بها جفن السيف وتنقش بالذهب وغيره ، والحلل : الوشي والحبر والخز والقز والحرير (اللسان : مادتا خلل وحلل).

(٩) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٢٩ .

(١٠) الخَبَر : النبأ ، والخُبْر : العلم والمعرفة (اللسان : مادة خبر).

(١١) الذخيرة : ق١م١ : ص ١٣٧ .

التعبير عن المعاني

لم يقتصر اهتمام الكتاب الاندلسيين على اللفظة المفردة ، بل تعدى ذلك الى الاهتمام بالجمل والعبارات ، فقد عملوا على زيادة الانسجام بين اللفظة المفردة والجملة ، بحيث ظهرت أشكال التعبير منسجمة في ألفاظها وعباراتها مع معانيها بوضوح وتأثير[١] .

ويلاحظ الباحث أنهم قد اعتمدوا على عدد من الأدوات لاخراج عباراتهم بأسلوب جميل مؤثر . ومن هذه الأدوات الخيال والصورة البيانية ، اضافة الى عدد من المحسنات البديعية كان من أبرزها الطباق والمقابلة .

الخيال والصورة البيانية :

يعتبر الخيال من أبرز الوسائل التي استخدمها الكتاب لتكوين صورة بيانية معبرة[٢] . ولم يقتصر الخيال على موضوع معين من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ، وانما شمل عددا كبيرا منها فلقد كان الخيال من أبرز الخصائص الفنية لرسائل المفاضلات والمفاخرات . وهو خيال واسع متأثر بالحكايات والاساطير من حيث ادارة الحديث على ألسنة غير الانسان .

ولقد تمثل هذا الخيال في رسالة المفاضلة بين الازهار وتفضيل الورد عليها لابن برد الاصغر[٣] ، وفي رسالة أبي الوليد الحميري في تفضيل البهار[٤] ، وفي رسالة أبي عمر الباجي التي كتبها على لسان البهار يشكو فيها الورد للمقتدر بن هود ، عندما تعدى عليه واغتصب رئاسته[٥] . وفي رسالة ابن حسداي التي أجرى الحوار فيها بين النرجس ورجل ظريف من خواص الأمير[٦] .

---

(١) انظر: النثر الاندلسي : ص ٤٨١
(٢) انظر: الاسلوب : ص ١٩٥ - ١٩٧ ، في النقد الادبي : ص ١٧٥ .
(٣) انظر : البديع : ص ٥٢ - ٥٥ .
(٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ٥٨- ٦٧ .
(٥) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .
(٦) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

لقد تصوّر الكتاب في كثير من هذه الرسائل وقوف الازهار والورود في مجالس تنادت اليها ، وأجروا حوارا على ألسنتها . فقد وقف كل نَوْر حضر هذه المجالس يدافع عن نفسه ، ويفتخر بصفاته ، ويؤدي شهادته ، ويدلي بوجهة نظره .

وقد سرت هذه المفاضلات والمفاخرات كما تقدم الى السيف والقلم ، فكتب ابن برد الاصغر رسالة اقامها على المفاخرة بين السيف والقلم في تعداد الصفات والمحاسن(١) .

كذلك يظهر عنصر الخيال واضحا في رسالة التوابع والزوابع التي كتبها ابن شهيد في اطار قصصي خيالي مبتكر(٢) ، أراد من ورائه أن يظهر موهبته وعبقريته ، وأن يتغنى بفضائله ، ويشيد ببلاغته ، وينال من خصومه ، وينافح عن أدبه أمام خصومه وحساده الذين انتقصوا أدبه وبلاغته(٣) . ولعل هذه الامور مجتمعة هي التي حملته على الطيران حول ديار الجن على ظهر جواد سار به كالطائر(٤) .

وليس أدل على قوة الخيال في رسالة التوابع والزوابع من من اختيار الميدان الذي دارت عليه أحداث هذه القصة ، وطريقة استدعاء التابع(٥) ، وفي وصف الجواد ، حيث نحس الجو الاسطوري والخيالي وهو " يَجْتَابُ الجوَّ فالجوّ ، ويقطع الدَّوّ فالدَّوّ(٦) ، حتى الْتَمَحْتُ أرضاً لا كأرضنا ، وشارفتُ جَوّاً لا كجوّنا "(٧) .

كذلك يبدو في استدعاء تابع أبي تمام " فانْفَلَقَ ماءُ العين عن وجه فتىً كفِلقة القمر ، ثم اشتقّ الهواء صاعداً إلينا من قَعْرِها حتّى استوى معنا "(٨) .

---

(١) انظر الذخيرة : ق١م١ ، ص ٥٢٣ – ٥٢٨ .
(٢) انظر الادب الاندلسي : ص ٢٧٧ ، الادب الاندلسي : موضوعاته وفنونه : ص ٦٤١ .
(٣) انظر : التوابع والزوابع : ص ٧٠ . (٤) انظر المصدر السابق نفسه : ص ٩١ . (٥) انظر المصدر السابق نفسه : ص ٨٩ – ٩٠ . (٦) الدو : الفلاة (اللسان : مادة دوا) . (٧) التوابع والزوابع : ص ٩١ .
(٨) المصدر السابق نفسه : ص ٩٨ .

كذلك فقد كان الخيال من العناصر الاساسية التي استعان بها الكتاب في التعبير عن المعاني في الرسائل الوصفية ، وخاصة في رسائل وصف الطبيعة . فقد أضفوا على مظاهر الطبيعة المختلفة من خيالهم ما يجسمها ويشخصها ، فبعثوا فيها الحياة والحركة ، وخلعوا عليها المشاعر الانسانية [١] .

واستعان الكتاب بالخيال في رسم صورهم الفنية في رسائل الفكاهة [٢] . ويلاحظ الباحث أن الخيال قد تخلل بعض الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي ، ورسائل الجهاد والصراع مع الطليبيين والرسائل الاخوانية [٣] ، وذلك بدرجات متفاوتة ومتباينة .

وكان الخيال عند الكتاب الاندلسيين مبنيا على التصوير البياني الذي يعتمد على ايراد الصور والتشبيهات والاستعارات المختلفة اعتمادا كبيرا .

وقد تنوعت مصادر هذه الصور البيانية وتعددت . وكانت البيئة الاندلسية من أهم هذه المصادر وأبرزها ، حيث أمدت الكتاب بالأخيلة والتشبيهات والاستعارات الغزيرة .

ومن الامثلة على ذلك قول ابن حيان وقد شبه انقضاض جيش المعتمد بن عباد بقيادة ابنه سراج الدولة على جيش المأمون بن ذي النون بانقضاض الكوكب الساري في السرعة والقضاء على كل ما يقع عليه ، يقول : " ومتّعك بما منحك من يُمْن طائره على عدوّك ، وسعده اللذين بهما ، انقضَّ على عدوّك ، انقضاضَ الكوكب الساري ، فسحق به وبجمعه " [٤] .

---

(١) انظر البديع : ص ٨ ، القلائد : ص ١٠٣ ، الذخيرة : ق١م١ ، ص ٤٠٥، ٥٠٢ ، ق٣م٢ ، ص ٥٤٣ ، الخريدة : ج٢ ، ص٢٩٨ .

(٢) انظر : الذخيرة : ق١م١ ، ص ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٥٣٢ ، ق١م٢ ، ص٦٤٥ ، سرح العيون : ص ٣ – ٤ .

(٣) انظر : الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٨٥ ، ق٢م٢ ، ص ٨٦٠ ، ق٣م٢ ، ص ٨٨٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ، ص٥٨٠ .

ويقدم أحد الكتاب في رسالة كتبها عن يوسف بن تاشفين الى تميم بن المعز بن باديس صورة مشرقة لجند المرابطين الذين جازوا البحر لنجدة المسلمين في الأندلس ، حيث شبههم بالأسود في الشجاعة والاقدام ، وبالسباع في الحدة والغضب ، وشبه تشوقهم للقاء بأعدائهم والفتك بهم بتلمظ الفهود وتشوقها للفتك بفريستها ، وشبه صوتهم بزئير الاسود في جلجلته ، يقول : " وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشباباً ، بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، يتلمظون تلمظَ الفهود ، ويزأرون زئيرَ الأُسود "(١) .

كذلك فقد قدم أبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني صورة مشرقة لأحد الوزراء استوحاها من البيئة الاندلسية الجميلة ، حيث شبه الوزير بالمطر في غزارة عطائه وعمومه ، وبالقمر في أشعته وتبديده للظلمات ، يقول : " الوزير كالمطر الجُود يملأ الحياض ، وينبتُ الرياض ، بل كالقمر يقذف بالنور ، ويَذْهَبُ بالدَّيجور "(٢) .

ولم يقتصر استلهام الكتاب الاندلسيين لصورهم البيانية من البيئة الاندلسية على البر ، بل استلهموا صورهم من البيئة البحرية أيضا ، كقول ابن برد الاصغر في وصف المداد والقلم وأدوات الكتابة : " المداد كالبحر ، والقلم كالغوَّاص ، واللفظ كالجوهر ، والقرطاس كالسلك "(٣) .

وقد تكون الصورة البيانية مستوحاة من حياة الناس وعاداتهم الاجتماعية والادوات الحضارية التي يستعملونها . ومن الامثلة على ذلك قول أبي الحفص الهوزني : " والحرب في اجتلائها حسناءُ عروسٌ تطبّي الاغمار بزَتُّها ، وفي بنائها شمطاءُ عَبوسٌ تختلي الأعمارَ غرتها " (٤) . حيث صور الحرب في اجتلائها بأنها العروس التي تستميلهم

---

(١) رسالة سياسية واخوانية اندلسية (الاسكوريال ٤٨٨) : ورقة ٤٩ .

(٢) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٨٨٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق١م١ ،ص ٤٩٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٢م١ ،ص ٨٥ .

وتغريبهم وصورها في بهائها بالشمطاء العبوس التي تفزع .

ومن ذلك أيضا قول أبي المغيرة بن حزم في وصف ملامح رسول أرسله الى ابن العباس : " فعهدي بجبينه كالصحيفة الصقيلة ، وخده كمرآة الغريبة ، ولسانه كمخراق اللاعب "(1) . فقد استمد الصورة البيانية من الادوات الحضارية التي يستعملها الاندلسيون ، فشبه جبينه بالصحيفة في جلائها ، وخده بالمرآة في صفائها ، ولسانه بمخراق اللاعب في حدته وطوله .

وكان من مصادر الصورة البيانية في موضوعات أدب الرسائل وأغراضه القرآن الكريم . فقد استوحى أبو الحسن الهوزني آي الذكر الحكيم عندما قال في وصف حال المسلمين في الاندلس : " كأنَّ الجميعَ في رَقْدة أهل الكهف "(2) .

ومن ذلك أيضا قول أبي جعفر بن أحمد : " وان الذي بينكم وبين الهلكة لأقصر من ابهام الحبارى(3) ، في يوم تُرَوْنَ فيه سُكَارى ، وما أنتم بِسُكَارى ولكن عذاب الله الواقعُ(4) "(5) .

حيث شبه حال الاعداء وما يصيرون اليه من ذهول وما يدب في قلوبهم من رعب عند التقائهم بالمسلمين بالسكارى . وهي صورة مستوحاة من القرآن الكريم .

وقد تكون الصورة مستوحاة من التاريخ العربي الاسلامي القديم ، ومن الامثال والحكم . فقد استعار ابن شهيد كثيرا من أعلام التاريخ الاسلامي في وصف الثعلب عندما صور دهاءه وفتكه ، حيث يقول : " أدهى من عمرو(6) ، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر"(7) .

---

(1) الذخيرة : ق ١م٢ ،ص ٦٤٨ . (2) المصدر السابق نفسه : ق٢م١،ص ٨٤ .

(3) انظر مجمع الامثال : ج٢ ،ص ١٢٨ . (4) انظر سورة الحج: الاية ٢.

(5) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص٧٦٨ . (6) يريد عمرو بن العاص .

(7) اليتيمة : ج٢ ،ص ٥٤ .

واستعار أبو جعفر بن أحمد من الامثال العربية عندما صور ما بين الكفار وهلاكهم على يد المسلمين بأنه أقصر من ابهام الحبارى ، حيث يقول : " وان الذي بينكم وبين الهَلَكَةِ لأقصر من ابهام الحبارى "(١) .

ولقد اعتمد الكتاب في صورهم على عنصر التشخيص والتجسيم ، وذلك بالباس المعاني صورا حية ، وخلع الصفات الانسانية على المنعوتات ، وبث الحياة والحركة والنشاط فيها .

ومن الامثلة على ذلك قول أبي المغيرة بن حزم مصورا سحر الطبيعة الاندلسية وقت الربيع ، ومشخصا عناصرها في صور انسانية مشرقة " فالارض قد نَشَرَتْ مُلاءَهَا ، وَسَحَبَتْ رداءَها ، ولبست جلبابها ، وَتَقَلَّدَتْ سِخَابَهَا ... والأشجار قد نَشَرَتْ شعورَها ، وهزَّت رؤوسَها ، والدنيا قد أبدت بشرها ، وأماطت عبوسها "(٢) .

ومن الامثلة على ذلك أيضا قول ابي الفضل جعفر بن شرف القيرواني مصورا فتح بلنسية : " وأقبل الفتح في لمة التأييد ، يرفل في ثوب النصر الجديد "(٣) .

حيث رسم للفتح صورة مشرقة ، وجسمه تجسيما حيا ، فتخيله رجلا أقبل مبتهجا يجر ذيله متبخترا مزهوا بنفسه في موكب عظيم .

ومن الامثلة على ذلك أيضا قول أبي محمد المصري(٤) مصورا الموت الذي أصاب أهل مالقة على يدي المعتمد بن عباد ومجسما اياه في صورة انسانية : " أصبتهم في منزل عال ... دون ... ما يدفع عنهم ريب المنون ، أكفُّ الرزايا تصافحهم ، وجنوب المنايا تضاجعهم "(٥) .

ولقد ظهر الجانب الحسي للصورة البيانية على هيئات وصور متعددة ، كان من أبرزها الصورة الحركية(٦) ، حيث استعان الكتاب بالحركة في رسم صورهم البيانية . ومن الامثلة على ذلك قول ابن خفاجة واصفا الطبيعة بعد الصحو : " أذن الله تعالى للصَّحو أن يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ ، وَيَنْشُرَ صحيفتَهُ ، فقشعت الريحُ السَّحاب ، كما طوى السِّجلُّ الكتاب ، وطفقت السماءُ تَخْلَعُ جِلبابها ، والشمس تحطُّ نِقابَهَا ، وانطلقت الدنيا كأنها عروسٌ تجلّت ، وقد تحلّت ... "(٧) .

فقد قدم الكاتب صورة بيانية جميلة قائمة على الحركة ، حيث استطاع من خلال تشبيهاته واستعاراته ، ومن خلال الافعال التي اختارها أن يصور كل شيء في الطبيعة متحركا .

ونجد مثل هذه الصورة القائمة على الحركة في قول ابن الحناط واصفا الصيد : " وأقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربان ، وتعطو بسوالف غزلان ... تحسبها فوق مائة رعيل دهم مصفوفة "(٨) .

فلقد وفق الكاتب في تصوير الحركة التي نحسها في اندفاع الزوارق بقوة تحاكي خفقان أجنحة الغربان ، وتحرك أعناق الغزلان ، وارتجاج مجموعات الخيل المصفوفة .

---

(١) الذخيرة : ق٢م٢،ص ٧٦٨ . (٢) المصدر السابق نفسه :ق١م١،ص ١٥٤ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق٢م٢،ص ٨٦٠ . (٤) هو أبو محمد عبدالله بن خليفة القرطبي ، المعروف بالمصري لطول اقامته بمصر ، اشتهر بالطب ، وكان كثير النادرة حاضر الجواب توفي سنة ٤٩٦هـ (انظر ترجمته في : الذخيرة : ق٤م١ ،ص ٣٤٢ ، الخريدة : ج٢ ، ص ١٩٣ ، المغرب : ج١ ،ص ١٢٨) . (٥) الذخيرة : ق٤م١،ص ٣٤٤ . (٦) يجد الباحث أمثلة على ذلك في : الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٠٢ ،ق٢م١ ،ص٢٩٠ ، ٢٣٦ ،ق٣م٢ ،ص٥٤٦، الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٨ . (٧) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٥٤٣ . (٨) الخريدة : ج٢ ،ص ٢٩٩ .

وتظهر الصورة اللونية في عدد من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه حيث استعان الكتّاب بالظواهر اللونية المختلفة لتلوين صورهم البيانية [1] . ومن الامثلة على ذلك قول أبي جعفر بن أحمد في وصف الورد : " فمن ورد كتوريد الخدود ... وبنفسج حكى زُرق اليواقيت، وبقية النار في اطراف الكبريت ، وياسمين يُذكّر بالخدود البيض "[2] .

فلقد حشد الكاتب في هذه الصورة عددا من الالوان ، فالورد أحمر، والبنفسج أزرق ،والياسمين أبيض .

واستعان ابن الحناط بالالوان في رسم صورة مشرقة للحيتان حيث يقول : " التّنينَان أشباه النجوم ... تبرقُ بريق الصّوارم المسلولة وتلمع لمعان الذوابل المصقولة ، مدنّرة الأصلاب ، مفضة البطون ، مذهّبة الأفواه ..."[3] . فيرى الناظر في هذا النص تلألؤ النجوم وبريق السيوف ، ولمعان الرماح ، واشراق الدنانير ...

الطباق :

يعتبر فن الطباق من أهم المحسنات البديعية التي استعملها الكتاب في ميدان عنايتهم بالمعنى ، واهتمامهم بالجمل التي تعبر عنه وتترجم مشاعرهم وعواطفهم . وقد أجمع أهل البلاغة على أن الطباق في الكلام ، هو الجمع بين المعنى وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة . وهو نوعان طباق ايجاب ، اذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظا ومعنى . وطباق سلب اذا تحقق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام[4] .

---

(١) انظر: البديع : ص ٨ ، القلائد : ص ١٠٣ ،١٠٦ ،الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٦٥ ،٤٦٩ ، النفح : ج١ ،ص ٥٤١ .

(٢) الذخيرة : ق ٣م٢ ،ص ٧٦١ . (٣)الخريدة : ج٢ ص ٣٠٠ .

(٤) انظر : التبيان في وجوه البيان : ص ١٧٠ – ١٧٣ ، كتاب الصناعتين: ص ٣٠٧ – ٣٢١ ، حسن التوسل : ص ١٩٩ – ١٠٢ .

ويظهر للباحث أن صيغ الطباق تظهر بدرجات متفاوتة في نصوص أدب الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها ، فهي تكثر في عدد من الرسائل الدينية . ومثال ذلك ما ورد في رسالة لابن برد الاصغر في التحميدات والتسبيحات ، حيث يقول : " الحمد لله الذي علا وقهر، وبطن وظهر ، وبحكمه قدَّر وأمر ، وبعدله قدَّم وأخَّر "(١).

فلقد طابق الكاتب بين علا وقهر ، بطن وظهر ، قدَّم وأخَّر ، وتظهر صور الطباق أيضا في عدد من رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين(٢).

ومن الامثلة على ذلك قول أبي عبدالله بن أيمن في رسالة كتبها على لسان المتوكل بن الافطس مصورا حال المسلمين في الاندلس : " ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد ، حتى اسْتُصْفِيَ الطريف والتَّلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد "(٣) . حيث طابق الكاتب بين ألفاظ : التشطط والاذعان ، الانقياد والعناد ، الطريف والتلاد ، الظاهر والباطن .

ومن الامثلة على ذلك أيضا قول أبي عبيد البكري في رسالة يمدح بها المعتمد بن عباد ويهنئه بانتصار المسلمين بمعركة الزلاقة : " نصر الله أعلامه ، ففي البرِّ تُحَلُّ وتعقد ، وعضد حسامه فبالقسط يُسَلُّ وتغمد ... ميت حق أحياه ، وحيّ باطل أرداه "(٤) .

فهذا النص على قصره يحفل بعدد كبير من صور الطباق كقوله : تُحَل وتُعْقَد ، يُسلُّ ويغمد ، ميت وحي ، حق وباطل ، أحياه وأرداه .

كما ترد صور الطباق في كثير من الرسائل الوصفية ، وخاصة في الربيعيات والروضيات ، ووصف مطر بعد قحط ، ووصف الحيوان ، والزرزوريات والطرديات(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق١م١ ، ص ٤٩١ . (٢) يجد الباحث أمثلة على ذلك في : القلائد : ص ١١٠ ، الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٥٤ — ٦٥٦ ، ق٣م١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ق٣م٢ ، ص ٨٦٨ — ٨٦٩ ، المعجب : ص ٢٢٩ .

(٣) الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ١٥٤ .

(٤) الذخيرة : ق٢م١ ، ص ٢٣٦ . (٥) انظر الذخيرة : ق١م١ ، ص٥٠٢ ، ق٢م١ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ق٣م١ ، ص ٣٦٥ ، ق٣م٢ ، ص ٦١٤ ، الخريدة : ج٢ ، ص ٣٠٢ .

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي محمد بن عبد البر في وصف أذني غزال ، حيث يقول : " ينصبهما اذا أوْجَسَ ، ويثنيهما اذا أَنِسَ .."(١) .

فلقد طابق الكاتب بين لفظي ينصبهما ويثنيهما ، وبين لفظي أوْجَس وأَنِس .

وترد صور الطباق في عدد قليل من موضوعات الرسائل الاخوانية ، وخاصة في رسائل المديح والمودة والتهاني والعتاب والاعتذار والرثاء والتعازي (٢) .

ومن الامثلة على ذلك ما جاء في رسالة لأبي بكر بن قزمان في عتاب أحد أصدقائه ، حيث يقول : " فربما تلاقينا ، وكأننا ما تراءينا ، لا كلام ببنت شفة ، ولا ايماء بطرف أنملة ، واللوم في هذا كله يسقط عني ، كما يضيق العذر عنك ، بقضية سنة الاسلام في السلام في أن ألقاك راكبا وأنا ماش ، وأنت بحمد الله طائر وأنا - ولا كفران بالله - واقع ، وعلى الطائر ، أن يغشى أخاه ... وان طمح بك ، وحط بي قدري عندك ، إدبارُ الأمر عني ، وإقبالُه عليك ، ففيها ما فيها ، وما أرضاها لك طريقة "(٣) .

فلقد طابق الكاتب بين الالفاظ : كلام وايماء ، يسقط ويضيق ، راكب وماش ، طائر وواقع ، طمح وحط ، ادبار واقبال .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة لابن عبدون يعاتب فيها أحد أصدقائه ، حيث يقول : " سلام على من نظر بقلبه لا بعَيْنه ، وَحَكَمَ بيقينه لا بظنّه ، ونطق بعقله لا بهواه ، وآخذ من دنياه لأخراه ، ولم يستفزّه قال ولا قيل .."(٤) . حيث طابق الكاتب بين الالفاظ : قلبه وعينه ، يقينه وظنه ، عقله وهواه ، دنياه وأخراه . ويظهر للباحث

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢١٤ . (٢) انظر الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٩٢- ٢٩٣ ، ق٢م٢ ، ص ٧٧٨ ، ٨٠١ ،ق٣م١ ،ص ٢١٨ .

(٣) الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٧٧٨ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٢م٢،ص٦٨٠ .

أن أكثر صور الطباق التي ظهرت في نصوص أدب الرسائل ، كانت من نوع الايجاب الذي يقوم على اختلاف الكلمة لفظا ومعنى . ولعل مرد ذلك أن طباق الايجاب يتسم بالسهولة ، وهذا مما ينسجم مع طبع الكتاب الأندلسيين وذوقهم ، وميلهم الى السهولة والوضوح ، والابتعاد عن التكلف والصنعة بقدر المستطاع (١) .

وهناك ميزة أخرى تبرر كثرة استخدام هذا اللون من الطباق في الرسائل هي أنه أدعى الى تزيين الكلام وتنميقه لأن فيه تنويعا في الالفاظ ، مما يجلب انتباه السامع ، ويدفع السأم والملل عنه .

المقابلـــة :

كان فن المقابلة من أبرز الوسائل التي اعتمدها الكتاب الاندلسيون في مجال عنايتهم بتزيين المعاني وتحسين العبارات (٢) . وترد صيغ المقابلة في بعض موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي ، كقول ابن برد الاصغر في رسالة يخاطب فيها أحد المتمردين الذين عادوا الى رشدهم: " فمدّدنا لك الترغيب لتأنَسَ اليه ، وظللنَا لك الترهيبَ لتفرَقَ منه " حيث قابل الكاتب بين جملتي فمددنا لك الترغيب لتأنس اليه ، وظللنا لك الترهيب لتفرق منه (٣) .

ونجد مثل هذه المقابلة في رسالة للبزلياني في تصوير نتائج اختلاف كلمة المسلمين وافتراق شملهم ، حيث يقول : " واتصل بي ما وقع بينكما وبين المظفر أبي محمد من التنازُع حتى خشيتُ ... أن يتمادى بكم اللجاج، ويتعاصى من أموركم العلاج "(٤) .

وترد صور المقابلة في الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي (٥) ايضا ، كقول أبي الفضل البغدادي مصورا اختلال الامور ، وتدهور الاحوال وانعدام الامن في بعض مناطق الأندلس : " وقد نَضَبَتْ في رباعها مياهُ الأمانةِ والأمان ، ونَبَعَتْ بين أهلها عيونُ الخيانةِ ، والبهتان ..."(٦) .

(١) انظر : النثر الاندلسي : ص ٥١٠ – ٥١١ . (٢)عن فن المقابلة انظر: كتاب الصناعتين : ص ٣٣٧– ٣٤٠، حسن التوسل : ص ٢٠٢ – ٢٠٦ .
(٣) الذخيرة : ق١م١ ،ص ٥٠٠ . (٤)المصدر السابق نفسه : ق١م٢،ص ٦٣٨ .
(٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق١م١ ،ص ٥٣ ،ق٣م١ ،ص ٣٢ .
(٦) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤١١ .

فقد قابل الكاتب بين جملتي نَضَبَتْ في رباعها مياه الأمانة ، والأمان ، ونَبَعَتْ بين أهلها عيون الخيانة والبهتان .

كذلك فقد ظهرت صورة المقابلة في بعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين (١) . ومثال ذلك قول ابن عبدون مخبرا أمير المسلمين بفتح مدينة شنترين : " وجمع في هذه الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانبتاته ، وقطع غيل الاشراك بعد انتصابه وثباته "(٢) . فقد قابل الكاتب بين حالي الاسلام والكفر بعد هذا الانتصار .

ومثال ذلك أيضا قول أبي بكر بن القصيرة في وصف حال المسلمين في بلاد الاندلس وما أصابهم من ذل وهوان : " فلم يزل دأبهم الاذعان والانقياد ، ودأب النصارى التسلط والعناد "(٣) .
حيث قابل الكاتب بين جملة دأبهم الاذعان والانقياد ، ودأب النصارى التسلط والعناد .

ومثال ذلك أيضا قول ابن القلاس في رسالة يتحدث فيها عن نتائج احد انتصارات المسلمين في الأندلس : " ان أولى النعم بأن يتحدث عنها حديث اعتماد لشكرها ... نعمة خصت الدين ، وعمت المسلمين ، وأعلت للاسلام يدا ، وثنت للكفر عضدا ، وشدت من الايمان سننا ، وأوهت من الكفار ركنا ..."(٤) . فهذا النص على صغره يحفل بعدد من صور المقابلة .

وترد صور المقابلة في بعض موضوعات الرسائل الدينية ، ومن الامثلة على ذلك قول أبي القاسم بن الجد على لسان من صدر عن بيت الله الحرام " صلوات الله على خاتم الرسل ، وناهج السبل ، وناسخ جميع الملل "(٥) .

---

(١) انظر الذخيرة : ق٢م١،ص ١٧٨ ، ٢٣٥- ٢٣٦ ، ق٣م٢ ،ص ٨٦٨ - ٨٦٩ .
(٢) المعجب : ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
(٣) الذخيرة : ق٢م١ ،ص ٢٤٨ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤٢ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق ٢ م ١ ،ص ٢٦٨ .

فقد قابل الكاتب بين جملتي ناهج السبل ، وناسخ جميع الملل .

ومن ذلك أيضا قول ابن شرف القيرواني في وصف حياة الزهاد :"زهاد تركوا العرض ، وأصابوا الغرض ، اقترحوا الفنا ، واطرحوا الغنى، رفضوا المزايل ، وطلبوا الطايل ، وأعرضوا عما يبيد ، وأقبلوا على ما يفيد .."(١) .

فالناظر في هذا النص يجد أنه يحفل بعدد كبير من صور المقابلة .

ومع أن صور المقابلة تقل في رسائل المفاضلات والمفاخرات الا أن الباحث لا يعدم عددا من هذه الصور في الرسائل الشعوبية، ومن الامثلة على ذلك قول ابن غرسية : " هم القياصرة والاكاسرة ، مُجُدٌ نُجُدٌ(٢) ، بُهَمٌ لا رعاةُ شُوَيهاتٍ ولا بُهَم(٣) ، شغلوا بالماذيّ(٤) والمرّانِ(٥) عن رعي البُعْران ، وبجلب العزّ عن حَلْبِ المعز "(٦) .

فقد قابل الكاتب بين حياة العرب القدامى في ظل الابل والشاء ، وحياة القياصرة والاكاسرة في ظل السيوف والرماح .

كذلك تقل صور المقابلة في الرسائل الوصفية . وقد يجد الباحث بعض الصور في الرسائل التي تصف هطول المطر بعد القحط ، وما يتعلق بهما من نتائج على حياة الناس ومشاعرهم ، ومن الامثلة على ذلك قول أبي عمر الباجي : " ان لله .. عطايا جامعة للفضل ، ومنحا... يجعلها لقوم صلاحا وخيرا ، وعلى آخرين فسادا أو ضيرا " . وقوله بعد سقوط المطر " وآثار الجزع ممحوة ، وسورة الحمد متلوة "(٧) . حيث قابل بين جملتي يجعلها لقوم صلاحا وخيرا وعلى آخرين فسادا أو ضيرا ، وقابل بين جملتي آثار الجزع ممحوة ، وسورة الحمد متلوة .

---

(١) الذخيرة : ق٤م١ ،ص ١٨٧ . (٢) نجد : جمع نجد وهو الرجل الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره ، ومجد : جمع مجد هو كرم الاباء خاصة (اللسان : مادة مجد) . (٣) بهم : جمع بهمة ، وهو الفارس لا يدري من أين يؤتى لشدة بأسه ، والبهم : جمع بهمة ، وهي الصغير من أولاد الغنم (اللسان : مادة بهم) . (٤) الماذي : السلاح كله من الحديد ، وقيل الحديد كله الدرع ، والمغفر ، والسلاح أجمع (اللسان : مادة مذي) .
(٥) المران : الرماح الصلبة اللدنة (اللسان : مادة مرن) .
(٦) الذخيرة : ق٣م٢ ،ص ٧٠٦ . (٧) القلائد : ص ١٠٣ .

الفصل الرابع

أشهر كتّاب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري

لقد حظي أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري بعدد كبير من الكتاب ، كان من الممكن أن يقوم هذا الفصل على التعريف بهم ودراستهم . لكن الباحث وجد أن بعض هؤلاء الكتاب ـ الجديرين بالدراسة ـ قد كتب عنهم ، وألف فيهم كابن شهيد [١] ، وابن برد الأصغر [٢] ، وأبي عبدالوهاب بن حزم [٣] ، وابن زيدون [٤] .

ولقد وجد الباحث الى جانب هؤلاء الكتاب كتابا آخرين ، رأى أن يدرس ثلاثة منهم ، هم : ابن الدباغ ، وابن عبدالبر ، وابن طاهر .

فهؤلاء الكتاب الثلاثة يستحقون الدراسة والتعريف والتتبع لرسائلهم ، لأنهم في رأي الباحث لا يقلون عمن ذكرهم سابقا من كتاب الأندلس في القرن الخامس الهجري .

وربما كانت قلة ما احتفظت به المصادر من رسائلهم سببا في بقائهم بعيدين عن دائرة البحث والدراسة .

فهم يمثلون أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري بجميع اتجاهاته وموضوعاته . فابن الدباغ كان يغلب على رسائله الاتجاه الاجتماعي،وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان واضطراب الأحوال ، وقد جرت بعض رسائله مجرى القصص والحكايات .

أما ابن عبدالبر فقد غلب على رسائله الاتجاه السياسي، والحديث عن الصداقة وتهادي الود ، وامتاز بأوصافه النادرة . في حين اشتهر ابن طاهر بالحديث عن الجهاد والصراع ضد الصليبيين .

ولقد جارى هؤلاء الكتاب أترابهم كتاب الاندلس ، في الأخذ بالمثل الاعلى السائد ، والسير على مقاييس العصر الادبية .

---

(١) انظر : ابن شهيد الاندلسي : حياته وآثاره / شارل بلا ، ابن شهيد الاندلسي : حياته وأدبه / حازم خضر ، تاريخ الادب الاندلسي: ص ٢٧٠-٣٠٢ ، النثر الفني : ص ٢٧٧ - ٣٨٦ .

(٢) انظر : بلاغة العرب في الاندلس : ص ١٤٨ - ١٥٩ .

(٣) انظر : الادب الاندلسي : ص ٥٨٣ - ٥٩٠ ، تاريخ الادب الاندلسي: ص ١٤٥ - ١٥٠ ، النثر الفني : ص ٢٦٥- ٢٧٤.

(٤) انظر : ابن زيدون / شوقي ضيف ، ابن زيدون / علي عبدالعظيم .

ابـــن الدبـــاغ

حياتـــه :

هو أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر بن الدبـاغ (١) ، نشـأ فـي سرقسطة وتـرعرع فيهـا (٢) . ولما كان قـد بالبلاغة والفصاحة فقـد أعلى أمير بلاده المقتدر بن هـود مكانـه ، وقربـه منـه ، وقلـده الوزارة والكتابـة . الا أنه حدثت جفوة بينه وبين المقتدر بن هـود اضطرتـه الى الفـرار الى اشبيليـة (٣).

وكان سبب هذه الجفوة كما يذكر ابن الدبـاغ في رسالة بعث بهـا الى أحد أصدقائه عقب فراره ، أن المقتدر بن هود كان قد خرج في جيش كثيف للقـاء عدوه ، فاتفق أن كان ابن الدبـاغ قد تخلف عن اللحـاق به ، ولم يكن في من لقـي المقتدر بن هود من لفيف الكتـاب وأعيـان الوزراء والأصحاب ، فاشتـدّ غضبـه على المتخلفين ، ونذر ان قَفَـلَ أن يصنع بهم ويفعل ... وقدر الله أن غنـم وفتح على يديـه وعـاد ... واتفـق أن جلـس بعد أيام من عودته في مجلس الذهب بقصره ، وعليـه سيما الغضب والرهبـة ، وسأل عن ابن الدبـاغ ، فكان لشقاوة حظـه غائبا عن المجلس ، فقيل له ليس بحاضر ، فاندفع من فوره وأقسـم بالأيمان المغلظة أن يعزلـه عن خدمتـه وأن لا يبقيه في بلده . ولقـد استحوذ على الحاضريـن البَهْتُ وملكهم السكوت ، وحاول أحد الـوزراء أن يخفف من وطأة الأمر فذكّـر المقتدر بن هـود بحلمه وسعـة صـدره ، الا أنه ضجـر أشنـع من الأولـى ، وشد اليمين بأخرى (٤).

ومن أسباب هذه الجفوة أيضا أنه كان قد بلغ المقتدر بـن هـود أقوال عن ابن الدبـاغ ، منها تتبـع حركاته وأخبـاره ، وتحريـف ما كان يشاهده في مجلسـه من آثـاره وأخلاقـه (٥) .

---

(١) انظر ترجمته وأخباره ورسائله في : القلائد : ص ١٠٦ - ١٠٩ ، الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥١ - ٣١٧ ، الخريدة : ج٣ ،ص ٣٨٧ - ٣٩٣ ، المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٠ ، المسالك : ج٨ ، ص ٢٢١ ،النفح : ج١ ،ص ٥٣٤.

(٢) لم تذكر المصادر تاريخ ولادته ،ولم توضح نشأته ومراحل حياتـه الاولى ، وجوانب ثقافته (انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥١،الخريدة ج٣ ،ص ٣٨٧ ،المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٠) .

(٣) انظر : القلائد : ص ١٠٦ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥١ .

(٤) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٧١-٢٧٢. (٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٦٩ .

وقد خشي ابن الدبّاغ عاقبة الأمر ، واستطاع الهرب ، وظل مختفيا عدة أيام في شَنْتَمَرِيَّة [(١)] ، الى أن تيقن أن المقتدر بن هود لن يصفح عنه ، فولى وجهه شطر المعتمد بن عباد فأكرمه وأجزل قراه ، وقربه اليه ، واتخذه كاتبا له ، واستعان به في المسائل السياسية ، فقد اتخذه سفيرا بينه وبين المتوكل بن الأفطس عندما كان مقيما بيابُرة ، حين حاول أخوه المنصور بن الأفطس سلب الحكم منه في صدر سنة ٤٦١ هـ [(٢)] .

ولم يفلح ابن الدباغ في مكانه الجديد باشبيلية ، فقد تشاد مع ابن عمّار ، فرغب المعتمد بن عباد في حسم ذلك بين يديه ، فأبى ابن الدباغ عليه، ثم اجتمعا بعد ذلك في مجلس أنس ولهو دون رأيه ، مما أوغر عليه صدر المعتمد ، فأمر بنفيه ، وقد صادف ذلك أن بلغ ابن الدباغ أنه قدح فيه بمجلس المعتمد ، وقرف بشيء أقلقه ، ذلك أنه كان يعاني الخضاب ، ويثابر عليه ، فقال بعضهم فيه [(٣)] :

خضابٌ لَعَمْرُك لا للنساء ولكنَّه لفحول الرجال

فخاطبه بشعر قال فيه :

يُهَانُ بحمص عزيزُ الرجال ويعزى اليهم قبيح الفَعال
ويغرى ذوو النقص من أهلها بتلطيخ أعراض أهل الكمال

ويقال أن المعتمد غضب بسبب هذا الشعر ، فوقع على ظهر رقعته بهذين البيتين [(٤)] :

شعُرتَ فجئتَ بعين المُحَال وما زلتَ ذا خطل في المقال
متى عزَّ في حمصَ غيرُ العزيز أو ذَلَّ غيرُ الذميم الفَعال

فلما بلغ سمعه هذان البيتان أخذه الخوف ، ولم يأمن البقاء في اشبيلية ، فرحل الى المتوكل بن الأفطس ببطليوس ، حيث رحب بقدومه ترحيبا حارا ، وأكرمه وأعجب به وقربه اليه [(٥)] . ولم تحدد المصادر تاريخ قدوم

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٧٢ . (٢) انظر القلائد: ص ١٠٦ ، الذخيرة : ق٢م٢ ، ص ٦٥٠ ، ق٣م١ ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥٣ ، ديوان المعتمد بن عباد : ص ١٣٤ .

(٥) انظر القلائد : ص ١٠٦ ، الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥٣ .

ابن الدباغ الى بطليوس ، الا أن الباحث يرجح أن يكون ذلك في أواخر سنة ٤٦٤ هـ ، إذ يذكر ابن بسام الى أنه قدم الى بطليوس بعد أن استوثق الامر للمتوكل ، وكان ذلك بعد وفاة أخيه المنصور سنة ٤٦٤ هـ[(١)].

ولم يوفق أبو المطرف في موطنه الجديد ، اذ لم يسلم من الحسد والمنافسة ، فقد تضايق أبو عبدالله بن أيمن وزير المتوكل وكاتبه من قدوم أبي المطرف ابن الدباغ ، وخاف أن يصبح وزير المتوكل وكاتبه المقدم ، فاشتعلت بينهما نار البغضاء ، ولما تصاعدت رحل ابن الدباغ عن بطليوس[(٢)] ، وخرج منها الى بلده سرقسطة ليكون مع ولده وأهله ، فبات ليلة في بعض حدائقها ، فطرقه عدو له وطعنه بمدية أردته قتيلا[(٣)] . وقد أغفلت المصادر ذكر تاريخ وفاته .ورثاه رثاه آنذاك ابن عبدون بأبيات تشف عن ود ، وتدل على كرم صحبة[(٤)] .

لقد اتصف ابن الدباغ بالفضل والنبل كما يذكر ابن بسام[(٥)] ، كما اتسم برفعة النفس ، وعلو الهمة ، والبعد عن ذل الطمع والرغبة في مساعدة ذوي الحاجات واقالة عثراتهم .

وتشير الرسائل التي كان يتبادلها ابن الدباغ مع اخوانه وأقرانه من الوزراء والكتاب الى أنه كان مخلصا وفيا لاصدقائه مقدرا لجمائلهم وفضائلهم عليه[(٦)] .

ولقد عصفت الحياة الاجتماعية المضطربة بابن الدباغ ، حتى " كأن الرزايا لم تخلق لأحد سواه "[(٧)] ، فلم يفلح في كل مكان حل لكثرة الوشاة والحساد ، مما دفعه الى الضرب في الآفاق والتجوال في البلاد طلبا للراحة والاستقرار النفسي ، ولهذا فقد عاش في خوف مستمر وقلق دائم ، وكثرت شكواه من الزمان ونوائبه .

---

(١) انظر الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٦٥٠ ،ق٣م١ ،ص٢٥٢ .
(٢) انظر : الذخيرة : ق٢م٢ ،ص ٦٥٣ ،المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٠.
(٣) انظر : القلائد : ص ١٠٦ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٣ ،الخريدة : ج٣ ، ص ٣٨٧ .
(٤) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٣ .
(٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص٢٥٣ .
(٦) انظر : القلائد : ص ١٠٧ ، ١٠٨ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٨١ ، ٢٩٣ ، الخريدة : ج٣ ،ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .
(٧) المغرب : ج٢ ،ص ٤٤٠ .

وعلى الرغم مما تقدم فقد كان ابن الدباغ مؤمنا بالله متوكلا عليه ، مسلما له الأمر ، ويظهر للباحث من خلال رسائله أنه مال في أواخر حياته الى الزهد والتنسك [١] .

وقد جاءت رسائل ابن الدباغ ممثلة لحياته الخاصة من جهة ، وللحياة الاجتماعية المضطربة في المجتمع الاندلسي في القرن الخامس الهجري من جهة ثانية .

رسائله :

ضمَّ كتاب الذخيرة لابن بسام قدرا كبيرا من رسائل ابن الدباغ في ذم الزمان وأهله وتعذر آماله فيه ، وعددا من رسائله الاخوانية والوصفية . أما المصادر الاخرى التي ترجمت له ، فقد اقتصرت في الاغلب على بضعة رسائل لا تخرج عما ذكرته الذخيرة ، ان لم تكن منقولة عنها . ومما يؤسف له أنه لم ينته الينا من رسائله الديوانية شيء على الرغم من أنه كتب عن ثلاثة من أمراء الطوائف .

أما الموضوعات التي تناولها ابن الدباغ في نصوص رسائله التي انتهت الينا فكانت الشكوى من الزمان ، ووصف النكبات والمحن والمصائب ، والنقد الاجتماعي والوعظ والدعوة الى الزهد ، والقصص والحكايات ، ووصف الطبيعة ، الى جانب عدد من موضوعات الرسائل الاخوانية كالمديح والثناء والشكر والوصايا والشفاعات .

لقد أكثر ابن الدباغ من شكوى الزمان وذمه وتعداد مظالمه ، وحق له ذلك ، اذ ان عنده من الدهر ما يهد أَيْسَرُهُ الرواسي، ويفتت الحجر القاسي" [٢] . وهو يقطع حياته " في شدائد لا تنثني، وسكرات غم لا تنجلي ، ونكد أخلاق لا يشوبه ابتهاج ، وضيق أحوال لا يتخلّلها انفراج" [٣] .

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٨٣ .

(٢) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص ٢٦٥ .

ولقد أبدع ابن الدباغ في وصف ما للبين والأسى بقلبه من جرح وآثار ، وللشوق بين جوانحه من وقود وأوار ، ولا غرو في ذلك، فالشكوى كما يقول في احدى رسائله : " مَذْهَبٌ يَجُولُ فيه القول كلَّ مجال، وينثال عليه الكلام ، أيَّ انثيال ، وتتأتّى به الألفاظُ لازدواجها، وتتراءى المعاني في معرض إنتاجها "(١).

حتى انه صار من العجب أن ينوي ابن الدباغ في رسائله " أن تكون الشكوى خالية ، وبزينة التجمل حالية ، ولسانُ الحالِ تَأْبى إلاَّ أن تبوحَ بمضمر السِّرِّ ، وتكشفَ عن حقيقة الأمر "(٢) .

ويرى ابن الدباغ أن الزمان قد وقف له موقف الغريم ، وخصه بمصائبه ونوائبه من دون العالمين : " ولستُ أشكو إلاَّ زماني وقعودَهُ بجدّي ، وقبيح آثاره عندي ، فإنَّه وان كان على الكل عاديا ، وللجميع بكأس مكروههِ ساقياً ، فيخصُّني بمزيَّةِ حرمانٍ ، ويتوخاني بفضلةِ عُدْوان ، ويجعلني نَصْبَ سعيه وغرضَ مراميه ، ومكان أذيتِهِ وَبَغْيِه ... "(٣).

ولقد حال الزمان دون تحقيق مرامي ابن الدباغ النبيلة وبلوغ آماله الجليلة ، وأراه من أحداثه عجائب ، ومن خطوبه مصائب تسجم الدموع وتحطم الضلوع ، يقول : " كتابي عما عهدْتَهُ من قُعودِ الأيام بجانبي ، واعتراضها عليَّ في وجوه قصدي ، ومقابلتِها بالخيبةِ والحرمانِ سعيي وَجُهْدي ، بل ما تنفكُّ تتلاعبُ بي تلاعبَ العابثِ ، وتستطيلُ عليَّ استطالةَ العائث ... "(٤) .

ويستغرب ابن الدباغ في رسائله تصاعد العداوة والشحناء بينه وبين الزمان ، حيث يقول : " حتَّى كأني أبديتُ له معايبَ ، وأدرتُ عليه دوايرَ ، ودللتُ العالمَ على جَوْرِهِ في الحكم ، وتطبعه في الظلم "(٥) .

وعلى الرغم مما تقدم فان ابن الدباغ يرى أن سنة الله قضت بأن يكون ديدن الحياة حرمان الانسان الذكي وحظوة ذي الجهل الفاسد ، يقول : " فسبحان الله ! جعل الدنيا دارَ كَرْبٍ ومحنةٍ لكلِّ ذي لبٍّ وفطنةٍ ، ومقامَ تنعمٍ وَتَرَفٍ ، لكل ذي خِسَّةٍ ونطَفٍ(٦) ، وسبحان من ابتلى فيها ذوي الفضل والنهى بكلِّ قَعِطٍ (٧) بنفسه (٨) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٢٥٥.

(٣) الذخيرة :ق٣م١،ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٤) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص . .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٢٥٩.

القعط: الذليل (اللسان : مادة قعط).

(٦) النطَف : العيب أو الفساد (اللسان : مادة نطف).

(٧) القعط : الذليل (اللسان : مادة قعط).

(٨) الذخيرة : ق٣م١، ص ٢٦٥.

ولقد اتخذ ابن الدباغ من شكوى الزمان ونوبه مجالا لتصوير انحراف أهله وقلة وفائهم وخيانتهم وجحودهم للفضل وتقلبهم ، فلقد قلب الزمان محاسنه مساوىء وأصار أولياءه أعداء ، وقابل حبه ببغض، ولاقى ثقته بخيانة ، وواجه احسانه باساءة ، حتى غدوا كأنهما فرسا رهان " يُجد نوائباً وأُجيدُ صَبْراً ، ومن أجلها قلب محاسني مساويَ ، وأوليائي أعاديَ ، وقصدي بالبغضة من جهة المِقة ، واعتمادي بالخيانة من حيثُ الثقة ، فقِسْ بهذا على ما سواه ، وعارضْ به ما عداه ... وأجني الإساءةَ من غَرْسِ إحساني ..."(١) .

ويوجّهُ ابن الدباغ نقداً لاذعاً لأهل الزمان وبنيه ، اذ انه أدرك أن ما يحدث في الزمان من الاختلال واضطراب الأحوال ليس لعيب في الزمان أو لقصور منه ، ولكن ناتج عن انحراف أهله وجهلهم واختلال موازينهم وانتشار الباطل بينهم ، حيث يقول : " فاعجب يا سيدي لأممٍ ضحكت من جهلها الأممُ ، وغلطت في ما لا تغلط فيه النَّعم ، الى أن نفقت عندها المحالاتُ والأهذارُ(٢) ، وبطلت بسببها القيم والأقدار(٣) ، ولهذا فانه يقول بأنه " يحق أن يستغرب وفاء الصديق في زمان الغدر والمذوق(٤)"(٥) .

ولقد تباينت مواقف ابن الدباغ من مصائب الزمان ونوائبه ، فتارة يلاقيها غير مكترث ولا عابىء بها ، ويفعل لها فعل من يلبس للاحوال لبوسها ، ولا يحفل بنعم الأيام وبؤسها ، حيث يقول : " أنا في هذا الوقت بحُكْمِ الزّمان ، نِعْمَ مستودعُ الهوان ، أضحكُ لمن شتم ، وأَعْتَذِرُ إلى مَنْ ظَلَمَ ، وأُغضي لمن هَمَزَ ولَمَزَ ، وأتعامى على من أشار ، وأتلقى المكروه والأذى ، بطلاقة التقبل والرضى "(٦) .

ولا غرو في ذلك فمثل ابن الدباغ " ان ابتلي صبر ، وان أوذي شكر، أو أسخطته الأقدار تجمّل ، أو حُمّل ما لا يَسْتَطَاعُ تَحمّل .."(٧).

ويذكر ابن الدباغ في رسائله أن مما يشد من عزيمته ويقوي من صلابته قوة ايمانه بالله ، وتفويضه أمره في كل حالة اليه، فهو لا يحدث أمرا الا لحكمة بالغة ، يقول : " والحمد لله الذي يَبْتَلي

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٧ . (٢) الاهذار : جمع هذر وهو الكلام الذي لا يعبأ به ، ويقال هذر كلامه هذرا أي كثر في الخطأ والباطل (اللسان: مادة هذر) . (٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٩٦ . (٤) المذوق: الكذب والنفاق (اللسان مادة مذق) . (٥) الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٩٠ .
(٦) الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٦٣ . (٧) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص٢٦٣ .

ليرى كيف الصبرُ ، ثم يُنْعِمُ ليرى كيف الشكر ، حَمْدٌ متوكِّلٍ عليه ، مفوضٍ أمره في كلِّ حالةٍ اليه "(١) .

وعندما يشتدُّ بابن الدباغ البأس ويسيطر عليه القنوط يتمنى الموت وانقضاء العمر فلعله آنذاك ينعم بالراحة وهدوء البال ، حيث يقول : " فما أصنع وقد أبى القضاءُ إلاَّ أنْ أقضي عمري في بوس ولا أنفكُّ من نحوس ، ويا ليت باقيه قد انصرم ، وغاشب الحمام قد قدم ، فعسى أن تكونَ بعد الممات راحةٌ من هذا النَّصَب ، وسلوةٌ عن هذه الخطوب والكُرَب .."(٢) .

وتارة أخرى يلجأ ابن الدباغ الى اعتزال الناس فرارا من آذاهم وشرورهم بعدما خبره فيهم من غدر وخيانة وكذب ونفاق، ويستعيض عنهم بالكتب يقطع بها وقته ، ويبدد وحشته ويؤنس وحدته ، يقول في رسالة كتبها جوابا على رسالة لأحد اخوانه يطلب فيها لقاءه : " وَصَلَتْ رقعتُك - أعزَّك الله - تستدعي المؤانسةَ... غير أنَّ رغبتك صادفتني ولي من الكتب جُلساء تُؤنِسُ في الوحدة ، وتسلِّي من الكربة ... تُحْمَدُ عقباها ، ولا تُتَوقعُ آذاها ، وقد رضيت اليوم بها قَسْمَا "(٣) .

وتارة رابعة يلجأ ابن الدباغ الى الضرب في الآفاق والتجوال في البلدان طلبا للراحة والاستقرار ، حيث يقول : " وقد علمتَ ما دَخَلَ الشَّرقَ من الاختلالِ واضطرابِ الأحوالِ ، وأن الحزم داعٍ إلى التَّحول عنه والانتقال ..."(٤) .

ولقد ضمن أبو المطرف رسائله في الشكوى من الزمان وذم بنيه الدعوة الى الزهد والتنسك ، وقدم فيها الموعظة والحكمة لمخاطبيه ، ولعل مرد ذلك طبيعة حياته وكثرة المحن والمصائب التي حلت به ، ومعاناته من الناس في زمن الغدر الذي اتسم بقلة الوفاء وتنكر

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص٢٥٨.

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢٩٣ .

الاخوان ، وكثرة المفسدين والوشاة الحاسدين ، وقد دفعه ذلك الى الميل الى الزهد والتنسك في أواخر حياته ، والى حض الناس على الابتعاد عن ملذات الحياة ومباهجها الزائفة ، ومن ذلك قوله في رسالة خاطب بها صديقه ابن حَسْدَاي : " ولا تتعبَّدْ للدنيا بخدمتها في كل الاحوال ، فما أشبه إدبارَها بالإقبال ، وكُثْرَتَها بالإقلال .."(١) .

وما كان ابن الدباغ ليعظ الناس قبل أن ينخلع من ترف الحياة وملذاتها ، ويبرأ من الضلالة ، ويظهر ذلك في رسالة خاطب بها بعض اخوانه ، وقد وصف لهم حاله بعدما خبر لطائف الزهد ، ووجوه النسك ومحاسنه ، حيث طاب غذاؤه وآفاق من جنون العقار ، واستراح من سُقْم الخمرة ، وخلص مما تجلبه من الهواجس والأوهام ، فبلغ به السرور مبلغا ، وأصبح بنعمة من الله متجددة ، يقول : " وأنا - أبقاكم الله - فيها بحال من طال غذاؤه ، وحسن استمراؤه ، وصحا من جنون العُقَار ، واستراح من مَضَض الخمار ، وزايلتْهُ وساوسِهُ من الخباط هواجسُهُ ، لا أَبيتُ بليلةِ الشئس(٢) ، ولا أقوم كالذي يتخبطه الشيطان من المسِّ ، بل أنامُ ملءَ جفوني نومَ مسرور ، وأنتبه اذا انتبهتُ غيرَ مذعور ، فلتبعد بعدها الخمرُ ، ما بقي الدّهْرُ ، فقد طلَّقْتُها ثلاثاً ، وتركْتُ الأسبابَ بيني وبينها رثاثاً ، ولله الحمدُ على أن خَلَّص من حبائلها ، نجي من غوائِلِها..."(٣) .

ولهذا فهو يدعو إخوانه إلى التقوى والإقلاع عن الذنوب وترك البطالة والتمادي في الضلالة والفسوق ، وإلاَّ فإنَّه يبرأ منهم ، يقول : " وأنتم سادتي أخلاء النبيذ ، برئت منكم كما برئ المسيح من اليهود ... فلست أُزاحمكم عليها بمنكب ، ولا أوافقكم فيها على مذهب ... شاركتكم يا سادتي - أعزَّكم الله - نعمةَ الله المتجددةَ قبلي ، وأعلمتُكم بمبلغ سروري وَجَذَلي ، فان كُنْتُمْ قد خصَّكم منه - جلَّ وعزَّ - بمثلها عرفتموني بها لنتساوى في الشكر ، وان كنْتم على الحال التي تركتكم عليها من البطالة ، والتمادي في الضَّلالة ، فأعفوني من جوابِ بفعتها ، فلست أتطلب الى معرفتها "(٤) .

---

(١) القلائد : ص ١٠٨ .

(٢) الشئس : القلق (اللسان : مادة شأس) .

(٣) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

لقد رسم ابن الدباغ لاخوانه قواعد السلوك الاجتماعي المستقيم الذي أصبح يسير عليه ، ودعاهم الى التزام سبل الهداية والرشاد دعوة خالصة ، وحضهم على الابتعاد عن متع الحياة وملذاتها .

وقد اتصل بموضوع الشكوى من الزمان وذمّ أهله عند ابن الدباغ مدح الأقران من الوزراء والكتّاب والثناء عليهم وتوجيه الشكر اليهم لصلتهم به ، واعتماده عليهم ، وموازرتهم له في محنه ، وسعيهم لخلاصه من نكباته .

وقد ركّز ابن الدباغ في مدحه وشكره على ما يتمتع به مخاطبوه من كرم واباء وحمية وشرف ومجد ونخوة وعلو همة ، وبعد نظر ، وبلاغة قول ، وحسن منطق وما اليها من الصفات الحميدة والاخلاق الفاضلة .

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها ابن حسداي ، وقد بلغه سعيه في خلاصه من نكبته ، وقد افتتح رسالته بالإشادة بفضائله ، والتغني بمحاسنه ، وبالغ في ذلك مبالغة كبيرة ، اذ جعل فضائله تظهر في كل يوم عجائب ، وتُطْلِعُ من ألطاف البرّ غرائبَ " تُنْسى لها محاسن من تقدَّم ، وتستبعد معها مآثر من تهمّم ، حتى كأنّ الجميل لم تُعْرَفْ قَبْلُ طرائقُهُ ، واللطفُ لم تُفْهَمْ بَعْدُ دقائقُهُ ، إلى أنْ أتيتَ من ذلك سُنناً وبدائع لا يزال مثلها لأولي الفضل شرائعَ ، وأنوارُها في فلك الفضلِ سواطع ..."(١) .

ولقد أكثر ابن الدباغ من شكر أولئك الوزراء والكتاب والاخوان الذين لم يقصروا في بذل المعروف اليه ، والوقوف بجانبه في محنه ، وقد عبر في ذلك عن عجزه وعدم اقتداره على ايفائهم حقهم من الثناء والطراء ، ومن ذلك قوله : " أيُّ حَمْدٍ يفي بمننٍ لك تُسْلِفُها ابتداءً ، وَتُتابِعُها ولاءً ، بلا وجوبٍ يقتضيها ، ودون سبب يَسْتَدعيها ، بعيدٌ عليَّ ذلك أن تقومَ لذلك قدرتي أو تبلغَهُ استطاعتي ..."(٢) .

ومن ذلك أيضا قوله مخاطبا أحد اخوانه : " وبودّي لو أغْرِبتُ في الشكر ، إغرابَكَ في الشعر ، واقتدرتُ على الجزاء ، اقتدارَك على الإطراء ، حتى أَصِلَ الى سبقك ، وأقضي بعضَ حقّك ، وإن كنتُ أُقصِّرُ ولا أَقدِرُ ، فأنت بفضلك تتجاوزُ وَتَعْذِرُ .."(٣).

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٥ – ٢٥٦ . (٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م١ ، ص ٢٨١ . (٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٨٢ .

وقد كشف ابن الدباغ في مدائحه عما يكابده من الشوق والحنين الى الاصدقاء والاخوان . ومن ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها الوزير أبا الفتوح[1] ، وقد افتتحها بتصوير مشاعره واحاسيسه الصادقة نحوه ، فمنذ أن سمع عن فضائله الجليلة وفعاله الحميدة ، وهو يتشوق الى اللقاء به ، ويرغب في خلته ، حيث يقول : " ما زلتُ - فسح الله لك أيُّها الوزير الأجلُّ غايةَ الأمل - منذ سمعتُ فضائلَك تُذكَرُ ، ومناقبَكَ تُنشَرُ ، وَسُوَرَ سَرْوِكَ تُتلَى ، ومحاسنَ فعالك تُجْلى ، أَحِنُّ اليك حنينَ كَلِفٍ ، وأتشوَّقُ نحوك تشوُّقَ شَغِفٍ ، وأستمنح الأيامَ خلَّتك ..."[2] .

ثم هو يشير الى صلته وسعيه لخلاصه من نكبته ، وكيف أنه تمنى أن يفيد منه ، ويعود مرة أخرى الى مدح أبي الفتوح وشكره والثناء عليه ، وهو لا يستغرب من أبي الفتوح هذا السعي والود لأنه " فعل من حوبي بالسعادة ، وأنشيءَ على السِّيادة ، حتى مرع من المجد ذُراهُ ، واستولى من كلِّ فضلٍ على مداه ..."[3] .

ويختتم رسالته باستعطاف أبي الفتوح ، وهو يتمنى عليه أن يتم سعيه الى عقد الصلة بينه وبين المنصور بن الأفطس ، حيث يقول : " وأنا أرغبُ في أن تتناولَ ما بدأتَ من ذلك فتتمَّه ، ولا تحلَّ من عقد الوصلةِ يَدَكَ أو تُحْكِمَهُ ..."[4] .

ولقد عاتب أبو المطرف بن الدباغ بعض اخوانه الذين ابتعدوا عنه ، وتنكروا له ، لما حل به ، فلم يفكروا في صلته ولا بمكاتبته ، وتراجعوا عن مخاطبته ، ولم يوفوا بحقِّ الصداقة .

وتتباين صور عتاب ابن الدباغ لاخوانه بين اللين والرقة[5] والقسوة والشدة[6] ، وذلك بحسب نفسيته وظروفه الخاصة .

---

(١) ترجم له الباحث فيما تقدم .

(٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٧٧ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٨ .

(٥) يجد الباحث أمثلة على ذلك في : القلائد : ص ١٠٧- ١٠٨ ، الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٦ .

(٦) يجد الباحث امثلة على ذلك في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، الخريدة : ج٣ ،ص ٣٩٢ .

وكان ابن الدباغ يفتتح رسائل العتاب في الأغلب بالحديث عن العلاقة التي تربطه بمخاطبه ، وما فيها من معاني الود والصداقة والالفة ، والحنين والشوق . ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة وجهها الى صديق له يعاتبه فيها على اهماله للصداقة والصحبة التي بينهما ، وقد افتتحها بقوله : " ولئن كانت الأيامُ تُنسيكَ ، فالأماني تدنيك ، ولئن كنت محجوبا عن الناظر ، فإنّك مصوَّرٌ في الخواطر ، أناجيك بلسان الضمير ، وأعاطيك سُلافَ السرور، وأداعبك مداعبةَ الحضور ، وأجاذبُكَ فضولَ اللعب ، وأبلغ معك حَدَّ الطرب ، حتى أسكن شوقي اليك ، وأقضي وطري منك .."(١) .

ثم هو يعاتبه على إهماله للصداقة التي بينهما ، وعدم شعوره بواجبات الصحبة لانشغاله باللهو وغيره ، يقول : " وأنت في كلِّ حال لا تشعر ، وذاهل لا تذكر ، ولا تقطعُ زَمَانَك الا بحظيرةٍ حولك تضعها ، وخيمة ترفعها ، فاذا تمَّ لك هذا اللهو ، تداخلك الزهو ، وشمخَ بأنفك البأو ..."(٢) .

ويختتم رسالته بالقول بأن لقاءهما بعيد ان لم يفكر مخاطبه بالود على نحو ما يفكر ابن الدباغ ، يقول : " فمتى نلتقي على حالٍ، ويتفقُ مذهبنا في وصال ؟! هذا لعمري بعيد ، اللهمَّ ان كان من الدهر حِلْم ، واكتهال السّن نوم ، ونجومُ الشَّيب قد طلعت من الغدائر ، وعمايات الصبا قد انجلت عن البصائر ، فتذكر من الودِّ ما أذكرُ ، وتفكِّرُ في النأي كما أفكر "(٣) .

ويلمس الباحث في هذه الرسالة رقة ولينا ينمان عن صداقة أكيدة ومحبة أصيلة .

وعلى الرغم مما أصاب ابن الدباغ من مصائب ومحن فان ذلك لم يمنعه من كتابة الرسائل وتوجيهها الى الرؤساء والوزراء والقضاة في حق الشعراء والكتاب وغيرهم يدعوهم فيها الى اعانتهم

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣٠٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣٠٩ .

ومساعدتهم ومد يد العون اليهم . بل يظهر للباحث أن هذه المصائب والمحن التي ألمت بابن الدباغ قد دفعته الى استغلال مكانته وقدره، واستخدام قلمه في اعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم ، فكتب عددا من الوصايا والشفاعات (١) .

ويلاحظ الباحث أن ابن الدباغ كان يفتتح أغلب رسائله في موضوع الوصايا والشفاعات بمقدمة في مدح المخاطب وذكر فضائله ومحاسنه ، أو بذكر تقلبات الزمان وكثرة المحن والمصائب . وهو يتخذ من هذه المقدمة وسيلة لاستدرار عطف المخاطب واستثارة نوازع الخير في نفسه لمساعدة صاحب العلاقة . وينتقل بعد ذلك الى موضوع التوصية أو الشفاعة ، ويختتمها بتوجيه الحمد والشكر الى المخاطب .

ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها عناية برجل كانت قد حلت به مصيبة ذهبت بجميع ماله مما اضطره الى سؤال الناس .
وقد افتتحها ابن الدباغ بالاشارة إلى تقلّب الأيام وتغيرها على أهل الفضل وأن فهم مخاطبه ومعرفته يغنيان عن الاطالة في شرح ذلك، حيث يقول : " معرفتك بتقلّب الأيام بذوي الفضل ، وحكمها فيهم بغير السوية والعدل ، تُغْنِي عن عَرْضِ ذلك عليك ، وتقريره اليك "(٢) .

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن موضوع رسالته ، وبيان حال الرجل الذي يوصي به اذ يقول : " وفلان ممن عرفتَ حالَهُ في الثروة والمنعة، ورتبتَهُ في الجاهِ والرفعةِ ، لكن أساءَتْ اليه بعد الاحسان ، وامتحنتْهُ بأنواع من الامتحانِ ، حتى ذهبتْ بجميع وَفْرِهِ ، واضطرته الى بني دهره ..."(٣) .

ثم هو يستثير نوازع الخير في نفس مخاطبه ليساعد هذا الرجل ويمد له يد العون " قَصَدكَ مُسْتَجيراً من عثرته ، ومثلُكَ بادر الى مشاركته ، وحضّ على إسلاف البرّ إليه ، ورَغِبَ في وضع الصنائع لديه ..."(٤) .

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٠٩ - ٣١٤ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣٠٩.
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣٠٩ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣٠٩ .

ولقد شارك ابن الدباغ غيره من الكُتّاب الأندلسيين في وصف سحر الطبيعة الاندلسية في أيام الربيع ، حيث وصف مفاتنها ومواطن الروعة فيها[1] ، كما وصف بعض الظواهر الطبيعية كيوم ممطر[2] ونهار مضيء[3] .

وقد تناول الباحث كثيرا من رسائل ابن الدباغ في هذا المجال عند حديثه عن وصف الطبيعة الصامتة .

كذلك وصف ابن الدباغ مجالس الانس واللهو والطرب التي كان يعقدها وصحبه في الرياض الأندلسية الجميلة التي كان يتردد عليها ويلجأ اليها ليستريح من صخب الحياة وضجيجها بعد التطواف والتجوال الطويل في بلاد الاندلس .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة وجهها الى أحد أصحابه يستدعيه فيها لحضور مجلس أنس وطرب عقده ابن الدباغ وصحبه في احدى الرياض . وقد وصف له ما هم فيه من نعيم وسرور ، وما ضمه مجلسهم من ندامى ترتاح لهم النفوس ، وما حواه من ألحان شجية ، وأنوار بهيجة ، وخمرة صافية وغيرها ، حيث يقول : " وتمنينا أن يتبلّجَ صُبْحُكَ من خلال فروجه ، وتحلَّ شمسك في منازل بُرُوجه ، فيطلع علينا الأنس بطلوعك ، وتهديه بوقوعك ، ولن تَعْدَمَ نَوْراً يحكي شمائلَكَ طيباً وبهجةً ، وراحاً تخالها خلالك صفاءً ورقةً ، وألحاناً تثيرُ أشْجَانَ الصبِّ ، وتبعثُ أطرابَ القلب ، وندامى[4] ترتاحُ اليهم الشمولُ ، وتتعطّرُ بأرجهم القبول ... ويقصر بمجالستهم الليلُ الطويلُ " [5] .

ومن موضوعات الوصف النادرة التي تناولها ابن الدباغ الكتب ، حيث وصف فضل الكتب ، وبين فوائدها وأهميتها ، ودورها في حياة الناس ، فهي تؤنس من الوحدة ، وتسلّي من الكربة ، وتجلو

---

(١) انظر النفح : ج١ ،ص ٥٣٤ .

(٢) انظر الخريدة : ج٢ ،ص ٣٩١ .

(٣) انظر القلائد : ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) وردت في النص المنقول (ندى من) .

(٥) القلائد : ص ١٠٩ .

صدأ الخواطر ، وتفتح عيونَ البصائر ، وتحلو للمجتني ثمارُها ، وَيُمْتِعُ ناظرَ المتأمل نُوّارُها ..."(١) .

ثم يذكر أن للكتب من الفوائد الغريبة والمنافع العجيبة مما لا يجده في الناس ، فهي " تستدنيك ان نَأَيْتَ ، وتستعطفُكَ إن وَلَّيْتَ ، وَأَغْرَبُ من ذلك أنك تحمد عقباها ، ولا تتوقع أذاها "(٢) .

لقد قدم ابن الدباغ وصفا رائعا لفوائد الكتب ومنافعها ، وبث في الكتب مشاعر الاحياء وصفاتهم . ويدل هذا الوصف على مبلغ اهتمام الاندلسيين بمختلف جوانب الثقافة والعلم وخاصة الكتب .

ولابن الدباغ رسالة يصف فيها ضيق المكان الذي لجأ اليه بعد أن هرب من سرقسطة ، حيث وصفه وصفا دقيقا يبعث على الأسى والحزن ، ويكشف عما يعانيه من قلق واضطراب ، يقول : " فَرْقُ ما بينَ المكانِ الذي وردتُ عليه ، وبين القبرِ الذي مآل الإنسان إليه ، أن المقيمَ به والساكن فيه يُدْفَنُ حيّاً ، ولا يَعلمُ من نور الدنيا شيئاً "(٣) .

ثم يصف الحالة التي آل اليها ، وهو مقيم في هذا المكان ، فهو يعاني من الوحدة والوحشة ، لأنه لم يجد صديقا يجاذبه الكلام ، ويقطع بمناجاته الايام ، وليقطع وقته فقد أقبل على اللعب بالشطرنج والنرد تارة ، وعلى مطالعة كتب الاسمار والاساطير تارة اخرى ، وعلى عد الحصى رميها تارة ثالثة ، يقول : " وأنا منذ احتلاله ... أَلْعَبُ بشطرنج وَنَرْد ، وتارةً أُطالعُ أخبار بِشرٍ وهند(٤) ، وأخرى أيضاً أظلُّ ردائي فَوْقَ رأسي قاعداً أعدُّ الحصى جاهداً ، وأرمي بها صادراً وواردا ً..." (٥) .

---

(١) الذخيرة : ق ٣م١ ،ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص٢٩٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٤.

(٤) راجع هذه القصة في : شرح مقامات بديع الزمان : ص ٤٤٩.

(٥) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٧٤ .

ولقد كان لابن الدباغ رسائل تجري مجرى القصص والحكايات القصيرة وقد كشف فيها عن طبيعة العلاقات والأوضاع التي كان يعيشها ويحياها الوزراء والكتاب في ظل الأمراء في الأندلس في هذا القرن . وكشف في بعضها الآخر عن جانب من جوانب الحياة التي كان يعيشها أبناء المجتمع الاندلسي ، وخاصة أبناء الطبقة المترفة .

ومن الامثلة على ذلك،هذه الرسالة التي يتحدث فيها ابن الدباغ عن نفسه ويورد خبر نكبته، ويشرح حاله مع المقتدر بن هود .

وقد افتتحها بمقدمة وصف فيها ما يعانيه من أسى ولوعة ، وما يلاقيه من اضطراب وقلق نتيجة ما حلّ به ، حيثُ يقولُ مخاطباً صديقاً له : " فانه يخاطبُكَ فيه مَنْ كانَ ميتاً ، ولم يكد يُبْعَثُ حَيّاً ، وَمَنْ هَلَكَ هُلْكَ عادٍ ، وليس على ثقةٍ من مَعادٍ"(١) .

ولهذا فهو يدعو صديقه الى أن يقنعَ بما يتفقُ من وصف ، ويعذرُ الخاطر ان لم يسمح له بحرف (٢) .

ثم سرد له خبر خروج المقتدر بن هود بجيوش كثيفة الى غاية له ، وما كان من سخطه على الكتاب والوزراء والاصحاب الذين قعدوا عن الخروج معه ، وتخلفوا عن توديعه . فقد توعّدهم بشرّ العواقب إن رجع ...

ثم نقل اليه ما جرى في مجلس المقتدر بن هود بعد عودته منتصرا ، حيث يقول : " جلس بعد أيام من صَدَرِه في مجلسِ الذهب ، وعليه سيما الغضبِ والرَّهَبِ ، والناسُ يستعيذون بالله من بؤسه ، لما رأوا من فَرْطِ عبوسه ، ثم قال : أين فلان ؟ فكنتُ للشقاوة غائباً عن المكان فقيل ليس بحاضر ، فاندفع من فوره وأقسم بالغَمُوسِ(٣) أن أعْزِلَ عن خدمته ، ولا أبقى في بلدته ، فاستحوذ على الكل البَهْتُ ، وملكَ جميعهم السَّكْتُ ، وَحَضَرَتْ أحدَ الوزراءِ بديهةٌ تراجَعَ بها شيءٌ من ذهنه ، فتجاسر بعضَ التّجاسرِ عليه، وذكّره بالكظم ، واسترجعه الى سجيّته من الحلم ، ففجر أشنع من الأُولى ، وشد اليمين بأخرى ، فانقطعت أسبابُ الرجاء ..." (٤) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٧١ . (٢) انظر المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص٢٧١ .
(٣) اليمين الغموس : التي تغمس صاحبها في الاثم ثم في النار ، وقيل : هي التي لا استثناء فيها (اللسان : مادة غمس) . (٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٧٢ .

ثم يصف وقع الأمر في نفسه ، ويصوّرُ حاله تصويراً يبعث على الأسى والحزن ، فعندما سيق الخبر اليه ، وقع مغشيا عليه حتى رأى الموت بأم عينه ، يقول : " وسبق إليّ ذلك النبأُ الفظيع ، ثم تلاه الأمرُ الشنيع ... وأذكرُ لك ما بقي في ذكري وثبتَ في ذهني ، وَسَقَطْتُ مغشياً عليَّ ، وعانيتُ الموتَ جاداً إليَّ ، وشاهدتُ نفسي وهي تخرج ، ورأيتُ روحي وهي تَعْرُجُ ، وبقيتُ لا أُقْلَقُ ولا أُزْعَجُ ، كالمستضعف أحاطتْ به غلبةٌ ..."(١) .

ثم يصف خروجه الى شنتمرية ، ويصور حاله فيها كحال أهل قبور النقمة ، فهو يعاني من العذاب ، ويتقلب في الظلمة ، وتعرض عليه أعماله ، حيث يقول : " ثم خرجت مع هذا كله على رغمي الى شَنْتَمريَّةَ ، وهي القبرُ إلاّ أنّها من قبور النَّقْمَةِ لا من قبور الرَّحمة ، وأنا الآن فيه أتعذَّبُ بغمته ، وأتقلَّبُ في ظلمته ، وَتُعْرَضُ عليَّ أعمالي ، ولا أدري إلى حيثُ يكونُ مآلي ..."(٢) .

ويختتم رسالته بدعوة صديقه الى أن يرق له ، وأن يبكي عليه ، بدمع هام ، وأن يلبس عليه الحداد ، يقول : " هذا يا سيدي بعضُ ما تحصَّلَ في هذه الأحوال ، بما جرى علي من الشدائد والأهوال ، فرقَّ الآن لاخيك رِقَّةَ راحم ، وابكِ عليه بدمع هامٍ وساجم ، وتقطَّعْ إشْفَاقاً ، واستشعر انطباقاً ، والبسْ عليه أغبرَ إن لم تلبسْ حداداً ..."(٣) .

لقد قص ابن الدباغ على صديقه رحلة الشقاء التي بدأها من سرقسطة ولم تنته الا بوفاته . ومهما يكن فانه لا يخفى على الباحث في اسلوب هذه الرسالة ظاهرة الحوار التي نجدها في مجلس المقتدر بن هود ، وظاهرة سرد الاخبار والأحداث وهما عنصران مهمان من عناصر القصة .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٣ .

ومن الأمثلة على رسائل ابن الدباغ التي تجري مجرى القصص والحكايات ايضا ، رسالة له تتعلق بوصف يوم من أيام الاثرياء من أبناء الطبقة المترفة في المجتمع الاندلسي ، وما يتعلق به من مظاهر الترف والبذخ واللهو والمجون .

وقد افتتح رسالته بمقدمة ذكر فيها مناسبة كتابته للرسالة ، فهو يعاتب فيها صديقه لانشغاله عن صلة الاصدقاء بالدنيا ومسراتها ، حيث يقول : " لشدَّ ما ألهتكَ الدنيا أبا علي باقبالها ، وشغلتْك بأحوالها ، فما تفكِّرُ في صِلةٍ ، ولا تبتدئُ بمكاتبةٍ أو تراجعُ عن مخاطبةٍ ..."(١) .

ثم انتقل لوصف مجريات يوم من أيام صديقه في اطار قصصي ، حيث يقول : " وزمانُكَ كلُّه مُقَسَّمٌ في أشغالٍ ، ومرتبٌ على أحوالٍ ، تَنَامُ بالضحى مثقلا من السكر ، وتتململ على فراشك الى الظهر ، حتى يتكرر رسول فلان ، فيوقظك من المنام ... ثم تَرْكَبُ وتجدُ المائدةَ موضوعةً ، والأيدي لابطائك مرفوعةً ، فتدنو من الطعام بكسل ، وأنت شاك من بقايا خُمار أو ثمل ، وتخدشُ من الخبز بظفرك ، وتأكلُ شيئاً لطيفاً على قدرك ، ثم تستلقي وتتمدَّدُ ... وتستحضر جَنَّانَكَ فتسألُه عن الجنّةِ من سَقاها ، والروضةِ إن كان رواها ... وبينا أنت في ذلك يستأذنُ عليك وكيلُكَ في ضياع الانزال ، فتأذن له في الدخول ، ثم تستفهمه متى أقبلَ ، وأيّ شيءٍ عمل ، وكم جَمَعَ ، وما زَرَعَ ، وتتعلّلُ بهذه العلل والأخبار ، حتى تنقضي بقيةُ النهار ، ثم تنشطُ لتستدفعَ شربَ الماء ، في ودِّ أحدِ الرؤساء ، وتقيمَ مِنْ بعدُ دَسْتَ الأنس ، حتى تعودَ في مثل ذلك الأمس .."(٢) .

لقد قص ابن الدباغ في هذه الرسالة أحداث ومجريات يوم من أيام الاثرياء في الاندلس ، وعرض لكثير من العادات الاجتماعية كالنوم والاكل والعناية بالمتنزهات والجنائن ، واستخدام الوكلاء في إدارة المزارع ، ومجالس اللهو والشراب وما اليها .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(١) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٣٠٨ .

ولا تخلو هذه الرسالة من روح فكاهية تظهر بوضوح في تلك الصور التي رسمها ابن الدباغ لأحوال صديقه وحركاته في فترات مختلفة من اليوم . ومن ذلك قوله مصورا طريقة تناوله الخبز : " فتدنو من الطعام بكسل ... وتخدش من الخبز بظفرك " ، وقوله مصوراً حالة صديقه بعد الأكل : " ثم تستلقي وتتمدّد ، وتتثاءب وتتوسّد .."(١) .

فلقد رسم ابن الدباغ صورا طريفة ضاحكة ، قصد من ورائها السخرية بصديقه والتهكم عليه ، وتوجيه النقد اليه ، اذ ان انشغال صديقة بالحياة وملذاتها حال دون صلة الاصدقاء وتأدية حقوقهم ، كما يقول في خاتمة رسالته : " فمتى تتفرغ مع هذا للصديق ، وكيف تتمكن من قضاء حقوق ؟! "(٢) .

وعلى الرغم من أن قول ابن الدباغ هذا يمثل موقفا خاصا ازاء صديقه ، الا أنه يمثل ايضا مظهرا من مظاهر النقد الاجتماعي الموجه الى أبناء الطبقة المترفة في المجتمع الاندلسي .

الخصائص الفنية لرسائله :

لقد أثنى الذين ترجموا لابن الدباغ على براعته الفنية ، وقدرته على الصياغة ، فقد وصفه الفتح بن خاقان بأنه أحد " المشتهرين بالبلاغة ، المقتصرين على حسن التناول في كل اراغة "(٣) .

وذكر ابن بسام أنه " جرى السحر الحلال بين قلمه ولسانه "(٤) ، أما العماد الاصفهاني فقد وصفه "بالاشتهار بالبلاغة ، والاقتصار على حسن البلاغ في كل إراغة "(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٣٠٨ .
(٣) القلائد : ص ١٠٦ .
(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥١ .
(٥) الخريدة : ج٣ ، ص ٣٨٧ .

ومهما يكن من أمرءفان الباحث يستطيع القول من خلال رسائل ابن الدباغ التي انتهت الينا بأنه قد جارى أترابه كتّاب الأندلس في الاخذ بالمثل الاعلى السائد ، والسير على مقاييس العصر الفنية ، من حيث البناء الفني للرسالة ، واختيار الالفاظ ، والتعبير عن المعاني .

فلقد أكثر ابن الدباغ من استخدام الجمل الدعائية والمعترضة في رسائله ، ومن الامثلة على ذلك قوله : " في حالي - أعزّك الله - عجبٌ للمتعجب "(١) ، وقوله : "فتوهم - جعلني الله فداك - صورتي إن صحّ لك توهّم"(٢) ، وقوله : " ما زلتُ - فسّحَ اللهُ لك أيّها الوزيرُ الأجلّ غايةَ الأمل - فقد سمعتُ فضائلَكَ تُذْكَرُ "(٣) .

ومن الخصائص الفنية لأسلوب ابن الدباغ التنويع بين الشعر والنثر، حيث كان يفتتح رسائله أو يضمنها أو يختتمها بأبيات من أشعاره أو من أشعار غيره ، وذلك حسب ما يقتضيه حال الخطاب ، وما يلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص .

ومن الامثلة على ما افتتح به احدى رسائله من شعره ، قوله مخاطبا بعض اخوانه :

" تَرَحَّلتُ عنكم لي أمامَي نظرةٌ وعشرٌ وعشرٌ نحوكم مِنْ ورائيا
ولكنّها نظرةٌ من خلال عَبْرةٍ ، والتفاتةٌ إثْرَ زَفْرَةٍ ..."(٤) .

ومن الامثلة على رسائله التي اختتمها بقصائد من شعره رسالة خاطب بها أبا محمد بن عبد البر ، حيث اختتمها بعدد كبير من الأبيات في نفس معنى الرسالة ومضمونها(٥) .

ومن الامثلة على تضمينه رسائله أشعار غيره ، قوله في رسالة كتبها في موضوع العناية : " ولولا ثقتي بالرأي الجميل ، والمعتقد الكريم النبيل ، لوقفتُ عند قدري ، وما تعديتُ طَوْرِي، حتى يكونَ

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٦٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٧ ،ويجد الباحث امثلة اخرى في الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،الخريدة : ج٣ ،ص٣٩ . (٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٣٠٠ . (٥) انظر المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٣١٧ .

هو - أيّده الله - السابقَ إلى ما يُغني عن إنشاده [١] :

وفي النّفْس حَاجَاتٌ وفيك فَطَانَـةٌ   سكُوتي بَيَانٌ عِنْدَها وخطـاب

وَمِثْلُكَ مَنْ كانَ الوسيطَ فـؤادُهُ   فكلّمهُ عنّي ولم اتكلَّـــم

وكان ابن الدباغ في الأغلب ينسب الأبيات التي يستشهد بها الـــى أصحابها ، ومن الامثلة على ذلك قوله : " وَقَاتَلَ اللهُ الحطيئةَ فــــي قَبْرِهِ ، فلشدّ ما غرّ بقولـه [٢] :

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يعدم جوازِيَـهُ   لا يَذْهبُ العُرفُ بَيْنَ اللهِ والنَّاسِ

... أنـا والله اغتررتُ به ، وفعلتُ خيراً فعدمتُ جَوَازِيَهُ .." [٣] .

وقد نثر ابن الدباغ كثيرا من معقود الشعراء ، وضمنه رسائلـه [٤] كقولـه : فعسى أن تكون بعد الممات راحةٌ من هذا النَّصَبِ ، وسلوةٌ عـــن هذه الخطوب والنّـوب ، فدَعْ بِنَا هذا التشكي ، فالدَّهـرُ ليس بمعتبٍ مـــن يَجْزَعُ ، وما في الأيام رجاء ولا مطمع " [٥] .

وفي هذا القول لفظ محلول من معقود قول أبي ذؤيب الهذلي [٦] :

أَمِنَ المَنُون وَرَيْبِهـا تتوجَّــعُ   والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْـــزَعُ

وقوله أيضا : " لو نال مني ذو حُرْمةٍ تغرُّبَتُ ، أو أخذَ منـي من فيـــه انسانيـةٌ ما باليتُ ، ولكن المحنـة بأوغادٍ تدقّ عن المجازاةِ مقاديرُهَـا ، والبلينة بذبـابٍ يحميها من أن تنالَ مقاديرهـا " [٧] .

فقد حل هذا من قـول ابراهيم بن العباس الصولي في محمد بـــن عبدالملـك بن الزيـات [٨] :

نجا بك لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبـــابِ   حَمَتْهُ مقاذيرُهُ أن يُنَـالا

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص٣١٤ ، والبيتان من قصيدتين مختلفتين للمتنبــي: ديوانه : ج١ ،ص ٣٢٤ ،ج٤ ،ص ٧٢ .

(٢) ديوان الحطيئة : ص ٧٧ .   (٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥٨ .

(٤) انظر : الذخيرة :ق٣م١ ،ص ٢٦٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ .

(٥) القلائد : ص ١٠٧ .   (٦) ديوان الهذليين : ق١،ص ١ .

(٧) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٦٠ .   (٨) ديوان ابراهيم بن العباس الصولي :ص١٦٣ .

وقد حرص ابن الدباغ على الاقتباس من القرآن الكريم ، فكان يورد بعض الايات بصيغتها ولفظها ، ومن ذلك قوله في رسالة كتبها في موضوع الوصايا : " ولا استبطأت من طَوْل مولاي وفضله ، ولكن ليس للمرء مِنْ عمل ، في قوله عزّ وجلّ (خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل)[1]..."[2] .

وكان يورد بعض الآيات بمعناها دون لفظها ، ومن ذلك ما ورد في قوله : " وردني لك كتاب ... ففضته عن أسطر فيها سواد ، لم ينحصل منه مستفاد ، فتعوذتُ بربِّ ذلك الفلق ، من شر ذلك الغسق [3]..."[4].

واحتفل ابن الدباغ بذكر الامثال والحكم والاخبار من الجاهلية حتى عصره . ومن ذلك ما ورد في قوله : " هات يا سيدي عَتْبَك وعتابك، واشحذ للملام شَفَارَك وحرابَكَ ، تَجِدْني لاحتمالِكَ عَوْدَاً[5] بِجَنْبَيْه جُلَب[6]، وعليه من قراعِ الدهرِ نُدَب ..."[7] .

ففي هذا القول اقتباس من المثل " أَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِدَفَّيه الجُلَب "[8] .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة خاطب بها بعض اخوانه يحضهم على الزهد ، وترك ملذات الحياة ، حيث يقول : " فهنيئاً لكم تَنَفُّسَ أَنْفَاسِها ، وتعاطي أكواسها ... وموتوا سُكْرَاً ، ولا تعصوا لشاربها أمراً ، واتخذوا الحسن[9] في دينها نبياً "[10].

ومن ذلك أيضا قوله : " وأنا منذ احتلاله ... تارةً أطَالِعُ أخبار بشر وهند.."[11] .

---

(١) سورة الانبياء ، آية ٣٧ .

(٢) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣١٤ .

(٣) انظر : سورة الفلق : الايتان : ١ و ٣ .

(٤) الخريدة : ج٣ ،ص ٣٩٠ .

(٥) العود : الجمل المسن (اللسان : مادة عود) .

(٦) الجلب : آثار الدبر (اللسان : مادة جلب) . (٧) الذخيرة : ق٣م١ ،ص٢٦٤ .

(٨) جاء في فصل المقال أن هذا المثل لحلحلة بن قيس بن أُشيم الفزاري (انظر:ص ٤٩٨) .

(٩) يريد الحسن بن هانيء (أبا نواس) . (١٠) الذخيرة ق٣م١ ،ص٢٨٣ .

(١١) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٧٤ .

ولقد أخذ ابن الدباغ بالكتابة المتأنقة ، وأكثر من استعمال المحسّنات البديعية والمعنوية . ومن أبرز المحسنات البديعية التي اهتم بها السجع القائم على تنويع الفواصل ، وقصر العبارات ، ونلمح هذه السمة في قوله : " كتابي ، وأنا كما تدريه، غرضٌ للأيام ترميه، ولكنْ غيرُ شاك لآلامها[(١)] ، لأن قلبي في أغشية من سهامها ، فالنصل على مثله يقع ، والتألم بهذه الحالة قد ارتفعَ ، كذلك التقريعُ اذا تَتَابَعَ هان ، والخطب اذا أفرط في الشدّة لان .."[(٢)] .

أما الجناس فيبدو في قوله في رسالة يعاتب فيها ابن حَسْدَاي : " وكنت عهدتك لا تمنع من مداعبة من يداعبك ؛ ولا ترتفع عن مراجعة من يخاطبك ، فمن أين حَدَثَ هذا التعالي ، وما سبب هذا التغالي ..."[(٣)] . فقد جانس بين لفظي : التعالي والتغالي جناساً ناقصاً .

ومن المحسنات المعنوية التي اهتم بها ابن الدباغ، الطباق ، ومن الامثلة على ذلك، ما ورد في رسالة جاوب بها بعض اخوانه ،حيث يقول : " وان أفاتَتْني من السّرور برؤيتك غُنْماً ، ولك أنت أحفلُ الشكر ، فيما تلطفت به من البِرّ ، فاختر إخواناً يجارونني في الذمِّ والمديحِ ، ويساعدونني على الحسنِ والقبيحِ "[(٤)] . فقد طابق ابن الدباغ بين لفظي : الذم والمديح ، ولفظي الحسن والقبيح .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة بعث بها الى أحد اخوانه يخبره بانكشاف الغمة ، وقرب العفو عنه ، حيث يقول : " وهذا هو المعهود منه تعالى في أن يديلَ من الضّراءِ بالسّرّاءِ ، وينقل من الشدّةِ إلى الرّخاءِ .."[(٥)] . حيث طابق بين الالفاظ : الضّرّاء والسّرّاء، الشدّة والرّخاء .

---

(١) وردت في الذخيرة " ولكني غير شاك من آلامها " انظر : ق٣م١ ،ص ٢٥٦ .

(٢) الخريدة : ج٣ ،ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٣) القلائد : ص ١٠٧ .

(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٩١ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص ٢٩٤ .

ابـــن عبـــد البــــــــر

حياتــــــــــه :

هو أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البــــر ابن عاصم النَّمـري[١] ، من أهل قرطبــة . كان والده أبو عمر يوســـف ابن عبدالبر امام الاندلس وعالمها في عصره[٢] .

وعلى الرغم من أن أبا محمد بنعبدالبر ولد لأب يعد من كبـــــار رجال الأندلس ، فقد صمتت المصادر عن كثير من جوانب حياتــــــــه ، فلم تذكر تاريخ ولادته ومكانها ، كما لم تتحدث عن نشأتــــه ومراحل حياته الاولى .

ويظهر للباحث أن أبا محمد بن عبدالبر اشتهر أول الأمر بالكتابة في بلاط مجاهد العامري بدانية ، حيث كان والده قد هاجر اليهــــا بعد قيامفتنة قرطبة[٣] . وقد حظي أبو محمد بمكانة رفيعـــــة في بلاط مجاهد العامري ، وحل في كتابه " محل القمـــــــر مـــــن النجـــوم "[٤] .

وبقي أبو محمد بن عبد البر بدانية بعد وفاة أميرها مجاهـــــد العامري ، وتولي ابنه علي الحكم سنة ٤٣٦ هـ[٥] ، فكتب عنه عـــــددا كبيرا من الرسائـــــل .

ولمـا كانت شهرة أبي محمد قد طبقت الآفـاق ، وسارت ببلاغتــه الركبـــان ، فقد تبارى ملوك الطوائـف في استقدامه الى بلاطاتهـــــم

---

(١) انظر ترجمته وأخباره وأدبه في : الجذوة : ص ٢٦٨ ، القلائـــــد : ص ١٨٠ — ١٨٣ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٥ — ٢٢٦ ، ق٤م١ ،ص ١٧٤— ١٧٥، ١٨٠ — ١٨١ ، الصلـة : ج١ ،ص ٢٧٩ ، بغية الملتمس،ص٣٥٤،المغرب: ج٢، ص ٤٠٢ـ ٤٠٣ ، البيان المغرب : ج٣ ،ص ٣٤٤ — ٣٤٨ ، المعجب : ص ٦٧ ، المسالك : ج٨ ،ص ٢٤٦ ،العبر ج٣ ،ص ٢٥٥ ،شذرات الذهب : ج٣ ،ص ٣١٦، النفح : ج١ ،ص ٥٩٧ — ٦٠٠ .

(٢) انظر : المطمح : ص ٢٩٤ ،المغرب : ج٢ ،ص٤٠٧ .

(٣) انظر : مقدمة كتاب بهجة المجالس .

(٤) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٥ .

(٥) انظر : بغية الملتمس .ص ٤٧٥ .

وكان في مقدمتهم المعتضد بن عباد الذي كان يستحثه على القدوم الى اشبيلية [١] .

ومهما يكن من أمر، فقد ترك أبو محمد بن عبد البر دانية ، ورحل الى بلاط المعتضد باشبيلية ، فقربه منه ، وأعلى مكانته واستوزره، وجعله كاتبه ولسانه لدى أمراء الطوائف [٢] .

ولا تذكر المصادر تاريخ قدومه الى اشبيلية ، الا أنه يظهر للباحث أنه كان موجودا فيها سنة ٤٤٩هـ أو سنة ٤٥٠ هـ ، ذلك أن أقدم رسالة انتهت الينا مما كتبه على لسان المعتضد كانت رسالته الى رؤساء الأندلس في قتله لابنه اسماعيل ، حيث يذكر ابن عذارى أن هذه الحادثة كانت سنة ٤٤٩ هـ[٣] ، أما ابن بسام فيذكر أنها كانت سنة ٤٥٠ هـ[٤].

كذلك فقد كان أبو محمد بن عبد البر موجودا في اشبيلية سنة ٤٥٤ هـ ، اذ كتب رسالة على لسان المعتضد الى ابن شرف القيرواني يستحثه فيها على القدوم الى اشبيلية ، حينما وفد على الأندلس في حدود سنة ٤٥٤ هـ [٥] .

ويظهر أن أبا محمد لم يوفق في اشبيلية بسبب من الحسد والمنافسة فقد تضايق من قدومه أبو الوليد بن زيدون وزير المعتضد بن عباد، الذي جهد كل جهد في اراقة دمه ، فوشى به الى المعتضد ، وزعم أنه يطعن في الدولة [٦] . وكاد المعتضد أن يبطش بأبي محمد لولا أنه أدار الحيلة والتمس على الخلاص الوسيلة ،" فألقى عصا التسيار، وأخذ في اقتناء الضياع والديار ، حتى ظن عباد أنه قد

---

(١) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٥ ،اعتاب الكتاب : ص ٢٢١ .

(٢) انظر الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٢٥ ،دول الطوائف : ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) البيان المغرب : ج٣ ،ص ٢٣٤. (٤) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٤٣ - ١٤٨ .

(٥) انظر : الذخيرة : ق٤م١ ،ص ١٧٤ ، معجم الادباء : ج١٩ ،ص ٣٨ .

(٦) انظر : اعتاب الكتاب : ص٢٢١ .

رضي جواره ،واستوطن داره"[1] . وبقي الامر كذلك حتى سعى أبو عمر بن عبدالبر الى خلاص ابنه ، فقدم من شرق الاندلس الى اشبيلية ، وهو حينئذ يتردد بين بلنسية وشاطبة ، وعندما دخل على المعتضد نادى رافعا صوته : ابني يا معتضد ، ابني يا معتضد ، فشفعه فيه ، وأطلقه له ، وانصرفا عنه محفوفين بالاكرام والتقدير[2].

وأخذ أبو محمد بن عبدالبر بعد ذلك بين امارات الطوائف ، وكتب عن أكثر ملوكها[3] ، الى أن توفي بدانية . وقد أجمع أغلب المؤرخين على أنه توفي قبل أبيه ، فقد ذكر الحميدي أنه توفي بعد الخمسين وأربعمائة[4] ، وتبعه في ذلك الضبي[5] . وذكر ابن بشكوال أنه توفي سنة ٤٥٨ هـ[6] ، الا أن ابن بسام يذكر أن وفاته كانت سنة ٤٧٤ هـ[7] .

ويرجح الباحث ما قاله ابن بشكوال فهو أقرب الى الدقة ، ذلك أن أبا محمد ابن عبد البر كان حيا سنة ٤٥٤ هـ كما ذكرنا فيما تقدم .

وتشير المصادر الى أن أبا محمد كان من أهل الادب البارع ، والبلاغة الرائعة ، والتقدم في العلم والذكاء[8] ، وتدل رسائله على أنه كان واسع الثقافة ، مطلعا على التراث العربي الاسلامي منذ الجاهلية حتى عصره[9] ، ولا غرو في ذلك ، اذ كانت الثقافة العامة شرطا أساسيا من شروط الكتابة في عصره .

رسائله :

لقد قضى أبو محمد بن عبد البر شطراً كبيراً من حياته متنقلا بين مختلف امارات الطوائف ، فكتب عن مجاهد العامري ، وابنه علي والمعتضد ابن عباد وغيرهم . وانتهى الينا مما كتبه عنهم رسائل كثيرة غلب عليها الطابع السياسي . كما كتب في وصف المحن والنكبات التي حلت بالمسلمين ، وفي الحض على الجهاد ضد الصليبيين .

ولما كان أبو محمد بن عبد البر يكثر من اصطناع الاخوان واتخاذ الاصدقاء في الامارات التي كان يحل فيها ، فقد كتب عددا كبيرا من الرسائل الاخوانية ، جاء أغلبها في الصداقة وتهادي الود ، وتبادل

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٦. (٢) انظر : اعتاب الكتاب : ص ٢٢١ ، المغرب : ج٢ ،ص ٤٠٢ . (٣) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٢٦ .
(٤) الجذوة : ص ٢٦٨ . (٥) بغية الملتمس : ص ٣٥٤.
(٦) الصلة : ج١ ،ص ٢٧٩ . (٧) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٦ .
(٨) انظر الجذوة : ص ٢٦٨. (٩) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٨ ، ١٥٤، ١٧٤، ٢٠٢، ٢٢٠ .

العواطف والمشاعر وما يتصل بها من مدح الاخوان وتعزيتهم والشفاعة لهم والشكوى اليهم .

كما امتاز أبو محمد بأوصافه النادرة لبراعة الكتاب وبلاغة المنشئين ، وفي وصف بعض الأدوات الحضارية ، والحيوانات الاندلسية النادرة .

وقد ذكر الحميدي أن الناس جمعوا رسائل أبي محمد بن عبد البر في ديوان كبير(١) ، وقد اطلع ابن بسام على هذا الديوان ونقل منه(٢).

وقد تناول أبو محمد بن عبد البر في رسائله كثيرا من الاضطرابات والفتن والخصومات السياسية التي اشتعلت بين ملوك الطوائف ،وما كان من انتصاراتهم المزعومة على بعض اخوانهم في الدين . كما سجل أبو محمد بعض الاحداث السياسية والتاريخية التي شهدتها الامارات التي كان يتنقل بينها .

ومن أشهر رسائله في هذا الباب تلك الرسالة التي كتبها على لسان المعتضد بن عباد الى رؤساء الاندلس في وصف المؤامرة التي حاكها ضده ابنه اسماعيل ، وما كان من قتل المعتضد له ، وكان أبو محمد قد كتبها ارتجالا بين يدي المعتضد ، وبحضور عدد كبير من الوزراء والكتاب ، فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة والأدب العالي ، شهد الناس على اثرها لأبي محمد بأنه آية من آيات فاطره (٣) .

ومن هذا الضرب من الرسائل ايضا رسالة كتبها عن مجاهد العامري الى المعتضد بن عباد مهنئا اياه بأخذ شَلْب وذواتها ، ومعبرا عن مبلغ فرحه وسروره بانتصار المعتضد على البربر(٤) .

ومن ذلك أيضا رسالته التي كتبها على لسان علي بن مجاهد الى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن (٥) .

كذلك فقد تناول في رسائله ذات الاتجاه السياسي العلاقات الطيبة التي كانت تربط بين بعض أمراء الطوائف ، ومن الامثلة على ذلك رسالة كتبها الى المظفر بن الأفطس على لسان علي بن مجاهد العامري ، يتحدث فيها عن الصلات الوثيقة التي تربط كلا من مجاهد العامري والمظفر على الرغم من بعد الشقة بينهما ، حيث يقول : " وما تشتت لنا بحمد الله ، شملٌ ولا انتقطع بنا حبلٌ ، ولا غبَّ بيننا وَصْلٌ ، بل نحن على ثلج تواصلٍ ، يقضيه التشاكلُ والتآلفُ ، ونهجِ تداخلٍ يستدعيه التعاقدُ والتحالفُ ... وقد نظمتنا من الأحوال المشاكلة والأسبابُ الواشجة ما كلانا

---

(١) الجذوة : ص ٢٦٨ . (٢) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٩٧ . (٣) انظر الرسالة في : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٣٧ - ١٤٣ ، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٣٤٣-٣٤٧ .
(٤) انظر الرسالة في : القلائد : ص ١٨٢ . (٥) انظر الذخيرة : ق٣م١، ص ١٦٩ .

له مُرَاعٍ ، والى قضاءِ الحق فيه ، وحفظ الحظ منه ساعٍ ..."(١).

وفي ظل الظروف العصيبة التي عاشها المسلمون في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، كان أبو محمد أحد اولئك الكتاب الذين نهضوا بدورهم السياسي الصادق والمتمثل باثارة نفوس الأمراء ، وتوجيههم الى توحيد الصف ، وتعبئة الجهود وقطع دابر الفتنة لمواجهة الخطر الذي يهدد الوجود الاسلامي بالاندلس .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة جوابية كتبها الى أحد أمراء الاندلس ، وقد افتتحها بالاشارة الى كتاب مخاطبه الذي " يحض على ما أمر الله به من الألفة ، واتفاق الكلمة ، وإطفاءِ نار الفتنة وجمع شمل الأمةِ في هذه الجزيرةِ المنقطعةِ عن الجماعةِ "(٢) .

ثم هو يمتدح مسعى مخاطبه وجهوده بهذا الشأن ، حيث يقول : " فلله رأيُكَ الأصيلُ ، وَسَعْيُكَ الجميلُ ، ومذهبُكَ الكريمُ ، وغيبُكَ السليم !! وما أصدقَ مَيْلَكَ ، وأهْدَى دليلَكَ ، وأوْضَحَ في سبيل البِرِّ سبيلَك "(٣).

ويختتم رسالته بالإشارة الى انتهاجه نهج مخاطبه عندما رأى ما حل بالمسليمن ولاحت له عاقبة أمرهم ، يقول : " كنتُ - عَلِمَ الله - جانحاً إلى ماجنحتُ إليه ، ويلوحُ لي ما يلوحُ إليك ، من أنَّا على طرفٍ إلاَّ ما كفى الله ، وعلى قلقٍ إلاَّ ما وقى الله "(٤) .

ولقد اكثر أبو محمد بن عبد البر في رسائله الاخوانية من الحديث عن الصداقة وتهادي الود ، وتبادل العواطف والمشاعر والاشواق ، وكان أبو محمد يحلل في رسائله نشأة الصداقة والمحبة بين الناس ، ويعدد أسبابها وعواملها ، ويشير الى أن " توقَ النفس إلى استصفاءِ الفضلاءِ ، واقتناءِ مودّاتِ الأوْفياءِ ، أقوى أسبابِ الارتباطِ ، وأدْعى أبوابِ الاختلاطِ "(٥) .

ويدرك أبو محمد أن المرء لا يصحب من الاقران الا من يشاكله ، اذ " محال أن تنجذبَ نفسٌ الى من ليس لها به أنسٌ ، أو يكلفَ ضميرٌ بمن ليس له منه حظٌ موفورٌ ..."(٦) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٦٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٧٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص١٧٣ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٧٣ . (٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٩٢ .
(٦) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٩١ .

ويشير أبو محمد في مَوْضع آخر الى أن الناس قد يتراسلون فيما بينهم " وان لم تتقدم مباسطةٌ ، ولا سلفت مخاطبةٌ ، لأسبابٍ تصلُ أهواءَهم ، وأحوالٍ تَجْمَعُ آراءَهم ، فتأتلفُ قلوبُهُمْ ، وتعودُ ذاتُ بَيْنِهِم كأن لم تَزَلْ ملتئمة ، وتلوحُ قواعد مؤاخاتهم كأنْ لَمْ تبرحْ مستقرَّةً مستحكمةً ..."(١) .

ويرى أبو محمد أن الصَّداقة والمحبة الخالصة هي التي تخلو من جميع الاسباب المتعلقة بالمنافع وتبادل المصالح المادية ، حيث يقول في رسالة خاطب بها بعض اخوانه : " وقد تخلَّت مخاطبتي لك من الأسباب إلاَّ من سبب المحبة فيك ، والمعرفة بجميل مذهبك ومساعيك ، والرغبة في اقتناء خُلَّتِكَ ، وادِّخار صداقتك ، لما شُهِرَ من أحوالِكِ الجميلةِ وظهر من خِلالِكَ النبيلة ..."(٢) .

ويذكر في رسالة اخرى الاسباب التي دفعته الى خطب ود مخاطبه ، وطلب اخائه ، حيث يقول : " وقد دعاني الى الأخذ بحظٍّ من إخائكَ ، والاكتتاب في ديوان أودَّائك وأصفيائِك ، سببان : أحدهما ما أرجَ إليَّ من طيبِ أخبارِكَ ، وَجُلِيَ عليَّ من محاسنِ آثارِك ، وقُدِّرَ لديَّ مِنْ فضائلكَ التي تقتادُ إليك النفوسُ بأزِمَّة ودادها ، وتقف عليك خالص اعتقادها ... والسبب الآخر مكانك من سيدنا الملك الاعظم أدام الله رفعَتَهُ ، وثبَّتَ وطأتَهُ ومكَّنَ سلطانَهُ ودولَتَهُ - وحظُّك الرفيعُ مِنْ أثرتِهِ ، وحالُكَ المشكورةُ في خدمته ..."(٣) .

انه يرى أن الفضائل العليا والمحاسن الجميلة والهمم الرفيعة هي الاصل في جلب المحبة بين الناس .

ويتصل بموضوع الصداقة الشوق الى الاخوان والتطلع الى سماع أخبارهم ، ومدح صفاتهم والثناء عليهم . ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها أبا المطرف بن الدباغ ، وقد افتتحها بالتعبير عن مشاعره الصادقة نحوه وشوقه الى سماع أخباره ، يقول : " فأنا الى أخبارك متطلِّعٌ ، ولآثار الصديق المخلص من النفس مَوْقِعٌ ، وقد عَلِمَ علاَّم الغيوب شُغُلَ بالي بك ، واقتضائي الأيام لك .. ما تقتضيه لنفسك وذاتك ، من آمالك وارادتك ..."(٤) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٩١ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٩٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٩١ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢٠٤ .

ثم هو يعبِّر عن اعجابه بصديقه وبما يتمتع به من طيب السجايا والشيم ، وما يتحلى به من الوفاء والادب والذكاء ، يقول : " اذا اتفقَ للمرء وفيٌّ يصادقُهُ ، وسريٌّ يوافقُهُ ، وأديبٌ يجاذبه أهداب الآداب ، وأريبٌ يناهبه لبابَ الألباب ، فقد ظفر بالأخِ الأَسْنى ... وأرى أن قد ظفرتُ منك بذلك المطلوب الذي هو في حيِّز العدم "(١).

وانه يرسم صورة مثالية للصديق الوفي المخلص والاديب الذكي ، ولقد أكثر أبو محمد من مدح اصدقائه وذكر صفاتهم ومحاسنهم ، ومن ذلك قوله مخاطبا أحد أصدقائه : " ان أخذتُ في ذكرِ فضائلِكَ ، أو عَطَّرْتُ كلامي بطيبِ شمائلِكَ ، فلسانُ الأيام بها أَفْصَحُ ، ولها أَشْرَحُ ، وان عَدَلْتُ إلى وصف ما اعتقدُهُ فيكَ ، وأُضمِره وأطويه من ودادي لك وأنشرُهُ ، فشاهدُ ضميرك به أَنْطَقُ ، وعنه أَصْدَقُ ..."(٢) .

ولقد حافظ أبو محمد بن عبد البر على معاني الصداقة والمودة ، فلم يترك فرصة تسنح لازجاء التهنئة دون أن ينتهزها ، ومن الامثلة على ذلك رسالة بعثها الى أحد اصدقائه وقد اعتلى منصب الوزارة .

افتتحها بالدعاء للوزير والثناء عليه ، يقول : " أطالَ اللهُ بقاءَ الوزير الأوحد ، الخطير الأمجد ، مسروراً بسموِّ الأحوالِ والرُّتب ، معصوماً من طوارقِ الأحداثِ والنُّوَب "(٣) .

ثم هو يعبر عن مدى اعتلاء صديقه الوزارة في نفسه ، ويكشف عن مبلغ سروره وفرحه ، حيث يقول : " ولما طَلَعَ البشيرُ عليَّ بتصيير الوزارةَ اليه ، وَدَوْرِ رحى الخلافة عليه ،... أخذتني هزَّة الجَذَل والارتياحِ ، وأَسْفَرَ لي وجهُ الأملِ والاقتراحِ ، فانتشيت من مَرَحٍ وطربٍ ، ونيلِ مُرَادٍ وأربٍ ..."(٤) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٩٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٧ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٧ .

ثم يختتم رسالته بتهنئة الوزارة بتصييرها الى صديقه ، ويتخذ من ذلك وسيلة لمدح صديقه وبيان فضائله ومحاسنه ، يقول : " وقد تعيّن علي أن اهنّئ بالوزارة ، بل هي المهنّاة بمصيرها اليه ، وظهور رسمها عليه ، فهو المعدِّلُ لحدودها وسيرَها ، المُحسِّن لوجوهها وصُوَرِها ، الممتن لحُجولها وغُرَرِها ، لازال سيّدنا زيناً للدول والممالك ، ونوراً في المواطن والمسالك ..."(١) .

كذلك عني أبو محمد بن عبد البر بتعزية اخوانه عندما يثكلون بفقد عزيز لديهم • ومن الامثلة على ذلك رسالة أطنب فيها وأبدع ، وقد افتتحها باظهار التفجع على المتوفى ، وذكر وقع المصيبة في نفسه ، وما يعاني من أسى وما يكابده من حزن ، حيث يقول : " كتبتُ عن قلب يقشعِرُّ ،ونفس بين ضلوعها لا تستقرُّ ، لخبر الرُّزْءِ الهاجم ، والنبأ الشنيع الكالم ، بوفاة الحاجب عز الدولة سيدي ...فيا لها حسرةً ما أنكاها للنفوس ، وجمرةً ما أذكاها في القلوب ،وروْعَةً ما أفتَّها في الأعضاد ، ولوعةً ما أحرَّها على الأكباد ..."(٢) .

ومع ذلك فان أبا محمد بن عبد البر يؤمن بأن الموت " أَمْرٌ يعمُّ ولا يخصُّ ، كلُّ نَفْسٍ لها جارعٌ ، وفيها كارعٌ ، فمن مُبْتَدرٌ يعاجَلُ ، وَمُنْتَظِرٌ يُتَنَاوَلُ "(٣) .

ويحاول أبو محمد أن يخفف من وقع المصيبة في نفس مخاطبه ، اذ يرى أن مثله ممن عظم قدره وتقدم في الايام خبره أرجح علما من أن يسلمه العزاء الى التهالك ، أو تغلبه الارزاء على التماسك ، يقول : " وأنت أعلمُ بالأيام وصروفها ، والأرزاء وصنوفها ، والأنفس ومآلِهَا ، والاجسام واضمحلالها... من أن يَغْلِبَكَ الجزَعُ والتهالُكُ ، وَيَنْزَعَ بك الجَلَدُ والتماسُكُ ، فأَنْتَ بالازمان خبيرٌ وبالأحوال بَصيرٌ "(٤) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٩ .

انه يتخذ من مدح مخاطبه وذكر محاسنه ومعارفه وسيلة للتخفيف من وقع المصيبة عليه . وهو يدعوه الى التجمل بالصبر وترك الحزن لأن فيه " احباطَ الأجرِ ، واسخاطَ الرّبِّ "(١) .

ولقد استخدم أبو محمد بن عبد البر جاهه وقلمه في اعانة ذوي الحاجات على قضاء حوائجهم ، فكتب عددا من الرسائل التي خاطب بها رؤساء الأندلس في حق عدد من القواد والكتاب والشعراء وعامة الناس يدعوهم فيها الى اعانتهم والاخذ بيدهم والصفح عنهم .

ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها يشفع بها لرجل كان غضب عليه أحد الامراء . وقد افتتح رسالته بمقدمة وصف فيها حال المشفوع له وحال أسرته وصفا يبعث على الحزن والاسى ، وذلك ليعطف عليه "عطفةَ الماجد ، ويحنو عليه حنوَّ الوالد ، على فراخ كزغبِ القطا ، وعيالٍ ليس منهنَّ إلاّ المفجَّعةُ الحرّى ، دموعُها تنهلُّ كالسَّحابِ ، وضلوعُها تلتهبُ بنارِ الاكتئابِ ، قد شملهم الفِرارُ ، ونبا بهم القرارُ ، وعوِّضوا بالبؤسِ من النعيم .."(٢) .

انه يحرك في نفس مخاطبه نوازع الخير لمساعدة هذا الرجل والعفو عنه ورعايته ، يقول : " فإنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْ المذكورُ الرعايةَ لنفسه ، فَلْيَرْعَهُ لأصله ومغرسه ، وإنْ لَمْ يرقَّ لذاته فليرقَّ لبنيه وبناته ، وأهله وَعَوْراته ..."(٣) . ويضربُ له أمثلة مختلفة من التاريخ العربي على الصفح والعفو .

ومن موضوعات الرسائل الإخوانية النادرة التي تناولها أبو محمد الاستمناح والطلب . وقد قلَّ أنْ نجد لها مثيلاً في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري . فلقد كتب أبو محمد رسالة

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢١٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص٢١٣ .

الى المنصور الصغير يطلب اليه تقليده منصبا رفيعا في دولته ، ويرجو أن يقرّبه من رحابه ، ويزيد من عنايته به ، وقد سلك فيها مسلك الشعراء في طلب الرفد والعطاء ، حيث افتتحها بذكر مفاخر مخاطبه ومحاسنه ومكارمه وشمائله وأفضاله عليه ، يقول : "إنّي - أيّد الله الملك الكريم - لمّا أضاءت لي أهلّةُ مفاخره في سماء الفخار ، وأشرقتْ شموسُ مكارمه على مفارق الأحرار ، وأبْصَرتْ شمائِلَهُ الزُّهْرَ تثير من الهمم كامِنَها ، ومحاسِنَهُ الغُرَّ توقظُ من الآمال نائمها ، تيقنتُ أن بحقٍّ انقادتْ له القلوبُ بأعنّتِها ، وتهادتْ اليه النفوسُ بأزمّتها ..."(1) .

ثم يشير الى قدومه الى حضرة المنصور وأمله في أن يدنيه من رحابه ، ويزيد من عنايته به ، ولا سيما أنه قد قصد حضرته دون غيره ، يقول : " فآليتُ أن لا أُلمَّ إلاّ بحماه ، ولا أحطَّ رحلاً الا في ذراه ، علما بأنه نَشْرَةُ الفخر ، وغُرّةُ الدهر ، فتيممت سارياً في طالع نوره ، متيمناً بيُمْنِ طائره ، محققا للربح ، موقنا بالفلجِ والنُّجح ..."(2) .

ويعود أبو محمد مرة ثانية الى مدح المنصور وذكر فضائله ومحاسنه التي يقصر عنها لسان الفصاحه ، ويعيا في بعضها بيانه وايضاحه ، ويبالغ في ذلك مبالغة كبيرة ، حتى يقول: " فالقراطيسُ عِنْدَ بثِّ مناقِبِكَ تَفْنَى ، والأقلامُ في رَسْمِ مآثرك تحفى ..."(3) .

ويختتم رسالته بالاشارة الى طلبه ، حيث يقول : " وانما أُهدي الى مولايَ خدمتي ، وأضعُ في ميزانِ اختيارِهِ همّتي ، لأمتاز في جملة عبيده ، وأُشْهَرَ في خَدَمَتِهِ وعديده"(4) ، ويشفع ذلك بجملة أبيات من شعره(5) .

---

(1) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٦٧ . (2) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ١٦٧- ١٦٨ .

(3) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ١٦٨ .

(4) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٦٩ .

(5) لقد وردت هذه الرسالة في نفح الطيب : ج١ ،ص ٥٩٧ ، وهي مبنية على الخطاب لا على الغيبة .

ولقد امتاز أبو محمد بوصف بلاغة أترابه الكتاب ورسائلهم التي كانوا يبعثون بها اليه . ولا تكاد تخلو رسالة من رسائله الجوابية من هذا اللون من الوصف ، فهو يفتتحها في الغالب بالاشارة الى الرسالة الواردة عليه ، ويصف انتظاره لها وشوقه اليها ، وموقعها من نفسه ، كما يصف بلاغتها وألفاظها ويكثر من نعتها ويتفنن في تشبيهها .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة جوابية كتبها الى أحد اخوانه ، حيث يقول : " وما زلتُ أفضّ كُتُبَكَ عن بدائع دونها السِّحرُ، ولآلىءَ يُزْهى بها النحر ، وغرائب يَعْذُبُ بها لو مازَجْتَهُ البحر، فأعْتَرفُ بالتقصير ، ومن رَكِبَ في الكتابة عَصا قصير ، أنّى له بمطاولةِ من رَكِبَ عصا فقير "(١) .

انه يتخذ من ذلك وسيلة لمدح أترابه الكتاب ، والتعبير عن مدى اعجابه بأدبهم وبلاغتهم .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا قوله في وصف رسالة أرسلت اليه ، حيث يتفنن في وصف محاسنها وذكر فضائلها ، فهي " أشهى من دَرَكِ الغنى ، وأعبقُ مِنْ نفحات الأنوارِ ، غبَّ القطار ، عند تبلّج الأسحار ..."(٢) .

ولأبي محمد من رسالة يمتدح فيها بلاغة أحد أصحابه وفصاحته ، ويعبر فيها عن إعجابه وتقديره لعلمه وأدبه ، يقول : " أمّا البلاغةُ فأنت ابن بجدَتها ، وأمّا الفصاحةُ فأنتَ لابس جلدَتها ، والبراعة فَأنْتَ مقيم بردتها ، ولا غَرْوَ ، فمن زَاحَمَ في العلم بالمنكب الأشدِّ ، وخطا عَرْصَةِ الأدب بالباعِ الأمدِّ ، واستولى في مضمار الركاب على الأمد، أتى من الإبداع بالعجب العجيب ..."(٣) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق ٣م١ ،ص ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق ٣م١ ،ص ١٩٧ .

ووصف أبو محمد بن عبد البر بعض الادوات الحضارية التي كان يستخدمها الأندلسيون . ومن ذلك وصفه للشطرنج وأجزائه ، حيث صوّر لنا كلّ جزء وصفاً دقيقاً . وقد افتتح رسالته بالاشارة الى بديع صنع أجزاء الشطرنج ، وجمال أشكالها ، وصورها كأنها جيشان يقتتلان ، يقول : " كأنّ اقليدسَ قسم أجزاءَهُ ، ورقّقَ أشكالَهُ وانحاءَهُ ، يحارُ في لطيف صُنْعِهِ الوهم ، ويضلّ في كيفيّته الفهمُ ، قُسِمَ قسمين : قسمٌ أحمر، وقسمٌ كأنَّهُ من ناصع الجوهر ، تتقابل خَيْلُهُ بلا فرسان ، وتنقادُ بلا عِنان في أرضٍ مربعة الأقطار .."[1] .

ويقف عند الرخّ ، ويصفه وصفا جميلا ، فهو ان تحرك من موقعه للمجالدة والمضاربة ، كالبطل المغوار الذي لا تؤمن جولته ، وكالصقر في هويه ، وكالأسد في صولته ، يقول : " وكأنَّ الرخَّ إذا بَرَزَ للمِصاع ، وأشهر العرصة للقِراع ، بطلٌ تُتَّقى حَمَلَتُهُ ، ولا تؤمَنُ جَوْلَتُهُ ، يهوي هُويَّ الصقرِ في الجوّ ، ويصولُ صَوْلَةَ الأسدِ في الدوّ ..."[2] .

ويصف الفِرْزِنَ اذا تحرّك من موقعه بالثمل الذي يترنح من شدة السكر ، يقول : " وكأنما الفِرْزِنَ اذا جال متبختراً ، أو مشى متكبّراً ، ثملٌ يترنَّح ، أو سكران يتزحزح ..."[3] .

ويتابع أبو محمد وصف بقية أجزاء الشطرنج وصفا دقيقا يدل على معرفته بأجزاء هذه اللعبة ومصطلحاتها وقواعدها .

ويكشف لنا هذا الوصف عن الادوات الحضارية التي كان يستخدمها الاندلسيون لقتل أوقات فراغهم .

ومن موضوعات الوصف النادرة التي تناولها أبو محمد الغزال ، وهو وصف نادر المثال في أدب الرسائل في الاندلس في هذا القرن[4].

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢١٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق ٣م١ ،ص ٢١٥.

(٤) انظر الرسالة في الذخيرة : ق٣م١،ص ٢١٤ .

الخصائص الفنية لرسائله :

لقد كان أبو محمد بن عبد البر من فرسان النثر الذين نالوا شهرة واسعة في عصره ، " وجمعوا التالد الى الطارف "(١) ، وقد شهد له عدد من مؤرخي الادب شهادات تدل على أنه كان يحتل مكانة مرموقة بين كتاب عصره خاصة ، وكتاب الاندلس عامة ، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن بسام من أنه لما أنشأ رسالته في قتل المعتضد بن عباد لابنه اسماعيل ، تناغت لمة من كتاب العصر في معارضتها ، وقد أورد بعض من أجاب عنها ، وذكر فصولا لمن انتصف على زعمه بالمعارضة منها(٢) .

وذكر الحميدي أن أبا محمد كان " من أهل الادب البارع والبلاغة الرائعة "(٣) . وذكر الفتح بن خاقان أنه " بحر البيان الزاخر ، وفخر الاوائل والاواخر وواحد الاندلس الذي فاز بها بحظ الظهور ، وحاز قصب السبق بين ذلك الجمهور "(٤) .

أما ابن بسام فقد ذكر أن كلام أبي محمد كله رائق بديع لا يتسع لاستيفاء محاسنه كتاب الذخيرة(٥) .

ويستطيع الباحث من خلال رسائل أبي محمد التي انتهت الينا القول بأنه كان أحد الذين جمعوا بين مذهبي المصنوع والترصيع اللذين عرفتهما الاندلس في القرن الخامس الهجري ، وأبدع في هذا الباب .

وكان أبو محمد ذا براعة فائقة في انتقاء الالفاظ واختيار المعاني ، فكان يميل الى سهولة الالفاظ وبساطتها في معاني الصداقة وتهادي المودة وتبادل العواطف والمشاعر وما يجري مجراها من الموضوعات الاخوانية . ويميل الى جزالة الالفاظ ومتانتها في الرسائل ذات الاتجاه السياسي وفي رسائل الدعوة الى الجهاد ووحدة الصف وفي رسائل

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٥٢.
(٣) الجذوة : ص ٢٦٨ . (٤) القلائد : ص ١٨٠ .
(٥) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٢٦.

الاستمنـــــــاح والطلـــــب .

وكان أبو محمد بن عبد البر يميل الى الإطناب ، فمعظم رسائلـــــه طوال (١) ، ويبدو فيها تكرار المعنى بألفاظ مترادفة ، وعبـــارات متقابلة ، وجمل متنوعة . ومن الأمثلة على ذلك قوله في احـــدى رسائله الإخوانية : " وكنت أضربُ صفحاً عن ذكر حالي معـــك وارتباطها ، وانجذاب نفسي اليكَ وانبساطها ، وامتزاج ذاتي بـــك واختلاطها ، إلاّ أني قلت : لابدَّ للنفوس من أن تُظْهِرَ أفعالها ، وللحقائق أن تعطيَ أحوالها ..."(٢) .

ومن خصائص رسائله الفنية الاحتفال بضروب مختلفة من صيغ الجمـــل الدعائية والتي كان يفتتح بها في الأغلب رسائله ، أو يوردهـــــا بين كلامه . ومن الأمثلة على ذلك ما افتتح به رسالته التي خاطـــب بها أبا المطرّف بن الدباغ ، حيث يقول : " مطالعتُكَ - أعـزّك اللـــه - منتظرةٌ ، وصلتُكَ مستمطرة .."(٣) .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة جمع فيها بين التهنئة والتعزيـــة حيث يقول : " وأُنْهِيَ اليّ من تقليدكَ العَهْدَ ، وامضائكَ العَقْدَ للناصـر سيدي وأسنى عددي - أبقاه الله - على بلنسية - عَمَّرَها اللّهُ بـــدوام عزّك ، وحماها باتّصال نَصْرِكَ - مكانَ المعتصم - رحمه الله - ..."(٤) .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة خاطب بها أبا القاسم بن خيـــرون، حيث يقول : " اذ أنت صنوُ أبي مولاي - مَدَّ الله علي ظلّكما ، وكبـتَ الباغيَ عليكما ، والحاسدَ لكُمَا - فكم يقرع سمعي مِنْ قول الحاسديـــن من خـوّ أبي مولاي بمعاداةِ أهلِ الجهل ..."(٥) .

وكما يلاحظ،فقد كان أبو محمد بن عبدالبر يختار من صيغ الجمـــل الدعائية ما يلائم طبيعة الخطاب ، ويناسب مقتضى الحال وسياق الرسالـــة .

---

(١) انظر :الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٩١ .
(٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ١٩٤ . (٣)المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ٢٠٤ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٢١٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢٠١ .

ومن الخصائص الفنية لاسلوب أبي محمد بن عبد البر البراعة في التنويع بين النثر والشعر . ولا غرو في ذلك إذ كان من فرسان النثر والنظم ، فضلا عن أنه كان حافظاً لكثير من اشعار العرب منذ العصر الجاهلي حتى عصره [١] .

وكان يفتتح رسائله أو يضمنها أو يختتمها بأبيات من أشعاره أو من أشعار غيره .

ومن الامثلة على رسائله التي ضمنها أبياتا من شعره قوله في وصف غزال اهدي اليه : " تخالُهُ سهماً اذا انصاعَ ، ومعشوقاً أُشْعِرَ برقيبٍ فارتاعَ ، يزداد جمالُهُ اذا نفر ، وتروق محاسِنُهُ اذا ذُعِرَ :

كاد يحكي غزالة الإنس لولا ‏ ‏ ‏ رقّةٌ في الشّوى وَقَرْنٌ علاهُ
أنا أهواه لالشيءٍ ولكنْ ‏ ‏ ‏ كلفاً بالفتى الذي أهداه [٢]

ومن الأمثلة على ما ضمنه أشعار غيره قوله في رسالة كتبها على لسان أحد الامراء : " ووافاني كتابُكَ العزيزُ ، فأوّلُ ما سَرَّحْتُ طرفي في مسطوره ، وأَعْمَلْتُ فكري في منثوره ، واستطارَ الركابُ فرحاً ، وعادتْ الغمراتُ مرحاً ، ثم أنشدتُ ورددتُ [٣] :

أَهُمُّ بشيءٍ والليالي كأنَّها ‏ ‏ ‏ تطاردني عن كَوْنِهِ وأُطاردُ
بذا قضت الايام ما بين أهلها ‏ ‏ ‏ مصائب قوم عند قوم فوائد

وعسى الله أن يعيد عهدا تجري فيه السوانح ..."[٤] .

ويلاحظ أن أبا محمد كان يميل الى تركيز معاني رسائله وتكثيفها بأبيات شعرية قليلة يختتم بها رسائله ، وفي الأمثلة على ذلك ما ختم به رسالة له في وصف الشطرنج ، حيث يقول [٥] :

جيشان يقتتلان لا لعداوة ‏ ‏ ‏ أبداً ويصطلحان لا لوداد
أهداه سَعْدُ الدّولةِ النَّدْبُ الذي ‏ ‏ ‏ جَمَعَتْ محبّتُهُ عُرَى الأكباد

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢١٤ - ٢١٥.
(٢) انظر الجذوة : ص ٢٦٨ .
(٣) البيتان للمتنبي، ديوان المتنبي :ق ٣ م ١ ، ص ١٧٦ .
(٤) الذخيرة : ق٣م١،ص ١٦٧.
(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٢١٦ .

ولم يقف الأمر عند أبي محمد علي التنويع بين النثر والشعر ، بل لقد جعل الشعر مكملا للنثر في رسائله المختلفة . ومن الامثلة على ذلك رسالته في الاستنماح والطلب التي خاطب بها المنصور الصغير ،حيث يقول : " لقد فاز بالسبق من لحظتْهُ عيونُ رعايتِكَ ، وكَنَفَهُ حِرْزُ حمايتِكَ ، فأَنْتَ الذي أُمِنَتْ بعدله نوائبُ الأيام ، وقويت بفضله دعائم الاسلام ، تختالُ بك المعالي اختيالَ العروس ، وتخضعُ لجلالتك أعزّةُ النفوس ، بسابقةٍ أشهرَ من الفجر ، وفطنةٍ أنورَ مِنْ البدر ، وهمةٍ أبعدَ مِنَ الدهر ".
ويتبعها بما يناسبها شعرا ، فيقول (١) :

لقد فازَ مَنْ أَضْحَى بكم متمسكاً ... يمدُّ إلى تأميل عزّكمُ يدا
سلكتَ سبيلَ الفضل خلقا مركباً ... وغيرُكَ لا يأتيه الا تجلدا
ليهنيكم مجد تليد بنيتم ... أغارَ لعمري في البلادِ وأنجدا

ومن الخصائص الفنية لأسلوب أبي محمد البراعة في ترصيع رسائله بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام ، وبالحكم والامثال والاخبار ، وحل أبيات الشعر . فلقد حرص أبو محمد على ترصيع رسائله بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية . ومن روائع الاقتباس الجميل عند أبي محمد ما أورده في رسالته التي كتبها على لسان أهل بربشتر يصف المصائب والنكبات التي حلت بهم وصفا مؤثرا يبعث على الأسى والحزن، حيث يقول : " فلا الأخ يغني أخاه ، ولا الابن يدعو أباه ، ولا الأب يدني بنيه ،(لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (٢) " (٣) .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا قوله في الرسالة التي كتبها على لسان المعتضد في قتله لابنه اسماعيل : " وكما أن داءَ العرِّ قد يُعْدِي ، كذلك قرين السوء قد يُرْدِي ، ومن اتخذ الغاوي خَدِيناً ، عاد غاوياً ظنيناً ، (ومن يكن الشيطان له قريناً فساءَ قريناً) (٤) " (٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٦٨ — ١٦٩ . (٢) سورة عبس ،الاية ٣٧
(٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٧٦ . (٤)سورة النساء ،الاية ٣٨.
(٥) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٩ .

لقد تأثر أبو محمد بالقرآن الكريم وأساليبه ، ومما يدل على ذلك قوله أيضا في الرسالة التي كتبها على لسان أهل بَرْبُشْتَر ، منتقدا موقف المسلمين الذين تقاعسوا عن نجدة اخوانهم في الدين : " فانظروا الى ثغورِنا كيف تُهْتَضَمُ ، والى أطرافنا كيف تُخْتَرم ... وأنتم عنا لاهون في غمرةٍ ساهون ، وكأنَّا لسنا منكم ..."(١) .

فقد أخذ قوله هذا من الاية الكريم (الذين هم في غمرة ساهون)(٢).

ومن الامثلة على روائع اقتباسه من الاحاديث النبوية الشريفة ما ورد في رسالة كتبها على لسان مجاهد العامري ، وقد زفَّ ابنته الى المعتصم ابن صمادح ، حيث يقول : " ولنا في رسول الله عليه السلام أُسْوَةٌ حسنةٌ ، وفيما قاله في مثلهذه قُدْوَةٌ يقتدي بها ، وسُنَّةٌ يُحتذى بها... وقال عليه السلام : " إنَّما فاطمةُ بَضْعَةٌ مني ، فمن أكرمها ، فقد أكرمني ، ومن أهانها فقد أهانني (٣) ، اللهم بارك لهنا وبارك عليها "(٤) .

لقد استفاد أبو محمد بن عبد البر من التراث العربي الاسلامي فضمن رسائله الحكم والامثال والاخبار والاشارات التاريخية المختلفة ، وقد كان يوردها بما يتفق مع مضمون رسائله وسياقها العام .

ومن الامثلة على ذلك ما أورده في رسالة في مقتل اسماعيل بن المعتضد من صور عقوق الابناء لآبائهم في العصور التاريخية المختلفة(٥).

ومن ذلك أيضا ما أشار اليه في الاحداث والاخبار التاريخية في رسالة كتبها في موضوع التعزية والرثاء ، حيث ضرب أمثلة

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٧٨ - ١٧٩ . (٢)سورة الذاريات: الاية ١١ .

(٣) ورد هذا الحديث في فتح الباري بشرح صحيح البخاري بلفظ مختلف : " فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبني أغضبها " : ج٧ ،ص ١٠٥.

(٤) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٢٨ .

(٥) انظر : المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٤٢ .

مختلفة على الصبر على الشدائد والمصائب ، وذلك للتخفيف على صاحبه من وقع الفاجعة ، حيث يقول : " وان كان أَخَذَ فقد أعطى، وان كان اخترمَ ، فقد أبقى ، وبهذا صدع عروةُ بن الزبير [١] رضي الله عنه ، عندما مُنِيَ به في أحد أبنائه ، وبعض أعضائه " [٢] .

ومن الامثلة على تضمين رسائله الحكم والامثال ، قوله في رسالة خاطب فيها أبا القاسم بن خَيْرون ، حيث يقول : " ومن أطرف ما جاءت به الأيامُ ، وتحدَّثتْ به الأنامُ ، مناواةُ جاهل خسيس لإمام عادلٍ رئيس ، لقد استنَّتْ الفصال حتى القرعى [٣] ، ولا تعجبنَّ لجاهل علا ، ان البغاثَ بأرضنا يَسْتَنْسِر [٤] .." [٥] .

ولقد أبدع أبو محمد بن عبد البر في حل معقود الابيات الشعرية ، وادخالها في مضمون عباراته ببراعة واتقان وبصياغة جديدة مفارقة للمنظوم ، ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها بعض اخوانه ، حيث يقول : " ورأيتُكَ رحلتَ على آن المقامَ ثلاث ، فَطَابَتْ لك حتَّى أتممتَ عشراً ، بل ما أقمت إلاّ دهراً ، فقد زدت على المثل، وتملَّيْتَ مسافة الجذل ، فهنيئاً لك غيرَ منغَّص ، ومزيداً غيرَ مُنْتَقَصٍ .." [٦] .

ففي هذا القول ألفاظ محلولة من قول أبي نواس [٧] :

خرجنا على أنَّ المُقَامَ ثلاثةٌ فطَابَتْ لنا حتَّى أقمْنَا بها شهراً

ومن الامثلة على ذلك أيضا قوله على لسان أهل بَرْبُشْتَر : " أيّ أمانٍ في زمانٍ قلَّما يخضرُّ منه جانبٌ إلاَّ جفَّ جانبٌ " [٨] . وفي هذا القول إشارة الى قول ابن عبد ربه [٩] :

ألا إنَّما الدنيا غضارة أيكة اذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبٌ

---

(١) انظر في صبر عروة بن الزبير عندما فقد ابنه وقطعت رجله : الوفيات : ج١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٧ . (٢) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٢٠ . (٣) انظر : فصل المقال : ص ٤٠٢ . (٤) انظر : المصدر السابق نفسه : ص ١٢٩ .
(٥) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٠٢ . (٦) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٢٠٦ .
(٧) ديوان ابي نواس : ص ١٤٩ . (٨) الذخيرة : ق٣م١ : ص ١٧٤ .
(٩) ديوان ابن عبد ربه : ص ٢١ .

ومن الخصائص الفنية لأسلوب أبي محمد البراعة في استخدام ضروب المحسنات المختلفة ، من سجع وازدواج وجناس وطباق ومقابلة .

ومن الأمثلة على السجع ، قوله في رسالة يتحدث فيها عن الصداقة : " وربَّما تهيَّأتْ الصَّداقةُ ، وتمكَّنتْ العلاقةُ ، على تنائي الديار، وبُعْد الأقطار ، بالأخبار السائرة ، والأنباء المتواترة ، ببارع مناقبهم، وباهرِ مذاهبهم ، وجليلِ فضائِلِهم .."(١) .

ويظهر أن السجع عند أبي محمد جاء مسايراً للطبع ، والذوق ، بعيدا عن الصنعة والتكلف ، قائما على تنويع الفواصل ، وقصر العبارات ، مما يضفي على النص رونقا موسيقيا جميلا ومؤثرا .

وتظهر هذه السمة ايضا في قوله من رسالة في التعزية : " فأنت سدادُ كلِّ مُلِمٍّ ، وسنا كلِّ مظلم ، وأنا أضربُ لك الأمْثالَ ، وأعْلَمُ مع ذلك عِلْمَ الحقيقة أنَّ مصابَكَ كبير ، وَرُزْءَكَ أليمٌ خطير ، لا يكادُ يتعلَّقُ بالجازع منه مَلامٌ ، ولا يستمرُّ على الصبرِ منه اعتزام ، فمن كَرَم الكريمِ ، الجزعُ على الحميم ، ومن خواصِّ القلوب ، الأسفُ على المحبوب ..."(٢) .

أما الازدواج فيظهر في قوله من رسالة يمدح بها المنصور بن أبي عامر : " أنت الذي لا يداني شرفه ، ولا يسامي سلفه ،ولا تجارى أعراقهُ ، ولا يُبارى إعراقه ..."(٣) .

فقد زاوج الكاتب بين الالفاظ : يداني ويسامي وتجاري ويباري ، شرفه وسلفه أعراقه واعراقه .

ولقد كان اهتمام أبي محمد بفن الجناس أقل من اهتمامه ببقية الفنون والمحسنات البديعية . ومن الأمثلة على ذلك قوله : " ان كانت المعرفةُ لم تحقَّ ، فكم أثرٍ أهدى من عين ، وكم خَبَرٍ أغنى عن خُبر .."(٤) فقد جانس بين لفظي : خَبَر وخُبْر .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ : ص ١٩٦ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٢٢١ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ١٦٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ١٩٢ .

ومن ذلك أيضا ما ورد في قوله : " أنت الذي ... لا تجارى أعراقه، ولا يبارى إعراقه "(١) .

حيث جانس بين لفظي أعراقه وإعراقه جناساً ناقصاً .

ومن المحسنات البديعية التي استخدمها أبو محمد الطباق ، ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها عن علي بن مجاهد الى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن ، حيث يقول : " قد قاسمته العيشَ نصفين، والحياة شطرين ، له النومُ ولي السهر ، وله الأمنُ ولي الحذر ، وله الصفوُ ولي الكدر ..."(٢) .

فقد طابق بين الالفاظ : النوم والسهر ، الأمن والحذر ، الصفو والكدر .

ومن الامثلة على الطباق أيضا قوله : " وكتابي - أعزك الله - طَوْراً يبسطُ يدي وطَوْراً يقبضها ، وتارةً يُرْسِلُها وأخرى يعترضها ، ومرة يُقْعِدُها ، وأخرى يُنهضُها ..."(٣) .

فقد طابق أبو محمد بين الالفاظ : يبسط ويقبض ، يرسلها ويعترضها ، يقعدها وينهضها .

ومن المحسنات المعنوية التي اهتم بها أبو محمد المقابلة بين الجمل، ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالته التي كتبها على لسان أهل بَرْبَشْتَر ، حيثُ يقول : " فإنَّا خاطبناكم مستنفرينَ ، وكاتبناكم مستغيثينَ ، وأجفاننا قَرْحَى ، وأكبادُنا حَرَّى ، ونفوسُنا منطبقةٌ ، وقلوبنا محترقةٌ ، على حين نَشَرَ الكفرُ جناحَيْهُ ، وأبدى الشرك ناجذيه ..."(٤) .

فلقد قابل بين حال المسلمين من جهة وحال الكفار من جهة أخرى ، في جمل متتالية .

ومن الأمثلة على ذلك ايضا قوله : " والكفر يضحك ويذكي ، والدين ينوح ويبكي "(٥) . فقد قابل ايضاً بين صورة الكفر وصورة الاسلام .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١،ص ١٦٥ . (٢) المصدر السابق نفسه :ق٣م١،ص ١٧٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٩٨ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١، ص ١٧٤ . (٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ١٧٧ .

ابن طاهر

حياته :

هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن زيد بن طاهر القيسي(١) ، ينتسب الى أسرة عربية تعتبر من أشهر الاسرات في الاندلس ، كما يذكر ابن حيان " آل طاهر ذوو بيت عامر ، وعدد وافر ، يفخرون بالعربية ، وينتمون في قيس عيلان "(٢) .

وعلى الرغم من أن ابن طاهر ينتسب الى طبقة رفيعة فانه لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ ولادته ، كما لم تذكر مكانها ، وأغفلت الحديث عن نشأته ومراحل حياته الاولى . ويرجح الباحث أن ابن طاهر ولد في مرسية في منتصف الربع الاول من القرن الخامس الهجري اذ تكاد تجمع المصادر على أنه توفي سنة ٥٠٧ هـ ، وقد نيف على التسعين(٣) .

وكان والد ابن طاهر أبو بكر احمد بن اسحق حاكما على مُرْسية من قبل زهير العامري . وقد سار في حكمها سيرة حسنة ، وكان فضلا عن عراقة أسرته وتراثه الواسع من أكابر علماء عصره ، ومن أغزرهم أدبا ، وأبلغهم بيانا . وكان أهل مرسية يحيطونه بالتقدير والمحبة ، لما كانوا يرونه من نبيل صفاته ووفرة ماله ولين جانبه ، فعمرت بلادهم بجميل سيرته ، واستقام أمرهم بحسن فعاله(٤).

وكان يعاونه في ادارة بلده ابنه أبو عبدالرحمن ، ولاسيما في أواخر حياته ، اذ أصيب بالفالج ، وطالت علته أعواما ، وتوفي سنة ٤٥٥ هـ (٥) . وقد خلف أبو عبد الرحمن أباه في حكم مرسية ، حيث

---

(١) انظر ترجمته وأخباره ورسائله في : القلائد : ص ٥٦ - ٧٠ ، الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٤ - ١٠٣ ، بغية الملتمس : ص ٥٠ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٦ - ١٢٧ ، الصلة : ج١ ، ص ٢٧٩ ، الذيل والتكملة : ج٥ ، ص ٥٩٠ - ٥٩٣ ، الخريدة : ج٣ ، ص ٣٦٣ - ٣٧٥ ، المغرب : ج٢ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، المعجب : ص ١٨٠ ، أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، النفح : ج١ ، ص ٦٥٧ - ٦٥٩ ، ٦٧٠ - ٦٧١ .

(٢) الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٨ . (٣) انظر القلائد : ص ٥٧ .

(٤) انظر الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٧ .

(٥) الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٨ .

استقل في ادارتها ، وسلك سبيل أبيه ، واتبع سيرته ، وزاد عليه بفضل علم وأدب ، وكانت أيامه أيام عدل ورخاء [١] .

وفي سنة ٤٧١ هـ ،واجه ابن طاهر خطرا جسيما ، فقد حسده بعض كبار أهل عصره ، وخاصة ابن عمار وزير المعتمد بن عباد الذي طمع في الاستيلاء على مرسية لنفسه ، فدفع المعتمد الى محاربة ابن طاهر ، حيث ذكر له أن أهل مرسية قد كاتبوه وخاطبوه ، وأنهم يستدعونه اليهم ، فوجه المعتمد الى مرسية وزيره ابن عمار ، وقائد جيشه عبدالرحمن ابن رشيق فاستنزلا ابن طاهر عن ملكه واعتقلاه [٢] .

ويقال أن أبا بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية آنذاك ، كان قد شفع لدى المعتمد بن عباد في أمر ابن طاهر ، فأذن بتسريحه فسار الى بلنسية ملتجئا الى حمايته [٣] . وفي رواية اخرى أنه لما تمرد ابن عمار على المعتمد وحاول أن يستفرد بمرسية نجح ابن طاهر في الفرار من سجنه بمعاونة أبي بكر عبدالعزيز ، وسار خفية الى بلنسية [٤] .

ولقد كان لفوز ابن طاهر بارتداد حريته وقع طيب في نفوس الشعراء والكتاب في الاندلس ، فكتبوا اليه رسائل وقصائد كثيرة مهنئين بخلاصه [٥] .

وقد كان لابن طاهر في اعلام أمراء الاندلس بخلاصه من نكبته وشكره لهم رسائل كثيرة [٦] .

ومهما يكن من أمر فقد استقر ابن طاهر ببلنسية في كنف أبي بكر بن عبد العزيز ، ثم في كنف ولده أبي عمرو بن عثمان . وعندما استولى القادر بن ذي النون على بلنسية سنة ٤٧٨ هـ تقرب ابن طاهر

---

(١) انظر: الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١١٨ . الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩٠ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٠١ . (٢) انظر الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥ ،الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١٢٣ — ١٢٤ ، أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٠١ ،دول الطوائف: ص ١٨١ . (٣) انظر : القلائد : ص ٥٧ ،الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٦ ،الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١٢٤ ، الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩١ . (٤) انظر: الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١٢٤ ،أعمال الاعلام : ص ٢٠١ . (٥) انظر القلائد : ص ٦٦، الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٤٧ ،الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩٠ . (٦) انظر: الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٣٣—٣٨ ،الذيل والتكملة : ج٥ ، ص ٩٥٢ .

اليه ، واستمر على حاله من الكرامة والدعة ، الى أن ثار القاضي أبو أحمد جعفر بن عبدالله بن جحاف المعافري ، وقتل القادر بن ذي النون، واستولى على الامارة سنة ٤٨٥ هـ[١] ، ويبدو أن ابن طاهر لم يكن من أنصار هذا الانقلاب ، وكان يأخذ على ابن الجحاف أنه سفك دم القادر، وله في ذلك أبيات يقول فيها[٢] :

أيُّها الاخيفُ[٣] مهلاً	فلقد جئت عويصاً
اذ قتلت المَلْكَ يحيى	وتَقَمَّصْتَ القميصا
ربَّ يوم فيه تُجْزَى	لم تجدْ عنه محيصا

ولقد مُدَّ لابن طاهر في العمر حتى شهد محنة المسلمين ببلنسية عندما احتلها السيد الكنبيطور سنة ٤٨٨هـ[٤] . وقد وقع ابن طاهر في قبضة الاسر ، كما يشير الى ذلك في رسالة بعث بها الى بعض اخوانه ، حيث يقول : " كتبت منتصف صفر ، وقد حصلنا في قبضة الاسر .."[٥].

ثم أفرج عن ابن طاهر بعد ذلك ، ورحل الى شاطبة ، واستقر بها حينا الى أن تطورت الحوادث وتمكن المسلمون من استعادة بلنسية سنة ٤٩٥ هـ ، حيث عاد اليها ابن طاهر وقد أثقلته السنون وهدمه الاعياء والمرض ، فعاش بها أعواما أخرى في عزلة واعتكاف[٦] الى أن توفي بها سنة ٥٠٧ هـ ، وقد نيَّف على التسعين[٧] ، ثم سير به الى مرسية ودفن بها .

وهناك رواية اخرى تذكر أنه توفي سنة ٥٠٨هـ[٨] ، الا أن الفتح ابن خاقان يذكر أنه اشترك في تشييع جثمان ابن طاهر بمرسية سنة ٥٠٧ هـ[٩] ، ولعل نقل جثمانه الى مرسية هو الذي أوحى لبعض المؤرخين بأن جعلوا وفاته سنة ٥٠٨ هـ .

---

(١) انظر: الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٩٥-٩٦ ، الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١٢٥- ١٢٦، البيان المغرب : ج٣ ، ص ٣٠٧ . (٢) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٩٦. (٣) الاخيف : من كانت احدى عينيه زرقاء والاخرى سوداء. (اللسان : حادة خيف) .
(٤) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٩١، الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١٢٥ ،أعمال الاعلام : ص ٢٠٢. (٥) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٩١ ،وانظر : الحلة السيراء :ج٢، ص ١٢٥ . أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٠٢. (٦) انظر : القلائد :ص ٥٧، الذخيرة ق٣م١ ،ص ١٠١ ،الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩٢ - ٥٩٣ . (٧) انظر :القلائد ص ٥٧ ،أعمال الاعلام : ج٢ ،ص ٢٠٢ . (٨) انظر : الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٢٢٥ ،بغية الملتمس : ص ٥١. (٩) انظر : القلائد : ص ٥٧ .

لقد كان ابن طاهر من أهل العلم والادب والمعارف (١)، وكان ظريف التوقيع ، خفيف الروح ، عذب النادرة والفكاهة (٢) ، جوادا كريما ، وكان للشعراء والكتاب عنده سوق نافقه ، وقد انتجعه عدد كبير منهم ، كان من أبرزهم ابن عمار أيام خموله (٣).

رسائله :

يظهر للباحث من خلال نصوص رسائل ابن طاهر التي انتهت الينا أنه تناول كثيرا من موضوعات أدب الرسائل واغراضه ، بحكم امارته لمرسية ، واتصاله بعدد كبير من أعلام السياسة والادب ، ووقوفه على كثير من الاحداث السياسية والتاريخية في عصره .

فقد كتب ابن طاهر في الجهاد والصراع مع الصليبيين ، وفي الفتن والخصومات السياسية ، وفي الوصف ، وفي موضوعات الرسائل الاخوانية المختلفة ، وفي موضوعات الرسائل الديوانية ، وفي الفكاهة والهزل .

وقد واكب ابن طاهر الحروب الصليبية في الاندلس في عصر الطوائف منذ بدايتها ، وعاش معها في كل مراحلها وتطوراتها المختلفة حتى انتهت بدخول المرابطين الاندلس ،وخروج الصليبيين من ديار الاسلام ومعاقله .

وقد تألم ابن طاهر لما جرى " على المسلمين من نكدٍ فاضح ، وتلف فادحٍ " على حد قوله (٤)، فعبَّر عن ذلك برسائل كثيرة في وصف النكبات والمصائب والمحن التي حلت بالمسلمين ، وفي الحض على الجهاد والاستنفار لانقاذ الاندلس من الخطر الداهم .

ومن الامثلة على رسائله في هذا الموضوع رسالة له خاطب بها بعض اخوانه من الرؤساء ، وقد افتتحها بموضوع رسالته مباشرة وهو الحض على الجهاد والاستنفار لمواجهة العدو الذي قدم الى بلاد الاسلام وهو على أتم استعداد للاستيلاء عليها ، اذ وثق من تراجع المسلمين واستيلاء الوهن والضعف عليهم ، حيث يقول : " وجب استنفار المسلمين " لامر هذا العدوِّ الذي قد سحب في الجزيرة أذيالَهُ ، وفوَّق (٥) للاستيلاء على حدودها نصالَهُ ، لمَّا تحقق له أن العزائمَ عن مقارعتهِ ناكلةٌ ، والبلادَ من أعدائهِ تُقَاومُهُ عاطلةٌ ..." (٦) .

---

(١) بغية الملتمس : ص ٥٠-٥١، الحلة السيراء : ج٢، ص ١١٨-١١٩ . (٢) انظر الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٢٥ - ٢٦ ، الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٩، أعمال الاعلام : ج٢ ، ص ٢٠٢ . (٣) انظر الحلة السيراء : ج٢ ، ص ١١٩ . (٤) الذخيرة : ق٣م١، ص ٨٦ .
(٥) يقال فوَّق السهم: وضعه في الوتر ليرمي به (اللسان : مادة فوق).
(٦) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٨٨ .

ثم هو يمدح رغبة مخاطبه وجهوده في الدفاع عن الاسلام والمسلمين، ويتخذ من ذلك وسيلة لاستثارة نخوته واستنهاض همته ، وتحريك نوازع الجهاد في نفسه ، يقول : " فبانتْ أصالتُكَ وتفرُّدُ جَدِّك ، وتجدد الحفاظ لانقاذ ملة الإسلام بجهدك .."(١) .

ويرى ابن طاهر أن الجهاد أصبح واجبا على كل مسلم ، ويستنكر بشدة الحالة التي وصل اليها المسلمون في الاندلس ، حيث يقول : " وقد تعيَّنَ البدارُ على كلِّ رئيس ومرؤوس ، ولزم الجهاد كل شريف ومشروف ، وقبيح على المسلم أن يحلَّ إزاراً ، ويسوِّغَ من الكرى غِراراً ، وإخوانه المسلمون بين مشدود بالإسار ، أو جزر(٢) النيوب والأظفار ، تالله ما في النَّصَفةِ أن تُسكن الظلال ، وأطواقُ حَمَلةِ القرآن الاغلال "(٣) .

لقد وجه ابن طاهر نقدا شديدا لاولئك الذين تقاعسوا عن نجدة اخوانهم في الدين ، وهو يصدر في ذلك عن عاطفة دينية صادقة . ويختتم ابن طاهر رسالته بدعوة الله عز وجل أن يوحد جهود المسلمين للدفاع عن حوزة بلادهم ورد العدو واذلاله : " والله تعالى يصير الايدي في الدفاع يدا ، ويعيد العدو المستأسد مهتضما مضطهدا "(٤) .

كذلك شهد ابن طاهر محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور سنة ٤٨٨هـ ، فوصف هول المصيبة التي داهمت المدينة وبكاها بكاء حارا (٥) . وقد عرض الباحث لهذه الرسالة فيما تقدم .

وشهد ابن طاهر جواز المرابطين للاندلس بقيادة يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين ودفع الخطر الداهم الذي يتهددهم . كما شهد بعض المعارك التي دارت بين المسلمين وأعدائهم ، والفتوحات والانتصارات التي

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٨٨ . (٢) يقال جزر الشيء : قطعه (اللسان : مادة جزر) .
(٣) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٨٨ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٨٨ .
(٥) انظر رسالة ابن طاهر بهذا الخصوص في : الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٩٢ .

أحرزها المسلمون على الصليبيين . وقد أثرت هذه الاحداث في نفسية ابن طاهر ، فخلدها برسائله ، ووصف مجرياتها ومدح أبطالها . ومن ذلك رسالة خاطب بها أحد إخوانه عندما دخل يوسف بن تاشفين الاندلس ، وقد اعتذر فيها عن عدم تمكنه من الالتقاء بيوسف بن تاشفين والجهاد في سبيل الله تحت رايته .

وقد افتتح ابن طاهر رسالته هذه باظهار السرور والابتهاج بقدوم أمير المسلمين ، ومدحه بما فيه من الصفات التي تتفق مع الجهاد وما يتطلبه من صفات العدل والشجاعة ، فوصفه بإمام الأندلس الذي يعدل بين الرعية ، وسيفها الذي يعمل في الاعداء ، وأسدها المقيم في عرينه ، وسيدها المعظم المطاع المبادر لدفع الخطر عنها ، حيث يقول : " كتبت - أيَّدَ اللهُ أميرَ المسلمين - وقد وافى الخبر المبهج بأن الجزيرة المهتضمة - حماها الله - حلّها إمامُهَا العادلُ ، وسيفُهَا العاملُ ، ولَيْثُهَا الخادر(١) ، وَقَرْمُهَا(٢) المبادر.." (٣) .

ويعبر ابن طاهر عما يجول في نفسه ، وعما يجول في خواطر الاندلسيين من أفكار وأحاسيس ، وما يعتريهم من شوق صادق الى لقاء أمير المسلمين ، وما بهم من تطلع الى أن يحقق الله على يديه النصر الذي يعز الاسلام ويذل الكفر ، حيث يقول : " فكان عندي كالماء للظمآن والنجم للحيران ، فقلتُ : خَبَرٌ واللهِ جلّى الشك من اليقين ، وَشَفَى صدورَ قوم مؤمنينَ ، فالحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، اذ يقيمُ الله به للحقِّ مَنَارَهُ ، وَيَحْمِي من الإسلام ذمارَهُ ، فأنْفُ الكبر أجْدعُ راغمٌ ، ووجه الظلم أسْفَعُ قاتمٌ "(٤) .

ولقد تمنى ابن طاهر أن يسعد بلقاء أمير المسلمين ، وأن يقضي فريضة الجهاد تحت لوائه الا أنه كانت هناك عوائق كثيرة تحول دون ذلك،

---

(١) الخادر : يقال أخدر فلان في أهله ، أي أقام فيهم فهو خادر (اللسان : مادة خدر) . (٢) القرم : من الرجال هو السيد العظيم (اللسان : مادة قرم) . (٣) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٨٨ . (٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٨٨ .

وتجعله يحس بأس عميق وحزن شديد ، حيث يقول : " وَدِدْتُ أن أَسْعَدَ بلقائه ، وأستظلَّ بلوائه ، وأُلِمَّ بجوانبه ، وأسيرَ في كتائبه ، فأنالَ حظاً جسيماً ... ولولا أن العدوَّ - قَصَمَهُ اللّهُ - بهذه الأقطار، يجوسُ خلالَ الديار ، فلا تمكنُ المسالك ، ولا تتورَّدُ المهالك ، لكنتُ أوّلَ واردٍ مع الورّاد ، ولقضيتُ فَرْضَ الجهاد ... وإنَّ العينَ لتفيضُ من الدَّمع ، لما جَدَّتْ بي الأيامُ في القطع.."(١) .

كذلك فقد وصف ابن طاهر الانتصار الذي أحرزه المسلمون على المليبيين في بلنسية سنة ٤٩٥ هـ ، وتغنّى بهذا الفتح العظيم الذي أعاد المدينة الى حوزة الاسلام(٢) .

ولقد شارك ابن طاهر في التعبير عن الأحداث والفتن والخصومات السياسية التي اشتعلت بين أمراء الطوائف . ومن ذلك رسالة كتبها الى اقبال الدولة علي بن مجاهد العامري مهنئا اياه برجوع أحد المعاقل اليه ، وانتصاره على منافسيه .

وقد افتتح ابن طاهر رسالته بمقدمة تحدَّث فيها عن حالِ الأيام وتقلبها ، وبين أنها لا تدوم على حالة واحدة ، ولا تدعُ أحداً من تغيراتها ، يقول : " جراحاتِ الايام - أيّدكَ الله - هدر ، وجنَاياتُها قدر ، وليس للمرء حيلة ، وإنّما هي الطاف الله جميلة ، تَستنزلُ الأعصم من هِضابه ، وتأخذُ المغترَّ بأثوابه ..."(٣) .

ثم يتحدث عن أعمال علي بن مجاهد وصفاته الحميدة ، حيث يقول: " ... أَحْمَدُهُ عَوْداً وبدءاً على النعمة التي ألْبَسَكَ سِرْبالها ، والفتنة التي أطفأ عنك اشتعالَهَا ، والرّياسة التي حَمَى فيها حِمَاكَ ، وَرَدَّ خاتمها بيُمْنَاك ، وقد تناولته للباطل يد خَشْنَاء ، فاستقالَتْهُ يَدُك الحسْنَاءُ... فأقرَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الحالَ في نصابها ، وأبرزها في كمالِهَا ... ووضعتْ الحربُ أوزارَهَا ، وأخفت الأسودُ أخياسَهَا وزآرَهَا ، ومن كانت مذاهبه

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٥٨٩ . (٢) انظر رسالة ابن طاهر بهذا الخصوص في الذخيرة : ق٣م١ ،ص ١٠١ - ١٠٢ .
(٣) القلائد : ص ٥٩ .

كمذاهبك ، وجوانبه للسلامة كجوانبك ، أعطتهُ القلوب أسرارَها ، وأغلقتهُ المعاقِلُ أسوارَها ..."(١) .

وقد اختتم ابن طاهر رسالته بتوجيه التهنئة الخالصة الى علي بن مجاهد بافتتاحه المعقل، وبعودته سالماً ، حيث يقول : " فليهنك الإيابُ والغنيمةُ ، وهما المنّة العظيمة ، وليكن لها من نفسك مكان ، ومن شكر لله بالموهبة واعلانٌ "(٢) .

ومن رسائل ابن طاهر الوصفية هذه الرسالة التي كتبها الى أحد الرؤساء يستدعي منه أقلاما . وقد افتتحها بالحديث عن فضل الاقلام ومكانتها وأهميتها في حياة المجتمع " فيها يَشخَصُ الكلام ، وهي حِلْيَةُ البيان ، وترجمان اللّسان ، عليها تَفَرّعُ شعاب الفكر ، وذكرها مُنَزّلٌ في مُحْكَمِ الذّكر "(٣) .

ثم ينتقل ابن طاهر الى ذكر أوصاف الاقلام الحسّية ، وما يختص به القلم الجيد من جودة التقليم ، وجمال اللون ،وطول الانبوب ،حيث يقول : " وأريد أن ترداد لي منها سبعة .. حسنة التقليم ، فضيّة الأديم ، ولا يعتمد منها إلاّ صليبها ، الطوال أنابيبها "(٤).

ولابن طاهر رسالة يصف فيها سيلا عظيما داهم مدينة مرسية ، ويبين عظم المصيبة التي حلت بالمدينة وأهلها ، فقد داهم الناس على حين غرة ، وهم في أول النوم ، فأذهل عقولهم ، وشغل افكارهم ، وجعلهم بين ماض قد سلبت ملابسه ، وناج أخذ ماله ، وفازع فقد عزيزا عليه ، وحائر لا يدري ما حدث له ، يقول : " فانه أذهل الاذهان ، وأشغل الجنان، اذ أقبل ، يملأ السهل والجبل ، والجنوب قد اضطجعت ، والعيون قد هوّمَت للنوم أو أهْجَعَتْ ، فمن ماضٍ قد استلبه ، وناجٍ قد حَرَبَهُ ، وفازعٍ قد أثكله ، وحائر لا يدري ما حُمّ له ، والبرقُ يجبّ فؤاده ، والودقُ ينسرب

---

(١) القلائد : ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ص ٦٥.

(٤) المصدر السابق نفسه : ص ٦٥.

مزاده ، وقد استسلم للقدر ، واعتصم بحبل الله عَزَّ وجلَّ "(١) .

ومن موضوعات الوصف التي تناولها ابن طاهر جوارح الطير ، فقد كتب رسالة وجهها الى أحد ملوك الطوائف يصف فيها ثلاثة من جوارح الطير التي تستخدم في الطرد . فقد وصف لونها وحركاتها وقوتها ومهارتها وكثرة صيدها ، حيث يقول : " كأنها شعل نار ، صيدها أجلّ كلّ صيد ، وقيدها أيما قيد ، تقلب حوادق مقل ، وتنظر نظر مختبل(٢) ، وتسرع في الانقضاض كالوحي والايماض ، وترجع الي يد وثاقها ، كأنما اشفقت من فراقها ، بمخلب دام ، وأبهة مقدام "(٣) .

ولقد كانت الدعابة غالبة على ابن طاهر لا يدعها بحال ، فهي من طبائعه ، وأجود كتاباته ما اشتمل على الهزل(٤) . وقد أورد ابن بسام مقتطفات قصيرة من رسائله التي تجري بميدان الفكاهة ، وتنخرط في سلك الدعابة والهزل .

ومن ذلك هذه الرسالة التي خاطب بها أحد الرؤساء ، وقد أدارها حول كاتبه ، وفيها يقدم صورة فنية فكاهية تفيض بالضحك والسخرية ، وقد عمد فيها الى تتبع حركات الكاتب وشكله وضحكه ، حيث يقول : " مَرَّ كاتِبُك السَّريُّ ، وأمامه وزراؤه ، عصابةٌ كأنَّها الحصى ، وقد حَفَّفَ من حواجبه ، وأحفى من شواربه ، وهو يتفكَّهُ ، من قادمتي حمامة أيكة ، كمن تصنَّع وترفَّع للقافية فلا تواتيه ..."(٥) .

وله رسالة يسخر فيها بصديق له حضر محاصرة شاطبة ، وهي في مظهرها الجاد الوقور تتضمن قدرا من التهكم والسخرية في إطارٍ قصصي ، حيث يقول : " ورأيتَ مآلَ الأمرِ بوقوع الحرب ، وشروع النَّقْب ، وأنه وضعتْ الملاطيس(٦) ، فقلتَ الان حمي الوطيسُ . فأرجو

---

(١) القلائد ص ٦٣ . (٢) المُختبل : من الخَتْل ، وهو تخادع عن غفلة (اللسان : مادة ختل) . (٣) الخريدة : ج٣ ، ص ٣٦٩ . (٤) الذخيرة :ق٣م١ ، ص٢٥ .
(٥) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٧٢ . (٦) الملاطيس : المناقير من حديد (اللسان : مادة لطس) .

أن يُصْحَبَ الظفر ، وَيُسْعَد القَدَر ، وحُدّثتُ أنه دُعِيَتْ " نَزَالِ " فكنتَ أوّل نازلٍ ، فقلتُ لمحدثي : أمُجِدٌّ أنتأم هازل ؟ سيدي أشدّ بأساً ، وأعزُّ نفساً ، من أن يُرَى يوم جِلادٍ ، إلاّ على ظهر جواد . فان لبس زَغْفَاً " (١) ، هزم ألفاً ، وان تقلد صَمْصَامةً (٢) ، لم يبقِ هامة ، ولكن أذْكَرَهُ بهذه الشهامةِ ، قولُ ابي دلامة (٣) :

ولو أنَّ بُرْغوثاً على ظهر قَمْلَةٍ يَكُرُّ على صَفَّيْ تميم لَوَلّتِ " (٤)

فالرسالة تنهج نهجا قصصيا ، ويعتمد فيها الكاتب على ايراد حادثة يسخر من خلالها بالشجاعة المزعومة للمخاطب ، ويسلك في ذلك مسلك الوقار والجد ، فهو ان لبس الدرع المحكمة مثلا قتل ألف رجل ، وان تقلد سيفه لم يبق هامة أحد .

ومن الرسائل الديوانية التي كتبها ابن طاهر ، وتناول فيها أمور التعيين ، قوله في تولية حاكم على احدى جهاته . و قد افتتحها بأمر التكليف ، وبتحديد الوظيفة المنوطة بمخاطبه ، يقول : " قلّدتُ فلاناً – وفقه الله – النظرَ في أحكام فلانة ..." (٥) . ثم يبين أنه اختاره لمعرفته به وثقته بدينه ، وخبرته في الادارة ، حيث يقول : " وتخيرته لها بعدما خبرته ، واستخلفته ، وقد عرفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصينه ، لأنه ان احتاط سلم ، وان أضاع أثم ..." (٦) .

ثم هو يحدد له بايجاز الاحكام والقواعد العامة التي يسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم ، ويسدي له عددا من النصائح ،

---

(١) الزَّغْفُ : الدِّرْع المُحْكَمة (اللسان : مادة زغف) .

(٢) الصَّمْصَامة : السيف الصارم الذي لا ينثني (اللسان : مادة صمصم) .

(٣) البيت من شعر الطرماح ، ديوانه ص ٦٣ ، وقد اختار ابن طاهر نسبته الى أبي دلامة ، تهكما ، وتشبيها لمن يتحدث عنه في الجبن بأبي دلامة . (٤) الذخيرة : ق٣م١،ص ٦٩ .

(٥) الخريدة : ج٣ ،ص ٢٧٠ . (٦) المصدر السابق نفسه : ص ٢٧٠ .

ويحدد له عددا من الأمور التي يجب أن يلتزم بها في مجلس القضاء، يقول : " فليقم الحق على أركانه ،وليضع العدل في ميزانه ، وليسو بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، وليقف في الحكم عند اشتباهه ، ولينفذه عند اتجاهه ، ولا يقبل غير المرضي في شهادته ... وليعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسائله يوم ملاقاته "(١)

ولقد تناول ابن طاهر في رسائله عددا من الموضوعات الاخوانية كالمديح والتودد والثناء والشكر ، والرثاء والتعازي ، والشفاعات والوصايا . فلقد كتب ابن طاهر رسائل كثيرة الى جملة من الامراء والوزراء الذين وقفوا معه في محنته ، حيث كان يبعث اليهم برسائله شاكرا لهم مساعيهم ، ومعترفا بفضلهم، ومادحا اياهم بالنبل والوفاء والتضحية والاخلاص . ومن الامثلة على ذلك رسالة كتبها الى أبي بكر بن عبد العزيز بعد وصوله الى بلنسية ، ومكوثه عنده فترة . وقد افتتحها بمدحه والثناء عليه وذكر صفاته الحميدة ومآثره الجميلة ، حيث يقول : " من ذا يضاهيك ، والى النجم مراميك، فشأوك لا يدرك ، وشعبك لا يسلك "(٢) .

ويعترف ابن طاهر بفضله عليه ، ويقسم " لأعقدن على علاك من الثناء اكليلا ، يذر اللحظ من سناه كليلا، ولأطوقنه شرق البلاد وغربها ، ولأحملنه عجم الرجال وعربها ..."(٣) .

وكيف لا يفعل ابن طاهر ذلك وقد نصره ووقف الى جانبه وصرف عنه الظلم وألبسه المجد وأولاه البر ، يقول : " وكيف لا وقد نصرتني نصرا مؤزرا ، وصرفت عني الضيم عقيرا معفرا ، وألبستني البأو بردا مسهما ، وأوليتني فضلا متمما "(٤) .

---

(١) الخريدة : ج ٣ ،ص ٣٧٠ . (٢) الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ج٥ ،ص ٥٩٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ج٥ ،ص ٥٩٢ .

ومن الامثلة على رسائله في موضوع المدح والثناء والشكر ايضا ، تلك الرسالة التي كتبها الى ذي الرياستين حسام الدولة بن رزين جوابا على رسالة دعاه فيها الى المثول بين يديه . وقد افتتح ابن طاهر هذه الرسالة بالثناء على مخاطبه وتعداد محاسنه ، حيث يقول : " كل المعالي - أدام الله تأييد الحاجب ذي الرياستين - اليه ابتسامها ، وفي يديه انتظامها ، وعليه اصفاقها ، ولديه اشراقها ..."(١) .

ثم يشير الى كتابه الذي بعثه اليه يخطب فيه وداده ويستميل فؤاده ، ويعبر ابن طاهر عن مشاعر الامتنان والتقدير والعرفان بالجميل، حيث يقول : " وان كتابه الرفيع وافاني فكان كالزهر الجني ، والبشرى بعد النعي ، سرى الى نفسي فأحياها ، وسلى عني خطوب الكروب ... فلتأتينه مني بالثناء الركائب ، تحملها اعجازها والغوارب .."(٢) .

ويختتم ابن طاهر رسالته بالاعتذار عن عدم تمكنه من تلبية دعوة ابن رزين في المثول بين يديه ، يقول : " وفهمت ما أومى اليه من التنقل الى دراه ، والورود على نداه ، وأنى لي بذلك ، وقد قيدتني الهموم ، فما أستطيع نهضا ولا أتقدم ..."(٣) .

وكان الرثاء والتعازي من الاغراض التي تطرق اليها ابن طاهر في رسائله . ومن الامثلة على ذلك رسالة افتتحها بالحكمة ، ووصف حال الدنيا وحقيقتها ، وأن مآل الانسان فيها الى الموت ، حيث يقول : " الدنيا - أعزك الله - ليست بدار قرار ، والمرء فيها على شفا جرف هار ، وانما هي جسر على الطريق ، وعدو في ثياب صديق "(٤) . وبعد هذه المقدمة يشير ابن طاهر الى المتوفى ، ويدعو له حيث يقول : " و .... بلغتني وفاة فلان - رحمه الله ونضر وجهه وبرد ثراه ..."(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١،ص ٨٤ .

(٥) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٨٥ .

ويحاول ابن طاهر أن يخفف من لوعة مخاطبه ، اذ انه يعلم أن رجلا في مثل صلابته وقوته لا تؤثر فيه المنايا والمصائب ، يقول : " علمت أنك الجبل الذي لا يرتقي الجزع ذراه ، وان كان سهم المنايا أصاب خميما ، واستلب كريما ، فقد أبقى الله بك الصدع مرؤوبا ، والجزع مغلوبا ..."(١) .

ومن أشهر رسائل ابن طاهر في التعازي والرثاء ، تلك الرسالة التي خاطب بها حسام الدولة يحيى بن رزين (٢) يعزيه بوفاة والده ، وقد جمع فيها بين التعزية والمدح . فقد افتتح ابن طاهر رسالته بالحديث عن حالته ووصف مشاعره ، بعد أن فجع بوفاة والد صديقه ابن رزين ، اذ اشتعلت نار الاسى واللوعة بين ضلوعه ، يقول : " كتبت لهفان ، وقد أسمع الناعي ، فأضرم نار الأسى بين أضلاعي ، للرزية العظمى ، التي رمى سهمها فأصمى ، بوفاة ..."(٣) . ثم يتحدث عن صفات ابن رزين ومآثره ، فيذكر أنه حاز جميع المحاسن والفضائل ، وقل نظراؤه ، ويصور عظم المصيبة ، فقد مات بموته كثير من البشر ، يقول : " بوفاة من جمعت فيه المحاسن والخلال ، وزال كما تزول الجبال ، وقل له المشابه والنظير ، ومات بموته البشر الكثير ، الحاجب ذي الرياستين أبيك ، رب الشرف الصميم ، والحسب البعيد الكريم "(٤) .

ثم يدعو للمتوفى بأن يوسع الله رحمته ، وأن يجعل الجنة مأواه ، وأن يسقي قبره بوافر المطر ، وأن ينفعه بحسن السيرة وجلالة القدر ، وأن يجزيه جزاء حسنا ، يقول : " أوسعه الله رحماه ، وجعل الجنة مأواه ... سقى الله جدثه سيل القطر ، ونفعه بحسن المذهب وجلالة القدر ، وجزاه جزاء المحسنين ، وأنزله دار المقامة في عليين ..."(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٨٥ .
(٢) تقدمت ترجمته .
(٣) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٧٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .
(٥) المصدر السابق نفسه : ص ٧٦ .

لقد اتخذ ابن طاهر منهذا الدعاء وسيلة للانتقال الى مدح مخاطبه وتهنئته بتقلد الرئاسة مكان والده ، والدعوة له بطول العمر، ودوام العز وتحقيق الاماني ، يقول : " هنأك الله ميراثَهُ من الرياسة ، ومكانَهُ العليَّ من النفاسة ، ومنحك العمر الطويل ، وأمتعك العزَّ الظليل ، وساعفك بكل ما تهواه الزمان ..."(١) .

الخصائص الفنية لرسائله :

لقد شهد الذين ترجموا لابن طاهر بتقدمه في البلاغة وتفرده بالبيان، فقد ذكر الفتح بن خاقان أنه " به بدئ البيان وختم ، ولديه ثبت الاحسان وارتسم "(٢) . وذكر ابن الأبار انه كان " يتقدم رؤساء عصره في البلاغة والبيان "(٣) . وقال عنه صاحب الذيل والتكملة " أنه كان أحد المتقدمين في البلاغة بارع الكتابة فصيحا خطيبا "(٤) . ولكن الضّبي خالفهم الرأي بقوله " واشتهر بالنظم أكثر منه بالنثر "(٥) .

وكان ابن طاهر كما يذكر ابن بسام يماثل الصاحب بن عباد في الكتابة عن نفسه ، وله رسائل تشهد بفضله وتدلُّ على نبله . وقد جمع ابن بسام رسائله ودوّنها في كتاب سَمَّاهُ " سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر "(٦) ، الاّ أن هذا الكتاب من ضمن ما فقد من ذخائر العرب بالأندلس .

ويلاحظ الباحث أن ابن طاهر كان يهتم بالجمل الدعائية والمعترضة اهتماما كبيرا ، وكان يختار من صيغها ما يلائم مضمون الخطاب، ويناسب العاطفة والمشاعر التي يحس بها نحو المخاطب الذي يكتب اليه أو الموضوع الذي يتحدث عنه .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٧٦ . (٢) القلائد : ص ٥٧ .

(٣) الحلة السيراء : ج٢ ،ص ١١٨ . (٤) الذيل والتكملة : ج٥ ،ص ٥٩٠ .

(٥) بغية الملتمس : ص ٥١ . (٦) انظر : الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٢٥ .

ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها في موضوع التعزية والرثاء ، حيث يقول : " الدنيا - صَرَفَ الله عنك صروفها - على الفجائع مبنية ... وكتبت والدمع محدور ، وقد حُمّ قضاءٌ وَنَفَذَ مقدورٌ ، بوفاة الولد الطيب المبارك ... كان - نضّر الله وجهه ولقاه رحمته مغفرته ، ورفع في دار المقام منزلته - فناهيك بأسفي عليه وتوجّعي "(١) .

ومن ذلك أيضا ما ورد في رسالة كتبها في موضوع الوصية ، حيث يقول : " أكرمُ يَد - أعزّك الله - يطوّقها المرء جيدَ مَجْدِه .. ومُوْصِلُهُ - وصل الله حُرْمَتَكَ بالسلامة مِنْ نكدِ الأيام - ابن المستعين بالله - رضي الله عنه وأرضاه - توسّل بي الى مكارمك في ترميق ..."(٢) .

وحرص ابن طاهر على تضمين رسائله الشعر ، سواء أكانت هذه الاشعار من قريضه ، أو من نظم غيره من الشعراء المشارقة ، ومن الامثلة على رسائله التي ضمنها أشعار غيره ، قوله في رسالة كتبها في الدعابة والهزل : " وكأني أنظر اليك ، وقد استحرّ الجلاد ، وأدرك الاعجاب ، وهانَ عليك الكتاب ، وأنت تقولُ ، من فرط ما تصول (٣) :

إني انصرفتُ وأقلامي قَوائلُ لي ... المجدُ للسَّيف ليس المجد للقلم
اكْتُبْ بنا أبداً قبل الكتابِ بهِ ... فإنَّما نحن للأسيافِ كالخدم

ومن الامثلة على رسائله التي افتتحها بأبيات من شعره ، قوله في رسالة يعاتب فيها بعض أقاربه ، حيث يقول :

واذا الفتى صحب التباعد واكتسى ... كبرا علي فلست من أصحابه

نعم أعاذني الله من موجدتك ، ولا حرمني جميل رفقك ومودتك "(٤) .

ومن الخصائص الفنية لاسلوب ابن طاهر انه كان يلجأ الى كثير من معقود الشعراء فيحله ، ويدخله في مضمون عباراته ببراعة واتقان ،

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٧٨ . (٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٦٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ، ص ٧٥ ، والبيتان للمتنبي ، ديوانه : ج٤ ، ص ٢٩٢ . وقد وردت صيغتهما مخالفة لما ورد هنا : (حتّى رَجَعْتُ وأقلامي قوائلُ لي ..) و (أكْتُبْ بنا أبداً بَعْدَ الكتابِ به ..) .

(٤) الذخيرة : ق٣م١ ، ص ٥٣ .

ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة كتبها الى أحد الرؤساء يشكر لـه سعيه وعنايته به ، حيث يقول : " ومثلك في علوِّ النصاب ، وشرف الانتساب ، أعار بياني عنده بسطاً ، ونصَّ عليه من اختلالي فرطاً ، ودعاه الى ما يجدُهُ عند الله مُحْضَراً يوم القيامة ، وما يبقى إلاَّ الأحاديثُ والذِّكرُ "(١) .

ففي هذا القول ألفاظ محلولة من قول حاتم الطائي(٢) :

أماوِيَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ويَبْقَى مِنْ المال الأحاديثُ والذِّكر

ومن الأمثلة على ذلك أيضا قوله في رسالة يمدح فيها أبا بكر ابن عبد العزيز ويشكر له وقوفه الى جانبه ومساعدته له :" ولله درُّ الوزير الأجلِّ أبي بكر ، جوزي بوفائه ، وفسح الله له في ظلِّه وبقائه ، فانه ما اكتحل في كربتي بنوم ، ولا تمتَّع بمسرّة في يوم ، ولقد كانت قذى عينيه ، حتَّى حلَّني من وثاقها بيد "(٣) .

ففي هذا القول لفظ محلول من معقود قول ابراهيم الصولي :

ساشكرُ عمراً إن تراختْ منيتي أيادي لم تُمْنَنْ وإن هي جلَّت
رأى خَلَّتي من حيث يخفى مكانها فكانت قَذَى عينيه حتَّى تَجلَّت

ومن خصائص اسلوب ابن طاهر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فكان يورد بعض الايات بصيغتها ولفظها ، ومن ذلك ما أورده في رسالة يتمنى فيها أن يسعد بلقاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، ويقاتل تحت لوائه ، يقول : " وَدِدْتُ أن أُسْعَدَ بلقائه ، وأستظلَّ بلوائه ، وأُلِمَّ بجوانبه وأسيرَ في كتائبه ، فأنالَ حظاً جسيماً (ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا "(٤).

وكذلك كان يورد بعض الاحاديث النبوية بصيغتها ولفظها ، ومن ذلك ما أورده في رسالة يعاتب فيها بعض اقاربه ، حيث يقول:"وأردفت بقوله عليه السلام ، في من وصل أو قطع الرحم ، وتركت كلامه على تفرده. (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) "(٥) .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١، ص ٥٦، ٥٧. (٢)ديوان حاتم الطائي : ص ٢١٠ .
(٣) الذخيرة : ق٣م١،ص ٣٦. (٤)ديوان ابراهيم الصولي : ص ١٣٠
(٥) سورة النساء : الاية ٧٣. (٥)الذخيرة :ق٣م١،ص ٨٩.

وكان ابن طاهر يورد بعض الايات بمعناها دون لفظها أو يشير اليها، ومن ذلك ما ورد في قوله : " الاقلامُ ... ذكرها مُنَزَّلٌ في مُحْكم الذِّكر"(١) ، وفي هذا القول اشارة الى قوله تعالى : (ن والقلم ومايسطرون)(٢) ، وقوله تعالى : (اقرأ وربك الاكرم الذي عَلَّم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم)(٣) .

ومن الخصائص الفنية لاسلوب ابن طاهر ذكر الاخبار والاشارات التاريخية ومشاهير الرجال . ومن الامثلة على ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها أحد اخوانه ، حيث يقول : " وضربتَ المثلَ في صحيفة قريش على بني هاشم الاخيار "(٤).

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها عناية بأحد الكتاب ، حيث يقول : " وتصفحت ما قُرِنَ بتلك الأسفار ، من منتقى الأشعار ، يتخللها من الكلم السلسال ، والمثل المنثال ،ما... يفضحُ عمرو(٥) البيان في نزعاته ، فشهدتُ لقد أوتي البسطة ..."(٦) .

ومن الخصائص الفنية لاسلوب ابن طاهر اللجوء الى المحسنات البديعية والمعنوية المختلفة ، وخاصة السجع اذ يجد الباحث أن جميع رسائل ابن طاهر مبنية على السجع الجميل القائم على تنويع الفواصل ، وقصر الفقرات . ومن الامثلة على ذلك قوله في رسالة يعزي فيها بعض اخوانه: " أيُّ ذهن - أيَّدَك الله - ينطاعُ ،أم أيُّ كلام يُسْتَطاع ، واللسانُ معقول ، والفؤاد منقول ، والدمعُ هامرٌ ، والشجو داثرٌ ، لما طرقتْ به الأيامُ ،وقرع به الحمام "(٧) .

وكما يظهر فان الكاتب لا يلتزم حرفا واحدا ، وانما ينوِّع حرف السجعة .

ومن المحسنات التي استخدمها ابن طاهر الجناس . ومن الامثلة على ذلك قوله : " وأما الفقيه أبو مروان فرائح في قميصه المدلوك ... يحذر من الفُرْقة ، ويقص على الفِرْقَة "(٨).

ومن ذلك أيضا قوله مخاطبا أحد اخوانه : " وبلغ بالنفس التراقي، تأسُّفاً لبُعْدك ، ومخالفةً للهموم من بَعْدِكَ "(٩) .

فقد جانس الكاتب في المثال الاول بين لفظي : فُرْقة وفِرْقة ، وجانس فيالمثال الثاني بين لفظي بُعْدك وبَعْدك.

---

(١) القلائد : ص ٦٥ . (٢) سورة القلم : الاية ١ .
(٣) سورة العلق: الاية ٣. (٤) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٥٤ .
(٥) يريد عمرو بن بحر الجاحظ. (٦) الذخيرة : ق٣م١،ص ٥٩.
(٧) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٨٠ .
(٨) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٦٩.
(٩) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٥٢ .

أَمَّا الطباق فيظهر في قوله : " ولله الشكوى ، فهو أَضْحَك وأَبْكَى "(١) .

فقد طابق بين لفظي أضحك وأبكى . ومن ذلك أيضا قوله : " وقد طَوَّقتني بالأديب ... طوقَ الحمامة ، فتنفستُ أنفاس العراق ، واجتليتُ محاسنَ كالجمع بعد الفراق ، ولقد لطف فيما ألتف ... وصرَّف المتأمل فيه بين جدٍّ وهَزل "(٢) .

فقد طابق بين لفظي الجمع والفراق ، وبين لفظي جد وهزل .

أما المقابلة فتظهر في قوله من رسالة يعزي فيها بوفاة المقتدر ابن هود ، ويذكر مناقبه : " يعزُّ الدينَ بمكانه ، ويذلُّ الشرك لسلطانه "(٣) .

فقد قابل بين جملتي : يعز الدين بمكانه ، ويذل الشرك لسلطانه .

---

(١) الذخيرة : ق٣م١ ،ص ٨١.

(٢) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٥٩ .

(٣) المصدر السابق نفسه : ق٣م١ ،ص ٨٣ .

الخاتمـــــة

يعتبر أدب الرسائل لونا من ألوان النثر الفني الجميل ، وضربا مــن ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالا . ولا يكاد يختلف مفهـــوم أدب الرسائل عند الأندلسيين عن مفهومه عند المشارقة ، فالأدب في عرفهم جميعا ينقسم الى أصلين أساسيين : منظوم ومنثور ، والمنثور فيه الخطـــب والرسائل ، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر .

وقد كان أدب الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني الى الظهور فـــي الأندلس ، فأهل الجزيرة كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منـــذ أول قدومهم الى تلك البلاد . وقد تطور أدب الرسائل في الأندلس في القـــرن الخامس الهجري تطورا كبيرا ، من حيث الاتجاهات والموضوعات ، واستطـــاع الكتاب أن يجولوا برسائلهم في كل ميدان ، وأن يعالجوا شتى الموضوعـــات والأغراض السياسية والاجتماعية ، والجهاد والصراع مع الصليبيين ،والمفاضلات والمفاخرات ، والنقد الأدبي ، والفكاهة ، والديوانيات والاخوانيات وغيرها .

واقتحم الكتاب على الشعر ميادينه وأغراضه ، فكانت لهم جوانـــب ابتكار سبقوا المشارقة اليها ، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل وأغراضه ، فظهرت عندهم رسائل الشوق والوجد الديني لزيارة قبر الرسول الكريم صلـــى الله عليه وسلم وتأدية فريضة الحج ، ورسائل المفاضلات والمفاخرات بيـــن الأزهار والورود ، والمفاخرة بين السيف والقلم ،ورسائل الزرزوريات ، ووصـــف صيد البحر .

وقد واكب أدب الرسائل جميع مظاهر الحياة الاندلسية ، وكان انعكاسا لها بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والفكرية والطبيعية ، مما جعل لـــه قيمة انسانية كبيرة حفظت له حياته ، وضمنت بقاءه في المصادر التاريخيـــة والأدبيـــة .

وكما تطور أدب الرسائل من حيث الموضوعات والأغراض ، فقد تطور مـــن الناحية الفنية أيضا ، وعلى الرغم من تأثر الكتاب الأندلسيين بأساليـــب المشارقة وطرائقهم الفنية المختلفة ، فقد كانت هناك خصائص تميزت بهـــا رسائلهم عن الرسائل المشرقية . فقد اتخذت رسائلهم في بنائها شكلا فنيـــا جديدا يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في الرسائل المشرقية التي تبـــدأ في الغالب بالبسملة ، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم . فصارت رسائلهـم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعـــروف ،

وتبدأ بالدعاء للمرسل اليه ، أو بالمنظوم ، أو بالدخول في الموضوع مباشرة ، أو بتمهيد يتفاوت بين الاسهاب والتطويل والايجاز والاختصار ، تبعا لتنوع مقامات المرسل اليهم ، واستخدام الالقاب التي تتناسب ومن يكتب اليه أميرا أو وزيرا أو صديقا . وأكثر الكتاب من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامة ، وكانوا يضمنون رسائلهم أبياتا وقصائد حسب ما يقتضيه حال الخطاب ، وما يلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص ، وقد أبدعوا في ذلك حتى لو نثر شعرهم لكان قريبا من نثرهم ، ولو نظم نثرهم لكان شبيها من شعرهم ، وتفاوتت اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته في احتوائها لظاهرة التنويع بين الشعر والنثر .

وحرص الكتاب على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما حرصوا على تضمين رسائلهم الاخبار والأمثال والحكم الى غير ذلك من مصطلحات الفقه والنحو .

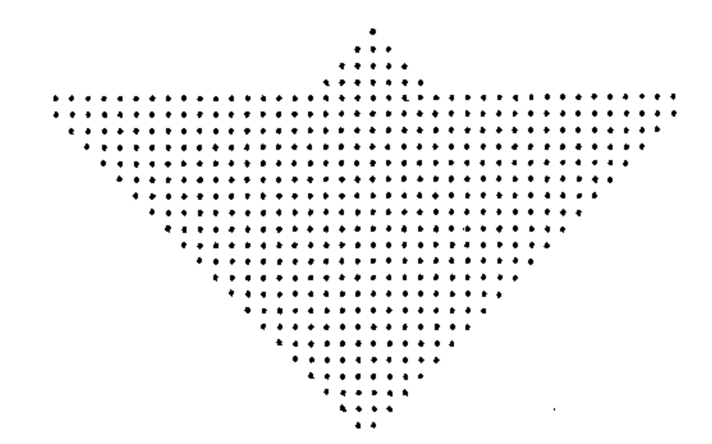
ولم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الايجاز والاطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل ، وعلى الرغم من ذلك فان سمة الاطناب تظهر في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها في الأندلس في هذا القرن .

أما من حيث الألفاظ وزخرفتها فقد كان الطابع العام والسمة الغالبة على ألفاظ أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية ، وغيرها من الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة ، من تنافر الحروف ووحشية الالفاظ ، ومخالفة القياس . كما استعملوا من الفاظ المشارقة وتراكيبهم في التعبير عن موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ما يناسب حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية والسياسية وبيئتهم الطبيعية فاختفت الالفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستخدمها الكتاب المشارقة ، لأنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي .

وأخذ الكتاب الأندلسيون بالكتابة المتأنقة ، وأكثروا من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ما كان يفعل الكتاب المشارقة ، وقد كان السجع والازدواج والجناس من أكثر هذه المحسنات البديعية شيوعا ، وقد أجادوا في استعمالها ، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيها ، الا أنهم مالوا الى الاعتدال في استخدامها ، فلم يسرفوا ، ولم يفتنوا في اصطيادها ، وقد جروا في هذا المجال مع ما يتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية ، وما لهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة .

أما من حيث التعبير عن المعاني ، فلم يقتصر اهتمام الكتاب الأندلسيين على اللفظة المفردة ، بل تعدى ذلك الى الاهتمام بالجمل والعبارات ، فقد عملوا على زيادة الانسجام بين اللفظة المفردة والجملة ، بحيث ظهرت أشكال التعبير منسجمة في ألفاظها وعباراتها مع معانيها بوضوح وتأثير . وقد اعتمدوا على عدد من الأدوات لاخراج عباراتهم بأسلوب جميل مؤثر ، ومن هذه الأدوات الخيال والصور البيانية اضافة الى عدد من المحسنات البديعية كان من أبرزها الطباق والمقابلة .

ولقد استطاع الكتاب الاندلسيون أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم وأن يفتنوا فيها ، حتى لتبدوا بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور . لا ينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعرا .




الفهـــارس العامـــة

فهرس المصادر والمراجع والمقالات

أولا : المصادر :

أ - المخطوط منها :

١- ترسل الفقيه الكاتب أبي عبدالله بن أبي الخصال (ت ٥٤٠ هـ)/ الاسكوريال (مخطوط رقم ٥١٩) - نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية .

٢- رسائل اخوانية اندلسية (مخطوطة بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية / رقم ٤٦٥٠ أدب) .

٣- رسائل سياسية واخوانية اندلسية / الاسكوريال (مخطوط رقم ٤٨٨) - نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية .

٤- رسائل سياسية واخوانية اندلسية / الاسكوريال (مخطوط رقم ٥٣٨) - نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية .

٥- مسالك الابصار / ابن فضل الله العمري : أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ) :

- ج ٨ ، ج١١ / الاسكوريال (نسخة مصورة محفوظة في مكتبة الجامعة الاردنية .
- ج١٠/ دارة الكتب المصرية (مخطوط رقم ٥٥٩ معارف عامة).

ب- المطبوع منها :

٦- القرآن الكريم .

٧- الاحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين بن الخطيب : ابو عبدالله محمد بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، ط ٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٣ / ١٩٧٥ .

٨- احكام صنعة الكلام / الكلاعي : ابو القاسم محمد بن عبد الغفور الاشبيلي الاندلسي (من أعلام القرن السادس الهجري) ، تحقيق محمد رضوان الداية ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٩- اخبار العلماء بأخبار الحكماء / القفطي :ابو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) ، عني بتصحيحه محمد امين الخانجي ، مطبعة السعادة بمصر ، (د . ت) .

١٠- اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها / مؤلف مجهول : مكتبة المثنى ، بغداد (صورة عن طبعة دبرنير ، مجريط ١٨٦٧).

١١- اخبار وتراجم أندلسية/ السلفي ابو طاهر صدر الدين أحمد بن محمد : تحقيق احسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٣ .

١٢- أزهار الرياض في أخبار عياض / المقّـري:شهاب الدين أحمد بن محمد المقـري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) :

- ج١ - ج٣ ، أعيد طبعهما تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشـر التراث الاسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولـة الامارات العربية المتحدة ، (د . ت) .

- ج٤ - ج٥ ، تحقيق سعيد أحمد اعراب وعبد السلام الهراس ، طبعا تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين حكومـة المملكة المغربية وحكومة دولة الامـارات العربية المتحدة (د.ت).

١٣- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى / الناصري:ابو العباس أحمد بـن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي (ت ١٣١٥ هـ) : تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (ولدا المؤلف) مطبعة دار الكتـب، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ - ١٩٥٦ .

١٤- اسماء خير العرب وانسابها وذكر فرسانها / الاسود الغندجانـي: أبو محمد الاعرابي (كان حيا سنة ٤٣٠ هـ) : حققه وقدم له محمد علي سلطاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .

١٥- اشعار الشعراء الستة الجاهليين / الاعلم الشنتمري:يوسف بن سليمـان بن عيسى (ت ٤٧٦ هـ) : دار الافاق الجديدة ،بيروت ، ١٩٧٩.

١٦- اعتـاب الكتـاب / ابن الابار:ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبـي بكر القضاعـي (ت ٦٥٨ هـ) : تحقيق صالح الاشتر ، مجمع اللغة العربيـة، دمشق ، ١٩٦١ .

١٧- الامامة والسياسة /ابن قتيبة :أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينـوري (ت ٢٧٦هـ) : مصطفى البابي الحلبـي ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٨- انباه الرواة على أنباء النحاة / القفطي :ابو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيـم، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠ - ١٩٥٥ .

١٩- الانتصار ممن عدل عن الاستبصار / ابن السيد البطليوسي:ابو محمـد عبدالله بن محمد (ت٥٢١ هـ) : تحقيق حامد عبدالمجيـد ، الادارة العامة للثقافة ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٥.

٢٠- انساب الاشراف / البلاذري :احمد بن يحيى بن جابر بن داوود (ت٢٧٩هـ) مكتبة المثنى ،بغداد ،(د . ت) .

٢١- الانيـس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينـة فـاس / ابن ابي زرع:علي بن عبدالله بن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ): دار المنصور ، الرباط ، (د. ت) .

٢٢- البخلاء / الجاحظ :ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) : ضبطه وشرحه وصححه احمد العواملي و علي امين ، المطبعة الاميرية ، القاهـرة، ١٩٥٧ .

٢٣- البديع في وصف الربيع / ابو الوليد الحميري:اسماعيل بن عامر (ت ٤٤٠ هـ) : اعتنى بنشره وتصحيحه هنري بيريس ، المطبعة الاقتصادية، الرباط ، ١٩٤٠ .

٢٤- البرهان في وجوه البيان / ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان الكاتب : تحقيق احمد مطلوب وخديجة الحارثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٧ .

٢٥- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس / الضبي :احمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ) : دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٢٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / السيوطي :جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ) : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٧- بهجة المجالس وأنس المجالس / ابن عبد البر :يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) : تحقيق محمد الخولي ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٢٨- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب / ابن عذارى :ابو عبدالله احمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥ هـ) :

- ج١ نشر وتحقيق ج. س. كولان و ا. ليفي بروفنسال ، مطبوعات أ. ج . بريل ، ليدن ، هولندا ، ١٩٤٨ .

- ج٢ تحقيق ج.س. كولان و ا . ليفي بروفنسال ، بريل ، ليدن ، هولندا ، ١٩٤٨ - ١٩٥١ .

- ج٣ تحقيق ا . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، (د. ت) .

- ج٤ كتب التعليقات احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٢٩- البيان والتبيين / الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) : تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٣٠- تاريخ ابن خلدون / ابن خلدون :عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ) : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦١- ١٩٦٧ .

٣١- تاريخ اسبانيا الاسلامية أو كتاب أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام / لسان الدين ابن الخطيب :ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) : تحقيق وتعليق ا . ليفي بروفنسال ، ط٢ ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .

٣٢- تاريخ افتتاح الاندلس / ابن القوطية :ابو بكر محمد بن عمر الاندلسي (ت ٣٦٧ هـ) : حققه وشرحه وعلق عليه عبدالاله انيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٣٣- تاريخ الاندلس / ابن الكردبوس :عبدالملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (توفي بعد ٥٧٥ هـ) : تحقيق احمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٧١ .

٣٤- تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء / للقفطي ابي الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ) : مكتبة المثنى ببغداد ، ومؤسسة الخانجي في القاهرة (د. ت) .

٣٥- تاريخ الرسل والملوك / الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ،القاهرة ، ١٩٦٠ .

٣٦- تاريخ علماء الاندلس / ابن الفرضي :ابو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الاسدي (ت ٤٠٣ هـ) : الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ، ١٩٦٦ .

٣٧- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : ألقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام / لسان الدين بن الخطيب أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) : تحقيق وتعليق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ،الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

٣٨- التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن / الزملكاني : عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف الانصاري (ت ٦٥١ هـ) : تحقيق احمد مطلوب ، مكتبة العاني ،بغداد ، ١٩٦٤ .

٣٩- تذكرة الحفاظ / الذهبي ابو عبدالله شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ) : مطبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدر اباد ، ١٣٣٣ هـ .

٤٠- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك / القاضي عياض:أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ) : تحقيق احمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٧ .

٤١- التقريب لحد المنطق والمدخل اليه / ابن حزم الاندلسي:ابو محمد علي ابن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) : تحقيق احسان عباس ،مكتبة الحياة (د.ت).

٤٢- التكملة لكتاب الصلة / ابن الابار:ابو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) : عني بنشره وصححه ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني (د. ن) ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٤٣- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون / صلاح الدين الصفدي خليل ابن ايبك بن عبدالله (ت ٧٦٤ هـ) : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٤٤- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب / الثعالبي أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ) : مطبعة الظاهر،القاهرة،١٩٠٨.

٤٥- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس / المكناسي ابو العباس احمد بن محمد بن ابي العافية (ت ١٠٢٥ هـ) : دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٣ .

٤٦- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس / الحميدي ابو عبدالله محمد بن فتوح (ت ٤٨٨ هـ) : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٦٦ .

٤٧- جمهرة انساب العرب / ابن حزم الاندلسي:ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) : تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون ،دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

٤٨- جيش التوشيح : لسان الدين الخطيب:أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) : تحقيق وتقديم هلال ناجي ، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٧ .

٤٩- حسن التوسل الى صناعة الترسل / شهاب الدين الحلبي:ابو الثناء شهاد الدين محمود بن سليمان (ت ٧٢٥ هـ) : تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .

٥٠- الحلة السيراء / ابن الابار:ابو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ) : تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦٣.

٥١- الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية / مؤلف اندلسي (من أهل القرن الثامن الهجري) : حققه سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

٥٢- الحيوان / الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) : تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر، ١٩٣٨ .

٥٣- خريدة القصر وجريدة العصر : قسم شعراء المغرب والاندلس / العماد الاصفهاني: ابو محمد صفي الدين عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ): تحقيق آذرتاش و آذرنوش ، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧١ - ١٩٧٢ .

٥٤- دار الطراز في عمل الموشحات / ابن سناء الملك: ابو القاسم هبة الله ابن جعفر (ت ٦٠٨ هـ) : تحقيق جودت الركابي ، ط٢ ، دار الفكر دمشق ، ١٩٧٠ .

٥٥- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور / زينب العاملي ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣١٢هـ .

٥٦- ديوان الصولي / الصولي: ابراهيم بن العباس (ت ٢٤٣ هـ) / الطرائف الادبية ، القسم الثاني ، صححه وخرجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيله عبدالعزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٥٧- ديوان ابي اسحق الالبيري / ابو اسحق الالبيري: ابراهيم بن مسعود التجيبي (ت ٤٦٠ هـ)، دار قتيبة / دمشق ١٩٨١ .

٥٨- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي / ابو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف، القاهرة (د . ت) .

٥٩- ديوان أبي نواس برواية الصولي / ابو نواس : الحسن بن هانيء، (ت ١٩٥ هـ) ، تحقيق بهجت عبدالغفور الحديثي ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠ .

٦٠- ديوان ابن حمديس / ابن حمديس : ابو محمد عبدالجبار بن أبي بكر، (ت ٥٢٧ هـ) ، تصحيح وتقديم احسان عباس ، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.

٦١- ديوان ابن خفاجة / ابن خفاجه : أبو اسحق ابراهيم بن خفاجة الاندلسي (٤٥١ - ٥٣٣ هـ) ، تحقيق السيد مصطفى غازي ، منشأة المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٦٢- ديوان ابن دراج القسطلي / ابن دراج القسطلي: ابو عمر احمد بن محمد بن العاص (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق محمود علي مكي ، ط١، منشورات المكتب الاسلامي ، دمشق ، ١٩٦١ .

٦٣- ديوان ابن رشيق / ابن رشيق : ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) ، جمع وترتيب عبدالرحمن ياغي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د . ت) .

٦٤- ديوان ابن زيدون / ابن زيدون : ابو الوليد احمد بن عبدالله (٣٩٤ - ٤٦٣ هـ) ، شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني ، ط٣، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ١٩٦٥ .

٦٥- ديوان ابن شهيد الاندلسي / ابن شهيد : ابو عامر احمد بن أبي مروان عبدالملك (ت ٤٢٦ هـ) ، جمعه وحققه يعقوب زكي ، راجعه محمود علي مكي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د . ت) .

٦٦- ديوان ابن عبد ربه / ابن عبد ربه : ابو عمر احمد (ت ٣٢٨ هـ) حققه وجمعه وشرحه محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٦٧- ديوان الحطيئة : من رواية ابن حبيب عن ابن الاعرابي وشرح أبي سعيد السكري / الحطيئة : جرول بن أوس بن مالك العبسي (توفي نحو ٤٥ هـ)، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨١ .

٦٨- ديوان الشريف الرضي / الشريف الرضي : ابو الحسن محمد بن الحسين (ت ٤٠٦ هـ) ،دار صادر بيروت ، (د . ت) .

٦٩- ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره / حاتم الطائي : أبو عدي حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج (ت ٤٦ ق . هـ) ، صنعه يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق عادل سليمان (د . ن) ، (د . ت) .

٧٠- ديوان الطرماح /الطرماح : الطرماح بن حكيم بن الحكم (توفي نحو ١٢٥ هـ) ، تحقيق عزت حسن ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٨.

٧١- ديوان المعتمد بن عباد / المعتمد بن عباد : ابو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي (ت ٤٨٨هـ)، جمع وتحقيق رضا الحبيب السوسي ، الدار التونسية للنشر ، تونس، ١٩٧٥.

٧٢- ديوان الهذليين / الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٦٥، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) .

٧٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام الشنتريني : ابو الحسن علي (ت ٥٤٢ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ - ١٩٧٩ .

٧٤- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة / ابن عبدالملك المراكشي : ابو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الانصاري المراكشي ، (ت ٧٠٣ هـ) :

- ج١ ، تحقيق محمد بن شريفة واحسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت ١٩٦٤ .

- ج٢ ،تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د . ت) .

- ج٥ ،تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ،بيروت ١٩٦٥ .

٧٥- رايات المبرزين وغايات المميزين /ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضي ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٧٦- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل اخرى / ابن حزم : ابومحمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، مكتبة العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٧٧- رسائل ابن حزم / ابن حزم الاندلسي : ابو محمد علي بن احمد ابن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ - ١٩٨٣ .

٧٨- رسالة التوابع والزوابع / ابن شهيد : ابو عامر احمد بن أبي مروان عبدالملك (ت ٤٢٦ هـ) ، صححها وحققها بطرس البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٧٩- الرسالة المصرية / ابو الصلت امية بن عبدالعزيز الاندلسي (ت ٥٢٨ هـ) ، نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى ، ط٢،شركة مكتبة البابي الحلبي واولاده ،القاهرة ، ١٩٧٢ .

٨٠- الروض المعطار في خبر الاقطار / الحميري : ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ، تحقيق احسان عباس ، ط٢ ، مكتبة لبنان،بيروت ١٩٨٤.

٨١- زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر / صفوان بن ادريس : ابو بحر صفوان بن ادريس التجيبي (ت ٥٩٨ هـ) ، اعده وعلق عليه عبدالقادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٨٢- زهر الاداب وثمر الالباب / الحصري : ابو اسحق ابراهيم بن علي ابن تميم الانصاري (ت ٤٥٣ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، (د . ن) ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٨٣- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون / ابن نباتة المصري : جمال الدين محمد بن محمد (ت ٧٦٨ هـ) ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٨٤- سير النبلاء : جزء خاص بترجمة الامام ابن حزم الاندلسي /الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق سعيد الافغاني ،دار الفكر ،بيروت ، ١٩٦٩ .

٨٥- السيرة النبوية / ابن هشام : ابو محمد عبدالملك بن هشام بن ايوب الحميري (ت ٢١٣ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

٨٦- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية / محمد بن محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (طبعت بالاوفست عن الطبعة الاولى سنة ١٣٤٩ هـ) .

٨٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب / ابن العماد الحنبلي : ابو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩ هـ)،المكتب التجاري للطباعة والنشر،بيروت ، (د . ت).

٨٨- شرح ديوان المتنبي : وضعه عبدالرحمن البرقوقي / المتنبي : ابو الطيب احمد بن الحسين (ت ٣٥٤ هـ) ،دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٨٠ .

٨٩- شرح الزرقاني على المواهب اللدنّية للقسطلاني / الزرقاني : ابو عبدالله محمد بن عبدالباقي (ت ١١٢٢ هـ) ، المطبعة الازهرية القاهرة ، ١٣٢٩ هـ .

٩٠- شرح الشفا / القاري : نور الدين علي بن سلطان(ت ١٠١٤هـ) ، المطبعة الازهرية، القاهرة ،١٣٢٧ هـ .

٩١- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني /بديع الزمان الهمذاني:ابو الفضل احمد بن الحسين(ت ٣٩٨هـ) ، شرح محمد محيي الدين عبدالحميد،ط٢ ، (د . ت) .

٩٢- شروح سقط الزند / المعري : ابوالعلاء احمد بن عبدالله (ت ٤٩٩هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٥ - ١٩٤٨ .

٩٣ شعراء القيروان من انموذج الزمان / ابن رشيق : ابو علي الحسن ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) ، جمع وتعليق زين العابدين السنوسي ، دار المغرب العربي ، ١٩٧٣ .

٩٤- الشعر والشعراء / ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، ط٤ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٩٥- صبح الاعشى في صناعة الانشا/ القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١ هـ) ، دار الكتب المصرية ،القاهرة، (د.ت).

٩٦- الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية / الجوهري : اسماعيل بن حماد، (ت ٣٩٣ هـ) ، تحقيق احمد عبدالغفور عطار،ط٢ ، دار العلم للملايين،بيروت ،١٩٧٩ .

٩٧- صحيح الجامع الصغير / السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن ، (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، ط٢ ، المكتب الاسلامي ، بيروت ١٩٧٩ .

٩٨- صحيح مسلم / مسلم : ابو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٠٦ - ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد فؤادعبدالباقي ، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٥ .

٩٩- صفة جزيرة الاندلس :منتخبة من الروض المعطار في خبر الاقطار / الحميري : ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ، تحقيق ا. ليفي بروفنسال ، (د. ن) ، القاهرة ،١٩٣٧.

١٠٠- الصلة / ابن بشكوال : ابو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦.

١٠١- طبقات الامم / صاعد الاندلسي : ابو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ) ، تحقيق محمد بحر العلوم ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف ، ١٩٦٧ .

١٠٢- طبقات النحويين واللغويين / الزبيدي الاندلسي : ابو بكر محمد ابن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

١٠٣- طوق الحمامة في الالفة والالاف / ابن حزم الاندلسي : ابو محمد علي ابن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ،حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، (د. ت) .

١٠٤- العبر في خبر من غبر / الذهبي : ابو عبدالله شمس الدين محمد ، (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠ .

١٠٥- " الفريد "/ ابن عبد ربه : ابو عمر احمد (ت ٣٢٨ هـ) ، شرح وضبط احمد امين واحمد الزين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠ .

١٠٦- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / ابن رشيق : ابو علي الحسن إبن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

١٠٧- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات / القزويني : زكريا بن محمد ابن محمود (ت ٦٨٢ هـ) ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٠٨- عيار الشعر / ابن طباطبا : محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ) تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٠٩- عيون الاخبار / ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١١٠- عيون الانباء في طبقات الاطباء / ابن ابي اصيبعة : موفق الدين ابو المعالي العباس احمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ) ، شرح وتعليق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

١١١- فتح الباري بشرح صحيح الامام عبدالله بن اسماعيل البخاري/ ابن حجر : علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (د. ت) .

١١٢- الفتح الكبير في ضم الزيادة الى الجامع الصغير / السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ) ، مزجهما ورتبهما الشيخ يوسف النبهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د . ت) .

١١٣- فصل المقال في شرح كتاب الامثال / ابو عبيد البكري : ابو عبيد بن محمد بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، حققه وقدم له وعلق عليه احسان عباس وعبدالمجيد عابدين ، دار الامانة ومؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٠ .

١١٤- فضائل الاندلس وأهلها / ابن حزم ، وابن سعيد ، والشقندي : ابن حزم : ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) ، نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

١١٥- الفهرست / ابن النديم : ابو الفرج محمد بن اسحق بن محمد (ت ٤٣٨ هـ) مكتبة خياط ، بيروت (د . ت) .

١١٦- فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف / ابن خير : ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة (ت ٥٧٥هـ) ، بعناية فرنشكه قداره زيدن و خليان ربارة طرغوة (د . ن) ١٩٦٣ .

١١٧- فوات الوفيات والذيل عليها / الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ) تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١١٨- القاموس المحيط / الفيروزابادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت ٨٢٣ هـ) ، دار الجيل بيروت ، (د . ت) .

١١٩- قضاة قرطبة / الخشني : ابو عبدالله محمد بن حارث (ت ٣٦١ هـ) ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، (د . ن) القاهرة ، ١٣٧٢هـ .

١٢٠- قلائد العقيان / ابن خاقان : ابو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله ابن خاقان القيسي الاشبيلي ، (ت ٥٢٩ هـ) ، (د . ن) القاهرة ، ١٢٨٣ هـ .

١٢١- الكامل في التاريخ / ابن الاثير : علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ) دار صادر بيروت، ١٩٦٦.

١٢٢- كتاب الف باء/ البلوي : ابو الحجاج يوسف بن محمد ، (ت ٦٠٤هـ) جمعية المعارف ، القاهرة ، ١٢٨٧ .

١٢٣- كتاب الامالي / القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د. ت) .

١٢٤- كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر / ابو هلال العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ،القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٢٥- كتاب الفلاحة /ابن بصال : ابوعبدالله محمد بن ابراهيم(من علماء القرن الخامس الهجري) نشره خوسي مارسيه ومحمد عزيمان (د. ن) تطوان ، ١٩٥٥ .

١٢٦- كتاب الاغاني / ابو الفرج الاصفهاني : علي بن الحسن (ت ٣٥٦ هـ) دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ - ١٩٦١ .

١٢٧- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون / حاجي خليفه : مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧ هـ) ، مكتبة اسلامية والجعفري تبريزي ، طهران ١٩٤٧ .

١٢٨- لسان العرب / ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (٧١١ هـ) ، دار صادر ، بيروت ، (د . ت) .

١٢٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر /ابن الاثير : ابو الفتح نصر الله الجزري (ت ٦٣٦هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٩ .

١٣٠- مجمع الامثال / الميداني : ابو الفضل محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية (د . ت .

١٣١- المحمدون من الشعراء وأشعارهم / القفطي : ابو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ) ، تحقيق حسن معمري ، اشراف شارل بلا راجعه حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض، ١٩٧٠ .

١٣٢- المختار من شعر بشار / بشار ابن برد العقيلي : (ت ١٨٦ هـ)، اختيار الخالديين ، وشرحه لابي الطاهر اسماعيل بن احمد بن زيادة الله التجيبي البرقي ، اعتنى بنسخة وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه محمد بدر الدين العلوي ، عليكره ، الهند ١٩٣٤ .

١٣٣- مذكرات الامير عبدالله المسماة بكتاب التبيان / ابن بلقين : عبدالله بن بلقين بن زيري الصنهاجي (ت ٤٨٣ هـ)،تحقيق : ا . ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٣٤- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان / اليافعي : عفيف الدين ابو السعادات عبدالله بن اسعد (ت ٧٦٨ هـ) مؤسسة الاعلمي بيروت ، ١٩٧٠ .

١٣٥- مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع / صفي الدين عبدالمؤمن ابن عبدالحق البغداد (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ .

١٣٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر / المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين ابن علي :باعتناء الاستاذين باربي دميانارو و باوه دكورتل ط٢ ، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان طهران ، ١٩٧٠ .

١٣٧- المصايد والمطارد / كشاجم : ابو الفتح محمود بن الحين (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق محمد اسعد طلس ، دار اليقظة ، بغداد ، ١٩٥٤ .

١٣٨- المطرب من أشعار اهل المغرب / الداوودي محمد علي المصري (ت ٩٤٥) (د . ن) القاهرة ١٩٥٤ .

١٣٩- مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس / ابن خاقان : ابو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي الاشبيلي (ت ٥٢٩هـ) ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكه ، مؤسسة الرسالة ودار عمار ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٤٠- المعجب في تلخيص أخبار المغرب / المراكشي : عبدالواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧ هـ) ،تحقيق محمد علي العريان ، لجنة احياء التراث الاسلامي . المجلس الاعلى للشؤون الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٤١- معجم الادباء /ياقوت الحموي : ابو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، تحقيق اهد فريد الرفاعي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

١٤٢- معجم البلدان / ياقون الحموي : ابو عبدالله بن عبدالله الرومي الحموي ، (ت ٦٢٦ هـ) دار صادر بيروت ، ١٩٥٥ .

١٤٣- معجم الشعراء / المرزباني : ابو عبدالله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ) تحقيق عبدالستار احمد فراج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٤٤- المعجم في اصحاب ابي علي الصدفي/ابن الابار : ابو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٦٥٨ - دار الكاتب العربي القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٤٥- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / ابو عبيد البكري : ابو عبيد بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١٤٦- المغرب في حلل المغرب / ابن سعيد : علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٤٧- مفاتيح العلوم / الخوارزمي : ابو عبدالله محمد بن احمد ، (ت ٣٨٧ هـ) ، تحقيق جرلوف فان فولتن ليدن ، ١٩٦٨ .

١٤٨- المقتبس في أخبار بلاد الاندلس /ابن حيان : ابو مروان حيان ابن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ) ، تحقيق عبدالرحمن علي الحجي ،دار الثقافة ،بيروت ، ١٩٦٥ .

١٤٩- المقتبس من أنباء أهل الاندلس / ابو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ)،حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي ،دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٥٠- المقتبس / ابو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ) ج ٥ ، اعتنى بنشره ب . شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف . كورلينطي و م. صبح وغيرهما ، المعهد الاسباني العربي للثقافة ، كلية الاداب بالرباط ، مدريد ،١٩٧٩ .

١٥١- ملحمة السيد : أول ملحمة اندلسية كتبت في اللغة القشتالية / مؤلف مجهول ، ترجمة الطاهر احمد مكي ،دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٥٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة /ابن تغري بردي : ابو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ) دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٥.

١٥٣- نزهة الالباء في طبقات الادباء / ابن الانباري : ابوالبركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ) ، تحقيق ابراهيم السامرائي ، وزارة المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٥٤- نزهة الجلساء في أشعار النساء / السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد بيروت ، ١٩٧٨ .

١٥٥- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس / الادريسي : ابو عبدالله محمد بن محمد الحسني (ت ٥٦٠هـ)، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٦٨ .

١٥٦- نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك / ابن الدلائي: أبو العباس احمد بن عمر (ت ٤٧٨هـ) ، تحقيق عبدالعزيز الاهواني، (د . ن) ، مدريد ، ١٩٦٥ .

١٥٧- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب /المقري :احمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق احسان عباس ،دار صادر ، بيروت، ١٩٦٨.

١٥٨- نقد الشعر / قدامة بن جعفر : ابو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق كمال مصطفى ،ط ٢ ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

١٥٩- نهاية الارب في فنون الادب / النويري شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢ هـ) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (د. ت).

١٦٠- نوادر المخطوطات / تحقيق عبدالسلام هارون ، المجموعة الثالثة ،ط٢، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،القاهرة، ١٩٧٣ .

١٦١- هدية العارفين : اسماء المؤلفين وآثار المصنفين /اسماعيل باشا البغدادي ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٥١ .

١٦٢- الوافي بالوفيات /صلاح الدين صفدي : خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ)، ج٢،ج٣ باعتناء س . ديدرينج ، فسبادن ، ١٩٧٤ .

١٦٣- الوثائق السياسية والادارية في الاندلس وشمال افريقية : ٦٤ هـ - ٨٩٧هـ/ دراسة ونصوص / محمد ماهر حمادة ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ١٩٨٠ .

١٦٤- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان / ابن خلكان : ابوالعباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، (د. ن) .

١٦٥- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر / الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ) ، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ .

ثانيا : المراجع :

١٦٦- ابن بسام وكتابه الذخيرة / حسين خريوش ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٤ .

١٦٧- ابن حزم الاندلسي : حياته و أدبه / عبدالكريم خليفة ، مكتبة الاقصى ، المكتب الاسلامي ، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع (د . ن) .

١٦٨- ابن حزم الاندلسي ورسالة في المفاضلة بين الصحابة / سعيد الافغاني ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٩ .

١٦٩- ابن زيدون / شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط٧ ، ١٩٧٥ .

١٧٠- ابن زيدون / عصره وحياته وآدابه / علي عبدالعظيم ، (د.ن) القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٧١- ابن شهيد الاندلسي : حياته وآثاره ، شار بلا منشورات الجامعة الاردنية ، ١٩٦٥ .

١٧٢- ابن شهيد الاندلسي حياته وأدبه / حازم عبدالله خضر ، دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٤ .

١٧٣- ابو المطرف احمد بن عميره المخزومي : حياته وآثاره / محمد بن شريفة ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، ١٩٦٦ .

١٧٤- الادب الاندلسي في عصر الموحدين / حكمة علي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

١٧٥- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة / احمد هيكل ، ط ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٧٦- الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٧٧- الادب العربي في الاندلس / عبدالعزيز عتيق ، ط٢ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ .

١٧٨- الادب المقارن / محمد غنيمي هلال ، ط ٤ ، مكتبة الانجلوالمصرية القاهرة ، (د . ت) .

١٧٩- الاسلام في اسبانيا / لطفي عبدالبديع مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٨٠- الاسلام في المغرب والاندلس / بروفنسال : أ . ليفي ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، مراجعة لطفي عبدالبديع ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٦ .

١٨١- الاسلوب / احمد الشايب ،ط٦ ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦.

١٨٢- اشبيلية في القرن الخامس الهجري / صلاح خالص ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ .

١٨٣- الاعلام / خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، (د . ت) .

١٨٤- اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام / عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشمية دمشق ، ١٩٥٩ .

١٨٥- اوروبا العصور الوسطى : سعيد عبدالفتاح عاشور ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

١٨٦- ايام العرب في الجاهلية / محمد احمد جاد المولى بك ، على محمد البجاوي محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الفكر ، القاهرة (د . ت) .

١٨٧- بلاغة العرب في الاندلس / احمد ضيف ، ط١ ، مطبعة مصر القاهرة، ١٩٢٤.

١٨٨- بلاغة الكتاب في العصر العباسي / محمد نبيه حجاب ،المطبعة الفنية الحديثة ،القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٨٩- البيئة الاندلسية واثرها في الشعر / عصر ملوك الطوائف ، سعد اسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

١٩٠- تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبة / احسان عباس ، ط ٥ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٩١- تاريخ الادب الاندلسي : عصر الطوائف والمرابطين / احسان عباس ،ط ٥ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٩٢- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، ج٢، نقله الى العربية عبدالحليم النجار ،ط٢ ، دار المعارف بمصر (د . ت) .

١٩٣- تاريخ الادب العربي في الاندلس / ابراهيم علي ابو الخشب ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٩٤- تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين / يوسف اشباخ ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، ط ٢ ،مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٩٥- التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧ هـ) عبدالرحمن علي الحجي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ .

١٩٦- تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس : حسين مؤنس ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، ١٩٦٧ .

١٩٧- تاريخ الشعوب الاسلامية كارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥.

١٩٨- تاريخ العرب العام : ميدليو ل.م / ترجمة عادل زعيتر ، ط٢، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

١٩٩- تاريخ الفكر الاندلسي/ انخل جنثالث بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٠٠- تاريخ مسلمي اسبانيا : الحرب الاهلية / دوزي ، ترجمة حسن حبشي ، مراجعة جمال محرز ومختار العبادي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٢٠١- تاريخ النقد الادبي في الاندلس / محمد رضوان الداية ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٠٢- تراث الاسلام / شاخت و ووزورث ، ترجمة محمد زهير السمهوري ، تعليق وتحقيق شاكر مصطفى ، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت . ١٩٧٨ .

٢٠٣- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة / احمد زكي صفوت ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٢٠٤- الحركة اللغوية في الإندلس ، منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف / ألبير حبيب مطلق ، بيروت ، المكتبة العصرية ١٩٦٧ .

٢٠٥- الحياة العلمية في مدينة بلنسية الاسلامية / كريم عجيل حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٦ .

٢٠٦- دولة الاسلام في الاندلس / محمد عبدالله عنان ، ج١ ، ق٢ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٢٠٧- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي / محمد عبدالله عنان ، ط٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٢٠٨- الدولة العربية في اسبانيا : من الفتح حتى سقوط الخلافة / ابراهيم بيضون ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢٠٩- رحلة الاندلس / محمد لبيب البتنوني ، مطبعة الكشكول ، القاهرة ١٩٢٧

٢١٠- سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخه / ا . ليفي بروفنسال ، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، (د.ن) ، القاهرة ، ١٩٥١ .

٢١١- الشعر الاندلسي : بحث في تطوره وخصائصه / اميليو غيرسيه غومس ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٢١٢- الشعر في ظل بني عباد / محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان النجف ، ١٩٧٢ .

٢١٣- الفكاهة في الادب العربي : الى نهاية القرن الثالث الهجري/ فتحي محمد معوض أبو عيسى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٠ .

٢١٤- الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف ، ط٩ ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٦ .

٢١٥- الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف ، ط ، دار المعارف ، القاهرة ، .

٢١٦- في الادب الاندلسي / جودت الركابي ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ .

٢١٧- في تاريخ المغرب والاندلس / احمد مختار العبادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، (د.ت) .

٢١٨- في النقد الادبي / شوقي ضيف ، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٢١٩- قصة الحضارة / ول ديورانت :
- ج٢ م٤ ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، (د ٠ ت) ٠
- ج٣ م٤ ترجمة زكي نجيب محمد وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ٠

٢٢٠- مجاهد العامري : قائد الاسطول العربي في غربي البحر الابيض المتوسط في القرن الخامس الهجري / كليليا سار نيللي تشركو ، لجنة البيان العربي ، القاهرة، ١٩٦١ ٠

٢٢١- المرابطون : تاريخهم السياسي (٤٣٠ - ٥٣٩ هـ) / تأليف محمد عبدالهادي شعيرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٩ ٠

٢٢٢- ملامح الشعر الاندلسي / عمر الدقاق ،دار الشرق ،بيروت ، ١٩٧٥ ٠

٢٢٣- النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، دار الرشيد للنشر، بغداد ، ١٩٨١ ٠

٢٢٤- النثر الفني في القرن الرابع / زكي مبارك ، دار الجليل ،بيروت ، ١٩٧٥ ٠

٢٢٥- نقاط التطور في الادب العربي / علي شلق ، دار القلم ، بيروت ،١٩٧٥٠

٢٢٦- Geschichte der Arabischen Litteratur, C. Brockelmann, Sup.I, Leiden, Brill, 1937 .

٢٢٧- Les Manuscrits Arabes de L' Escurial/ Hartwig Derenbourg, Paris; 1884 - 1923 .

ثالثا : المقالات :

٢٢٨- " اخبار الغناء والمغنين في الاندلس (١٣٨ - ٥٣٩ هـ) / احسان عباس ، مجلة الابحاث ، الجامعة الامريكية ببيروت ، السنة السادسة عشرة ، الجزء الاول ، آذار ١٩٦٣ ، من ص ٣ - ٢٢ ٠

٢٢٩- " الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي" / الطرايبيسي احمد اعراب ، عالم الفكر ، وزارة الاعلام الكويتية ، المجلد الثاني عشر ، العدد الاول ، ١٩٨١ ، ص ١٣١ - ١٧٠ ٠

٢٣٠- "التشيع في الاندلس" / محمود مكي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد ، العدد الثاني ، ص ١٣٣ - ١٤٥ ٠

٢٣١- "مساهمة الافارقة في الحياة الثقافية بالاندلس في عصر الطوائف والمرابطين" / الشاذلي بو يحيى ، حوليات ، الجامعة التونسية، العدد العشرون ، ١٩٨١ ٠ ص ٧ - ٤١ ٠

٢٣٢- "المكتبـات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية" / خوليان ريبيريـا ، ترجمة جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الخامس الجزء الاول ، ١٩٥٩، ص ٦٩ - ١٠١ .

٢٣٣- " Al-Bashkunish," D.M.Dunlop,E.I.(2), Vol.1, Leiden, Brill, 1960.

٢٣٤- " Djillikiyya," A.Huici Miranda, E.I.(2), Vol.2, Leiden, Brill, 1965.

٢٣٥- " Ibn Hazm bibliographie et Panegyniste de l'Espagne Musulman, Charles Pellet, Al-Andalus, No.19,pp. 53-102, 1954.

ثانيا: فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

ثالثا : فهرس القبائل والطوائف والجماعات والأمم

(أ)

(ب)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

رابعا : فهرس الاماكـــــــــن والبلـــــــدان

(أ)

(ب)

(جـ)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

خامسا: فهـــــرس الموضوعـــــات

الموضـــــوع	الصفحـــة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحـــة